١٧١

الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا

متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء الحادي والعشرون

طبع بمطبعة

مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

وحقوق الطبع محفوظة

وباشر طبعه محمد أمين عمران

محرم سنة ١٣٥٠ هـ

إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الدخان

(هي مكية)

آياتها ٥٩ — نزلت بعد الزخرف

بسم الله الرحمن الرحيم

حم * والكتاب المبين * إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين * فيها
يفرق كل أمر حكيم * أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين * رحمة من ربك إنه هو
السميع العليم * رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * لا إله إلا
هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين * بل هم في شك يلعبون * فارتقب
يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم * ربنا اكشف عنا
العذاب إنا مؤمنون * أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين * ثم تولوا عنه
وقالوا معلم مجنون * إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون * يوم نبطش البطشة

الكبرى إنا منتقمون * ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم * أن أدوا
إلي عباد الله إني لكم رسول أمين * وأن لا تعلوا على الله إني ءاتيكم بسلطان مبين *
وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون * وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون * فدعا ربه أن
هؤلاء قوم مجرمون * فأسر بعبادي ليلا إنكم متبعون * واترك البحر رهوا إنهم
جند مغرقون * كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا
فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوما ءاخرين * فما بكت عليهم السماء والأرض
وما كانوا منظرين * ولقد نجينا بني إسراءيل من العذاب المهين * من فرعون إنه
كان عاليا من المسرفين * ولقد اخترناهم على علم على العالمين * وءاتيناهم من الآيات
ما فيه بلاء مبين * إن هؤلاء ليقولون * إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين *
فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين * أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم
إنهم كانوا مجرمين * وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين * ما خلقناهما
إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون * إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين * يوم
لا يغني مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون * إلا من رحم الله إنه هو العزيز
الرحيم * إن شجرت الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلي في البطون * كغلي
الحميم * خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم *
ذق إنك أنت العزيز الكريم * إن هذا ما كنتم به تمترون * إن المتقين في مقام
أمين * في جنات وعيون * يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين * كذلك
وزوجناهم بحور عين * يدعون فيها بكل فاكهة ءامنين * لا يذوقون فيها الموت
إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم * فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم *
فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون * فارتقب إنهم مرتقبون *

هذه السورة قسمان

﴿ القسم الأوّل ﴾ فى تفسير البسملة
﴿ القسم الثانى ﴾ فى تفسير السورة كلها

القسم الأول فى تفسير البسملة

حضر اليوم الثلاثاء (٩) من شهر ديسمبر سنة ١٩٣٠ صديق العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير فقال : لم يبق فى البسملة معنى إلا ظهر فى السور السابقة . فقلت : إن المعانى التى خطرت فى هذه البسملة أجلّ قدرا ، وأوسع مدى ، وأعظم ذخرا ، وانى قبل أن أذكرك فيها أسألك فى مقدّمتها وهو ما تقدم من آراء الحكماء شرقا وغربا فى آية « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » ، فان كنت ذاكرا لما تقدم هناك فلخصه الآن . فقال نعم :

إن بارتلمى سانتهلير (الذى ترجم علم الأخلاق لنيقوماخوس تأليف أرسطاطاليس من اليونانية الى الفرنسية ، وصدّره بمقدمة هامة فى علم الأخلاق ونقل أخيرا الى اللغة العربية) قد رتب علماء الأخلاق فجعل أرسطاطاليس الثالث وأفلاطون الأوّل والاستاذ كانت الألمانى الثانى ، وانما دعاه الى ذلك ما رآه كل من هؤلاء فى تأسيس علم الأخلاق وبنيان قواعده ، وهل قواعده التامّة وأساسه إلا أدلة اثبات صانع العالم ، أفلاطون أثبت أن لهذه العوالم ذاتا قدسية منها صدرت العوالم المعنوية والمثل التى سماها الناس أفلاطونية ، وهذه المثل هى الينابيع والاصول التى على نهجها وبواسطتها صدر هذا العالم المشاهد كما أن الحوادث على الأرض والمواليد حدثت بآثار الشمس ، فهنا عالم محسوس من آثار الشمس بفعل الله تعالى وهى القائمة بهداية الحيوان منه الى السبل فى الأرض ، وهناك عالم عقلى ثابت بثبات تلك الذات المقدّسة ، ونسبة عيوننا الى ضوء الشمس إذ ترى آثارها كنسبة عقولنا الى الهداية الواصلة من تلك الذات القدسية لندرك آثارها الدائمة والحقائق الثابتة كالجمال والعدل والصدق والشرف وكل ما هو بهىّ عجيب منزه عن المادة

هذا ملخص آراء أفلاطون ، ولقد تعقبه أرسطاطاليس بأن المعانى الكلية التى سميت (مثلا) لا وجود لها إلا فى أذهاننا ، والذى فى أذهاننا ناجم مما رأيناه فى المادة والصورة ، وما فى المادة والصورة من المعانى تجعله عقولنا كليات كالانسان والحيوان والجماد والحجر والشجر وهكذا ، فهذه أمور تصوّرتها عقولنا لا أمور لها وجود فى أنفسها وأطال فى ذلك ، فأما الاستاذ كانت الألمانى فانه أثبت الذات المقدسة بقانون الأخلاق إذ رأى أن الانسان عليه أن يكون نورا للناس نافعا لهم ، ولكن الجزاء على محاسن الأخلاق وفضائل الأعمال قلما يتمّ فى هذه الحياة . إذن لابد من بقاء الروح ودوامها ، ولابد من ذات قدسية تكافئ الروح على أفعالها الجميلة

هذه هى الآراء الثلاثة ، وهناك الرواقيون الذين حدثوا قبل الميلاد وبعد موت أرسطاطاليس ، فهؤلاء لهم طريقة فى علم الأخلاق تشبه طريقة الصوفية فى أمم الاسلام ، وحدثت فرقة تسمى الأفلاطونية الحديثة بعد الميلاد بقرنين ، وهذه سارت شوطا بعيدا فى العلم والحكمة وتطبيق المذاهب القديمة اليونانية ، ولقد أقرّ (بارتلمى) فى غير ما موضع أن علماء اليونان أثبت قدما فى علم الأخلاق ، وفى هذه الأدلة المتقدمة ، ولم يظهر فى أوروبا إلا الاستاذ (كانت) وحده ، وأن علماء اليونان لهم القدح المعلى الى الآن والسبق والفضل بالنسبة لهذا الموضوع ، ولقد لخص فلسفة اليونان الرسام الايطالى المشهور المسمى (روفائيل) فرسم فى الصورة التى جعلها تمثل مدرسة أثينا صورة سقراط رافعا يده الى السماء ، وأرسطاطاليس مشيرا بيده الى الأرض

هذا هو الذى تقدّم ، ولكنك أنت لما اطلعت على آراء الأمم فى (٢٥) قرنا فكرت فيها وقلت : اذا كان برهان أفلاطون هو آخر مايصل له العلم فى هذه الأمم فانى أعلن للملأ برهانا يكون أقرب الى أذهان الأمم وبسطت ذلك وشرحته من نفس جسم الانسان ، وأن الحواس منظمة من أسفل الى أعلى بحيث ترى حاسة اللمس أدناها ، وحاسة البصر أعلاها ، والعقل هو المدرك ، وهذا العقل فى الذروة العليا ، واذا كانت كل حاسة قد اتصلت بعالم يلائمها وكانت العين أشرف الحواس وأعلاها قد اتصلت بعالم النور الذى لانعرف له حدا وهو أوسع من عالم الهواء المعروف حدّه تقريبا ، فان المدرك الذى فوق مرتبتها وهو العقل متصل بعالم ألطف وأوسع من النور وهو عالم كله علم وجمال ، وعلى ذلك أصبح الانسان الآن يشهد تلك العوالم العقلية بعقله كما يشهد الخشن والناعم ، والثقيل والخفيف بيده ، وغاية الأمر أن الذين سموهم فلاسفة ماهم إلا أناس وضعوا فى درجاتهم فى الحياة ، فمن وقف عند المحسوسات بالحواس فهو رجل لم ترتق نفسه وقد غفل عن عقله والعالم الانسانى حائر تائه مقلد ، وكل امرئ يقلد من تصبو اليه نفسه ، فالعقول الصغيرة وأرباب الشهوات اذا سمعوا من يقول : « إن العقل افراز المخ كما تفرز الكبد الصفراء » ، يفرحون بهذا ويقولون وصلنا الى نهاية الحكمة ويسفهون آراء من هم أعلم منهم ، وقد غفلوا غفلة تامة عن الفرق بين الكبد والمخ ، فالمخ يدرك الكليات وهو يشرف على الحواس والحواس لها مخازن خارج الجسم تلائمها والعقل مخزنه أوسع وألطف كما تقدم ، وهذا المخزن هو عالم المعقولات الذى يستمدّ منه العقل معقولاته كما تستمد العين صور المرئيات ، وهذا برهان أوّل ، ولك برهان ثان وهو أنك قلت ان الأرض عجزت عن أن تأتى لحيوانها ونباتها بحرارة تثير الهواء فيصير رياحا ، وتثير البخار فيصير سحابا ، وهذان يتجهان الى الأرض فيكون الزرع والضرع والحيوان ، وعن أن تأتى للنبات وللحيوان بضوء يساعد فى إصلاح غذاء الأوّل وفى هداية الثانى الى مايحتاجه ولاجرم أن إثارة البخار والرياح واصلاح تغذية الحيوان وهدايته الى السعى فى الأرض أسهل مما فوق ذلك من هداية الحشرات وسائر الحيوان ومن علوم الانسان ومعارفه والرحمة التى تغرس فى الأم لترضع ولدها ومن إثارة الهمم وابراز الجمال فى العوالم ونقشه ورقشه ، فهذه المادة بعجزها عن أضعف القسمين وهو الحرارة والضوء برهنت على أنها أكثر عجزا وأشدّ ضعفا عن ابراز العقول الشريفة ، والعواطف الجميلة ، والنقوش البديعة ، واذن يكون جسم هذا الانسان فيه برهان يأتى من طريق قوانا العقلية ، وبرهان يأتى من طريق عواطفنا الشريفة وأخلاقنا ، فلكل منهما أصل استمدّ منه ، فعلومنا مستمدّة من علم أعلى وعواطفنا مستمدّة من آثار احسان ورحمة عامّة ، إذ لاسبيل لاسناد هذه العلوم وهذه العواطف والأخلاق الى هذه المادة العاجزة عن احداث أخسّ الأمرين ، فاذن هى عن أشرفهما أعجز

ثم قال صديقى العالم : هذا ماخطر لى فى تلخيص ذلك المقال فى تفسير قوله تعالى « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » فى سورة فصلت فلعلى وفقت الى تلخيصه تذكرة لمن قرأه وتبصرة لمن لم يقرأه فأرجو أن أسمع ماتريد من تفسير البسملة فى ﴿ سورة الدخان ﴾ الذى جعلته مرتبا على مالخصته الآن . فقلت : لقد أحسنت صنعا وأجدت تلخيصا ، والآن أقول : اننى فى ليلة الجمعة الماضية (٥ ديسمبر سنة ١٩٣١ م) فكرت فى معنى البسملة فى هذه السورة ، وهناك فرحت النفس فرحا كثيرا وابتهجت ابتهاجا تاما ، لأنها انتقلت من عالم المادة الى عالم الجمال ، وأخذت ترتقى الى عوالم عرفها العقل ببرهانه ، وأخذت تسعى حثيثا الى العلا وتحقر العوالم المادية التى قام البرهان على أنها أشبه بالخيال ، وأيقنت بأن صور العلوم والمعارف المخزونة فى عقولنا لها عوالم وراءها جميلة وكل نقش وبهجة وعلم ورحمة وكمال وجمال فى عوالمنا ان هو إلا آثار من ذلك الجمال ، وأخذ عقلى يفكر فى تلك العوالم الجميلة التى يستمدّ منها ويقول : ياعجبا ! إذن كانت محبتى للعلم وغرامى بالحكمة وشوقى الى تحصيلها أيام شبابى لها اتصال بحب أعلى ، إذن هذا الحب وراءه حبّ عام ،

وحب العلم الذى حدث فى نفسى وأبهج قلبى من أيام الشباب الى الآن مستمدّ من حب أعمّ وأعلى ، وهذه المعارف التى أعرفها مستمدّة من علوم بديعة وعواطفى من الشفقة والرحمة التى أحس بها فى نفسى مستندة الى رحمة أعمّ ، والجمال الذى أبهج قلبى حين أنظر فى النقوش والعجائب فى هذه الدنيا إن هو إلا أثر لجمال أرق ، واذا لم يكن كذلك فمن أين أتى حبى للعلم ، ولرقّ الانسانية ؟ ومن أين أتت عواطفى القليلة ، ورحمتى للضعفاء ، ولمن أعولهم ، أمن المادة التى أعلنت عجزها عن حرارة وضوء يقربان منها ولم تنلهما إلا من الأثير الذى تؤثر فيه الشمس باشراقها فتكون حرارة ويكون نور فى نفس الأثير ، فاذا كانت المادة استعارت هذين من الأثير الذى هو ألطف منها فماذا تفعل هذه المسكينة فيما هو أعلى من الحرارة ومن الضوء ، ثم قلت ان هذا البرهان الذى ظهر لى والكشف الذى كشف لى هذه الأيام هو يقينى والانسانية من قبلنا لم تتضح لها كما اتضح لها الآن ، فعلىّ إذن أن أتأمّل فى عقلى وفى عواطفى ، واذن أعجب من هذه النفس الجميلة الشريفة ذات العقل وذات العواطف وذات الحب ، ذلك الحب الذى هو أشرف مانالت نفسى ، ذلك الحب المفرح السارّ البهيج ، ذلك الحب الذى لايذر جمالا إلا علق به فى السماء وفى الأرض ولاعالما إلا أحبه على مقدار ماوصل الىّ من علمه ، ولامحسنا رحيما إلا أحبه على مقدار احسانه ، ولاشجاعا نافعا إلا أغرم بسماع أخباره ، هذا الحب الذى استمدّ من حب عام فوقه ، واذا كنت أنا مع ضعفى وحدوثى أجد حبى يشمل الصور الجميلة والعقول الشريفة ، والأخلاق الفاضلة عموما بهيئة عامة إجمالا ، ويشمل اليسير من ذلك العموم بهيئة خاصة تفصيلا فكيف بمن يعلم كل معلوم : إن حبه الذى من آثاره كان حبى يشمل كل عالم شمسى وقمرى وكوكبى وجميع المجرّات والسدم

هنالك صعد عقلى فوق المجرّات والسدم والسموات والنجوم وأخذ يلقى نظره على هذه العوالم ويقول : « لأكن هنا لأكن سعيدا لأفرح بهذا الكشف ، لأكن فى جوّ من النور وبحر من الرحمات وجمال وبهجة أمد الحياة ، لاموت وانما هو انتقال فلأُفرح به ، ما أجهل الانسانية ، انها ضعيفة ، الناس لاهون لايعلمون لماذا خلقوا ، هاهوذا البرهان ، فمن ذا ينقضه ، هاهى ذه الأجيال الانسانية قبلنا قد غاب عن أكثرها هذا الجمال ومن عرفه منهم كتمه ، فلأجدّ ولأجعل حياتى كلها جمالا ، وأجدّ فى منفعة الناس مادمت حيا اقتداء بتلك الذات المقدّسة التى قام البرهان اليقينى الذى لايدخله الشك على حبها العام ورحمتها وجمالها وقد أحست نفسى بذلك البرهان إحساسا لاتفتر عنه ، فأنا إذن سعيد ، وأىّ سعادة أكبر من اليقين ، بئست الحياة حياة الجهل ، ونعمت الحياة حياة العلم ، هذه هى الخواطر التى خطرت لى ليلة الجمعة المذكورة ، هذه هى السراء وأعقبها :

امتحان هذه النفس بالضرّاء

فى يوم الجمعة ، وفى ليلة السبت بعدها حدثت لى حادثتان : إحداهما منزلية ، والأخرى خارجية ، فالخارجية كانت يوم الجمعة ، والمنزلية كانت ليلة السبت ، ففى يوم الجمعة توجهت خارج القاهرة لأقابل الحادث الخارجى ، وفى ليلة السبت قابلنى حادث داخلى فى المنزل فاعترانى غمّ شديد ، وههنا أخذت أفكر فى هذه النفس وأبحث عن ذلك السرور والبهجة والجمال فأجد غما وهما ، فقلت أيتها النفس : ماذا حدث ؟ أرأيت البرهان المتقدم ناقصا ؟ قالت : كلا . قلت : أليس علمك وحبك ورحمتك كل ذلك آثار لرحمة وحب لذات مقدّسة بينك وبينها صلة ما وحب ما . قالت بلى . قلت : لماذا أرى البهجة قلت والسرور هنا فنوديت فى سرّى إن ذلك نعمة لانقمة ، لودام ذلك السرور لقتلك ، وهذه هى النظريات التى أنت تقولها فى التفسير كثيرا ، إن ذلك الجمال البديع أرق من أرواح أهل الأرض ، ومتى فتح على روح فتح ودام أمدا طويلا أهلكها فلابد من

الغم حتى تعتدل الروح ، وأخذت أسأل نفسى أراضية بهذا فوجدتها متمتعة بنعمة الرضا تمتعا حقيقيا وقلت فى نفسى : « إن هذا يراد به خير لى لاشر » وهذا الرضا أنا به موقن ، فأنا راض أن يكون هناك حجاب يحجبنى عن التفكر لأنى موقن بعد هذه المباحث العلمية أن ذلك كله لخيرى أنا ، فهو شر ظاهرا خير باطنا وهذا هو سر قوله ﷺ « وأن تؤمن بالقدر خيره وشره من الله » وسر آية « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى »

ولقد زارنى ليلة السبت أثناء الحادث المنزلى صديق جاء يسعى ليزورنى ؛ فأحس بذلك الحادث المنزلى ، فأخذ يأسف على أن يضيع وقتى فى أحوال تعكر صفوى ، فأسررت اليه انى فرح بهذا الحادث لأن هذا هو الاعتدال والنظام فلابد من مقوم يقوم هذه النفوس الأرضية و يعدلها ، واذا دامت مسراتى العلمية أهلكتنى فأنا الآن عندى مسرة معنوية ترجع الى الرضا الحقيقى اليقينى ، لأن رضا الانسان بالقضاء إما أن يكون عن تقليد إيمانى فحسب ، وهذا هو التسليم بلابرهان . واما أن يكون عن يقين و برهان ، وهذا هو الرضا الحقيقى فأنا الآن عندى الرضا الحقيقى ، ولكن لاأدرى هل هذه النفس فى حوادث أخرى يكون عندها هذا الرضا الحقيقى ، أم تكون واجة ؟ أنا لاعلم لى بالمستقبل فأكل أمرها الى الله

وما جاء يوم السبت حتى خرجت من القاهرة ضحى لأتوجه الى بلدة شبين القناطر لمعالجة الحادث الخارجى فى نزاع أثاره جار سوء فى الحقل ، فلما جلست فى العربة الجارية فى الطريق التى تسير بالكهرباء وهى مزدحمة ازدحاما تاما بالراكبين وتخترق المزارع حتى أحسست بأن هذه النفس قد بارحت هذا الجو وعرجت الى عالم السموات ، أنا جالس مع الناس وأحس بمن حولى وأحفظ قواى وموازنتى مع الراكبين ولكن سرعان مارأيت فى خيالى أن هناك سلما منصوبا بين السماء والأرض ، فأخذت روحى تعلوه درجة فدرجة حتى وصلت الى عالم السموات (كل هذا تخيلته وأنا فى اليقظة والناس حولى) ولما وصلت الى عوالم فوق هذه الطبقات الكوكبية ، خيل لى أن هناك عالما من النور بهيجا بديعا ، عجيب الألوان ، سريع التقلب جماله يسبى العقول ويحير الألباب ، فما قوس قزح ، وما الصور الجميلة فى أرضنا ، وما البدائع الأرضية ، وما الشموس والأقمار ، وما الكواكب ، هو فوقها جمالا وبهاء وحسنا ، ثم غادرت عالم الأنوار ، فألفيت نهرا متلاطم الأمواج ، صافى الماء ، سريع الجريان ، وعلى حافتيه قصور جميلات ، فيهن فتيات مارأت عينى أجمل منهن ، قد لبسن الحلى والحلل ، وازدن بأنواع الأحجار الكريمة ، والدر والمرجان والياقوت ، و بالجملة فنى عالم الأنوار ، وفى ذلك النهر ، وفى تلك القصور على حافتيه مايحير الألباب ويسبى العقول

هنالك حار لبى وأخذت أقول : ياليت شعرى ، ماهذا الخيال ؟ أنا فى العربة والركاب حولى ، فأين الثريا وأين الثرى ، هنالك خيل الى أن روحا لطيفة تمثلت لى بهيئة انسان مصنوع من النور جميل المحيا بهيج المنظر فسلم على وحيانى وهو باسم الثغر منشرح الصدر . فقال : لعلك فى حيرة مما رأيت . فقلت إى وربى انه لحق لقد جرت العادة أثناء هذا التفسير أن لايمر بخاطرى إلا مايناسب السورة التى يكون فيها التفسير ، فما هذه المناظر وأين هذه من تفسير البسملة فى سورة الدخان ، فتبسم ضاحكا وقال هى نفس التفسير . وهاأناذا أشرح ذلك المقام فهيابنا :

لقد ضاق صدرك جزعا فى هذين اليومين . فقلت نعم . فقال : وقد استحممت بالماء الحار وأتبعته بالماء البارد أمس واليوم فكان ذلك ملطفا لأحوال النفس لأن للجسم عليها تأثيرا . فقلت نعم . قال : وهاأنت ذا اليوم خيل لك سلم صعدت عليه حتى وصلت الى هذه المناظر البديعة . فقلت نعم . قال أتدرى ماهذا السلم . قلت لا قال : إن الجنين فى بطن أمه يخلق أولا بهيئة بويضة بسيطة ، ثم يصير ثانيا دودة وثالثا حلزونة ورابعا سمكة وخامسا ذبابة وسادسا قردا وسابعا انسانا ، ولايتوارى ذنبه إلا فى الصورة الانسانية

هذه درجات يتقلب فيها الجنين فى بطن أمه ، وهناك درجات أخرى وهى المدركات الست أعنى الحواس الخمس والعقل . إذن الانسان يقطع درجات فى ارتقاء جسمه ، ودرجات أخرى فى ارتقاء عقله ، وهذه الدرجات بقسميها قد مثلت لك الآن بهيئة سلالم عرجت عليها ، فأما الأنوار فهو العلم الذى منه استمددت علمك ، وأما هذا النهر الصافى فهو يمثل لك الرحمة العامة ، وأما هذه الحور المقصورات البديعات وماعليهن من الحلى والحلل ، ومافيهن من رقة وشعور وحب وطهارة فهن أولا مثال آخر للرحمة تجلت فى أخلاقهن ، وثانيا مثال لابداع الصنع واتقانه ، وثالثا هن يمثلن الحب بأجلى مظاهره . أنت قد اعتراك غم مضاعف وهذا الغم أشبه بقنطرة عرجت عليها روحك ، ألم تر أن هذه المثل لم تظهر لخيالك إلا بعد أن وقعت فى هذا الغم وما مثل ماتجلى لك الآن فى خيالك من الجمال إلا كمثل النوع الانسانى عند الموت ويوم القيامة فان ذوى العقول الكبيرة ، والنفوس العظيمة اذا دهمهم الموت ، أوأصابهم الفزع الأكبر يوم القيامة لايمر عليهم هذان الحادثان إلا كما مر عليك الحادثان المنزلى والخارجى أمس والبارحة فيتجلى لهم بعد الموت وفى يوم القيامة حقائق الأشياء ويكون الموت وتكون القيامة قنطرتين يمرون عليهما سراعا الى معرفة الحقائق لاأقل ولا أكثر كما أن هذين الحادثين أعقبهما هذا الخيال الذى أبرز لك المعانى المجردة التى عرفها عقلك بصور تمثيلية كما قال تعالى « فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا » . واذا كنت الساعة أخاطبك خطابا خياليا فان الحكيم عند موته وعند قيام الساعة تتلقاه الملائكة ويخاطب خطابا حقيقيا كما خاطبتك أنت خطابا خياليا وهذا قوله تعالى : « لايحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون »

وماهذان الحادثان لك بأول ماصادفك ، فانك ما ألفت كتابا ، ولا أبرزت حكمة إلا بعد حادث أزعجك فى هذه الحياة ، فهذه قاعدة مطردة . فقلت : حقا هو ذلك . فقال : انظر فى الامور الأربعة التى هى المقصود الحقيقى وهى العلم والرحمة والجمال والحب

هذه هى الاصول والينابيع التى يستمد منها كل مافى الأرض ومافى السماء . ولقد درست أنت آثار هذه الأربعة فى الأرض . إن قلبك يحب كل جمال ، وكل علم ، وكل حاذق ، فى علم أوصنعة ، ويحب كل محسن فى الأرض ، وماهذه إلا نزر يسير جدا من هذا العالم النورى المعبر عن العلم والنهر والحور المعبرات عن الرحمة والجمال واحكام الصنع والحب . فهذه الرحمات ، وهذه العلوم ، وهذه المحبات ، وهذا الجمال لاحد لها ولا نهاية . فاذا اتجه حبك لأهل الأرض كان محدودا . واذا اتجه لهذه المنابع كان الحب لاحد له والسعادة لانهاية لها ، وأين السعادة إلا فى الحب ، حب لعلم ، وحب لرحمة واحسان ، وحب لجمال ، وحب لاتقان ، وحب لنفس الحب العام الذى منه نبع كل حب فى الأرض كحب الأم وأنثى الطائر والأنعام للطفل والفرخ الصغير وفصيل الناقة . إن نفسك التى أدركت أن المادة (وقد عجزت عجزا تاما عن أن تكفل لما عليها حرارة ونورا ظاهرين) حرية أن تعجز عن إعطاء الأم وأنثى الطيور والناقة الغرام والهيام بالابن وبالفرخ وبالفصيل . إذن هذا الحب له منبع أعلى كما أن الحرارة لها منبع وهى الشمس

واذا كنتم يا أهل الأرض تعجبون بعلمائكم ومخترعيكم وقوادكم والمحافظين على أوطانكم وتفرحون بهم ويدهشكم جمال الصور الفاتن لعقولكم ، فكيف بكم اذا غادرتم هذا الجسم ، واطلعتم على هذه المنابع ورأيتم الحب العام بعيون تخلق لكم ، إنكم إذ ذاك تحسون بلذة نسبتها الى لذاتكم الآن كنسبة رحمة الناقة لفصيلها الى الرحمة التى عمت كل طير ، وكل حوت ، وكل دابة ، وكل كوكب ، وكل مجرة

فاذا لم تكن حياتكم فى الأرض لها هذا الأثر فانها تكون لهوا ولعبا ، وهذا قوله تعالى فى هذه السورة « وماخلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين ✲ ماخلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لايعلمون » والافلماذا هذه الأجرام العظيمة المتحركة ، ولماذا ترون الشمس والقمر يجريان حولكما ، وهل هذه النفوس

لاتعيش إلا أياما فى نفص ثم تعدم ، وأى لهو وأى لعب أعظم من هذا ، واذا كان أحدكم لايعمل عملا إلا لغاية فما الغاية لاحداث نفوس لاعمل لها إلا أن تعدم ، وحياتها ماهى إلا لهو ولعب ، إذن لابد من حال أخرى تتجلى فيها العلوم والرحمات والجمال والحب . يقول الله فى سورة الرعد « وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى » . أكل هذا للهو واللعب وأنتم تعملون لغايات ، وعملكم مبنى على علمكم وعلمكم نابع من عالم الأنوار التى رأيتها الآن ، فهل تجدون فى أعمالكم الصغيرة والله يلعب فى أعماله الهائلة بشموسه وأقماره ومجراته وسدمه وكواكبه وسياراته وأراضيه . ولذلك قال تعالى : « يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » فهذا كله لأجل الايقان . أما الايمان فليس فى حاجة الى كثير عناء . فما هو إلا أن يظهر للناس صادق ذومعجزة فيصدّقونه وانتهى الأمر . وهذا الذى قلته لك الآن يجمع أطراف سورة الدخان فانه ذكر السموات والأرض ومابينهما فى أول السورة وانه ربهما . وأعاد الكرة عليهما فى القسم الثانى منها . وأخبر انه ليس لاعبا فى خلقهما . وذكر العذاب الذى يغشى الناس يوم تأتى السماء بدخان مبين كالذى حصل فى الحرب الكبرى ويوم القيامة . وذكر البطشة الكبرى . وهذان يدخل فيهما كل حادث عظيم للناس أوللفرد . والذى اتفق لك هذين اليومين مثل صغير لهذه الأحوال كلها فى الدنيا والآخرة وذكر قوم فرعون واغراقهم وأن السماء والأرض لم تبكيا عليهم لأن عقولهم لم تتفطن لماذا خلقت هذه العوالم . ولكن الحكيم يفطن لما ذا خلقت هذه العوالم ؟ ولماذا خلق هو ؟ فهذا لفطنته وعلمه بهذه العوالم فى حكم من تبكيه السموات والارض اذا فارقهما فهو يحب النظر فيهما . وكأنهما محبوبان . وكان أحباءه يبكون عليه عند الفراق . وما هذا كله إلا كناية عن انه عرف وأيقن . وذكر النار والجنة . والأولى لمن عقولهم ونفوسهم لاتزال جامدة خامدة . والثانية لتلك النفوس التى أدركت الحقائق واشرأبت الى العلا

فهذا معنى قولى لك : إن ماخطر لك هو نفس تفسير البسملة فى ﴿ سورة الدخان ﴾ وقد أحاط بآياتها . أكفاك هذا ؟ فقلت كفانى . وما كدت أنطق بهذه الجملة حتى غاب عنى الخيال . فأبصرت القوم حولى جالسين فى السيارة تجوب الارض جوبا . ورأيت انى وصلت الى بلدة شبين القناطر . وكأننى كنت فى عالم غير عالمنا

وهنالك أخذت أعالج المشاكل الخارجية . فرأيت هناك معنى قوله تعالى « نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » وكما كنت فى السيارة مع الراكبين قد تجلى لى العلم والحكمة ، هكذا لما وصلت الى مكان الحاجة رأيت تسهيلا جيلا وقبولا وقضاء حاجة . فقلت : هذا معنى قوله تعالى « نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » فكما أسعفت فى الطريق باتمام العلم فى تفسير البسملة أسعفت بقضاء حاجتى ليكون العلم والعمل تفسيرا للرحمة العامة أوّلا وللرحمة الخاصة المذكورة فى آية : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألاتخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون »

فقال صاحبى : ما أجمل هذا المنظر . وما أحسن هذا الجمال . سلالم صاعدات الى العلا وفوقها مقام رفيع تتجلى فيه المعارف والجمال والحب فلوانك رسمت له شكلا يدل عليه لكان ذلك أجمل بهجة وأحسن منظرا فقلت انظر الرسم الآتى فى الصفحة التالية

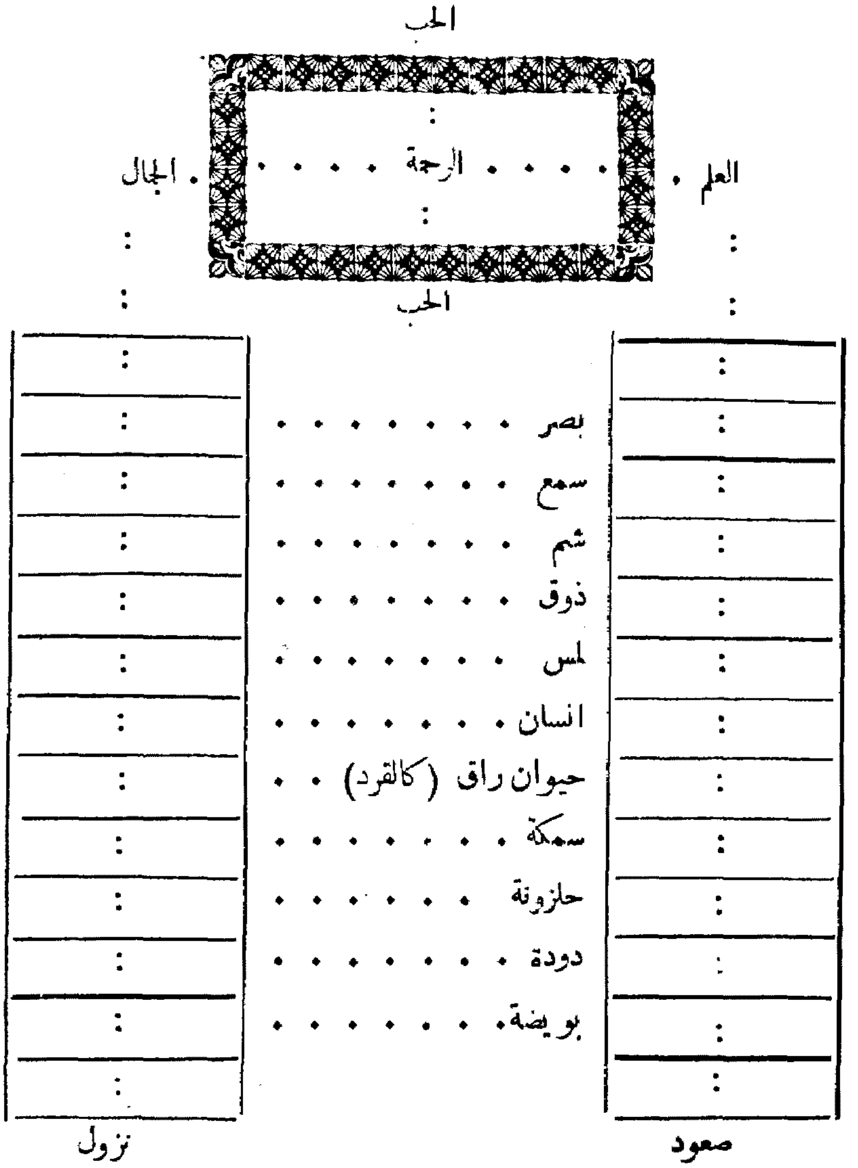

فلما اطلع صاحبي على هذا الشكل وايضاحه . قال : أريد أن تضرب لى مثلا لهـذا الموضوع كله بحيث يكون مشاهدا . فقلت : انظر حشرة أبى دقيق الطاووسى (شكل ١ فى الصحيفة التالية)

أليس الجمال فى المنظر ودقة الصنع فى إحسانه واتقانه ناجمة من العلم ، أوليست الحشرة فى هيئة سعيدة بالرحمة وهى ذات رحمة لنظام بيضها وهى تحافظ على ذرّية لن تراها ، فهاتان رحمتان : رحمة لها هى ، ورحمة منها لذرّيتها المستقبلة المخبوءة فى بيضها علمت أم لم تعلم ، فقد ظهر الجمال فى النقش والعلم فى النبات الظاهر والباطن ، والرحمة واصلة لها ولذرّيتها ، وهل يكون هذا إلا بحبّ من العالم الأعلى ، وهذا كله يورث قلوبنا حبا لمسدى هذه النعم وأن حشرة أبى دقيق هنا رمز للعالم كله ، ففيه الجمال والاتقان والرحمة ، وهو يهيجنا للحب ، وحبنا هو نهاية السعادة ، أنا لا أفهم للسعادة معنى إلا الحب ، والحب هو السعادة ، والسعادة هى الحب

ههنا قال لى صديقى العالم : ها أنا ذا عرفت الجمال بهذا الشكل ، فأرجو ايضاح هذه الدرجات فى أصل الموضوع فى السلالم . فقلت : أما السلم الذى على يمينك فانه يرينا ارتقاء الجنين أوّلا فارتقاء العقول ثانيا ، فاذا وصل الانسان الى المستوى الذى يتصل فيه بالعلم والرحمة والجمال مثل كثير من قرّاء هذا التفسير ، فانه إذ ذاك تكون روحه نورا مشرقا يفيض على النوع الانسانى مآثر وعلوما واحسانا وحبا كما ترى فى السلم الذى

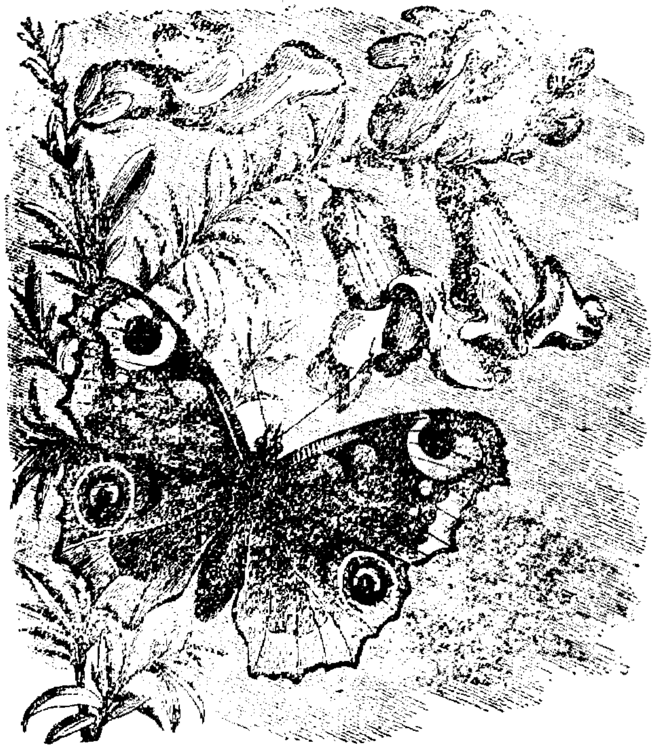

(شكل ١ — حشرة أبى دقيق الطاووسى)

على اليسار، فكما ارتقى من أدنى الى أعلى كما فى السلم الذى على اليمين هكذا هو يلقى أشعة أنواره ورحماته وعلومه وجماله على اخوانه من النوع الانسانى مبتدئا بأعلاه لأنهم اليه أقرب ، وكل طبقة تعطى ماتحتها

هذا هوالانسان الذى جعله الله خليفة فى الأرض يسوس عباده ويخلف صانع العالم فى اسعاد خلقه وتعليمهم وتربيتهم ونشوئهم وارتقائهم

فقال صديقى : وهل هذا الذى وصفته يخاطب الملائكة و يتصل بالملأ الأعلى عيانا ؟ أم ذلك يكون بمجرّد العقل والفكر ؟ فقلت : ان الذى وصفته الآن انما هوالانسان المفكر الذى يرقى بما يلهمه الله من الفكر والعلم ، أما أولئك الذين يكلمون الملائكة ويحادثونهم فليس كلامى فيهم لأننا الآن نجدّ فى أن نتعلم لا أن نتكل على غيرنا ، وهذا التفسير جاء لتربية الانسانية المحمدية . أما ذلك الذى وصفته فأمر آخر ، ألاترى أن فى العالم الانسانى أناسا يخلقون على صفات كاملة بفطرتهم ، ولهم اتصال بتلك العوالم الشريفة ، وآخرين دونهم فى المنزلة وهم متصلون أيضا ، ونحن لانشرئبّ الى تلك المنزلة ، فان المفتوح عليهم من طريق الولاية وقد اتصلوا بالعوالم العلوية على خطر عظيم كما يقوله الشيخ الدباغ والشيخ الخوّاص إذ يجزمون بأن مانحن عليه من الحجاب مع البحث العقلى أهدى سبيلا وأقوم قيلا ، أما الذين كشف عنهم الحجاب فهم دائما فى خطرعظيم ، لأن نفوس الناس فى هذه الأرض جاءت لتتربى فيها لا أنها تتمتع بتلك الذات العالية فى زمان هى أحوج الى العروج فيه بالتربية والعبادة والخدمة والمجاهدة . فقال : أرجو أن تصف لى أولئك الذين فطروا على الكمال والذين هم دونهم ليتمّ القول فى هذا المقام . فقلت : اسمع ماجاء فى « كتاب الابريز » فى صحيفة ١٤١ وما بعدها وهذا نصه :

« إن النبوّة والولاية وان اشتركتا فى أن كلا منهما نور وسرّ من أسرار الله عزّ وجل ، فنور النبوّة مباين لنورالولاية ، ومابه المباينة لايدرك على الحقيقة إلا بالكشف . غيرأن نورالنبوّة أصلى ذاتى حقيقى مخلوق مع الذات فى أصل نشأتها ولذا كان النبىّ معصوما فى كل أحواله ، ونورالولاية بخلاف ذلك ، فان المفتوح

عليه اذا نظر الى ذات من سيصير وليا يرى ذاتا كسائر الذوات ، واذا نظر الى ذات من سيصير نبيا رأى نور النبوّة فى ذاته سابقا ورأى تلك الذوات مطبوعة على أجزاء النبوّة السابقة التى سبقت فى حديث « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » فيكون صاحبها مطبوعا على قول الحق ولوكان مرّا ، وعلى الصبر الذى لايحس معه بألم ولاتكون معه كلفة ، وعلى الرحمة الكاملة ، وعلى معرفة الله عزوجل على الوجه الذى ينبغى أن تكون المعرفة عليه ، وعلى الخوف التام منه عزّوجل خوفا يمتزج فيه الخوف الباطنى بالخوف الظاهرى حتى يدوم له الخوف فى سائر أحواله ، وعلى بغض الباطل بغضا دائما ، وعلى العفو الكامل حتى يصل من قطعه و ينفع من ضرّه » فهذه هى خصال النبوّة وأجزاؤها السبعة التى تطبع عليها ذات النبيّ قبل الفتح و بعده ، وأما ذات الولىّ فانها قبل الفتح من جملة الذوات ليس فيها شيء زائد ، فاذا فتح عليها جاءتها الأنوار فأنوارها عارضة ، ولذا كان الولىّ غير معصوم قبل الفتح و بعده ، وأما ماذكروه فى الفرق بين النبيّ والولىّ من نزول الملك وعدمه فليس بصحيح لأن المفتوح عليه سواء كان نبيا أو وليا لابد أن يشاهد الملائكة بذواتهم على ماهم عليه ، و يخاطبهم و يخاطبونه ، وكل من قال : « ان الولىّ لايشاهد الملك ولا يكلمه » فذاك دليل على انه غير مفتوح عليه . قلت : وكذا قال الحاتمى رحمه الله فى الفتوحات المكية فى الباب الرابع والستين وثلثمائة غلط جماعة من أصحابنا منهم الامام ابو حامد محمد الغزالى فى قولهم فى الفرق بين النبي والولى « ان النبي ينزل عليه الملك ، والولى يلهم ولاينزل عليه الملك » . قال : والصواب أن الفرق فيماينزل به الملك فالولىّ اذا نزل عليه الملك فقد يأمره بالاتباع ، وقد يخبره بصحة حديث ضعفه العلماء ، وقد ينزل عليه بالبشرى من الله وانه من أهل السعادة والأمان كما قال تعالى : « لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » . قال : وسبب غلط هؤلاء ظنهم انهم عمموا طرق الله بسلوكهم بحيث لما لم ينزل عليهم ملك ظنوا انه لم ينزل على غيرهم ولاينزل أصلا على ولىّ ولوسمعوا من ثقة نزوله على ولىّ لرجعوا عن قولهم لأنهم يصدّقون بكرامات الأولياء وقد رجع لقولى جماعة كانوا يعتقدون خلافه . انتهى ملخصا من كتاب الابريز

هاأناذا أيها الذكىّ أوفيت لك المقام بقدرطاقتى ، ووصلت معك الى مقام الرحمة والعلم والجمال والحب التى يغترف منها أهل العقول والذين يوحى اليهم . فقال : الله أكبر . جلّ الله . إذن نحن الآن نمتع بمعرفة الطرق الفكرية ، ووصف طرق الوحى والالهام . إذن هذا التفسير أشبه بسوق الصور الذى تعرض فيه الصور يوم القيامة وكل يلبس مايشاء منها . فقلت له : أنا أحمد الله عزّوجل على نعمة العلم والهداية الى طرق الكمال والى هنا تمّ الكلام على تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الخميس ١١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ م

مقاصد هذه السورة

(١) إنزال القرآن ، والدلالة على التوحيد

(٢) الانذار بالعذاب فى الدنيا والآخرة للمكذبين

(٣) ذكر قوم فرعون وهلاكهم

(٤) ذكر اختيار الله لبنى اسرائيل : رجوع الى العرب الذين فى زمن النبيّ ﷺ وموازنتهم بقوم تبع (بتشديد الباء) وأن أولئك مع عظم بطشهم هلكوا فكيف بهؤلاء معرّة شأنهم بالنسبة لأولئك

(٥) الاستدلال على البعث بدليل عقلى ، فيقال : « اذا لم يكن هناك بعث فهذا العالم لغو لافائدة منه »

(٦) وصف عذاب جهنم يوم القيامة

(٧) وصف النعيم فى الجنة

(٨) انتظار العاقبة لمن تكون ، ألرسول ، أم للمكذبين

﴿ التفسير اللفظي ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

(حم) تقدم الكلام عليها فى السور السابقة (والكتاب المبين) أى المبين ما يحتاج اليه الناس من حلال وحرام وغير ذلك ، وهذا قسم جوابه قوله (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) أى أنزلنا القرآن فى ليلة القدر بأن بدأنا إنزاله فيها ، ثم أنزل بعد ذلك نجوما فى عشرين سنة ، وإنما كانت مباركة لبركة ما نزل فيها من القرآن ولأنها يستجاب فيها الدعاء ، وتنزل فيها الملائكة والرحمة ، وهى ليلة مجهولة ، وأكثر الأقوال انها فى شهر رمضان ، ثم استأنف بذكر جملتين تبينان المقتضى للانزال . فقال : (إنا كنا منذرين ☆ فيها يفرق كل أمر حكيم) يقول إنما أنزلنا القرآن لأن من عادتنا الانذار بالعقاب حتى يخاف الناس بطشنا ، وإنما خصصنا بهذه الليلة لأن انزال القرآن من الامور ذات الحكمة ، وهذه الليلة فيها يفصل كل أمر محكم ، ففيها تكتب أرزاق العباد وآجالهم وأعمالهم فتعرف الى ليلة القدر التالية ، ولما كان القرآن أهم الامور المحكمة أنزلناه فيها . ثم قال أعنى بهذا الأمر (أمرا) حاصلا (من عندنا) كما اقتضاه علمنا وتدبيرنا ، يريد بذلك أن هذه الامور التى تكتب فى صحائف الملائكة ليلة القدر هى التى اقتضاها علمه القديم ، وحكمته الواسعة ، وعنايته الشاملة ، إذن هذه الامور التى تفرق فى تلك الليلة شأنها عظيم . ثم قال : وإنما يفرق فيها كل أمر حكيم من عندنا لأننا من شأننا ارسال رحمتنا ، ولا جرم أن فصل الامور ونظمها وتحديدها رحمة من الله تعالى وهذا قوله (إنا كنا مرسلين ☆ رحمة من ربك) وفى ذكر الرب تبيان مناط الرحمة ، فهى رحمة من المربى ، والمربى لا يعطى إلا بقدر كما يفعل بلبن الأم ، وكما يعطى المعلم تلميذه على مقدار استعداده ، فتبيان الأرزاق والأحوال وانزال القرآن فى أوقات خاصة . كل هذا رحمة مصحوبة بالتربية ، والرحمة متى قيدت بالتربية كانت تامة بخلاف الرحمة المهملة بلا انتظام فانها ضائعة ، هذا معنى ذكر الرب ، وإنما أضاف الرب اليه اشارة الى انه يربيك ، وعلى ذلك تكون أعماله ﷺ ستكون بنظام وحكمة ، ورحمته مصحوبة بتربية الأمة (انه هو السميع) لأقوال العباد (العليم) بأحوالهم (رب السموات والأرض وما بينهما) بدل من ربك (ان كنتم موقنين) أى ان كنتم من أهل الايقان فاعلموا ذلك (لا إله إلا هو) إذ لا خالق سواه (يحيى ويميت) هو (ربكم ورب آبائكم الأولين) وقرئ الوصفان بالجر على البدل أيضا (بل هم فى شك يلعبون) أى انهم ليسوا موقنين لما ارتطموا فيه من الشك واللعب (فارتقب) فانتظر (يوم تأتى السماء بدخان مبين) (١) يوم شدة ومجاعة فتقل الأمطار ولقلتها يظلم الهواء ويكثر الغبار (٢) أو يأتى شر غالب يعبر عنه العرب بلفظ دخان (٣) أو ان الجائع يخيل له أن بينه وبين السماء دخانا ، ولقد قحط العرب حتى أكلوا جيف الكلاب وعظامها (٤) أو هو دخان يجىء قبل قيام الساعة ولم يأت سابقا ، وقد جاء فى الحرب الكبرى التى بدئت سنة ١٩١٤ ميلادية فان الدخان كان فيها من أعظم الآلات الحربية ، وقد اخترعه الألمان وصار سنة وعادة ثابتة حربية ، فيكون الدخان عند العرب الأولين قحطا ، وعند المسلمين الحاليين حربا وهلا كا كما سيأتى إيضاحه ، فارتقب الدخان العرب ثم البطشة الكبرى يوم بدر ، وينتظر المسلمون اليوم حوادث كبرى ، فان لم يرجعوا عن جهلهم ونزغاتهم الجاهلية هلكوا ، وقوله (يغشى الناس) أى يحيط بهم وهو صفة لدخان ، وهو منطبق على دخان الحرب الماضية ، فان الدخان يدخل الخنادق ، ويحيط بالمحاربين من كل جانب ، ويكون قطعا مظلمة عظيمة كالسحب العظيمة تحيط بالناس حال كونهم قائلين (هذا عذاب أليم ☆ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) أى سنؤمن ان تكشف عنا العذاب ، وهذه عادة الناس انهم اذا وقعوا فى شدة أيا كانت يعدون بالتوبة والرجوع عما هم فيه ، ولكن

الأخلاق الثابتة والملكات المتمكنة تمنع أصحابها من فعل الخير ، ولذلك قال : (أنى لهم الذكرى وقدجاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون) أى كيف يذكرون ويتعظون ويفون بما وعدوه من الايمان عند كشف العذاب وقد جاءهم ماهوكاف فى رجوعهم الى الصواب فلم يرجعوا إذ أرسلنا اليهم رسولا أتى بالمعجزات فلم يؤمنوا ، يقول : التوبة إما أن تكون بما ينال الناس من النوائب ، واما أن تكون بما يتضح لهم من الحقائق ، وهؤلاء قد اتضحت لهم الحقائق فلم يفقهوا فأخذنا نعاقبهم ، وكيف يرجعون بالعقاب وقد ذكرناهم بالآيات وظهور الحقائق التى هى فى مجموعها أنجع أثرا من العقاب ، فأعرضوا عنها ، وقال بعضهم انما يعلمه غلام أعجمى لبعض ثقيف ، وقال آخرون : انه مجنون تلقى اليه الجن هذه الكلمات حال مايعرض له الغشى . هذه أحوال هؤلاء الكافرين ومع ذلك نكشف عنهم العذاب قليلا (إنا كاشفو العذاب) كشفا (قليلا انكم عائدون) الى الكفر الذى كنتم فيه لما غلب على طباعكم ، ولما كان العذاب القليل لم يؤثر والاصلاح بالعلم والايمان لم يفد أمهلنا كم الى يوم البطشة الكبرى حيث لاتوبة بعدها فننتقم (يوم نبطش البطشة الكبرى) يوم القيامة أو يوم بدر (إنا منتقمون) أى ننتقم منهم فى ذلك اليوم .

الاعتبار بأمر فرعون

وقياس أمر هؤلاء على أمره ، وقد تم ذلك كله

قال تعالى (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون) امتحناهم بارسال موسى ، وتوسعة الرزق عليهم ، وامهالهم كما امتحنا هؤلاء بارسال النبى ﷺ (وجاءهم رسول كريم) على الله وفى نفسه (أن) بمعنى أى المفسرة (أدوا الى عباد الله) أى سلموا الى عباد الله وهم بنو اسرائيل ولاتبقوهم فى الذل والمهانة كقوله «أرسل معنا بنى اسرائيل ولاتعذبهم» (إنى لكم رسول أمين) على رسالتى غير متهم (وأن) هى كالأولى (لاتعلوا على الله) أى لاتستكبروا على الله بالاستهانة برسوله ووحيه (انى آتيكم بسلطان مبين) بحجة واضحة تدل على أنى نبى (وانى عذت بربى وربكم أن ترجمون) أى التجأت اليه وتوكلت عليه ان تشتمون وتقولوا هذا ساحر أوترجونى بالحجارة ، والمعنى انه عائذ بربه متكل على انه يعصمه منهم ومن كيدهم ، فهوغيرمبال بما كانوا يتوعدونه به من الرجم والقتل والأذى (وان لم تؤمنوا لى فاعتزلون) فكونوا بمعزل منى لاعلى ولالى واعتزلوا أذاى باليد واللسان ، ومع هذا كله لم يؤمنوا (فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون) كما جاء فى آخر السورة السابقة «وقيله يارب ان هؤلاء قوم لايؤمنون» فجاءت هذه السورة لبيان نتيجة القيل هناك ، فاذا قال هنا «أن هؤلاء قوم مجرمون» فهوتعريض بالدعاء عليهم بذكرمايوجبه وهوالاجرام ، فهكذا فى السورة السابقة عدم الايمان سبب للدعاء ، ثم قال : «فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون» * ولما ذكر هنا أمر قوم فرعون ودعاء نبيهم عليهم سيعقبه بذكر النتيجة ليكون تبيانا لعاقبة أولئك ، فهذه من المناسبة بين السورتين ، فقال الله ان كان الأمركذلك (فأسر بعبادى ليلا انكم متبعون) سيتبعكم فرعون وجنوده (واترك البحر) اذا قطعته أنت وأصحابك (رهوا) ساكنا فاتركه على حاله حتى يدخله فرعون وقومه ، يقال ان موسى لما قطع البحر رجع ليضرب بعصاه ليلتئم وخاف أن يتبعه فرعون بجنوده فقال لموسى اترك البحر كما هو حتى يدخلوه (إنهم قوم مغرقون) فأخبر موسى بغرقهم ليطمئن قلبه فى ترك البحر كما هو (كم تركوا) بعد الغرق (من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم) مجلس شريف حسن (ونعمة) وعيش لين رغد (كانوا فيها) فى تلك النعمة (فاكهين) أى ناعمين (كذلك) أفعل بمن عصانى من عبادى (وأورثناها قوما آخرين) عطف على تركوا ، المراد أن قوما غير بنى اسرائيل دخلوا مصر ، وذلك انه بعد هذا التاريخ تغلب على مصر الآشوريون والبابليون تارة ، والحبش مرة أخرى ، والفرس مدة ، واليونان

آونة ، والرومان أخيرا ، ثم أمة العرب ، ثم الطولونيون ، والاخشيديون ، والفاطميون ، والمماليك البرية والبحرية ، والترك ، والفرنسيون ، والانجليز ، وهانحن أولاء الآن فى مصر نجاهد فى خروجهم منها ، أما بنواسرائيل فلم يتغلبوا عليها (فما بكت عليهم السماء والأرض) مجاز عن عدم الاكتراث ، وهذا التعبير يكثر ذكره فى كلام العرب فيقولون : « بكت عليهم السماء ، وكسفت لهلكهم الشمس » كما قال الشاعر يرثى عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى :

الشمس طالعة ليست بكاسفة ☆ تبكى عليك نجوم الليل والقمرا

ويروى فى الأخبار أن المؤمن يبكى عليه مصلاه ، ومحل عبادته ، ومصعد عمله ، ومهبط رزقه ، فأما هؤلاء فلا بكاء عليهم ، والمعنى ما علمت وهو الاكتراث وعدمه (وما كانوا منظرين) ممهلين وقتا (ولقد نجينا بنى اسرائيل من العذاب المهين . من) استعباد (فرعون) وقتله أبناءهم (إنه كان عاليا) جبارا متكبرا (من المسرفين) فى العتو (ولقد اخترناهم) بنى اسرائيل (على علم) علمه الله تعالى فيهم (على العالمين) عالمى زمانهم (وآتيناهم من الآيات مافيه بلاء مبين) نعمة بينة كفلق البحر ، وتظليل الغمام ، وانزال المن والسلوى الخ أو الرخاء والشدة .

رجوع الى مشركى مكة

قال الله تعالى (إن هؤلاء ليقولون إن هى إلا موتتنا الأولى) أى لاموتة إلا هذه التى نموتها فى الدنيا (ومانحن بمنشرين) بمبعوثين بعد موتنا (فأتوا بآبائنا) خطاب لمن وعدهم بالنشور وهم النبى والمؤمنون (إن كنتم صادقين) أنا نبعث أحياء بعد الموت ، فقد طلبوا من النبى ﷺ أن يحيى لهم قصى بن كلاب

تخويف مشركى مكة بأن قوم تبع (بتشديد الباء) أقوى منهم فهلكوا لما كفروا

قال تعالى (أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم) كعاد وثمود ، كأنه قيل ماحالهم ؟ فقال : (أهلكناهم انهم كانوا مجرمين) واعلم أن ملوك حمير (بكسر الحاء وسكون الميم) طبقتان : الطبقة الأولى ملوك سبأ وريدان من سنة ١١٥ قبل الميلاد الى سنة ٢٧٥ بعد الميلاد ، والطبقة الثانية ملوك سبأ وريدان وحضرموت والشحر وغيرهما من سنة ٢٧٥ بعد الميلاد الى سنة ٥٢٥ بعد الميلاد أولهم شمر يرعش وآخرهم ذونواس ثم ذوجدن ، وهذا لم يحكم ، ومنهم ذوالقرنين أوافريقش وهو الثانى من ملوكهم يسمى الصعب ، وبعده عمرو زوج بلقيس وتسمى الفارعة ، ثم الهدهاد أخوها ، ثم ملكيكرب ، ثم أبوكرب أسعد ابنه ، ثم حسان بن سعد ، ثم شرحبيل ، ثم شرحبيل ينوف ، ثم معدى كرب ينعم وابنه ، ثم مرثد ، ثم ذونواس

هؤلاء هم الذين ثبتوا فى العصر الحاضر فى الآثار والنقوش القديمة ، وهؤلاء هم التبابعة جمع تبع ، وهذا اللقب أشبه بفرعون عند المصريين ، ويشترط لتبع أن يملك الشحر وحضرموت . وأما الطبقة الأولى فتسمى دولة سبأ وقبلها دولة معين ، وهذه الأخيرة لم تكن معروفة فى كتب أسلافنا ، واعلم أن الذين اشتهروا من هؤلاء الملوك فى كتب أجدادنا ثلاثة وهم : شمر يرعش ، وذوالقرنين افريقش «الصعب» ، وأسعد أبوكرب ، فذكروا فى الأول انه دخل العراق وفارس وخراسان والصغد وراء جيحون فقالت العجم (شمركند) أى شمرخرب ، وبنى مدينة هناك سميت باسمه ، وعربها العرب فصارت «سمرقند» وملك بلاد الروم ، وهذه الروايات مبالغ فيها ، ولامانع من صحتها ، ولكن يعوزها تقوية الآثار لها وكتب الأمم المعاصرة لهم ، وذكروا فى الثانى انه فاتح بلاد المغرب «افريقية» وهو الذى نقل قبائل العرب اليها ، وهذه أيضا مبالغ فيها وربما صح بعضها ، وذكروا فى الثالث انه غزا أذربيجان ولقى الترك وهزمهم وقتل وسبى ، ثم رجع الى اليمن ، وهادته ملوك الهند ، ثم رجع لغزو الترك ، وبعث ابنه حسانا الى الصغد ، وابنه يعفر الى الروم ، وابن

أخيه شمر الملقب بذى الجناح الى الفرس ، وأن شمرا لقى ملك الفرس فهزمه ، وهكذا ملك سمرقند ، وجاز الى الصين فوجد أخاه حسانا قد سبقه اليها ، فانتصرا ورجعا بالغنائم ، و بعث ابنه يعفر الى القسطنطينية ، نخضعوا له ، ثم سار الى رومه وحصرها ، ووقع الطاعون فى عسكره ، فهجم عليهم الروم ولم يفلت منهم أحد ثم رجع الى اليمن ، وزعموا انه ترك فى بلاد الصين قوما من حمير وانهم بها لهذا العهد اه

وأنت خبير أن هذه أقاصيص خيالية ، وانما ذكرتها لتقف على ما كتب ، وانما الآية فى قوم تبع ولم تخص واحدا من هؤلاء ، يقول الله : أهؤلاء أهل مكة الذين لاملك لهم ولاسلطان ولا دولة خير أم قوم تبع الذين هم أقوى ملوك اليمن ، وهم أقرب الى زمانكم ، وأخبارهم أقرب اليكم لاسيما مع المبالغات التى تروى عندكم وقد عرفتها ، فهؤلاء أهلكناهم ، فكيف بكم أنتم أيها الضعفاء بالنسبة لهم ، هذا هو مغزى القرآن الذى يفتح لنا باب التاريخ فى غضون المواعظ ليكون المسلم ملما بالأحوال ، عارفا بالأخبار ، يقظا فى جميع الأعصار ، فلتقرأ أيها الذكى العلم والحكمة ، ولتحمد الله معى على جمال العلم وبهاء الحكمة الصادقة ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

ذكر البرهان العقلى على البعث

بعد الاخافة بالمواعظ التاريخية

يقول الله : أيها الناس ، أنا خلقت السموات والأرض ، وأدرت الشمس والقمر ، وأنرت السبل ، ونظمت أحوال المعاش ، ورتبت كل شيء ، وجعلت الجمال باديا فى جليل الامور وحقيرها ، ولم أذر ذرة إلا نظمتها ، ولاحبة إلا رتبتها ، ولا عملا إلا أحكمته ، انظروا الى آثار الحكمة فى الأنوار ، وفى الشموس ، وفى النبات ، وفى أجسامكم الانسانية ، والأجسام الحيوانية ، انظروا فى ذلك كله ، هل نظمته عابثا ؟ أوخلقته باطلا ؟ أأخلق مالا مستقبل له ؟ إذن فلماذا هذا الاحكام والانعام ! ولماذا هذه النظم القويمة ، والعجائب العظيمة والرحمة العميمة ، أأذر هذا كله كالهباء فى الهواء ، والعصف فى الصحراء ، والضلال فى البيداء ، وعمل أرباب الرياء ، وكسر الطفل للاناء ، وتلهيه بالببغاء ، وجريه فى العراء ، أأنهى عن الضلال وأبتغيه ؟ أم آمر بالبر وأنا من مانعيه ؟ أم أمنع الشر وأقع فيه ؟ كلا ، أيها الناس : فلتكونوا مفكرين ، وفى أعمالكم مستبصرين ، وهذا قوله (وماخلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين) لاهين ، انا خلقناهما وجعلنا فيهما الحياة والرزق والعلم والصدق (ماخلقناهما إلا بالحق) بالجد لا باللعب ، ومن اللعب أن أخلقكم فى الأرض غافلين ، ثم أعدم أرواحكم هالكين ، كمن يوقد المصباح فى النهار ويطفئه ، ويفتل الحبل وينقضه ، ويبنى البناء ، وفى الحال يهدمه ، لا لسبب إلا هواه ، ولا لدليل إلا ماجناه ، فعل البلهاء ، والأذلة الجبناء ، الذين لايعقلون (ولكن أكثرهم لايعلمون) لقلة نظرهم ، ولو أنهم فكروا بعقولهم لأدركوا ولعرفوا أن من يخلق الجسم الانسانى وقد حافظ على حياته و بقائه أمدا طويلا فى الدنيا بما دبر فى صنعه من عين تبصر النافع والضار ، وأنف يشم مايصلح للغذاء ومالايصلح ، وذوق يميز الخبيث من الطيب ، وأذن تسمع صوت العدو المهاجم ، والصديق الملائم ، وعقل يحكم فى سائر القضايا ، ويد تدفع المهاجم ، وتجلب النافع ، ورجل يكون بها الطلب والهرب ، وأحشاء تهضم الطعام وتدفع مافضل ، وأمور أخرى لايسع تفصيلها . إن من هذا فعله وهذه رحمته لايذر هذه الأرواح تخطو الى العدم بعد هذه النعم ، فلو علموا مانظمناه ، لأيقنوا بما تكون عقباه ، ولذلك أعقبه بقوله (إن يوم الفصل) فصل الحق من الباطل ، والمحق من المبطل بالجزاء (ميقاتهم أجمعين) وقت موعدهم (يوم لايغنى مولى عن مولى شيئا) يوم لايدفع ولاينفع أى قريب عن أى قريب آخر شيئا فلايشفع له ولايدفع عنه أى شيء من عذاب الله (ولاهم ينصرون) أى ولا الأولياء يمنعون من عذاب الله (إلا من رحم الله) من المؤمنين فانه يشفع بعضهم فى بعض ، فالعالم يشفع لمن تعلم منه ، والشهيد

يشفع ، والأنبياء يشفعون ، وتلك الشفاعات فى الآخرة تابعة للاقتـداء فى الدنيا ، فهى أثر من آثار العـلم والتعليم كما أوضحناه فى ﴿ سورة البقرة ﴾ أيما إيضاح (إنه هو العزيز) لاينصر من أراد تعذيبه (الرحيم) لمن أراد أن يرحمه

وصف العذاب لأهل النار

قال الله تعالى (إن شجرة الزقوم) شجرة على صورة الشجر فى الدنيا ، والزقوم ثمرها ، وتقدم الـكلام عليها فى ﴿ سورة الصافات ﴾ (طعام الأثيم) الفاجر الـكثير الآثام ، وروى أن أبا الدرداء كان يقرئ رجلا فـكان يقول : طعام اليتيم ، فقال قل طعام الفاجر ياهـذا ، وبهذا استدلوا على أن ابدال كلمة بكلمة جائز اذا كانت مؤدّية معناها ، ولذلك أجاز أبوحنيفة رضى الله عنه القراءة بالفارسية بشرط أن يؤدّى القارئ المعانى كلها على كمالها من غير أن يخرم منها شيئا . قالوا : وهـذه الشريطة تشهد أنها اجازة كلا اجازة لأن كلام العرب فيه من الدقائق والنظم مالاتحل محله لغة أخرى فيه لافارسية ولاغيرها ، ويروى رجوعه الى قول صاحبيه وعليه الاعتماد ، وقوله (كالمهل) أى مثل دردىّ الزيت الأسود ، ويقال كالفضة المذابة (يغلى فى البطون) فى بطون الـكفار (كغلى الحميم) أى كالماء الحار اذا اشتدّ غليانه ، ثم يقول الله للزبانية (خذوه فاعتلوه) فجرّوه وادفعوه وسوقوه بالعنف ، والضـمير للأثيم (الى سواء الجحيم) أى الى وسط النار (ثم صـبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) ✲ قيل ان خازن النار يضرب على رأسه فينقب رأسه من دماغه ، ثم يصب فيه ماء حميما قد انتهى حره ، ثم يقال له (ذق) هذا العذاب (إنك أنت العزيز الـكريم) أى عند قومك بزعمك يقال ان أبا جهل كان يقول : أنا أعزّ أهل الوادى وأكرمهم فيقول له ولأمثاله خزنة النار هـذا على طريق الاستخفاف والتوبيخ (ان هذا ماكنتم به تمترون) تشـكون فيه ولاتؤمنون به .

وصف أهل الجنة

قال الله تعالى (إن المتقـين فى مقام أمين) أى فى مجلس أمنوا فيه من غـيرهم (فى جنات وعيون يلبسون من سندس واستبرق) السندس مارق من الديباج ، والاستبرق ماغلظ منه وهومعرّب استبر ، حال كونهم (متقابلين) فى مجالسهم وهوأتمّ للانس (كـذلك وزوّجناهم) وقرناهم (بحورعين) والحوراء البيضاء ، والعيناء عظيمة العينين ، وهل هنّ نساء الدنيا أوغيرهم ؟ لايعلم ذلك إلا الله ، وليس هذا تزويجا كتزويج الدنيا بل هوتمتع دائم من غـير كلفة (يدعون فيها) يطلبون ويأمرون (بكل فاكهة) باحضار مايشتهون من الفواكه لايتقيدون بزمان ولامكان (آمنين) من الضرّ ، ومن نفاد الفواكه ، ومن الموت والنصب والشـيطان والمرض والـكبر والضعف (لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) بل يحيون فيها أى لايذوقون فى الجنة الموت لـكن الموتة الأولى ذاقوها . ويقال بوجه آخر : إن الحياة الدنيا عنـد الأصفياء متصلة بالحياة الأخرى ، فـكأنهم عند الموت دخلوا الجنة ، فهم حين يموتون يكونون فى نفس الجنة ، فقوله « إلا الموتة الأولى » استثناء متصل على هذا الوجه ، وكأن الموتة المعلومة وجدت فى نفس الجنة لأن الروح وقت خروجها تـكون فرحة متمتعة بروحها وريحانها ، وهـذا المعنى الذى قاله المفسرون هوالذى نطقت به الأرواح . فقالوا : « إن النفوس الشريفة التى كرهت العـلائق الدنيوية واطمأنت ولبست لباس الحـكمة اذا حلّ بها الموت تـكون متيقظة مستبشرة ، لايهمها أنها نقلت من حال الى حال ، بل ترى أنها دخلت فى حظيرة السعادة ، وساحة السلامة ، أما الأرواح التى لم تتجرّد من علائق الدنيا فانها اذا ماتت نظرت فرأت لها جسما كالجسم الذى كان لها فى الأرض ، ويحصل لها دهش كـدهش النائم بين اليقظة والنوم ويصبح العقل الانسانى كالمغشىّ عليه ، فهذه الروح تبقى أياما أوأشهرا أوسنين وهى فى بهت ودهش ، ثم تنجلى عنها

الغياهب شيئا فشيئا ، وتتأمّل فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وتعرف ماالذى قطعته فى هذه المرحلة الأرضية وماذا صنعت لرقيها واسعادها وسفرهاالطويل ، وهنا يكون الفرح العظيم ، أوالشقاء الطويل ، والندم والعويل والألم الويل . إن ذكرالموت يشعر بألم ، لكن الأرواح الشريفة عند الموت لاتحسّ بذلك الألم لأنه ثبت أن الألم إنما يكون بالاحساس ، والموت هوأخذ الروح فى الانفصال عن الجسم ، والانفصال عن الألم ليس ألما ، واذا كان التنويم المغناطيسى لايحسّ معه المنوّم عند التنويم بألم من حيث هوتنويم ، فمابالك بالموت وهوالنوم الأتمّ ، بل هو عند الناس أخوالعدم ، وانما ألم الناس عند الموت للفراق لأنهم ظنوا أنه لاوجود إلا فى هذه الأجسام فصعب عليهم فراقها ، وحزنوا على مغادرتها ، لظنهم أن لاحياة بعدها ، ولاجرم أن النفوس الشريفة لاتهلع للموت ، ولاتحزن للفراق ، لأنها ترى أنها خرجت من سجنها ، ودخلت فى نعيمها ، فهى لاتتألم بالموت ، بل تفرح به ، لذلك أعقب ذكرالموت المشعربالألم بقوله (ووقاهم عذاب الجحيم) فلا يحسون بألم الفراق ، ولابوخزالضمير الذى يشعربه من تعلق قلبه بالدنيا وهو مذنب ولايخاف من عذاب النارالجسمية ، كما لايخاف من النيران القلبية ، أعطوا ذلك (فضلا) عطاء وتفضلا (من ربك ذلك) المذكور (هوالفوزالعظيم) لأنه خلاص من المكاره وفوز بالمطالب . ولما أتمّ المقاصد التى أراد ذكرها فى هذه السورة لخصها فقال (فانما يسرناه بلسانك) سهلناه حيث أنزلناه بلغتك (لعلهم يتذكرون) لعلهم يتعظون ويفهمون (فارتقب) فانتظرمايحلّ بهم كما حلّ بقوم تبع ﴿ بتشديد الباء ﴾ وقوم فرعون (انهم مرتقبون) مايحلّ بك . انتهى التفسيراللفظى

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة »

(٢) فى قوله تعالى : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين الخ »

(٣) فى قوله تعالى : « وماخلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين »

اللطيفة الأولى

فى قوله تعالى : إنا أنزلناه فى ليلة مباركة

اعلم أن الأيام والليالى وجميع الأزمنة وكذا الأمكنة لافضل لواحد منها على الآخر من حيث هو زمان أومكان ، وانما فضلّ كل باعتبارماحلّ به من عبادة أوعمل صالح أوعلم أوظهورحكمة ، وعلى ذلك ما جاء فى هذه الآيات وتخصيصها بما جاء فيها من قسم الأرزاق أواستجابة الدعاء أمر إلهى أراده الله كما خص الوجه بالعينين ، والصدر بالقلب ، والرحم بالجنين ، واليد بالبطش ، والرجل بالمشى ، فهوالذى يخصص الأزمنة والأمكنة كبعض الأماكن المقدّسة عند الناس ، ولقد أخفى تلك الليلة حتى يكون الانسان فى كل وقت مشمرا للطاعة ، منقادا للأوامر ، كما أخفى يوم الموت ، ولذلك أرانى كلما وصلت الى تفسير سورة أحمد الله إذ أبقانى حتى وصلت اليها . ومن أعجب الامور ما سأقصه عليك من نبأ هذه السورة وهى الدخان ، فانى منذ نحو عشرين سنة قبل الحرب الكبرى بنحو عشر سنين كتبت رسالة طلبها منى الاستاذ ذاكر أفندى القادرى لأرسلها الى بلاد القازان ، فألفتها وسميتها ﴿ الرسالة القازانية ﴾ وفيها نبأ عن الدخان المذكور فى هذه السورة وعن تقصيرأمة الاسلام اليوم ، وعن معجزة القرآن بذلك ، وما كنت أعلم أنى أعيش حتى أرى الحرب الكبرى وقد ظهرفيها الدخان بأجلى مظاهره معجزة للقرآن كما ستراه ، وماكنت بالأولى أظنّ أنى أعيش بعد ذلك حتى أفسرالقرآن أوأصل الى هذه السورة وأقصّ هذا القصص وأكتب الرسالة التى نشرت

فى مصر وفى بلاد الاسلام مشيرة الى هذه السورة ، كل ذلك كان مجهولا عندى ، فلما وصلت الى هذه السورة فى التفسير حمدت الله عزّ وجـل إذ تجلى لى نور الحـكمة فى هذه السورة ، وأشرقت الأرض بنور ربها ، والحمد لله رب العالمين .

ثم اعلم أن الانسان ما عمـل عملا إلا كان للمكان وللزمان استحضار ذهنى فى ذلك العمل ، حتى ان الانسان اذا ذكر عملا من الأعمـال ، أوأثرا من الآثار ، أوحادثا من الحوادث كان الزمان والمكان لهـما معه ، فلذلك نزل القرآن على وفاق ما اعتاده الانسان من ذكر الزمان أو المكان ، وهذا من حكمة القرآن والى هنا تمّ الـكلام على اللطيفة الأولى

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ✲ يغشى الناس هذا عذاب أليم

ليكن الـكلام فى هـذا المقام على قسمين : القسم الأوّل فى العذاب الذى يستحقه المذنبون ، القسم الثانى فى الدخان ونزوله على المذنبين

بيان القسم الأول وهو استحقاق العذاب لأجل الذنوب

اعلم أن الذنوب على ثلاثة أقسام : سلبية ، وقلبية ، وجسمية . فالسلبية هى الآثام التى يتحملها الانسان باهماله مايقدر عليـه من عظائم الامور ، وتركه مافى استعداده من المنافع العامّة ، فـكل من أعطى مالا أو ذكاء خارقا للعادة ، أومنصبا ، أوذكرا حسنا ، أوقوّة نافعة ، ثم سكت عن العمل بها أوصرفها فيما هو أقلّ من طاقتها عذب فى الدنيا والآخرة عذابا شديدا ﴿ بيانه ﴾ أن أمة الاسلام اليوم أكثرهم من أهل الشرق وأهل الشرق هم أهل الديانات ، وأهل الفلسفة ، وأهل الحـكمة ، ولقد سكتوا عن الحـكمة حينا من الدهر وناموا مئات السنين ، فانظر ماذا فعل الله فيهم ، قال الله لهم قولا بلسان الحال : إى عبادى ، ألم أعطكم بلاد الشرق ، ألم أضىء شمسكم ، ألم أنور قمركم ، ألم أجعلكم فى أرض خصبة ؟ ستقولون بلى يار بنا ، فيقول ألم أجعلكم أذكى الأمم ، فان كنتم فى شـكّ من ذلك « فاسألوا أهـل الذكر إن كنتم لاتعلمون بالبينات والزبر » ، إن الأنبياء منكم ، والعلماء منكم ، والحكماء منكم ، خرج الأنبياء من الشام ، ومن جزيرة العرب ، وخرج الحكماء من الهند ومن الصين ، فياعبادى أنتم من نسلهم ، فالعقول راجحة ، والأرض خصبة والسماء صافية ، والنعم متوافرة ، وأنتم ياعبادى عطلتم نعمى ، عطلتم مواهبى ، عطلتم ما وهبت لعبادى من المنافع ، فأنتم العقول ، وعطلتم آية العلم والحـكمة ، فبحق أقول : انى لم أخلق العالم سدى ، بل خلقت الخلق لغاية ، وأنتم وقفتم فى طريقها ، فأنا الحـكيم العليم ، سلطت عليكم من يسوسونكم ويسومونكم سوء العذاب ، ويستخرجون منافع أرضى ، ويفهمون سمواتى ، ويفرحون بنعمى ، ويشـكرون مواهبى

هذا هو العقاب الذى يراه الشرق والمسلم اليوم متجليا أمام عينيـه ، ولايعلم أنه معذب ومهان ، فالناس معذبون ولايعلمون أنهم معذبون ، هذا هو المسمى عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى والله هو الحـكم العدل

هذه هى الذنوب السلبية وهى أسوأ الذنوب وان كان أكثر الناس لايعلمون ، وتسمى فى ديننا فرض كفاية ، ولـكن المسلمون اليوم قلما يفـكرون فى هذا ، واليوم سيفـكرون

القسم الثانى وهو الذنوب القلبية

اعلم رعاك الله أن تلك الذنوب ترجع الى الحسد والحقد والطمع والشره ، ويلحق بها الغيبـة والنميمة

وأمثال ذلك ، وهي ترجع الى قسمين : الغضب ، والشهوة ، فكل ماتجم عن حب الشهوات ، وعن القوة الغضبية من ذلك فهو صادّ للانسان عن المعالى ، وهذا القسم أوضحه الامام الغزالى فى الاحياء فى الجزء الثالث وهذه الذنوب أقسى وأشد من الذنوب الظاهرية لأنها ملامسة للقلب محيطة به

القسم الثالث : الذنوب الجسمية

وهى ضربان : ذنوب أقامت لها الشرائع الحدود والأحكام لأنها مضبوطة معلومة كالزنا والقتل والسرقة أوشرب الخمر وما أشبه ذلك ، وضرب ليس بمضبوط ولم يكن له فى الشرع حدود ولا أحكام ، وهذا القسم عسر كثير الفروع وذلك كالأكل فوق الشبع ، وكتعاطى الأغذية التى لاتوافق الجسم ، وكالنوم كثيرا ، وكالتعرّض للبرد ، وللحرّ الشديد . وبالجملة كل مايؤذى الانسان فى جسمه أوعقله . فهذه أحوال لاضابط لها . ولم يرد لها فى الشرائع رادع ولازاجر إلا أوامر عامة ونصائح كلية كقوله تعالى : « كلوا واشربوا ولاتسرفوا إنه لايحبّ المسرفين » ومن هذا القسم الاسراف فى تعاطى تجارة الأمم القوية العظيمة ، فانهم يضحكون على أذقان الأمة الجاهلة ، و يستنفدون مالديهم من المال بما يبيعون لهم من الملابس البهجة والزينة البديعة و يغشون على عقولهم ، فهذا من التجارة المباحة ، ولكنها تنتهى بخراب البلاد ، وهكذا من يكثر من التمتع باللذات المباحة من مأكل وملبس ومشرب ونساء ، فهؤلاء يضيعون أيام حياتهم ، ونفوسهم تعيش فى نقص وتموت على ماعاشت عليه

فهذه الأقسام الثلاثة من الذنوب عقابها حاضر عند الأمم والأفراد ، فمن القسم الأوّل ذهاب أنواع العلوم والصناعات ، ونتيجة ذلك تقهقر المسلمين والشرقيين . ومن القسم الثانى العداوة والحسد والبغضاء بين الأحزاب والجماعات فى الشرق ، وتعدّد الفرق الجاهلة الغبية ، وذلك يمكن العدوّ منهم و يصدهم عن العلوم فان الذى يضيع وقته فى مدافعة أقرانه وأعدائه لايجد وقتا يتفرّغ فيه لتكميل نفسه ، فالانهماك فى الذنوب القلبية يتبع نقص العلوم أى ان القسم الثانى من الذنوب يتبع القسم الأوّل منها . وأما الذنوب الجسمية كالسرقة والزنا وما أشبههما فعذابها فى الدنيا ظاهر وهو الأحكام التى يقيمها القضاة بين الناس والحبس والتغريم ، ثم احتقار الناس للمجرم واهانته ، وهذا عذاب ظاهر فى الدنيا . وأما الذنوب التى لاضابط لها فهى أدهى وأمرّ وقد شرحت لك بعضها و بها تكون الأمراض والعلل ، و بالأمراض والعلل يختل أمر الجسم و يتبعه ضعف العقل ، وهناك نسب واتصال بين جميع الذنوب فانه يتبع بعضها بعضا وتصبح دائرة أوّلها آخرها

اذا ثبت لك هذا علمت معنى قوله تعالى : « يوم نبطش البطشة الكبرى انا منتقمون » وقوله أيضا « هذا عذاب أليم » وماروى عنه ﷺ انه قال : « مامن خدش عود ، ولاعثرة قدم ، ولا اختلاج عرق إلا بذنب ، ومايعفوالله عنه أكثر » وما روى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . قال : « ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله تعالى حدّثنا بها رسول الله ﷺ : وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير ، وسأفسرها لكم ياعلىّ : ما أصابكم من مصيبة أى مرض وعقوبة ، أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم الخ » . وقال عكرمة : « مامن نكبة أصابت عبدا فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفرله إلا بها »

فهذه الأحاديث وأمثالها لايمكن معرفة حقائقها إلا بمعرفة ماتقدم . انظركيف ذكر عثرة القدم ، وعثرة القدم تكون لسوء العادة فى المشى ، أوالخلل فى الطريق مثلا ، فسوء العادة فى المشى يرجع لعدم الكمال والنظام فى المشى ، وهذا من الذنوب التى ليست مضبوطة من أحد قسمى الذنوب الجسمية ، وأما الخلل فى الطريق فذلك لكساد العلوم وتأخر النظام المدنى ، وهذا بسبب ترك نظام الطرق فيعثر الانسان لذلك ، وهذا ذنب عام فان اصلاح الطرق ونظام المدن من فروض الكفاية وفرض الكفاية يعاقب عليه عموم الأمة ، فهذا

من عقاب الله فى الحياة الدنيا ويستمر العذاب يوم القيامة ، وذلك لأن عثرة الرجل أرضعف الصحة وكل مامن شأنه أن يعكرصفو الذهن يؤخر الانسان عن تأدية بعض واجباته ، وذلك يعوقه عن رقى نفسه ، فاذا مات لم يرتفع الى درجات العاملين ، واذا اختلج عرق كما ذكر فى الحديث فانما يكون ذلك الاختلاج بسبب اختلال فى الصحة ، والاختلال فى الصحة إما لسوء الغذاء نوعا أوزمانا أومكانا أومقدارا أوغير ذلك ، وكل هذا لجهل الانسان ، أولشرهه ، أولقلة ضبطه نفسه ، والجاهل ليس بمعذور ، فنبينا ﷺ يشير بذلك الى أن الناس ينبغى لهم أن يدركوا حقائق الأشياء ، والا فالعقاب واقع دنيا وأخرى ، وذلك لاخراج المسلمين من توا كلهم واتكالهم على أنهم دخلوا الاسلام ومتى دخلوه لايعاقبون ، فأفهم النبى ﷺ أصحابه أن المسلم يعاقب كما هومشاهد بالمرض أوغيره ، وذلك بذنبه ، وأما البلاء فى الدنيا فهوأمر عام يشمل أنواعا كثيرة عامة وخاصة . انتهى الكلام على القسم الثالث

الدخان وارساله على المذنبين

قد عرفت فيما تقدم أن الدخان يشمل الدخان الحقيقى والدخان الوهمى كما تقدم ، والغبار الناجم من قلة الأمطار ، وهكذا يشمل ما كانت تقوله العرب من أن الشر الغالب دخان ، والدخان يشمل ماذكر والدخان المعدود من أشراط الساعة . قال عليه الصلاة والسلام : « أوّل الآيات الدخان ، ونزول عيسى ، ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس الى المحشر . قيل وما الدخان ؟ فتلا رسول الله ﷺ الآية ، وقال : يملأ مابين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة ، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكام ، وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره » اه

ويجوز أن يكون الدخان يوم القيامة . وفى حديث البخارى ان الدخان قد مضى أمره فانه أصابهم من الجوع كالظلمة فى أبصارهم ، أى فهو إذن دخان وهمى . وقال غيره : هو دخان قبل قيام الساعة فيدخل أسماع الكفار والمنافقين حتى يكون الرجل رأسه كرأس الحنيذ يعنى المشوى ، ويعترى المؤمن كهيئة الزكام وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ، وهذا القول لابن عباس وابن عمر والحسن

فثبت لك من هذا أن العلماء فى الصدر الأوّل جعلوها تشمل دخان الجوع ودخان الغبار والدخان الذى قبل قيام الساعة والدخان الذى سيكون يوم القيامة كما تقدم ، وأيضا تشمل كل شر غالب . فكل هذا يطلق عليه دخان ، وأظهر المعانى الدخان المحسوس الذى قبل قيام الساعة ، وأعم المعانى الذى يدخل فيه هذا وغيره الشر الغالب سواء أكان فيه دخان أم لا . هذا تحقيق المقام وجمع الأقوال

كيف كان الدخان عذابا

جعل الله الدخان عذابا وقد أنزل على قريش . وذلك أن رسول الله ﷺ لما رأى من الناس إدبارا قال اللهم سبعا كسبع يوسف . وفى رواية لما دعا قريشا فكذبوه واستعصوا عليه قال اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف فأخذتهم سنة حصت كل شىء حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع . وينظر أحدهم الى السماء فيرى كهيئة الدخان . فأتاه أبوسفيان فقال : يامحمد انك جئت تأمرنا بطاعة الله وبصلة الرحم وأن قومك قد هلكوا فادع الله لهم . قال الله عزّوجل : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين » الى قوله « عائدون » فهذا دخان مضى وانتهى أمره . فأما الدخان الآخر فقد ظهر فى الحرب الكبرى . وهنا أرجع بك الى أوّل هذا المقال والبحث فى الذنوب وأقسامها . وكيف يكون العذاب بسبب الذنوب واذكر قوله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » فاذا فهمنا أن الدخان الذى سلط على أهل مكة بكفرهم فليكن الدخان الذى سلط على المسلمين فى الحرب الماضية بجهلهم . نعم لم يعم المسلمين بل كان مرسلا على عموم العساكر المحاربين

شرقيين وغربيين . والله قبل أن يخلق هذه الأجيال أنزل القرآن وأخبر أن هناك دخانا . وأخبر ﷺ أن المسلم يصيبه الدخان كهيئة الزكام ، فأما الكافر فهو كالسكران ، وأيضا تكون الأرض كلها كموقد

ذلك كله إيقاظ للمسلمين وتحذير ، إن الأمم اليوم دخلت فى دور من الحرب عظيم ، ويشاع أن الألمان وعدوا أن يرسلوا دخانا عاما فيهلك أمما كثيرة ، ويقال أيضا انهم قالوا : يمكنهم ارسال دخان فى الهواء فيهلك أهل الأرض جميعا وهم معهم ، قيل : انهم قالوا لانفعل هذا إلا اذا يئسنا من الأمم وانصافها

فانظر كيف يقول : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين » وكيف يقول العلماء ان الدخان يكون من أشراط الساعة ، وكيف يقال ان الألمان سيفعلون ذلك ، وكيف يقول ﷺ ان المؤمن يصيبه كهيئة الزكام وأن الكافر يكون كالسكران

إن المسلمين اليوم فى أول زمن الانتباه وعذابهم بالدخان انما يحل بهم اذا كانوا جاهلين ما بثه الله من العلوم ، ألاترى الى ماقدمناه أن هذا من الذنوب السلبية ، فراجع ماتقدم ، وهى الذنوب التى تشترك فيها الأمم كلها كترك العلوم النافعة ، فهاهو ذا الدخان ظهر ، وهاهم أولاء المسلمون تنبهوا ، فليستمروا فى العلم ، وليقرءوا كل ما عرفته الأمم الحالية حتى اذا أرسل الدخان كانوا منه محترسين وأصابهم الزكام كما فى الحديث ، ولا يكونون من الأمم الغافلة التى ينزل بها البلاء وهى ساهية لاهية ، والانتباه إنما يكون بدراسة العلوم كلها كما قررناه مرارا فى هذا التفسير

فصيبة الدخان المنتشرة فى العلوم الحربية اليوم لن تذهب من ذهن رجال الحرب ، وسيكون لها شأن ولايقلل مصائبها عن أمة الاسلام إلا العلوم . فياأيها المسلمون : بذنوبكم يقتلكم الدخان ، والذنوب هنا هى الذنوب السلبية المشروحة فيما مضى ، أنتم لاتقرءون العلوم وهذا عقاب ربكم وصدق نبينا ﷺ « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » فاذا غلبتنا الأمم فبجهلنا ، واذا سلطوا علينا الدخان ونحن غير محترسين فبجهلنا ، فالعلم هو الباب للخروج من المآزق والله هو الولى الحميد

فاذا سمعت قوله ﷺ « وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه » وسمعت قوله : « حتى يكون الرجل كالحنيذ أى المشوى الخ » عرفت أن ذلك الدخان هو الذى ظهر فى حرب الألمان وهو من أشراط الساعة ، ولعلك تقول : أشراط الساعة تقوم القيامة بعدها ؟ أقول لك هذا خطأ فان الله يقول : « وانه لعلم للساعة » فجعل عيسى علامة على الساعة وقد مضى له ألفا سنة إلا قليلا ، فآلاف السنين ، بل مئات الآلاف لاتؤثر فى قرب هذه الامور العظيمة « إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا »

ولقد كتبت ثلاث مقالات نشرت فى بلاد الروسيا مترجمة باللغة القازانية كما قدمت لك فى أول هذا المقال أنذر المسلمين فيه الدخان ، وقد تم ما ذكر هناك ، فهاأناذا أكتب تلك الرسالة المسماة بالقازانية فى التفسير معيدا تذكير المسلمين قائلا : إن ما أنذرتم به قد تم وظهر الدخان فى الحرب والمسلمون كانوا مطمح الفاتحين ومرمى مدافع الاوروبيين ، ومظهر المذلة والهون ، إلا قليلا منهم كأهل الأفغان و بعدهم الفرس والترك فقد خرجوا من ذلة الاستعباد وقد كشف الله العذاب قليلا ، فليحذر المسلمون النوم ، فالوقت جد وقد أخبر ﷺ أن المسلم يعتريه زكام وأن الكافر يكون كالسكران ، فلتكونوا أنتم ذلك ، المؤمن الذى قرأ العلوم فاحترس فأصابه شر قليل من الحرب المستطير . إن الأرض قادمة على حروب وأهوال فاحذروا أن تكونوا طحين الرحى ، فان كان ذلك الشر قليلا فلتكونوا من أعلم الأمم لتنجوا من شره ، وان كان بعيدا بعد مئات السنين فقد كفيتم أنتم شره ، وليكن العلم رائدكم حتى تأخذوا مكانتكم بين الأمم ، واليك ملخصا من الرسالة القازانية ، وقد كنت كتبتها فى جريدة اللواء ونشرت أيضا فى كتابى « نهضة الأمة وحياتها » المطبوع سنة ١٩٠٨ م وهاك نصها :

الرسالة القازانية

وهى عبارة عن إجابة سؤال وجهه الى المؤلف أحدشبان القازان يقول : « أبلغ علماء الاسلام المتقدمين النهاية فلا نفكر نحن بعدهم ؟ أم بقى لنا مجال للتفكير فى أمر الدين ؟ » فإجابة على هذا السؤال أقول :

أيها الذكى : سألتنى عن مبلغ ما وصل اليه علماؤنا السابقون ، وهل شادوا صروح المدنية ومهدوا سبلها وأوفوا بما عهد اليهم من القيام بما يكفل للأمة ثباتها ودوامها ، ويكلأ غدوها ورواحها ، سألت من أحسنت به ظنا ومن لى بأن أكون ذلك الحبر الخبير العالم بأسرارهم ، المحيط بعلومهم ، المطلع على جلياتهم وخفياتهم وما كان لى أن أقف حكما فى موقف عظيم مهيب ، طأطأت لعظمته رءوس الرءوس ، وخضعت لجلالته أكابر حكماء الشرق ، وأساطين الحكمة فى الغرب ، قوم يقول فيهم الاستاذ (سديو الفرنسى) فى كتابه : « إن هؤلاء الأطباء الفخام ، والفلاسفة الكبار ، والمهندسين الأجلاء ، والعلماء الأعلام ، فى قارة أوروبا أنما هم تلاميذ علماء الأندلس المسلمين ، وبرهن على ذلك بآيات بينات ، وحجج واضحات جليات ، قسم كتابه أبوابا . وأبان فيه أن كثيرا من مخترعات الاوروبيين ، واكتشاف المكتشفين ، كانت قبسات من أنوارهم ونفحات من أسرارهم ، عثر عليها الباحثون فى كتبهم فنقبوا عن أسرارها ، واكتنهوا كنهها ، ثم ترجموها فأحرقوها . وأسندوا الاكتشافات الى أنفسهم . ولقد فصل ذلك تفصيلا فى الفلك والطبيعة والكيمياء وذكر أسماء أناس غربيين فى نحو القرن الرابع عشر ادّعوا اكتشاف عجائب من الفلك ، فدحض حججهم بأنه إذ ذاك لم تكن صروح للرصد قائمات ، ولا بروج لبلوغ أسباب السماء مبنيات ، فى عواصم الشرق . أناس كانوا نور الله للناس فازدانت بهم الدنيا . وأشرقت بهم الأرض فأفاضوه على غيرهم من الأمم الغربية

لعلك تريد بالسؤال علماء الدين كالأئمة رضوان الله عليهم فمن بعدهم ، أولئك كانوا مصابيح الدّجى وأنوار البصائر ، وشموس الحق ، فى آفاق الشرق

أيها الذكى : تنحصر أعمال أولئك الأئمة العظام فى أمرين : خاص وعام ، فأما الخاص فذلك تفصيل فروع الفقه اذا لم يقم غيرهم مقامهم وهى أمور ضرورية كفصل الخصومات والدعاوى والميراث والعبادات ، وأما العام فانهم قالوا : « إن عامة العلوم والصناعات التى يحتاجها الناس فى حياتهم الدنيا فروض كفايات يقوم بها أناس ساعدتهم أمزجتهم ، وأسعدهم استعدادهم لها ، ولم يفرقوا بين علم الفقه وغيره ففكت العقول من عقلها . ونهضة الأمة من مرقدها وانتشرت الحرارة الحيوية وأشرقت شموس العلم على ربوع البلاد فظهر فيهم أمثال المنصور والرشيد والمأمون وترجموا الكتب اليونانية الى العربية وقامت الحركة الفكرية وساروا شوطا بعيدا فى ميدان الحياة والسعادة

طويت تلك القرون كطىّ السجل للكتاب . وحصر علماء الدين هممهم فى فروع الفقه وحدها وقصروا هممهم على القضايا الفقهية . وجالوا فيها جولات . وحمى بينهم وطيس الجدال . فى ميدان الخلاف . وتسابقوا لأصولها وفروعها ولم يعيروا غيرها التفاتة بل زادوا الطين بلة ووضعوا ضغثا على ابالة إذ ذموا علماء الطبيعة والفلك والفلسفة . وقد علمت انهم نظراؤهم فى قيامهم بركن من أركان الحياة وسعيهم معهم الى رقىّ الأمة وسعادتها . ولقد حملهم على ذلك أمران : الأوّل انهم رأوا الأئمة العظام رضوان الله عليهم هم الذين دوّنوا هذه الأحكام باجتهادهم ولم يفطنوا انهم أوجبوا العلوم على السواء ولم يفرقوا فى الوجوب بين فروع الطب والزراعة وفروع الفقه وقيامهم به وحدهم لأنه أهمّ فتقديمه محتم وتركوا النظر فى العلوم الأخرى لسواهم . الثانى انهم إذ رأوا تلك العلوم ليس فيها استطالة على الأقران ولا تولى الادارات القضائية والأحكام السلطانية نبذوها بل ذموا القائمين بها فانقسم الناس إذ ذاك فريقين : فريق للعلوم . وفريق للدين

ثم قامت طائفة من العلماء كالشيخ الغزالى ورأوا أن السلف الصالح خلف من بعدهـم خلف أضاعوا العلوم ، وانكبوا على فروع الفقه ، وصرفوا كثيرا من الناس عن علوم الحياة والعمران والطبيعة والرياضة والفلك والفلسفة وتعلموا أن الدين يطلبها كالفقه سواء ، فأخـذوا يحملون الناس على قراءتها وعدّوها علوما دينية . ألف الامام الغزالى كتابا سماه « إحياء علوم الدين » ومزج الفقه كالحلال والحرام بعجائب الحكمة الإلهيـة كالسحاب والهواء والماء والأرض والأنهار والسماء والنجوم والشمس والقمر وعجائبها ، ونواميس الطبيعة وفلسفة الضوء وشرح علم النفس . ولقد شرح فى كتاب الشكر من الاحياء أنواع السعادات وجعلها (١٦) قسما وأدخل فيها العلوم أجمع ، وترى الامام الغزالى أتى بعجب عجاب فى حكمه ، فتارة تراه يذم الفلاسفة ويكفرهم ، وأخرى يذم الفقهاء ويرميهم بالقصور والجهل ، ثم أشار فى كثير من كتبه الى أنهم من العامة هم ورجال علم التوحيد . ولقد فكرت فى ذلك كثيرا ففهمت أن الرجل رأى المسلمين قد أشربوا كراهة العلوم بما أوحى اليهم أولئك العلماء القاصرون ، فأنحى على الفلاسفة فى تعاليمهم وكفرهم موافقة للعامة ، ولكن فى نحو ثلاث مسائل لاغير ، ثم رجع الى أولئك العلماء القاصرين فأوسعهم ذما وتقريعا ليطلق الناس من أسرهم ويفك قيود تقليدهم . ولما أعلن ذلك عمد الى مسائل الفلسفة فوضعها فى قوالب اسلامية ، فتراه ذكر فى باب الشكر نواميس كثيرة ، وفى باب الفكر عجائب الصفة الإلهيـة ، وتراه اقتبس أقيسة المنطق الأربعة فى كتاب القسطاس من القرآن استئناسا لقلوب عامة المسلمين لحوز هذه العلوم واخراجا لهم من حظيرة الجمود على أقوال العلماء الرسميين الذين اشتروا الضلالة بالهدى فحرموا المسلمين العلوم العقلية والحكمة وأتبعه ابن رشد وناقشه فى بعض القول ، وأوضح فى كتابه فى التوحيد مايجب على علماء الاسلام من معرفة العلوم الكونية ، وأنحى على الجامدين الجاهلين ، وأناخ بكلكله على طريقة تعليم التوحيد ، وأشار الى من بعده أن يمزجوا علوم الكون بالدين ويجدّوا فى اكتسابها واكتناه كنهها والتشمير فى طلابها ثم خلف من بعده خلف رأوا وعورة الطريق وبعد الشقة ، فاستصعبوا الأمر وأوجسوا خيفة أن يصغروا فى أعين أتباعهم فحكموا بكفر أولئك المرشدين ، وصارت تلك سنة فى الغابرين ، كلما جاءهم عالم بمالا تهوى أنفسهم من الجمود والجهل استكبروا عليه ، سترا لجهلهم ، وحفظا لمراكزهـم ، وصونا لمقاماتهم أن تسام بسوء ، ففريقا كذبوا وفريقا يقتلون ، ولئن سألتهم : لم نبذتم هذه العلوم ؟ قالوا قلوبنا غلف ، وفى آذاننا وقر

ولعمرك اذا كفر الرازى وابن رشد والغزالى وأضرابهم وهم الذين طأطأت لهم رءوس الماضين والغابرين من العلماء فليس على وجه البسيطة مؤمن . ومن العجيب أن العلماء يعظمونهم عند ذكرهـم ، واذا قلت لهم هؤلاء دوّنوا العلوم التى يقرؤها صغار التلاميذ فى المدارس ، وأهل أوروبا يدرسـون علومهم فى مدارسهم ينغضون اليك رؤسـهم ويقولون مالنا ولهذا ، اننا نقرأ الوجيز والبسيط للغزالى وماعداه فليس من الدين فى شىء . وبينما نرى هؤلاء يبغضون العلماء من وجه نرى زعانف الصوفية (لا أكابرهم) يمرحون فى الأرض بغير الحق ويقولون : « العلم حجاب بينك وبين الله فاجعل صورة شيخك فى خيالك والله من ورائها واياك والعلوم » . يقولون ذلك لئلا يستضىء الناس بأنوار المعارف فيفتضح أمر هؤلاء الدجالين وينبذونهـم نبذ النواة . فأرسـل الله طائفة أخرى ظالمة غشتهم بغاشية من عذاب الظلم والعسف فأرهقت الأمة واستعبدتها وأخـذت تقرّب زعانف الصوفية وتصطنعهم آلات كهربائية تحرّك بهم صورا من الرجال وأشباحا من الجهال فى مراسح الحياة وتمثل بهم فصولا فى الحياة والسياسة . فلما استحكمت تلك الحلقات الثلاث ونامت الأمم الاسلامية أجنة فى الدهر خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث سلط عليهم سيولا جارفة . وصواعق محرقة من أمم الفرنجة فأذلوهم واستعبدوهم ومزّقوهم كل ممزق وتفرّقوا أيدى سبا

المقالة الثانية

أيها الذكيّ : اذا اختصرنا نقول : « أضاع الاسلام ملك ظالم ، وصوفى طامع ، وفقيه جاهل ، اتحدوا على جهالة الأمة لينالوا حظ الرئاسة ، أما وربك لوأنهم رجعوا الى القرآن لرأوه سوّى بين العلوم على تباين مشاربها ، ليس الفقه تلك الفروع المدوّنة ، ألا انما الفقه هوالفهم ، فليس مختصا بنحوفروع الحيض التى قد تبلغ أربعة الآلاف »

أليس القائل فى الحيض : « ويسألونك عن المحيض قل هوأذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولاتقربوهنّ حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهنّ من حيث أمركم الله إنّ الله يحبّ التوّابين ويحب المتطهرين » هو بذاته الذى أنزل قوله تعالى : « إنّ الله فالق الحب والنوى يخرج الحىّ من الميت ومخرج الميت من الحىّ ذلكم الله فأنى تؤفكون » . نعم هوالذى لم ينزل آية حيض النساء إلا بعد أن سئل النبىّ ﷺ وأنزل ناموس النبات وعجائبه بدون سؤال ، أليس ذلك برهانا قويا ، وحجة لامعة ، على أن هذه العلوم الطبيعية أولى بالوجوب على الأمة من تلك الفروع الفقهية التى يشيب الدهرولا يسأل عنها سائل ، لا بل أصبحت كأنها عبادة يتعبد بها الناس وهم لايعلمون مابها يصنعون ، لم يجب عن الخمر والقمار إلا بعد السؤال . فقال : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس » ولكنه أنزل بيان عجائب الليل وبدائع الصبح واشراق الآفاق ، وبين بديعة من العجائب بلاسؤال . فقال : « فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم »

أيها الذكىّ : إنى أخالك تسألنى عن أحكام الدين من الطلاق والخلع والنفقة والعدّة وماشا كل ذلك مما قد يتخذه بعض العلماء حرفة يحترفون بها ، انى أنبئك عن ذلك :

إن المستقبل للشبيبة فلاتتكلوا إلا على أنفسكم ، قل تعالوا أتل ماحرّم عليكم ربكم ألاتذروا الاصلاح اتباعا لفقيه متعصب ، ولاتكونوا للطب تاركين ، وللهندسة ناسين ، وعن العلوم الكونية معرضين ، ولا تكونوا عالة على الأمم الغربية ، بل اسعوا سعيهم ، واقرءوا علومهم ، وسيروا معهم بسلام ووفاق ، وتذكروا قوله تعالى : « ولتجدنّ أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون »

أيها الذكىّ : لئن جاءكم فاسق بنبأ الخذلان والجهل فتبينوا خبره ، ولايصدنكم عن سبيل الله فقيه متعصب فانما التعصب لقوته لا للاسلام ، ولايجرمنكم شنآن بعض الصوفية للعلوم و بغضهم للمعارف ، ولايرهقنكم الأمراء بالجهل ، ابتغوا الوسيلة للمعالى بالعلوم ، ولئن اتبعتم أكثر من فى الأرض يضلوكم عن سبيل العلا والشرف : « ان يتبعون إلا الظنّ وان هم إلا يخرصون »

ابغضوا كل رئيس لايعين على العلوم ، وأحبوا كل أمير وعالم وصوفى يحثكم على مجاراة الغربيين

أيها الذكىّ : إنا لنرجو منكم فوق ماسطرناه ، نرجو أن تكونوا قدوة الأمم أجمعين ، فمابالنا أصبحنا أذنابا عاجزين ، وفى أخريات الأمم قاصرين ، وفى فيافى الجهالات تائهين ، وعن سبيل الاصلاح معرضين . انتهى الكلام على المقالة الثانية

المقالة الثالثة

أيها الذكىّ : ليكن كل قدوم ومنشار وابرة وبخار وحرارة وكهرباء مما عملت أيدينا ، ومتى أعوزتنا الأيام الى إبرة أومدفع مما عمل سوانا فذلك إثم كبير على المسلمين نعذب به مرّتين : مرّة فى الحياة وأخرى فى الممات

أليس الذى قال فى الكتاب : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » هو الذى يقول : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل » فأوجب على فريق أن ينظر أحوال الأمم وعمرانها وخرابها وسياساتها كما أوجب الحج فى ميقاته على المستطيع ، أتدرى لماذا ترك الناس الأول وأدّوا الثانى لأن الحج سهل معروف ، أما السير فى الأرض فما أحوجه الى اللغات وفهمها ، والأموال وصرفها ، والعلوم وجمعها ، وذلك أصعب الامور وأشق على الجمهور ، فاستحب الناس العمى على الهدى ، والراحة مع الذلة ، وذل الاستعباد مع التخلف ، وطبع على القلوب فهم لا يفقهون

طمس على قلوب كثير فاتبعوا أهواءهم ، وصدوا الناس عن سبيل الاصلاح ، صرح بهذا الكتاب المجيد فقال « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » وفى هذه الآية من التقريع والذم والتوبيخ على الكسل والتخلف عن السير فى الأرض مايدلك على ما ذكرناه ، وتراه لم يكتف بذلك التوبيخ بالعمى بل صرح بأن إيمانهم معدوم فقال : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » . ثم هدد بالعذاب فى الدنيا فقال : « فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين » وقد أكد ذلك الانذار والتهديد بقوله : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض » نعم ذاق المسلمون أنهم تفرقوا شيعا وتمزقوا طرائق ، وتفرقوا حزائق ، واقتتلوا أجيالا طوالا وهو قوله « يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض » وسلط عليهم أخس المماليك ، وأحقر الصعاليك ، فأذلوا ملوك العباسيين ، والدول الاسلامية كالمماليك البرية والبحرية ، وهل ينظر المسلمون اليوم إلا انذار العذاب من السماء الذى نص عليه بقوله « أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم » وتراه أشد وضوحا وذكر مشروحا فى قوله عز وجل : « أفلم يروا الى ما بين أيديهم وماخلفهم من السماء والأرض ان نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء » وفى قوله « وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم » أتدرى ماذلك الكسف المركوم والعذاب الموعود تلك البالونات الهوائية ، والأساطين الجوية ، والمدافع المكسيمية ، وتلك الآلات الجهنمية ، تعدها الآن الأمم الغربية ، فاذا وقعت الواقعة ، وانشقت المرائر ، وأمطرت السماء مطرا من سجين ، وتنزلت الصواعق على الغافلين ، فعند ذلك لا ينفع نفسا إيمانها من المسلمين إلا الذين آمنوا ونظروا وعلموا وجاروا الغربيين ، أولئك هم الناجون من ذلك العذاب الواقع « إن عذاب ربك لواقع * ماله من دافع » على أولئك المسلمين الذين لا ينظرون ولا يفكرون ، ولا يعتبرون بالأندلس وهلاكهم ، وخراب ديارهم ، وأهل أمريكا وعذابهم وفنائهم ، فالى متى أيها الناس أنتم ساهون ؟ أتدرككم صيحة فاجعة ، وحروب واقعة ، فاذا جاءت الطامة الكبرى وشاهدتم سحابا مركوما بالمدافع والجنود ، وأرسلت الصواعق من البارود ، وزمجرت الرعود ، وأمطرت السماء حجارة وحديدا ، ودمدما ورصاصا ، فأول واقع فى العذاب هم الجاهلون ، ولن ينجو من هولها إلا العاملون الذين يصلحون فى الأرض وهم يعقلون ، واتخذوا لهم حصونا فى الهواء ، ولن يكون ذلك إلا اذا أتقنت الصناعات ، وقرئت الرياضيات ، وفهمت الطبيعيات ، وعلمت النواميس ، ودرست السياسات ، وصرتم أمة كالأمم

هذه نصيحة لكم فافقهوها وإياكم أن تضيعوها فوالله إنى لأعلم ذلك يقينا وكأنى بالميدان يجرى فى السماء كالسحاب والدول تصطدم فى الهواء أساطيلها ، وتقتتل على بلاد الاسلام جيوشها ، والمسلمون ينظرون ولا يتكلمون إلا من يعقلون منهم ويعملون ، فانظروا لأنفسكم قبل أن يأتى ذلك اليوم المشئوم لعلكم تتخذون لكم مع القوم سبيلا ، وأنذرهم يوم تصطف المراكب الهوائية وهى تقترب من السحاب ، هنالك تنزل الصواعق

وتهطل الحجارة ، شآبيب شآبيب تدك الصروح ، وتهشم البيوت ، وتدهور القصور ، يوم تمور السماء مورا بالجيوش الحربية ، يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس فى الشرق والغرب هـذا عذاب أليم « ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون »

أيها الذكى : أنذر المسلمين الصيحة العظمى ، والبطشة الكبرى ، « أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير »

هاهوذا اقترب زمان الدخان يغشى الناس من فوقهم من تلك الأساطيل الهوائية التى تعدها الدول لمحاربة الأمم الجاهلة « لقد حق القول على أكثرهم فهم لايؤمنون » ولا يعلمون تلك النواميس العجيبة المدهشة

تلك الصواعق تنزلت على الناس لتنتشلهم من مرابض جهلهم الى إعلاء عرش العلم والحكمة . أنذر الله الناس وحذرهم ثم هو يعد لهم الأساطيل الهوائية ترميهم بحجارة من سجيل حتى يكونوا كعصف مأكول « ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر »

ولعل فريقا يقولون : انما وعدنا هذا يوم القيامة ، وهانحن أولاء الآن فى الدنيا ، نقول على رسلكم فما من صورة فى الآخرة والقيامة الكبرى إلا ولها أخت نظيرتها فى الدنيا « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » ، ولئن سألتهم لم تدهور المسلمون ، وارتطموا فى وهدتهم ، وزلوا من حالق ليقولن الفقهاء انهم عاصون مجرمون ، ليسوا على الصراط السوى . ولئن سألتهم عدوا المعاصى لأجابوك : هى الزنا والخمر والميسر والأنصاب والأزلام وكلها رجس من عمل الشيطان والغيبة والنميمة وهلم جرا يجيبونك بهـذا الجواب الأبتر الناقص ويذرون الذنوب الكبرى والمعاصى والموبقات العظمى وهى سحائب الجهل المركومة تغشى عقولهـم ، وتحجب نورهـم ، وترسل عليهم غاشية من نار ودخان ، بجهل تلك التى يسمونها فروض كفايات

العلوم كلها فروض كفايات كما قدمنا ، رأوا بعد الشقة وطول السفر ووعورة الطريق ومشقته فأعرضوا عنها وتولوا ولم يذكروا للناس من المعاصى إلا أسهلها وهى التروك ، من ترك شيئا فقد عاش بغيره وما أسهل ترك الخمر والميسر والأصنام ، الترك أمر سهل ، فأعرض عن الشىء يعرض عنك . فأما العلوم فلن تنال إلا بمشقة وسهر وتعب أمد العمر فكانت الكلفة فيها أشق ، والعمل أصعب ، والفكر فيها أدق ، والحيلة لجلبها أغمض ، والقيام عليها أدوم وأعظم ، لذلك هربوا منها ولم يحوموا حولها ، وقالوا للناس ما أهلك المسلمين إلا تلك المعاصى المعلومة ونسوا حظا مما ذكروا به من فروض الكفايات ولم يذكروهـم بنحو قوله تعالى : « أفلم يروا الى مابين أيديهم وماخلفهم من السماء والأرض » الآية « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا » هكذا كان حتى قرعت القارعة ، وانشقت المرائر ، وأحيط بنا ، وأصبحنا مضغة الأفواه

أيها الشبان : إليكم أوجه خطابى ، وأدعوكم للعلم والعمل ، فقد بزغت شمس الاصلاح ، و بشرت بوادر الامور بالاقبال ، فالآمال بهذا الجيل معقودة فابشروا بالنجاح وتذكروا قوله تعالى : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » انتهى ما أردته من كتابى « نهضة الأمة وحياتها » والحمد لله رب العالمين

الطيارات فى الجو والضباب القاتل

إن ماتقدم هو الذى نشرته سابقا فى جريدة اللواء بذلك التاريخ ، وحذرت المسلمين منه قبل الحرب الكبرى وصار ضمن كتاب سميته « نهضة الأمة وحياتها » كما ذكرت سابقا ، فأنا الآن أكرر القول بأنى أحمد الله عز وجل انى بقيت فى الحياة الدنيا حتى شاهدت ماوقر فى صدرى قبل تلك الحرب وأن نهاية

الاصطدام بين الأمم كان باستيلاء الطامعين منهم على أمم الاسلام وظلمهم وارهاقهم ، فلأ كتب اليوم مصداق ما كنت كتبته إذ ذاك محذرا ومبشرا ، وأنا واثق جدّ الثقة ببشائر السعادة لأمم الاسلام

في يوم من أيام شهر ابريل سنة ١٩٣١ بينما أنا فى جهة العباسية شمالى القاهرة إذ رأيت الناس يهرعون وينظرون الى السماء ويقولون : « زبلن زبلن » بحركات غير عادية ، وسمعت تصفيقا وأصواتا واستحسانا فنظرت اذا بمنطاد (زبلن) يطير فوق المنازل كأنه الحوت يعوم فى البحر ، واستمرّ يطوف فوق الأحياء أمدا طويلا ، وتوجه الى المطار المعدّ له فى ألماظه التى تقرب من مصر الجديدة (هليوبوليس) وتقبلته شرذمة من العساكر الانجليزية وأمسكوا به وهاك صورتيه (انظر شكل ٢) و(شكل ٣)

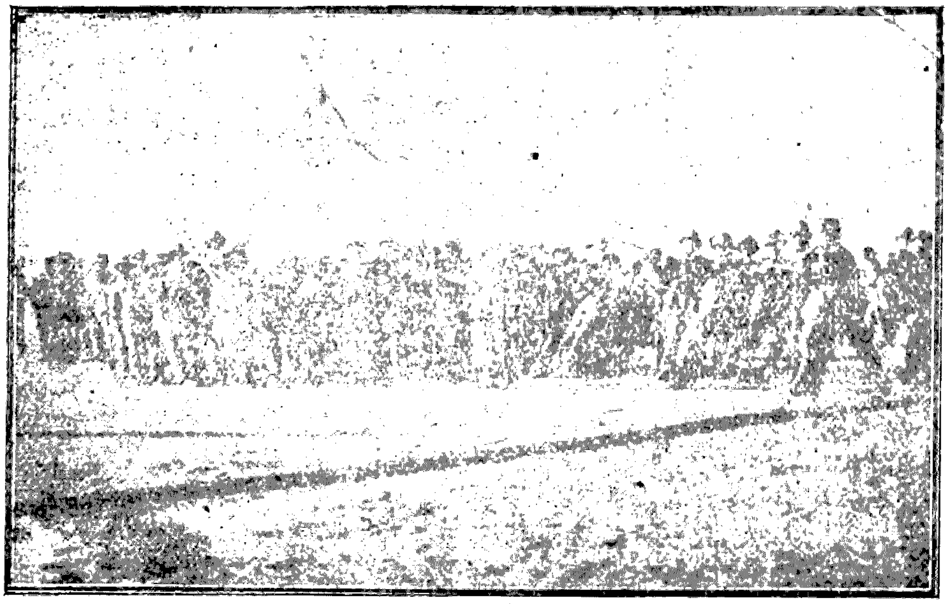

(شكل ٢ ــ الجنود يشدون الحبال لانزال المنطاد فى مطار ألماظه)

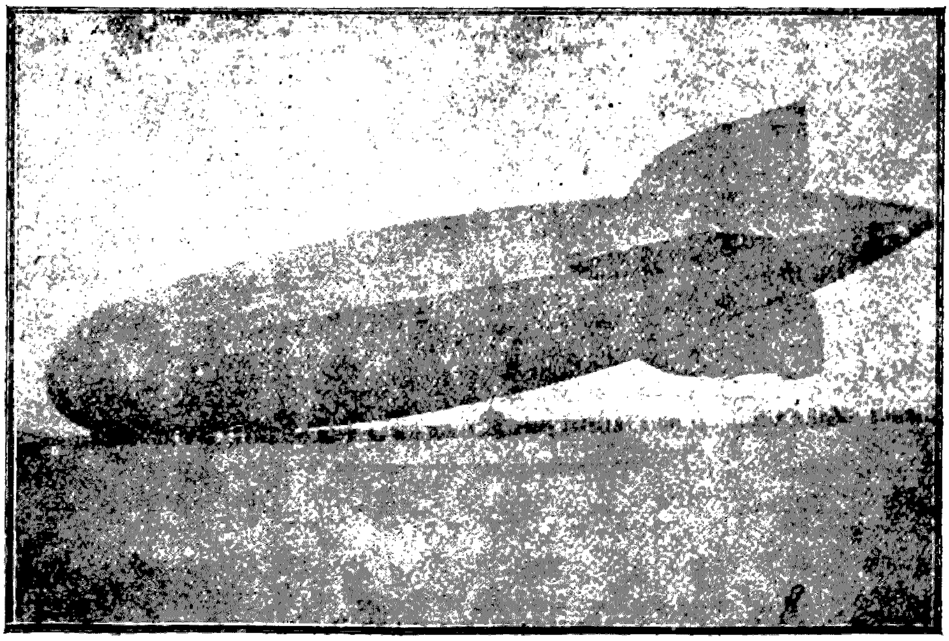

(شكل ٣ ــ صورة المنطاد بعد نزوله فى المطار)

فالصورة

فالصورة الأولى تمثل المنطاد والجنود يشدون الحبال لانزال المنطاد فى مطار الماظه ، والثانية تصور المنطاد بعد نزوله ، وذلك النزول كان فى صباح يوم السبت ١١ ابريل سنة ١٩٣١ وهذا المنطاد طوله يقرب من ٢٣٥ مترا وقطر محيطه يبلغ نحو ٣٧ مترا وهو جسم مهول يطير فى الجو لم تحلم به العصور

ففى يوم ٩ ابريل سنة ١٩٣١ م أخرج المنطاد من حظيرته بكل سهولة عند الساعة السادسة من الصباح ، وكان هناك جمهور من الذين تمكنوا من دخول المنطقة حيوا المنطاد . قال أحد الركاب : « قد ساعدت برودة الجو على أن يحلق المنطاد صعودا فى الجو قبل ادارة المحركات ، ولما بلغ الى علو ١٠٠ متر أديرت المحركات فأصبحنا فى جو مدينة (فريدريكسهافن) فى دقيقة واحدة ، ثم اجتزنا بحيرة (بودن) وعند الساعة السادسة والدقيقة ٢٣ كنا قد وصلنا الى بحيرة كونستانس ، وواصلنا السير فوق الرين حتى دخلنا سويسرا فررنا بمدينة (بريستن) الساعة ٦ والدقيقة ٤٣ ثم اجتزنا الساعة ٧ والدقيقة ٢٠ شافوز حيث شاهدنا شلالات نهر الرين المشهورة بروعتها و بلغنا مدينة بال الساعة ٨ والربع فدخلنا حدود فرنسا وحلقنا فوق مدينة (بيزانسون) على علو يتراوح بين ٤٠٠ و ٦٠٠ متر ، وكانت سرعة المنطاد فى بداية الرحلة ٩٥ كيلو مترا فى الساعة الى أن بلغت بالتدريج ١٢٠ كيلومترا ، وقد كان الجو صحوا ، والشمس مشرقة ، غير أن السماء لم تخل من قطع الضباب وخصوصا فى جو سويسرا . ولما أصبحنا فى الجهة الشمالية الشرقية لمدينة ليون حوّل المنطاد سيره الى الجهة الجنوبية . وذلك لأن السلطات الفرنسية أبلغت قائد المنطاد فى الساعة الأخيرة انه لايجوز له أن يمرّ فى جو مدينتى ليون ومرسيليا ، وهذا بعكس ما كان قد وقع فى رحلات المنطاد السابقة ، ولاحت لنا مدينة ليون عن بعد عند الساعة العاشرة ، ولكن المنطاد انحرف فى سيره ليبتعد عنها ، وقد حلقت طيارة فرنسية وسايرت المنطاد فى منطقة ليون حتى اتجه الى الجهة الجنوبية الغربية مارّا بمدينة فنيسيو فمدينة جيفور ، ثم تابعنا وادى نهر الرون حتى بلغنا فالانس عند الساعة ١٠ والدقيقة ٥٥ وهى النقطة التى وقفت فيها أربعة محركات من محركات المنطاد فى الرحلة التى قام بها فى مايو سنة ١٩٢٩ فاضطر المنطاد الى النزول فى مطار كويرس بيبرفو الذى تمكن من الوصول اليه بقوة محرك واحد ، وظلت مناظر المدن تتابع كشريط السينما ، فررنا بمدن مونتليمار وأورانج وافينيون وطراسكون وارل الى أن بلغنا جنوبى سهل (كرو) . وساعدت الأحوال الجوية سير المنطاد أثناء الليل فمرّ على مقربة من مالطه فى منتصف الليل ، وفى الساعة السادسة صباحا وصلنا الى الشاطئ الافريقى شرقى بنغازى ، وفى الساعة السادسة والدقيقة ٤٣ وصلنا الى درنا » وقال أيضا :

من ألمانيا الى افريقيا فى ٢٤ ساعة

« ليتصوّر القارئ كيف تناولنا فى بكور أمس فطورنا بفندق كورجاتن فى فردريكسهافن وفطورنا الثانى فوق بازانسكون بفرنسا وغداءنا مقابل كتيلزور ، والشاى فوق جنوب كرسيكا والعشاء فوق غرب صقليا ، وتناولنا الفطور اليوم فوق المياه المصرية ، وهكذا جاء جراف زبلن بنا من ألمانيا الى الشاطئ الافريقى فى ٢٤ ساعة بالضبط ، فقد غادر حظيرتنا فى الساعة السادسة من صباح أمس ، وشرع فى رحلته فى الساعة السادسة والدقيقة الثامنة ، ثم وصل الى افريقيا فى الساعة السادسة من صباح اليوم » انتهى ما أردت اثباته فى هذا المقام والحمد لله رب العالمين

الدخان والضباب وآثارهما فى الأمم فى زماننا، وكيف وافق نص القرآن

الكلام على أن الدخان سلاح الحرب المقبلة

وأن ضبابا أحدث قتلا فى أوروبا، وهذا من عجائب القرن العشرين، مصداقا لآيات القرآن

جاء فى جريدة مصر يوم ٢٥ اكتوبر سنة ١٩٣٠ مقالا تحت العنوان التالى مانصه :

الحرب القادمة وسلاحها الحديث

أصبحت العلوم الكيماوية من أهمّ العوامل فى حياة الأمم الحديثة وحروبها لأنها أساس الذخيرة الحربية والمؤن المختلفة اللازمة للمقاتلين والأهلين، وقد كان لها الأثر الأكبر فى إطالة مدة القتال فى الحروب العظمى فلو أن ألمانيا مثلا لم تتمكن من استخراج الحض النتريك من أزوت الهواء للاستعاضة به عن النترات التى كانت تستوردها وعجزت عن عمل البارود والمفرقعات لاضطرّت الى التسليم فى أوّل سنى الحرب

وماقيل بشأن الآزوت يقال أيضا بشأن المعادن والمنسوجات والمطاط والمواد الدهنية وسائر المواد الغذائية وكان هناك ارتباط وثيق بين الكيمياء الغذائية والكيمياء الحربية، فلو أن الألمان مثلا حرموا الزراعة من الأسمدة الآزوتية للاحتفاظ بالآزوت للفرقعات، أو استخدموا البطاطس وهى أساس غذاء الأهالى لعمل الكحول اللازم لحلت المجاعة لامحالة بالبلاد، على أن الكيمياء الألمانية تمكنت من حلّ المشكلتين فى آن واحد، مراعية لوازم الذخيرة والمؤنة للغذاء، ولولا استعداد معاملها الكيميائية وتجهيزها منذ زمن بعيد للقيام بكل مايطلب منها لما استطاعت قط أن تقف الموقف الذى وقفته من أعدائها طول مدة الحرب، فانها كانت بين أمرين لاثالث لهما إما انتاج مايلزمها واما التسليم فتمكنت مدة طويلة من الانتاج بفضل كيميائييها العديدين الذين كانوا مدرّبين على العمل

ولم يكن للحلفاء بدّ من مقابلة ألمانيا بالمثل فتمكنوا من مقابلة الاختراع بمثله، فازدادت بذلك الاختراعات المبيدة والنافعة فى وقت واحد، حتى اذا خيم السلام على العالم انتفع الناس بتلك الاختراعات سواء فى المسائل الصناعية أو الزراعية أو التجارية أو الفنية، حتى صرنا كلما قلبنا مجلة علمية من المجلات الاوروبية الجامعة نجد بها كثيرا من الآلات التى اخترعت أثناء الحرب وبعدها وسهلت الأعمال الحيوية المختلفة أمام المنتجين فى كل قطر من أقطار الأرض، ويكفى أن نشير فقط الى أن الغازات السامة والخانقة التى ابتدعها الألمان أصبحت تستخدم اليوم فى إبادة الجرذان والجراد وغيرها من الحيوانات والهوام التى تغشى المزارع والحقول، وأن آلات حفر الخنادق أصبحت تستعمل الآن فى حفر الجدران ودك الأحجار واقامة الأرصفة كما أن الدبابات تستخدم فى تسوية الأراضى الحجرية ونسف التلال وغيرها مما يعوق نظام الأراضى

هذه فوائد اختراعات الحرب، غير أن المراسل الحربى لمجلة نيويورك العلمية الجامعة يقول إن العلوم الكيمائية سيكون لها الفضل فى الحرب القادمة التى أخذ شبحها المخيف يجول الآن فوق سماء أوروبا لأن كيميائيى الألمان باختراعهم الغازات الخانقة والسامة وغيرها مهدوا لغيرهم أن يخترعوا غازات أشدّ فتكا منها كغاز اللبويسيت الخانق الذى اخترعه أحد كبار ضباط الأمريكان وله قوّة على القتل أشدّ من سائر الغازات التى كانت مستعملة قبل الحرب

وهذا الغاز عبارة عن سيال زيتى تشتم منه رائحة الجرانيوم وقت انفجاره ويلتهب بملامسة الهواء، أما اذا أطلق فى الهواء فانه يتحوّل الى غاز يقتل لساعته بمجرّد استنشاق شىء يسير منه لأنه يسمم الدم ويفتك بالقلب والرئتين وان سقطت منه قطرة واحدة على الكف سببت الموت بعد ساعات قليلة يقضيها صاحبها محتضرا

فى

فى عذاب أليم

وقد وضع الأمريكان هذا الغاز فى شكل قنابل طول الواحدة عشرون سنتيمترا تطلق بآلات موضوعة على عجلات سيارة تقطع ٢٤ كيلومترا فى الساعة ، وقد اختبرت فنجحت للغاية ودلت على أن هذه العجلات تستطيع أن تطلق قنابلها الغازية على مسافة ثمانين كيلومترا

وتأثير الليويست عند انتشار غازه يبقى شديدا الى مسافة بعيدة حتى ان فتكه يكون ذريعا على مسيرة أميال كفتكه عند مصدره ، واذا ألقى من طيارة انتشر فى بقعة عظيمة وقتل الالوف من الناس بلا رحمة ، واذا ألقيت ست قنابل منه على عاصمة من العواصم الكبرى أهلكت سكانها وأبادتهم فى الحال

وهذا الاختراع وضع فى يد الأمريكان أقوى سلاح عرف منذ خلق العالم ، ومن يعلم غدا ماتفتقه عقول المخترعين من الاختراعات الرهيبة فى الحرب المقبلة التى ستكون أشدّ الحروب ويلا وأعظمها فظاعة . انتهى

الكلام على الضباب

جاء فى تلغراف خاص من لندن من مراسل جريدة «الضياء» بتاريخ يوم الخميس ١١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ م تحت العنوان التالى وهذا نصه :

تكاثف الضباب فى انكلترا

تكاثف الضباب ثانيا وعرقل سير المواصلات فى شواطئ انكلترا الجنوبية وفى لندن وضواحيها ، ولكنه انقطع فى اليومين الأخيرين فى خليج المانش ، أما فى ساوثمبتون فكان كثيرا ، وكذلك فى دوفر وعند مصب نهر التيمس ، وكان ينوى جلالة الملك الخروج للصيد لأوّل مرة بعد ابلاله من مرضه فى سنة ١٩٢٨ إلا ان حالة الضباب جعلته يضطر الى العدول عن الصيد ، وفى توبكنهام قد انقشع الضباب عنها قليلا عند الظهر

ضحايا الضباب فى البلجيك

يقول الخبيرون انه لابد أن الضباب الذى غشى جوّ البلجيك كان مصحوبا بمواد غازية خانقة والتى كانت سببا فى هلاك ٦٠ شخصا ولكن لم يثبت بعد أن اللهب الكبريتى الصاعد من المصانع كان له أى أثر فى ذلك ، وفيه أيضا ما يأتى :

هل أصبحت مسألة الضباب سرّا غامضا ؟

برلين فى ١٠ ديسمبر لمراسل الضياء الخاص : يكتنف مسألة الهول الناجم عن تكاثف الضباب وضحاياه سرّ غامض نظرا لهلاك كثيرين بسببه فى الوادى القريب من لييج ، ولكن يظهر أن هذا السرّ المقنع أمكن الآن ازاحته بالتحقق من أن الأسباب المباشرة لضحاياه هو الاعتراف بوجود أبخرة خانقة من الدخان المؤذى المتصاعد من مداخن المعامل ثم يرسب ويتجمد ، وقد كان عدد ضحايا الضباب ١٣٠ شخصا بخلاف الذين نقلوا الى المستشفيات والذين تحت خطر الهلاك اختناقا ، ولكن اتضح من تشريح الجثث طبيا أنه لا أثر فيها للغازات السامة كما دلت تقارير الخبراء الاخصائيين ، وقد فتحت هذه الحادثة المروعة والغريبة فى بابها بابا للعلماء لاكتشاف مفتاح هذا السرّ الغامض ، وبدؤا يزاولون بحثهم بغير توان ولا كلل بينما ترى أمامهم مواكب الجنازات التى يشيعون فيها المنكوبين الى مرقدهم الأخير ، وقد أرسلت فرق من البوليس لحفظ النظام فى الأقاليم المنكوبة اهـ

وجاء فى تلغراف آخر من برلين من مراسل جريدة الاهرام الخاص بتاريخ ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٠ ميلادية مانصه :

عودة الضباب الوبائى الى بلجيكا

جاء من بروكسل أن الهول الزاحف الذى أودى بحياة الكثيرين فى وادى الموز فى أوائل هذا الشهرعاد فى عيد الميلاد ، إذ خيم ذلك الضباب الوبائى القتال على مدينتين فى المنطقة الجنوبية ، فقضى على حياة ثلاثة أنفس ، وهنالك عدد كبيرمن المصابين بهذا الوباء فى حالة خطيرة ، وأنذرت الحكومات الناس بملازمة المنازل ، وقصد أعضاء اللجنة التى انتدبت لفحص الضباب الأول الى تلك المنطقة لمواصلة المباحث العلمية لمعرفة العلة اه

هاهوذا سلاح الطيران فى الحرب الكبرى السابقة وفى الحرب المقبلة وهو الدخان ، وهاهوذا الضباب الذى أخذ يظهر فى أوروبا قليلا قليلا و يقتل الناس . أيها الناس : أليس هذا عجبا ! ينزل الله سورة باسم الدخان ، ثم يقوم الناس باستخراج ذلك الدخان من المواد الأرضية و ينشرونه بينهم فيقتل الناس بسهولة ثم نرى الله عزّوجل يخرج من لدنه ضبابا و ينشره بينهم فى بلجيكا وغيرها فيموت به أناس ، أليس هذا الثانى هونفس الدخان الذى جاء وصفه فى الحديث الشريف المتقدم ، وأن هذه الانسانية الجاهلة الغبية لما أن سارعت الى استخدام الدخان الصناعى فى المحاربة أشار الله لهم وللمعجزة القرآنية بالضباب فى أوروبا من صنعه هولامن صنع الانسان ، وكأنه سبحانه يقول لهم : أنا قادرأن أبعث عليكم عذابا بنفس الدخان وأنشره بينكم فتهلكون فى يوم أو بعض يوم ، لقد شرحتم الجثث التى أماتها دخانى ، فهل وجدتم فيها أثرا غيردخانى أنا « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » إن الضباب الذى أهلك النفوس انذار للأمم كلها بالهلاك عاجلا أوآجلا اذا لم تقلع عن الشرّ ومصداق للنبوّة واستعجال بالآيات التى ستظهرقبيل قيام الساعة ، فكأن العناية الالهية أظهرت هذا لتدل المسلمين على أن مافى كتابكم من الدخان هذا نموذجه وعنوانه ، فكتابكم صدق وحق ، ولكن ليس معنى هذا انكم تكونون جهلاء فلابد من التعليم والجدّ ومجاراة الأمم حتى تفوزوا فى الدنيا والآخرة . والى هنا تمّ الكلام على اللطيفة الثانية والحمد لله رب العالمين

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : وماخلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين

هذه اللطيفة فيها جوهرتان

الجوهرة الأولى : محاورة سقراط مع أرسطوديموس

علم سقراط من أرسطوديموس انه لايقرب القرابين ويحقرالامورالدينية ويسخرممن يعتني بالعبادة فقال له : أى الناس من يعجبك براعته فى الصنعة ؟ فقال نعم يسمى الشعراء والمصورين من كان منهم أبرع من غيره فقال سقراط : أيما عندك أرفع شأنا ؟ أمن يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل ؟ أم من يصوّر الأشباح الحية المتحركة ؟ فقال من يصنع الصور الحية المتحركة اللهم إلا اذا كانت تلك الصور من عمل المصادفة والاتفاق لامن عمل العقل . قال سقراط : اذا فرضنا أشياء لايظهر المقصود منها وأشياء أخرى بينة القصد والمنفعة فما قولك فى تلك الأشياء ماهى عندك من فعل العقل . وماهى من فعل الاتقان ؟ قال لاشك ان ماظهرقصده ومنفعته من فعل العقل . قال سقراط : أوليس ترى أن صانع الانسان فى أوّل نشأته جعل له الآلات والحس لما فى تلك الآلات من المنفعة الظاهرة فأعطاه البصر والأذنين ليبصر و يسمع ما يكون لعيشه نافعا ، ومافائدة الروائح لولم يكن لنا الخياشيم ، وكيف ندرك المطاعم ، ونفرق بين الحلو والمر والمز لولم يكن لنا لسان نذوق به ، ان بصرنا معرّض للآفات ، أوليس ترى كيف أعتنت القدرة الإلهية بذلك فجعلت

الأجفان له كالأبواب لتمنع مايصيب البصر وجعلت الأشفار كالمناخل لتقيها من أضرار الرياح فما قولك فى آلة السمع وهى تقبل جميع الأصوات ولاتمتلىء أبدا ، أما رأيت الحيوان كيف رتبت أسنانها المقدمة وأعدت لقطع الأشياء فتلقيها الى الأضراس فتدقها دقا ، فاذا تأملت فى ترتيب ذلك أيمكن لك أن تشك هل هى من فعل الاتفاق أوالعقل ؟ قال أرسطوديموس : نعم اذا تفكرنا فى ذلك لانشك فى أنها من فعل صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته . قال سقراط : اعتبر ماجبل عليه الذكور من حب التناسل وفى الاناث من الحنين الى بنيها ، وهومغروس فى كل حيوان من الشوق الى الحياة ، والنفور من الموت ، أليس ذلك من عناية صانع قد أراد بقاء مصنوعاته ، فاذا تحققت وجود العقل فيك فكيف تظن ألا وجود للعقل فيما هوخارج عنك مع انك اذا تفكرت فى الأرض واتساعها وقست ذلك بجسدك فقد تحققت أنه ليس لك من الأرض إلا أخس جزء وأقله وكذلك الرطوبة التى منها تركب جسدك فانها ليست من مجموع الرطوبة إلا أحقرجزء وكذلك بقية مافى جسدك فكيف تظن انك منفرد تستبد بالعقل دون بقية العالم على سعته ورحبه ، وأن هذه المصنوعات التى لاتدخل تحت الحصر ، وهذا النظام الغريب الحاصل فيها إنما نشأعن عدم العقل قال لا والله وانما لا أرى أصحاب هذه العجائب كما أشاهد أصحاب التماثيل والصور المصنوعة فى عالمنا هذا . قال سقراط : انك لاترى نفسك المدبرة لبدنك ، فعلى هذا كان ينبغى لك أن تقول ان أفعالك صادرة عن اتفاق ومصادفة لاعن عقل . قال انى لا أستصغر اللاهوت وانما أراها تجل عن أن تكون محتاجة لعبادتى . قال سقراط : فاذا كانت لاتجل عن العناية بك كان من الواجب أن تحترمها . ثم قال : اعلم أيها الحبيب أن نفسك تدبر جسدك ما دامت مقارنة إياه ، فعليك أن تعتقد أن الحكمة الموجودة فى العالم تدبر كل شىء كما شاءت . أتظن أن بصرك يقدر على ادراك مابعد عنك على مسافة بعيدة ، وأن بصر الإله لايقدر على أن يحيط بجميع مافى العوالم . انتهى ملخصا

وانما نقلت هذه المحاورة لأنها من أحسن ما قاله الناس فى نظام هذه الدنيا وعناية الله بها وهو معنى قوله تعالى : « وما خلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين » . فالمحاورة تبين بالعقل وجود الله تعالى وعنايته بالمخلوقات . ثم ان سقراط استدل على بقاء النفس بأدلة فى المحاورة التى بينه وبين فيدون فى بقاء النفس بعد الموت وهاك ملخصا منها :

قال سيبس : ماهى العلة فيما يقوله الناس ؟ أنه لايسوغ قتل المرء نفسه ؟ هذا ماكان يقوله فيلالوس وغيره ، ولكن لم أظفر من أحد بعلة شافية فى ذلك ، قال سقراط : طب نفسا ، لعلك ترشد اليوم الى ماتطلبه بل ولعلك تقضى العجب بما أقوله وهوانه يجب على كل امرىء أن يعيش وان كان ممن الموت خير له من الحياة ، ألا تستغرب انه لايجوز لمن يؤثر الموت على الحياة أن يتخلص منها بنفسه ، وانه من الواجب عليه أن ينتظر من يخلصه منها . فقال سيبس : الله أعلم على عادة بلاده . قال سقراط : هذا الرأى مخالف للعقل فى ظاهره ، ومع ذلك فله علة معقولة ، نعم ان مايقال عند تعليمنا أسرار العبادة : « ان الانسان كالجندى المنصوب لحراسة لايسوغ له أن يتركه بدون إذن » فهوصعب الفهم ويتجاوز قدرتنا . فالأحسن أن يقال « إن الملائكة لهم عناية بالنفس ، وأن البشر متاع للملائكة وملك » ، ألا ترى هذا حقا ياقابس ؟ فقال قابس نعم . قال سقراط : لوأن بعض رقيقك قتل نفسه من غيراذنك لغضبت عليه ولعاقبته لوكان من الممكن ولهذا السبب فقد يسوغ القول بأنه لايجوز للانسان أن يقتل نفسه ، وينبغى له أن ينتظر الاذن بالخروج من الحياة مثل ما أتانى اليوم . قال قابس : وهذا لايبعد عندى أيضا ، لكن اذا ثبت عناية الملائكة بالبشر وأن البشر من ربهم ومتاعه ، كيف تقول ان الفيلسوف يميل الى الموت بارادته ؟ وكيف يعقل أن يحب الفيلسوف الخروج من ولاية الملائكة وترك هذه الحياة اذا تقرر عنده أن أفضل الولاة يصرفون عنايتهم اليه

مادام حيا ، أيظن انه يدبرنفسه أحسن مما يدبرون ، نعم ان السفيه قد يحاول الفرار من ربه بكل وسيلة ولايفهم انه لولازم ماهوأفضل منه لكان خيرا له ، لكن العاقل يريد أن يبقى دائما فى ولاية من هو أفضل منه ، ولذلك فانى أقول بإسقراط نقيض ما تقوله أنت ، فأقرّ بأن العاقل يشق عليه الموت ، فلايسرّ بالموت إلا المجنون . فقال سقراط : ماهو رأيك فى الموت ؟ أليس هى فراق الروح من البدن بحيث يصيرالروح وحده الى جهة والبدن وحده الى جهة أخرى ، أليس هذا مايدعى الموت . قال سيمياس : وهوكذلك . قال سقراط فهل ترى انه يناسب الفيلسوف أن يحرص على مايقال له الملاذ مثل المطاعم والمشارب وغيره من اللذات التابعة للبدن ، فيكون حرصه مثلا على الملابس الفاخرة ، والنعال المزخرفة ، و باقى مايزين به البدن ، هل ترى انه يعظم أمرها ، أوانه يحتقرها إلا اذا أحوجته الضرورة الى استعمالها . قال سيمياس : أرى أن الفيلسوف الحقيقى لايسعه إلا احتقاركل ذلك . قال سقراط : فانك ترى إذن أن اجتهاد الفيلسوف انما قصده ليس البدن ، وأن يفرغ جهده فى التباعد عنه قدر امكانه ليتفرّغ لمصالح نفسه دون غيرها ، وعلى ذلك فان الفيلسوف يختص دون غيره من البشر باجتهاده فى الفصل بين نفسه و بدنه والفرق بينهما . قال سيمياس : وذلك ظاهر ، إلا ان أغلب الناس يرون أن من لم يلتذ بمثل ماذكرته ولايستعمله فهوممن لايحسن التصرف فى حياته ، وانه أقرب الى الموتى منه للأحياء . قال سقراط : وهذا حقّ فماذا تقول فى اكتساب العلم ؟ هل ترى أن البدن مما يعوقه ، أوانه يعين عليه ، هل ترى أن البصر والسمع مثلا مما يدرك به الحق اليقين ، أم الحال كما قال الشعراء انا لانسمع ولا نبصرشيئا كما هوفى الحقيقة ، فاذا لم يثبت شيء مما ندركه بهاتين الحاستين لم يثبت شيء مما ندركه بالحواس الأخرى ، لأنها تنقص عنها قوّة وادراكا ، وعلى هذا اذا سألنا عن الوقت الذى تدرك فيه الروح الحق لايقال انها تجد الحق مادامت مشاركة للبدن ، لأنا نرى عيانا أن البدن يزيغها عن الطريق الحق ويملؤها أوهاما ، فينبغى أن يقال : « ان الروح لا يدرك الحقّ إلا بالفكر » ونرى أن الفكر أقوى ما يكون اذا لم يشوشه البصر ولاالسمع ولا الألم ولااللذة ، فانحاز فى نفسه وفارق البدن مفارقة تامة وتعلق بما هوموجود ليعلمه . قال سيمياس نعم ما قلت . قال سقراط : أوليس تحتقر الروح البدن فى قتل تلك الأوقات وتنفر منه ، وتحاول فى أن تنفرد بنفسها . قال سيمياس : انى أرى ذلك أيضا . قال سقراط : فماذا تقول فى بعض الأشياء كالعدل مثلا والخير والجمال ، هل تقول انها موجودة أم لا ؟ قال سيمياس : لاشكّ فى وجودها . قال سقراط : هل رأيتها ببصرك هل أدركت بحاسة من حاساتك الأخرى الصحة والعظم والقوّة وغير ذلك مما هوجوهر الأشياء أى ماهيتها ، هل تعلم حقيقة ذلك بواسطة البدن ، أوليس من الثابت أن ذلك انما يدرك أتمّ ادراك اذا تهيأ الانسان لأن يدركه بالعقل وحده ، وانه يبلغ فى ذلك غاية البيان اذا جعل كل شيء نصب بصيرته من غير أن يستعين بالبصر وغيره من الحواس البدنية واستعمل فكره صافيا من غيرشائبة شيء دونه فحاول بأن يدرك جوهر الأشياء الصافى الحقيقى دون مشاركة العينين والأذنين منفكا عن بدنه انفكاكا تاما إذ لايحصل له من مشاركته بالبدن إلا التشويش وعدم وجدان الحق ، فأقول : انه اذا قدرأحد على ادراك جواهر الأشياء فلايقدرعليه إلا مثل من ذكرته الآن

فثبت انه اذا أردنا أن نعلم شيئا حقّ المعرفة فلابد من الانفصال عن البدن حتى تنفرد النفس بالنظر فيما قصدنا معرفته فلاننال المعرفة التى صرّحنا بحبها إلا عند ذلك أى بعد موتنا ومفارقة الحياة ، وهذا مما يؤيده العقل أيضا ، فانه لما بين انه من المستحيل أن نعلم شيئا صافيا مادمنا فى صحبة البدن لايخلو الأمر من حالين إما انا لانعلم الحق أبدا ، واما انا نعلمه بعد الموت لأن الروح إذ ذاك يكون مالكا لنفسه حرا مما يعوقه الآن فمادمنا فى قيد الحياة لانتقرّب من الحق إلا بقدرماتباعد عن البدن وتنفك عن الخلطة معه إلا بقدرماتدعو إليه الحاجة ولانجيز له أن يعدونا بما فيه من الدنس طباعا وتبقى به أنفسنا صافية من قاذوراته الى أن يخلصنا

الله ، فاذا تخلصنا من سفاهة البدن يشبه أن يكون كلامنا إذن مع من تخلص مثلنا فنعلم بنفسنا جوهر الأشياء الصافى وهو أصله مايدعى الحق ، هذا مايقوله الفلاسفة فيما بينهم على ما أراه . فاذا كان الأمر كما ذكر فان كل من هو بصدد السفر حيث أنا متوجه كان له أن يرجو ادراك الحق الذى أجهدنا طلبه فى هذه الحياة وعلى ذلك فان هذا السفر الذى أمرنى به الإله قد ملأنى رجاء ، وعلى مثل هذا يكون كل من اعتقد من نفسه أنها مستعدة لمعرفة الحق أى انها بلغت من الصفاء والنقاوة القدر اللازم ، وهذا الصفاء لايكون إلا بانفصال النفس عن البدن وتعوّدها على الانفراد بنفسها دون مشاركة قيدها البدنى ، واذا كان الموت ليس إلا هذا الفراق بين النفس والبدن ، أليس من الصواب أن يقال : إن الفيلسوف لاشغل له إلا هذا الفراق فاذا سعى عمره كله لنيل هذا الغرض ثم تأسف وغضب عند اقتراب الموت أليس ذلك من الضحك ؟ قال سيمياس : نعم ماقلت . انتهى كلام أفلاطون وهو الدليل الأوّل على أن الموت لايخاف منه من تفرّغ للفلسفة إلا ان لمعترض أن يقول : ما الدليل على بقاء النفس بعد الموت ، فاذا لم يكن انا ثبوت ببقائها فأنى لفيلسوف ما كان يرجوه من ادراك الحق عند مفارقة بدنه ، فأخذ سقراط فى الردّ على هذا الاعتراض و بيان بقاء النفس بعد موتها ، فأتى بأدلة : أوّلها انا شاهدنا فى العالم الضد إنما يتولد عن ضده ، فالجيل مثلا ينشأ عن القبيح ، والعدل عن الجور ، واليقظة من النوم ، والنوم من اليقظة ، والقوّة من الضعف ، و بالعكس فالأشياء تستحيل بعضها الى بعض ، ثم ترجع على صفة الدائرة الى ما كانت عليه ، والحياة والموت والوجود والعدم نقيضان ، فالحياة تنشأ عن العدم ، والموت ينشأ عن الحياة ، وعلى ذلك فيلزم أن تنشأ الحياة من الموت إذ لابد أن يكون للموت ماينافضه والا فقد تخالف الطبيعة قاعدتها المطردة فى جميع الأشياء : ثانيها مايستدل به من طبيعة العلم ، وذلك ان العلم انما هو تذكر النفس ما كانت قد علمته فى حياة سابقة ومصداقه أنه أجهل الناس اذا سئل سؤالا منتظما عن مبادئ الهندسة مثلا ، وانتقل به السؤال من أصل الى أصل شيئا فشيئا على الترتيب فقد يجد من نفسه مبادئ الهندسة ومبادئ كل علم ، وهذا لايمكن إلا اذا كانت تلك الاصول منطبعة فى فطرته ، موجودة عنده قبل ولادته ، وهناك دليل آخر من هذا النوع ، وهو انا لولا فرضنا علما سابقا موجودا فى ذهننا لما تمكنا من فهم شىء من الموجودات فانا اذا قابلنا مثلا شيئا بشىء آخر ما أمكن لنا أن نقول انه مساو أوغير مساو ولو لم يكن فى ذهننا قبل كل مقابلة معنى المساواة المطلقة التى لم نستفدها من الأشياء المحسوسة إذ لاشىء منها يتحقق فيه المساواة إلا بنوع تقريب ومسامحة فوجب أن تكون معنى المساواة مرتسمة فى ذهننا حتى نحكم على الأشياء انها متساوية بعضها ببعض أوغير متساوية ، ومثل هذا يقال فى باقى مايحكم به فكرنا كالجمال والعدل والوجود وغيره ، فان كل ذلك يستدعى معرفة تلك المعانى قبل الحكم بها فيلزم منه أن العقل البشرى إنما اكتسب هذه المعرفة بمشاهدة تلك المعانى صافية غير مشوبة بالمادة قبل ورودها الى هذا العالم

ألا ان لقائل أن يقول هذا الدليل قد يكفى لبيان وجود النفس قبل هذه الحياة الدنيا ، فما الدليل على بقائها بعد الموت ؟ فأجاب عدة أجوبة أوّلها : ان النفس جوهر غير مرئى فيلزم منه انه على غير طبيعة الأجسام لأن من طبيعة الجسم أن يكون مدركا بأحدى الحواس واذا كانت على غير طبيعة الجسم فهى إذن غير مدركة لأن التركيب من طبيعة الأجسام ، واذا كانت بسيطة فانها غير قابلة للانحلال لأن الانحلال يعترى المركب الى المواد التى منها تركبت ، فاذا كانت النفس بسيطة فلا يتصور انحلالها . الثانى : ان النفس هى الآمرة والبدن هو المأمور فمن طبيعة الامور الالهية أن تكون آمرة ومتصرّفة ، ومن طبيعة الامور السفلية أن تكون مأمورة فالنفس إذن من الامور الالهية وهو غير قابل للزوال ، فهى اذا بقيت على صفائها وفطرتها من غير أن تشارك البدن فى أدناسه فانها تلتحق بعد الموت بموجود مثلها فتبقى معه سعيدة مبتهجة محرّرة من أوهامها وأخوافها

وأهوائها وكل ما كان يسخرها و يشوشها إذ كانت فى قيد الحياة ، واذا تركت البدن ملوثة مدنسة غير معتقدة من الوجود إلا مايؤكل و يشرب ويدرك بالحس فلايسعها إلا أن ترجع الى الحياة فتتعلق بأبدان مشاكلة لطبيعتها ، فمن جعل بطنه إلهه يلتحق بأجسام حمير أوخنازير ، ومن كان دأبه التعدى والظلم والعدوان يتعلق بأجسام الذئاب والبوازى وغيرها من الحيوانات الضارية ، ومن اعتاد الخير والصلاح لكن بقوة الطبيعة والملكة دون أن يشاركها الفلسفة والفكر فقد يصير من النحل والنمل وغيره من الحيوانات النافعة ، أو يتعلق بأبدان الصالحين من الرجال ، وأما الالتحاق بالملائكة فلايجوز إلا لمن ترك الحياة وهو على غاية من النقاوة والصفاء ، وهذا مختص بالفيلسوف الحقيقى دون غيره

قال أفلاطون : وقد سكت سقراط بعد هذا الكلام برهة وسكت أصحابه مفكرين ، ثم رجع سقراط لسؤالهم : هل ماسمعوه منه يكفى فى إثبات بقاء النفس بعد الموت ، أوفى الأقل فى ترجيح هذا الرأى على غيره إذ هى الغاية القصوى التى يمكن ادراكها فى هذه الحياة فى مثل هذا الموضوع ، فاعترض عليه بعض التلامذة باعتراضين : الأول . لقائل أن يقول إن النفس للبدن كالألحان لآلات الموسيقى ، فاذا تكسرت الآلة وفسدت لم يبق للألحان وجود ، وهكذا يمكن أن يقال : إن النفس ماهى إلا نتيجة تكافؤ العناصر واعتدالها فى المزاج الانسانى ، فاذا فسد الاعتدال وتلاشى المزاج تفسد النفس لامحالة ، والاعتراض الثانى أن يقال : قد سلمنا بوجود النفس قبل هذه الحياة وأنها أفضل من البدن وأقوى منه وانها تبقى بعد موته غير انه لايترتب على ذلك بقاؤها على الدوام إذ قد يتأتى انها تبقى بعد موت بدنها ، ثم بعد موت بدن ثان ، فتنتقل هكذا من بدن الى بدن مدة ، ثم تفنى بفناء أحد أبدانها كما يموت الانسان وهو قد أخلق الثوب بعد الثوب ، ثم يموت عن آخر ثوب قد أخلقه

فأجاب سقراط عن الاعتراض الأول بقوله : اذا سلمنا أن العلم والتعلم انما هو تذكر النفس ما كانت قد علمته فى حياة سابقة ، فلايسوغ أن يقال ان النفس نتيجة اعتدال المزاج إذ لوكان كذلك لما سبق وجودها وجود المزاج ، فكيف تتذكر معلوماتها فى حياة سابقة ، فاذا وجب الاعتراف بأن العلم لايتصور إلا بوجود هذه المعلومات السابقة فى النفس لزم منه أن لاتكون النفس نتيجة المزاج . وهناك جواب آخر وهو انه لوكانت النفس نتيجة المزاج لكانت تابعة للمزاج ولاتخالفه فى شىء بل تكون مسخرة له ، ونجد الأمر على خلاف ذلك فى الواقع إذ قد نرى النفس تنهى البدن عن أشياء ، وتأمره بأشياء ، وتتصرف فيه بوجوه مختلفة ، وهذا يدل على انها مغايرة للبدن مستقلة عنه ، وأن جوهرها أعلى وأفضل من طبيعة البدن إذ لوكانت تابعة للمزاج لما كانت تفارقه فى شىء ، ولما كانت النفس تختلف عن النفس إذ لافرق بين الألحان والألحان إلا فى القوة والضعف لامن حيث انها ألحان ، ونحن نشاهد بين النفس وأخرى التفاوت العظيم . أما الاعتراض الثانى فجوابه أن الأشياء المحسوسة الفانية لايتصور قيامها إلا بوضع معان غير محسوسة أزلية كاملة الوجود ، وأن هذه المعانى مادامت هى هى لاتقبل شيئا مما يناقضها ولمثل ذلك فان معنى العدل لايقبل شيئا من الجور والمساواة لايداخلها شىء من التفاوت ، والفرد مادام على جوهره الفرد لايقبل من الزوجية شيئا والعكس بالعكس ، والقول فى النفس على مثل القول فى المعانى سواء بسواء إذ قد تقرر أن النفس جوهر بسيط قائم بنفسه مجانس للمعانى فيكون حكمه مثل حكم المعانى من عدم قبول الضد والنقيض ، ولاشك أن النفس أصل للحياة فى كل حى فهى إذن حية من ذاتها فهى إذن لاتقبل نقيضها أى الموت مادامت على جوهرها وهو عين الحياة ، فكما أن الفرد مثلا لا يكون زوجا ، ولا العدل جورا مابقيا على حالهما ، كذلك النفس لاتقبل الموت ولايدخلها الفناء فهى إذن أزلية ، ثم اذا كان الموت نهاية كل شىء كان فيها فائدة عظيمة للشرير والظالم فانه يستريح بالموت من نفسه ، ومن بدنه ، ومن شره ، ومن عواقب شره دفعة واحدة ،

وهذا مما لا يرتضيه العقل ولا الانصاف ، فتعين أن نعتقد فى النفس أنها اذا فارقت البدن فقد تحمل معها ما كانت عليه من الأوصاف وأن عاقبتها تكون فى الحياة القابلة على نسبة تلك الأوصاف ان خيرا فخير وان شرا فشر فمن ترك وهو فى قيد الحياة ملاذ البدن ومتاع الدنيا واجتنبها كما يجتنب مالا يعنى أو يضر ولم يطلب من اللذة إلا ما يحصل عن العلم ، وزين ضميره بما يواتيه من الزينة كالعفة والعدل والمروءة والحرية والصدق فله أن يترقب وقت السفر من غير اضطراب . انتهى الكلام على الجوهرة الأولى

يقول المؤلف : الأدلة جيلة ، ولكننا نخالف سقراط فى مسألة التناسخ وانتقال أرواح الناس الى حيوانات فهذه مردودة ردا بشدة ، وأيضا الناس ليسوا ملكا للملائكة بل ملكا لله وحده اهـ

الجوهرة الثانية

حكاية

قد جاء فى الجرائد الفرنجية منذ سنين أن التلاميذ فى إحدى الكليات بانكلترا ليلة سمعوا ضجة عظيمة فى المدرسة ، ذلك انهم أزعجتهم طلقة نارية ، فهرولوا الى مكان الحادثة ، فرأوا تلميذا يهوديا مضرجا بدمه ، وبجانبه الآلة التى ضرب نفسه بها وهى (الريفرفر) ووجدوا ورقة مكتوبة بجانبه وفيها : « أنا الذى قتلت نفسى لأنا فى هذا اليوم قرأ علينا الاستاذ قول أرسطاطاليس : إن الانسان لا سعادة له إلا بعد الموت ، فها أنا ذا قتلت نفسى لأصل الى السعادة » .

وقال أصحاب هذا التلميذ : انه قال عند المساء ، انى سأقتل نفسى الليلة ، فضحك منه أصحابه ، وقالوا : لماذا ؟ قال لأصل الى السعادة ، فان أرسطاطاليس يقول : « إن الانسان مادام فى البدن فان البدن يعوقه عن سعاداته ، فزاد ضحكهم ، وظنوا انه يلهو ويلعب ، وقد تم ماقصده » اهـ

يقول المؤلف : وهذا هو الذى فى هذه المقالة

خاتمة المقال

فى معجزات القرآن ، فى سورة الدخان

تبين لك فى هذه السورة أن الدخان رآه أهل مكة ، وأنذروا البطشة الكبرى ، وقد تم ذلك يوم بدر والمسلمون اليوم رأوا الدخان فى الحرب الكبرى ، وأنذروا البطشة الكبرى ، والبطشة الكبرى آتية لا ريب فيها فى الدنيا أوفى الآخرة ، والأقرب أن تكون فى الدارين ، فكما كانت البطشة الكبرى يوم بدر ولم تمنع من بطشة القيامة فهكذا ستكون البطشة الكبرى فى الدنيا ولا تمنع من بطشة يوم القيامة ، والبطشة الكبرى يوم بدر كانت على الكافرين ، والبطشة الكبرى المستقبلة ستكون على من يجهلون نظام الله تعالى ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ انها ستكون على المعاصى السلبية المتقدم ذكرها ، فمن تركوا العلوم والمعارف والصناعات والمواهب التى أعدها الله فى الأرض فانهم لامحالة تصيبهم البطشة الكبرى فليكن المسلمون على حذر ، إن الله ماذكر البطشة الكبرى إلا بعد ماقال فى سورسابقة : « سأوريكم آياتى فلاتستعجلون » وقال : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها الخ »

فالله اليوم قد أبان الحقائق للشعوب ، والأمم الاسلامية تنظر ولاتعمل ، فالبطشة الكبرى موجهة لهم ولأمثالهم ممن يتعامون عن الحكمة والعلم ولم يأخذوا الحيطة والحذر ، إن فى تسمية السورة باسم الدخان أمرا عجيبا ، وكيف تسمى السورة باسمه ، وينذر الله المسلمين به ، وينذرهم بطشته الكبرى ، إن هذا من أكبر المعجزات فى هذا الزمان ، فقد أرى الله المسلمين الآيات ، وأظهر لهم المعجزات ، وأبان لهم الخبآت ، ولم يذر

حجة إلا أقامها ، ولا آية إلا أبرزها ، فان نام المسلمون بعد الآن جاءتهم البطشة الكبرى فكانوا لها خاضعين ومن فكر وتدبر منهم لم يصبهم من الدخان المزمع حصوله إلا كهيئة الزكام ، فليستعد المسلمون للعلم وليحذروا النوم والكسل ، وقد أنذرت وحذرت والله هو الولى الحميد تمت سورة الدخان يوم الجمعة ١ مايو سنة ١٩٢٥

تذييل لسورة الدخان

لقد أصبحت مسألة الدخان من المسائل المعتادة فى العالم الانسانى ، ولما ختمت تفسير السورة يوم الجمعة فى التاريخ المتقدم اطلعت يوم السبت الموافق ٢ مايو سنة ١٩٢٥ م على مقال تحت عنوان « آراء فى وادى النيل وسكانه » جاء فى التلغرافات العمومية فآثرت نقله ليعلم قارئ هذا التفسير أن ذكر الدخان فى القرآن وتسمية السورة باسمه من أكبر معجزات القرآن ، فى هذا الزمان ، وهذا نصه :

نشرت جريدة منشستر جارديان اليوم مقالا للمستر رانسوم وصف فيه سياحته من القاهرة الى الشلال فقال ما يأتى : « إن مصر ليست بلادا بل نهرا فشقة الأرض الضيقة على ضفتى النهر هى الصالحة للسكنى وهى تتوقف بكل مافيها من عوامل الحياة على مجرى ماء واحد ، ففى وسع من يسافر فى النهر أن يرى الصحراء وراء المعمور على الجانبين ، واذا وضع مدفع على أحد الجانبين فانه يسيطر على البلاد كلها . الى أن قال : وتهب الرياح الشمالية على طول ذلك الوادى الضيق مدة شهور عديدة ، فاستعمال الغازات السامة على الطريقة الحديثة يكفى وحده بدون صعوبة لاهلاك جميع الأهالى ، وتقع النتيجة نفسها اذا أمكن حجز النهر أو تحويل مجراه . انتهى المقصود منه

فانظر كيف أصبح الكلام على الغازات السامة أمرا عاديا ، وأصبح الدخان بمثابة السيف والمدفع ، فكما يقال سيف ومدفع يقال غازات خانقة أو سامة ، وهو الذى أعلنه القرآن منذ ألف وثلثمائة سنة ، والعالم الانسانى اليوم قادم على أمور هائلة ، فاما فناء عظيم لقوم واذلال لآخرين ، واما أن يكون الناس قادمين على زمن انقلاب الى حال أجمل مما نحن فيه لأن الشىء متى جاوز حده انقلب الى ضده . وبهذا تم تفسير « سورة الدخان » والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الجاثية

(هي مكية)

إلا قوله تعالى : وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . فمدنية

آياتها ٣٧ — نزلت بعد الدخان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ءَايَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ * وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ * اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَءَاتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ * هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ

لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ * وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * هٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ * وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * ذٰلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *

هذه السورة قسمان

﴿ القسم الأوّل ﴾ فى تفسير البسملة

﴿ القسم الثانى ﴾ فى تفسير السورة كلها

القسم الأول فى تفسير البسملة

فى يومى الثلاثاء والأربعاء ١٧ و ١٨ من شهر مارس سنة ١٩٣١ م تجلى لى يوم الثلاثاء هـذا الجسم

الانسانى بهيئة عجيبة ، وأخذت أدهش وأعجب من نظامه البديع ، أرانى أقف على قدمى ، أما اليدان فانهما مطلقتان ، ولمفاصل الأصابع ، وابداع الأنامل والبنان أثر عظيم فى الصناعة والزراعة والسياسة والتجارة ، ولو لم تكن أيدينا معاشر بنى آدم على هذا المنوال وبهذه الهيئة لم نحسن عملا من أعمالنا التى برعنا فيها ، يداى حرّتان ورجلاى لاصقتان بالأرض عند الوقوف ، دوابّ الأرض وبهائمها وأنعامها وزواحفها لم تعط هذه المزية ، واذا كانت يداى مطلقتين فلاجرم انطلق معهما عقلى فأدرك بعض الحقائق والمعارف التى تصوغها اليدان ، فلم يك للحصان ولا للثعلب اللذين شغلت أيديهما بحمل جثمانهما ليجريا فوق الأرض من الفكر مابه يصنعان مايصنع الانسان ، لاعقل ولافكر إلا حيث يمكن العمل ، ولوأعطيا عقلا يقدران به على صنع الملابس والقصور فى مدننا العظيمة وهما باقيان بحالهما لم تتغير أيديهما لكان ذلك خطلا فى النظام ، إذن العقل لايعطى إلا على قدر الحاجة ، وكل مالم يعط من الأيدى ما أعطى الانسان لاينال من الفكر والذكاء المناسب لصنع اليدين ما أعطيه الانسان

ثم نظرت اذا الطير فى جوّ السماء تطير بأجنحتها ، ورأيت نهر النيل أمامى يجرى فيه السمك ، ورجعت الى الانسان فوجدته لم يتجاوز بصنع يديه من الأعمال مابه ارتفع عن الطير فى الجوّ ، أوانحط عن السمك فى الماء ، الانسان محكوم عليه بالحبس فى هذه الأرض ، هومع هذه الحرّية مسجون سجنا مؤقتا ، وهذا السجن نهايته الموت ، الأرض سجن سجن فيه الحيوان والنبات والانسان ، النبات لاصق بالأرض والحيوان منجذب اليها ، والانسان هو الذى ارتقى بعقله ، وكل مانقصه بطبعه ناله بعقله وصنع يده ، فهاهوذا اكتسى جلابيب من صنع يديه بدل الأشعار والأوبار ، وارتقى فى الجوّ كالطيور بالطيارات ، وجرى فى البحر والنهر كالسمك وذلك بالغوّاصات ، الانسان لم يرتق الى الأفلاك ، ولم يصل الى القمر أوالمريخ أوالمشترى فضلا عن السماك ، ولم يخرق الأرض فيغوص فى قاعها ويصل الى مركزها مخترقا قشرتها وماتحت قشرتها ، إذن صناعاته لم ترتفع به فوق الطيور ، ولم تنزل به تحت السمك

الانسان رقيه الذى وصل اليه فى الأرض لم يزل محدودا معدودا ، الانسان حرّ وهوعبد ، مختار وهو مجبور ، لايتسنى له أن يصعد الى الجوزاء فيعرف أخبارها ، ولاأن يصل الى باطن الأرض فيدرس علومها ، وأىّ سجن أشد من هذا ! وليس سجنه قاصرا على هذا ، بل هومسجون فى طباعه وأخلاقه وآرائه وأحواله ونظام عشيرته ، وعوائدأمته ، وتقليده لآبائه وأساتذته ، وليس له خروج من ربقة التقليد إلا بقوّة تغلب على مادته تضارع قوّة الطير فى الجوّ إذ تعالى عن الجاذبية التى تلصقه بالأرض ، فأخذ يضرب هواء الجوّ بجناحيه فهرب الهواء الى الوراء ، ثم يكرّ الهواء راجعا الى الأمام فيضرب الجناح ، وبهذا يكون الطيران ، فهذه العملية التى قام بها الطير جعلته بعيدا عن الأرض غير لاصق بها ، وهذه جعلت درسا للانسان ، وعلى هذه الشريطة صنع الطيارات فطار بها ، والى هنا وقفت أعمال الانسان من حيث الارتفاع فى وقتنا الحاضر ، نعم الانسان محبوس محدود الارتفاع ، محدود السياحة فى باطن الأرض ، ولكنه من جهة أخرى له سياحة عقلية ، هو يدرك الأفلاك بعقله ، ويدرسها بفكره ، وبالعقل وحده طار فى عوالم الأفلاك ، وغاص فى باطن الأرض وعرف أبعادها وأطوارها ومساحاتها ودرس ما أعجز كل حيوان على هذه الأرض ، فاذا كان الانسان فى سجن من حيث جسمه ، فهو فى حرّية من حيث عقله

الانسان مجبور مختار محبوس مطلق

لم يحبس الانسان فى الأرض لظلمه ولا لإهانته . كلا . ولكنه حبس ليدرس ، وبقى ليتعلم ، ولوأنه أطلق سراحه وقيل له طر كما يطير الطاووس ، وحلق فى جوّ السماء ، وتنقل فى الكواكب ، وابتهج بجمالها

كما تبتهج النحلات الطائرات فى الحدائق بجمال الأزهار .

أقول : لوأنه قيل له ذلك لخرج من الحياة بغير طائل لأنه لم يدرك كوكبا واحدا فضلا عن كواكب ، بل يعيش و يموت وهولاعلم له ولاحكمة وليس له كتاب منير ، ويكون مثل الانسان إذ ذاك كمثل الذين يغدون و يروحون فى دورالسينما (الصورالمتحركة) يقضون أوقاتهم فيها لهوا ولعبا ثم يرجعون ولاهم يعقلون

لوأن الانسان كان هـذا شأنه لم يكن انسانا بل لم يكن إلا حشرات طائرات بين الكواكب كالحشرات الطائرات بين الأزهار .

تلك هى الحكمة فى تباعد الكواكب واختلاف أضوائها و بعـد الشقة بينها حتى يستقر كل جماعة فى كوكبهم و يدرسوا نظامه ، ومتى كملت نفوسهم بحصول الملكات العلمية ، هنالك يصلحون لدراسة نظام باقى الكواكب ، فاذا تنحت الأرواح عن أجسامها وغادرت هذه الأرض بالموت طارت الى تلك الكواكب وهى عالمة قادرة على التعقل والفهم ، وهنالك تكون السعادة والسلام .

حبس الانسان فى الأرض إذن رحمة

إذن ماظهرلنا أنه شر هوفى حقيقته خير ، فههنا أمران : جسم ظاهره شرّ و باطنه نعمة لأنه كان سببا فى دراستنا هذه الأرض مدة حبسنا فيها مدة الحياة بما نعمل لتغذيته وتنميته ومداواته ولباسه والمدافعة عنه بنضال الأعداء والحساد ، وروح لها الاشراف على العوالم كلها ، فالروح خير والجسم يعين على خير الروح لأنه جعل لترقيتها ، بجميع الأغلال التى تحيط بنا فى هذه الحياة ، وأنواع الهوان والذّل . كل ذلك لرقىّ أرواحنا فاذا رأينا هذه الأجسام منجذبة نحوالأرض ، وهذه الشهوات الحيوانية تعذبنا كالمال والولد ، وأنواع الزينة والمتاع فمآل ذلك لترقية الروح . إذن الضدان وهما الخير والشرّ أوالروح والجسم مآلهما الرحمة . وهذا معنى « بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » فاعجب لهذه الرحمة المذكورة فى هذه السورة . ثم اعجب لما خطرلى . فالذى خطرلى أن للانسان جسما وللانسان روحا . فبالجسم أصبح الانسان والحيوان أشبه بالمحبوسين فى جهنم الذين قيـل فيهم : « وترى المجرمين يومئذ مقرّنين فى الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار »

أنا لست أقول ان الحيوان والانسان اليوم فى جهنم . كلا . ولكنى أقول ان هـذه الأجسام الحيوانية لها شبه ضئيل من حيث طباعها بطباع أهل جهنم كما أن قول القائل : « فلان وجهه كالبدر » ليس معناه انه مثـله من كل وجه . والانسان خاصـة نراه يلبس ملابس مصبوغة بمواد القطران المستخرجات من الفحم الحجرى كما هومعروف وتقدم فى هـذا التفسير موضحا ، والحرارة والبرودة تزيدان وتنقصان وهما تغشيان وجوه الانسان والحيوان . ونرى أن الأمم العظيمة فى وقتنا الحاضر أشبه بزبانية جهنم لأنهـم قوم مجرمون يضحكون على ذقون الأمم الضعيفة الشرقية و يبيعون لهم المصنوعات الجميلة و يغمسونهم فى النعيم و يذيقونهم العذاب ألوانا و يحتلون بلادهم . وقد تنبه الشرقيون اليوم لهذه المخازى . وأوّل من استيقظ لذلك أهل الهند واتبعهم العرب ومنهم أهل بلادى عند كتابة هذه المقالة . فهاهم أولاء أخذوا يقاطعون البضائع الأجنبية لأنها نذير الهون والشرّ والذل .

و بالجملة ان الأجسام الانسانية يحيط بها الشقاء ، ومن الشقاء أن الدول الظالمة معذبات بظلمها لأن الشر يصبح فيها عادة وذلك يضعفها بعد حين . فالمظلومة معذبة وقت ظلمها ، والظالمة ستلقى جزاءها فى نفس الحياة بعد حين باستفحال الشرّ فيها . وهذه الشرور اللاحقات بالظالمين والمظلومين نتائجها البصائر والحكمة والعلم والعـبرة . فهذه دروس تعتبر بها الأمم و يتخرج بها رجال يذيعون العلم فى أكناف هذه الأرض فى كل حين

وبالروح أدرك الانسان الحقائق حتى أشبه الملائكة الكرام ، وهذا ملخص ماتقدم ، أليس هذا هو معنى الرحمة فى البسملة ؟ ياعجبا ! شرّ وخير معا يصبحان رحمة ، إذن الشرّ رحمة والخير رحمة ، الضدان رحمة ، أليس هذا به نعرف معنى ماورد فى الصحيح « الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشرّه من الله » وإذا كان القدر خيره وشرّه من الله فلم نقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، هلا قلنا بسم الله الرحمن المنتقم ، ولم نقول : الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ، ولم نقول : فلك الحمد على ماقضيت ؟ ولقد قلنا ان القضاء فيه الخير والشر ، ولاجرم أن الحمد لا يكون إلا على نعمة ، والشرّ فى ظاهره ليس نعمة .

هذه بعض أسرار بسم الله الرحمن الرحيم ، فهو باحداث الخير رحيم ، وباحداث الشرّ والآلام يحافظ بهما على الخير كما حافظ على عقولنا وربّاها بما حبس أجسامنا فى الأرض وأحاطها بالتكاليف . كل ذلك يقوّى الروح فتقوى على السير فى العوالم الأخرى .

هذه هى الأسرار التى ألهمتها فى هذا اليوم ، وهذه الأسرار ظهرت فى قوله تعالى فى أوّل السورة « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » ، فعزّته ظهرت فى قهرنا ببقائنا فى الأجسام الأرضية وشرورها وحروبها ورذائلها ، وحكمته ظهرت فى ارتقاء أرواحنا بذلك السجن . ومن عجب أن السورة بدئت بالعزة والحكمة وختمت بهما ، ففى أوّلها « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » وفى آخرها « فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين ۞ وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » . وهل افتتاحها واختتامها بالعزة والحكمة معا إلا لايقاظنا لدراسة هذه الدنيا ، لأننا اذا لم ندرسها نعيش أشبه بالمنافقين لأننا نقول : بسم الله الرحمن الرحيم مع ان النوع الانسانى يعيش وهو فى شقاء أمد الحياة ، فأين هذه الرحمة ؟ فيقول لله : أيها الانسان ، أنا عزيز وحكيم ، فقهرى لك مصحوب بالحكمة فى تربيتك ، وأنت لن تعقل هذا إلا بالدراسة ، فادرس الأرضين وماعليها ، فبذلك تكون من الموقنين

واعلم أيها الذكىّ أن أسماء الله عزّ وجل ليس يعرف معناها هذا الانسان إلا بدراسة هذه الدنيا ، وكيف نعرف تكرار التربية ثلاث مرات فى آخر هذه السورة إذ يقول : « فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » مع ذكر الكبرياء والعزّة والحكمة إلا بالدراسة الصحيحة ، فهو مربّ وذو كبرياء وعزّة مع الحكمة ، ثم كيف نفهم قوله : « إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين ۞ وفى خلقكم وما يبثّ من

« سجد وجهى للذى خلقه وصوّره وشقّ سمعه وبصره الخ » فى حال السجود) يرجع الى الدراسة المفصلة لأن تفصيل تشريح الانسان ويتبعه ماحوله من الحيوان هو الذى يورث اليقين.

الله أكبر ، إن هذا من أعظم أسرار آية « واسجد واقترب » والحديث « أقرب ما يكون العبد من ربه وهوساجد » ، ألاترى أن فى السجود ذكرتشريح الانسان ، وباتقان دراسته هو ومايتصـل به من علم الحيوان يكون اليقين ، وباليقين يكون الحب ، والحب هوأقصى سـعادة الانسان ، انظرماتقدم فى سور كثيرة من اجماع العلماء أن اليقين والحب لا يكونان إلا بالدراسة التفصيلية . والآية هنا جعلت اليقـين فى دراسة خلقنا وخلق حيواننا . اللهم إنّ هذا عجب وأىّ عجب ، فعزّته عزّوجل بحبسه لنا فى الأرض جعلتنا موقنين بالدراسة الخاصة ، ولولم يحبسنا لعشنا جهالا ، فالحمد لله على العلم والفهم والحكمة .

خواطرى يوم الأربعاء ١٨ مارس سنة ١٩٣١ فى تفسيرالبسملة فى سورة الجاثية

إن هذه الخواطر متممات لما تقدمها فى يوم الثلاثاء ، ذلك أنى قد أصابنى مرض خفيف ، وقد جرت عادتى أثناء هذا التفسير أن أعمل بما أكتبه فيه من علم الصحة ، ولقد تقدم فيه أن أطباء العصرالحاضر قد رأوا أن الانسانية كثيرة الاسراف فى ملابسها ومآكلها ومشاربها وشهواتها ونصحوا الناس أن يلتمسوا الشفاء فى ترك كثير مما تلبسوا به ، ومن ذلك أن يجعلوا أجسامهم معرّضة للشمس بشروط خاصة تقدمت فى فى ﴿ سورة يونس ﴾ فى أوّلها ، وأنا قد عملت بهذه الشروط ، وصرت أجلس فى الشمس عاريا بعد التدرّج فى ذلك (وذلك فى الخلوات) للتداوى ، ففى يوم الأربعاء فعلت ذلك ، وفى أثناء هذه الجلسة أخذت أفكر فى أمرهذا الانسان فى الأرض ، وكيف كانت رحمة الشمس عامة ، وقدتعرّض لها النبات والحيوان فكانت الصحة والقوّة

أما الانسان فان أمره عجب ! أسرف فى ملابسه وجعلها زينة له كما افتخر بالمآكل والمشارب وهو فى كل ذلك يحفر قبره بيـديه ويتعجل المرض والموت والفقر والذل ، ولقد عجبت لأمراء هـذا الانسان وملوكه وأغنيائه كيف شملت الغفلة أكثرهـم ، وعمت أغلبهم ، ذلك أنهم لايكادون ينالون تلك النعم حتى يفعلوا ما يفعله الصبيان والنساء فيتظاهرون بالزينـة والزخارف والقصور ويتناولون ألوان الطعام وقد نسوا علم الصحة وجهلوا حقيقة السعادة فى هذه الحياة الدنيا ، أوليس من العجب أن هذا الانسان المسكين تسوسه الحكمة الإلهية سياسة الانسان للدواب ، ألم تر أن الانسان ربما يمسك حشائش بيـديه وقد تكون من مستنقع يضرّ بالدواب ضررا بليغا فيقدمها للجاموسة الشاردة فترجع اليه ، أليس الملوك والأمراء لما قصرت أنظارهم وقلت علومهم فى أكثر هذا النوع الانسانى قيل لهم احفظوا الأمم واحكموا الدول وهاكم الملابس والمآكل خذوا منها ماتشاءون ، إذن جزاء قيام بعضهم بحفظ أممهم قد يجلب المرض والضعف والموت الزؤام لهم .

ياسبحان الله : ضوء الشمس رحمة أرسلها الله لعباده فحرموا منها أجسامهم بما أكثروا من ملابسهم ، ولم ينالوا من ذلك الضوء مانالته الآساد والنمور فى القفار وحرمت الأجسام من تدخل الضوء فى المسامّ الجلدية الانسانية كما يتدخل فى المسامّ الجلدية الحيوانية والفتحات الشعرية فى أوراق الشجر والنبات .

ما أعظم الجهل فى أرضنا ، أرى الأغنياء فى بلادنا المصرية الذين يملكون أرضا شاسعة قد يمرّون وهم مكبلون بملابسهم على الزرّاع الذين فى مزارعهم وهم عراة الأجسام ماعدا عوراتهم فيرونهم أقوياء الأبدان أما هم فانهم مرضى الأجسام فلايفكرون فى ذلك .

ياسبحان الله : معصـية آدم تلبس بها بنوه فحرم أكثرهم السعادة «ولات حين مناص» ، يولد الطفل ويحرم جسمه من ضوء الشمس من يوم الولادة الى يوم الوفاة وهذه من أكبر الضربات على هذه الانسانية

فى يوم الأربعاء استحممت بالماء الحار وأتبعته بالماء البارد ، وهذه الطريقة كما تقدم مفيدة ، ثم جلست فى الشمس ، فنال جسمى مزيتين : مزية الماء ، والشمس ، فهما نعمتان نلتهما معا فى هذا اليوم ، وان كنت لم أعلم بهذه النعمة إلا فى أيام كبر سنى ، ومالا يدرك كله لا يترك كله ، ضوء الشمس نعمة ، وكلما خفت الملابس كان الجسم الى الضوء أقرب و بالصحة أولى .

حرم كثير من الناس هذه النعمة جهلا بنعمة الشمس واتباعا للعادة الراسخة فى نوع الانسان ، ضوء الشمس نعمة والناس جهلوها ، ومن جهـل النعمة حرمها ، إن الحرمان من تلك النعمة يتبعه الذل ، فاذا انتاب المرض أكثر الناس وقصرت أعمارهم بحرمان جلودهم من ضوء الشمس فان بعض الأمم الشرقية أغنياءهم وفقراءهم بسبب الغرام بالتقليد الأعمى كتقليد القرود لم يكتفوا بما ينتجه صناع بلادهم من الملابس وان لم تكن من أجود الأصناف بل اخذوا يتفننون فيها و يشترونها من الملابس التى نسجها الفرنجة فى بلادهم وذلك من أكبر الجهالات الفاشية فى أمم الشرق الأدنى كبلاد شمال افريقيا و بعض بلاد العرب ، تلك الأمم التى نامت نوما عميقا ، فلبست ملابس الفرنجة وصارت تلك الملابس أصفادا قيدوا بها وأغلالا فى أعناقهم وهم يسحبون فى حيم الاستعباد ، وأنا أحمد الله إذ كتبت هذا وأنا أعلم أن الأمم العربية على بكرة أبيها قد استيقظت لهـذا الخطر وأخذت تعد له عدته ، و بالاجمال ان نعـمة ضوء الشمس عامة ، ولما توارى عنها الانسان وأسرف فى تواريه بالملابس أورثه ذلك الاسراف إما ضررا فى الصحة كالامراء والملوك ، واما أن يضاف اليه شيء آخر ، وهو الذل والاستعباد بالاستدانة و بالترف والنعيم .

هذا ملخص هذا المقال وهو الذى خطر لى وأنا معرض جسمى لضوء الشمس ، ثم انى بعد الظهر أخذت أمشى على شاطئ النيل فى المنيل وقد تجلت لى هـذه الدنيا بهيئة جميلة ، وأخذت أفكر فى هـذا الهيكل الانسانى ، ذلك أن لى حاسة بها ألمس الحارّ والبارد ، والرطب واليابس ، وأعرف الثقيل والخفيف ، والناعم والخشن ، فهذه الحاسة كأنها ربة هذه المحسوسات ، ولى حاسة أخرى تفرق بين الطيب والخبيث من الروائح وهناك حاسة أعلى منها بها أعرف الأصوات وأنواعها ، وأخرى بها أعرف القريب والبعيد والألوان والسطوح والأجسام والحركات والسكنات ، وهذه هى حاسة النظر وعمدتها الشمس التى أراها أمامى فى المنيل

ياعجبا ! هـذه الشمس أمامى قد ملأت الأفق تبرا نثرته فى القفر والحقـل والحـديقة والبرّ والبحر ، هاهوذا الضوء منشور فى كل مكان ، وهذا التبر به أعرف الطرقات وأفرح بالجمال ، والعـين أعظم الحواس الظاهرة كما أن الشمس أبهى الموجودات المحسوسات ، فلا تنفذ الى ماوراء ذلك ، فماهو ياترى ؟ إن ما وراء ذلك هو عقلى ، ووراء الشمس عقل عام .

ياعجبا ! هـذا اللمس يميز بالملاصقة لكل ماحولى ، وحاسة الذوق تعرف الحلو والمرّ ، والحريف والملح ، والحامض والعفص الخ ، وحاسة الشم تميز الروائح ، وحاسة السمع تعرف الأصوات ، وحاسة البصر تميز المبصرات فهل وراءها إلا العقل ، ذلك العقل الذى به ندرك حقائق ماحولنا ثم نجد له نظيرا فى الأرض والسماء

أنا أشرب الماء والماء يحيط بالأرض لاينفد ، أنا أشم الروائح وهى أيضا فى كل مكان لانفاد لها ، أنا آخذ الهواء بالشهيق فيدخـل فى رئتى ، والهواء يحيط بالأرض لاينفد ، أنا أرى النور والنور يحيط بالأرض وذلك ببصرى ، فلم يبق إلا أن أقول : أنا لى عقل يدرك الحقائق ، وهذا العقل أرى آثار نظيره فى الشمس وفى القمر والكواكب والنبات والحيوان والسحاب وكل مركب و بسيط . فههنا عقل عام لى أنا شـعبة منه كما كان لى شـعبة من الهواء وأخرى من الماء ، العقل العام يحيط بالكائنات إحاطة الأثير بها ، واذا كان ماء جسمى وهواؤه وموادّه الأرضية لها ارتباط بالماء وبالهواء و بالمواد الأرضية ، فما لاريب فيه أن هنا عقلا عاما يحيط بهذه كلها ولا نفاد له وهو متصل بعقلى وروحى ، وهذا العقل الكلى بالنسبة لله عزّ وجل أشبه بضوء الشمس

بالنسبة للشمس ، وهذا لمجرد التمثيل للتقريب والا فالأمر فوق عقولنا ، إذن هنا رحمتان عامتان : أولاهما رحمة الشمس وضوئها التي جهلها الناس فانقلبت عذابا في الدنيا بالأمراض إذ حجبوها عن أجسامهم ، وبذهاب مجدهم واستقلالهم بالاسراف فيما يسترون به أبدانهم . ثانيتهما : رحمة العقل العام الذي اشتقت منه عقولنا واتصلت به ، وهذا العقل مستمد من نورالله الذي ليس كمثله شيء وهوالسميع البصير .

وهذه الرحمة الروحية العقلية يحملها كل انسان في هذه الأرض ولكنها رحمة مخبوءة . الله رحم الناس بضوء الشمس فجهلوها ، فمنعوا الضوء عن أجسامهم ، فاعترتهم الأمراض ، وضاعت بلادهم بالاسراف فيما يلبسون ، ورحمهم باشراق نفوسهم وعقولهم ، ولكنهم بغفلتهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، ذلك لأن أنفسهم مستمدة من العقل العام ، والعقل العام نور أودعه الله في العوالم كلها وعقول بني آدم فروع منه ، ولوأنهم استيقظوا لذلك النور بالدراسة والصلاح وتقليل الشهوات لكانوا دائما في حضرة مفيض ذلك النور وصانعه واقتربوا منه « إن رحمة الله قريب من المحسنين » والى هنا تم الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين

القسم الثاني في تقسيم السورة

هذه السورة ثلاث مقاصد

﴿ المقصد الأول ﴾ دلائل التوحيد بخلق السموات والأرض والدواب ، واختلاف الليل والنهار ، وانزال المطر ، وتصريف الرياح ، وتسخير الفلك ، ومايتبع ذلك من المكاسب في التجارة ، وصيد السمك ، وحوز اللؤلؤ والمرجان بالغوص عليهما ، وتخلل ذلك جهالات الكفار ، ووجوب صفح المسلمين عنهم ، ومغفرتهم لهم من أول السورة الى قوله : « ثم الى ربكم ترجعون »

﴿ المقصد الثاني ﴾ فيه ذكر أن بني اسرائيل كان فيهم كتاب التوراة والشرائع العظيمة والنبوة ومعجزاتها وعندهم الرزق الحسن ، وفوق ذلك كانوا مفضلين على عالمي زمانهم ، وكانت لهم أدلة في أمور دينهم ، ومع هذا كله قد اختلفوا فيما بينهم لغلبة الشهوات والحسد والعداوات ، فاذن أهل الأرض متشابهون ، أشبه الآخرون الأولين ، فقومك على هذه الطريقة في هذه الحال ارتطموا ، ولقد بلونا كم كما بلوناهم فهل تصبرون فاصبر يامحمد وليصبر أصحابك والمصلحون من أمتك فان عالمكم هكذا شأنه ، فدم على شريعتك ولاتعبأ بمن خالفك ، وهذا القسم الى قوله : « ورحمة لقوم يوقنون »

﴿ المقصد الثالث ﴾ من قوله تعالى : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات » الى آخر السورة ، وهذا في محاجة الكافرين وتقريعهم

﴿ التفسير اللفظي ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

(حم) اشارة الى الحمد على النعم التي لاتتناهى المذكورة مجملة في هذه السورة . وأيضا سيأتي في آخرها « فلله الحمد » ، ان الحمد في أمة الاسلام هوكل دينها ، لأن الحمد راجع الى مجامع العلوم والأعمال ، الحمد يستوجب كل علم وكل عمل ، فكأن « آل حم » تفسير لسورة الحمد وهي الفاتحة ، أوهي مثال العلوم النافعة للأمة كلها ، وللاشارة أيضا الى الحكمة المذكورة في قوله (حكيم) ففيها الحاء والميم ، وذلك فوق ما عرفت من مزايا الحروف كلها مجتمعة في سور كثيرة ، أولها سورة « البقرة » والحمد والحكمة مجامع العجائب

لأن

لأن الحمد لا يكون إلا على ماعلم من النعم والحكمة ونظام هذه الدنيا . والحق أن هذه السورة سيتضح لك فيها من غرائب العلم وبدائع الحكمة مايذهل له الغافلون من المسلمين الذين ظنوا الجدل وعلم الفقه يكفيان أمة الاسلام المظلومة المهضومة الحقوق التى طاردتها أمم أوروبا بعد أن طاردها علماؤها ومنعوها من الاستضاءة بالأنوار الالهية ، فاللهم قيض لأمتنا من يهديها الى الهدى ، ويردها عن الردى ، ويهديها الى الصراط المستقيم (تنزيل الكتاب) كائن (من الله العزيز) الغالب (الحكيم) فى تدبيره ، ولاجرم أن ذكر الحكمة بعد العزة يعرّفنا أنه مع قهره للعوالم المادية والروحية لايتصرّف فيها إلا بحكمة فهو غالب قاهر وقهره مصحوب بالحكمة كما يشاهد فى النبات والحيوان والأجسام الانسانية ودوران الكواكب وانتظامها فى سيرها وصقلها حتى أضاءت ، كل ذلك من القهر والغلبة لها مع الحكمة فى صنعها ، ولذلك أعقبه بنتائج العزة والحكمة فقال سبحانه (إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين) أى لعلامات وعبرا للمصدقين (وفى خلقكم) أى وفى تحويل أحوالكم حالا بعد حال آية وعبرة لكم (وما يبثّ من دابة) وما يفرّق فى الأرض من جميع الحيوانات (آيات) دلالات تدل على حكمة خالقها وجمال صنعه وابداعه (لقوم يوقنون) ورفع آيات على محل إن واسمها لأن محلهما رفع ، وقرئت بالنصب كما تقول ان زيدا فى الدار وخالدا ، أووخالد فى السوق ، فالنصب بالعطف على اسم إن ، والرفع بالعطف على محل ان واسمها وهوالرفع (واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق) من مطرهوسبب الرزق (فأحيا به الأرض بعد موتها) يبسها (وتصريف الرياح) باختلاف جهاتها (آيات لقوم يعقلون) ليس فى اعراب هذه الآية صعوبة عند الأخفش ، فأما سيبويه فانه يقدّرلفظ فى أى وفى اختلاف الخ ولو لم تقدر فى لزم العطف على معمولين لعاملين مختلفين عند سيبويه فلانطيل بالكلام فيه ، يقول الله تعالى : انكم اذا تأملتم الحكمة المنبثة فى السموات والأرض آمنتم ، فاذا ازددتم علما وفهما وبحثا ازدادت عقائدكم فصرتم موقنين لأن الايقان بتوافر الأدلة وتكاثرها ، ومتى أيقن الانسان بنظام هذه الدنيا أصبح ذا عقل لأن العقول لاتربى إلابالمزاولة ، فأوّل المراتب إيمان بالله فاذا زاد الانسان حكمة وعلما وبحث فى دقائق المخلوقات وعجائبها أصبح موقنا بربه ، وكلما زاد بحثاازداد عقله دراية ، فأصبح فى الأرض نورا يستضاء به ، وهذا يدلنا أن الله تعالى لم يرد بنظرنا فى العوالم مجرّد الايمان أوالايقان ، بل يراد فوق ذلك تربية عقولنا ، وتربية العقول فى العالم الانسانى اليوم فى مدارس أوروبا وغيرها لاتتم إلا بقراءة علم الفلك والعلوم الرياضية والطبيعية والحيوان والنبات والانسان والمعدن ، تلك هى التى تربى العقول ، هذا مقصود الآية ، فالله يقول لنا : أنا أمرتكم بالنظر فى العالم أوّلا لتؤمنوا فاذا زدتم علما أيقنتم بى وذلك كله يربى عقولكم ، فنتيجة هذا الوجود تربية العقول ، فليفكر المسلمون فى هذه الآيات ، وليعجبوا من أمة هذا دينها يطلب منهم الايمان ثم الايقان ويقال لهم : نحن نربى عقولكم فيقول الغرّ الجاهل من المسلمين الذى غرّه صغار العلماء . كلا . والله لقد عرفت الله وآمنت به ، ومتى آمنت بالله فلاسبب لنظرى فى العوالم بل هوفضول ، فعل المسلمون ذلك وجاءت أوروبا فنظرت فى الكون فازدادت عقول أبنائها فجاءوا الى الشرق فحكموابلادنا . كل هذا لتدهورالعقول والتعاليم فى بلادالاسلام . ياقوم هلا قام فيكم عالم فنصحكم . ياقوم هلانها كم النهاة عن هذا التقصير والتقاعس . يقول الله لكم فكروا فى العوالم لتؤمنوا ، ثم يكون الايقان ، ثم يأتى بالمقصود وهو تربية العقل بمزاولة العلوم الكيمائية والطبيعية والحيوانية والانسانية . يا ألله أشكو اليك قادة ناموا ، وأسألك أن تحيى هذه الأمة التى أماتها الجهل ، اللهم أنر البصائر وعمم العلم فى بلاد الاسلام . يربى الله عقولنا بتلك العلوم ، ويشير الى ذلك بهذه الآيات وتقوم أوروبا فتوجب هذه العلوم فى المدارس الثانوية ليكون قادة الأمة ، والطبقة الوسطى من الشعب قد استنارت بصائرها بدراسة ماحولها من الكائنات ، فتتربى فيهم الملكات ، فيحفظون بلادهم ، ويرقون شعبهم ، والمسلم قد أغمض عينيه عما حوله

فلايرى ولايعقل ويكتفي بالايمان ، فيكون العالم والعامي على حدّ سواء ، وهذه هي الطامة الكبرى ، وسأزيد المقام إيضاحا إن شاء الله تعالى (تلك آيات الله) أي آيات دلائله حال كونها (نتلوها عليك) ملتبسين (بالحق) ولما كان هذا المقام عظيم الشرف ، جليل القدر ، عليه ارتقاء العقول ، ورقيّ الأمم ، وان لم يصرّح به أعقبه بقوله (فبأيّ حديث بعد الله وآياته يؤمنون) أي بعد آيات الله ، وذلك كما تقول : أعجبني زيد وكرمه أي كرم زيد ، فذكر زيد للمبالغة والتعظيم ولم يقل فبأيّ حديث بعد الله وآياته يوقنون اكتفاء بالأوّل لأنه للعموم ، أما الايقان فهو للخصوص وتربية العقل كذلك ، والأمة الاسلامية تركت مباحث كبار العلماء في الكتب ، ولم ترد أن تعمل بها ، وسأنقل لك خلاصة ما ذكره العلامة الرازي قريبا لتعرف كيف كان حكماء الأمة يفهمون ويلتبون ، وكيف كان بقية العلماء لايفكرون ، وعن رقيّ الأمة معرضون ، فانا لله وانا إليه راجعون ، تشير الآية هنا الى أن الايقان وتربية العقل انما تكون بما ذكر من العالم العلوي والسفلي والمسلمون ينامون ويعرضون ، ويكتفون بإيمان العجائز وعقول العامّة إلا قليلا منهم «وقليل من عبادي الشكور» ولذلك أعقبه سبحانه بذمّ المعرضين الذين لايؤمنون فقال (ويل لكل أفاك) كذاب (أثيم) كثير الآثام (يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصرّ) يقيم على كفره (مستكبرا) عن الايمان بالآيات وانما ذكر «ثم» لبيان استبعاد الاصرار على الكفر بعد مايسمع الآيات تتلى عليه (كأن لم يسمعها) أي كأنه لم يسمعها فهو يصرّ مثل غير السامع (فبشره بعذاب أليم) على إصراره (واذا علم من آياتنا شيئا) اذا بلغه شيء من آيات القرآن (اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ☆ من ورائهم جهنم) أي من خلفهم لأنها بعد آجالهم (ولايغني عنهم ما كسبوا شيئا) ولايدفع عنهم ما كسبوا من الاموال شيئا من عذاب الله (ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء) كالأصنام (ولهم عذاب عظيم) لايتحملونه (هذا) القرآن (هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم) الرجز أشدّ العذاب (الله الذي سخر لكم البحر) فجعله لطيفا يحمل الفلك فتطفو ولاترسب فيه بنواميس جلاها ، وحكم أبداها ، بحيث خلق الموادّ الخشبية والحديدية ، وجعلها قابلة لعمل السفن وأن يتحيل الناس في ذلك حتى لاترسب لثقلها بل تسير فوق الماء ، وأجرى الرياح فوقها لتساعد على جريها ، وخلق الفحم وأمثاله لتوقد النار فتحرّك الآلات البخارية فتسير السفن ، فبالهواء تجرى ، وبالنار تجرى ، وبالكهرباء والبترول ، وهما يسببان النار تجرى .

حكم نسجت بيد حكمت ☆ ثم انتسجت بالمنتسج

وهذا من معنى قوله (لتجرى الفلك فيه بأمره) ومما يدخل في هذا المقام البوصلة البحرية التي تدل الربان على الجهات الشرقية والغربية والشمالية والجنوبية ، وكذلك علوم الفلك وعلوم الطرق البحرية فيعرف بها النجوم ومواقعها في السماء والطرق والجهات ، فان النجوم في السماء جعلت علامات تعرف بها الطرق ، ولها جداول بها يدرك الربان مايريد ، وبالطرق البحرية يجتنب الربان المضار ، والفلك في البحر لابدّ فيها من علوم الصناعات لعمل السفن ، ولصنع القلوع ، ولادارة الآلات البخارية ، ومن معرفة النجوم بالدقة ، ومعرفة الطرق البحرية ، ومعرفة البوصلة . هذا معنى تسخير البحر لنا لتجرى الفلك فيه بأمره ، ثم عطف عليه بعض النتائج من تسخير السفن فقال (ولتبتغوا من فضله) بالتجارة والغوص على المرجان والدرّ . ثم ان في قرار البحر عجائب الحيوان البديع الذي لم يصله ضوء فعوّض نورا يستضيء به من جسمه هو ، وذلك لاستنارة عقولكم ، فهذا وغيره من فضل الله تعالى (ولعلكم تشكرون) هذه النعم ، ولما كان العالم كله كأنه جسم واحد يحتاج كل جزء منه الى الأجزاء الباقية ، فلايستقيم مطر بلا حرارة شمس ، ولامنفعة لحرارة الشمس بدون نظام في السير ، ولارياح إلا بحرارة ، ولاسفن إلا بهواء وكواكب مرصودة وفحم ، أو كهرباء وحديد وخشب وماشابه ذلك بحيث يرى الانسان أن هذا العالم كله كساعة منظمة أردفه بما يفيد

ذلك

ذلك فقال (وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا) بأن خلقها نافعة لكم حال كون مافى السموات ومافى الأرض جميعا كائنة (منه) وحاصلة من عنده * قال ابن عباس : كل ذلك رحمة منه . وقال غيره تفضل واحسان (ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) وهذا هو الكمال العلمى ، ثم أتبعه بالكمال العملى فقال (قل للذين آمنوا) اغفروا (يغفروا) ويعفوا ويصفحوا (للذين لايرجون أيام الله) لايتوقعون وقائعه بأعدائه كما تقول لوقائع العرب أيام العرب ، وانما أمروا بالمغفرة ليجزيهم على صبرهم يوم القيامة بالجنة وهذا قوله تعالى (ليجزى قوما) بصبرهم على أذى أعدائهم (بما كانوا يكسبون) من العمل الصالح والصبر على الأذى ويجوز أن يراد بالقوم الفريقان ، وبالكسب مايعم الشر والخير ، ويناسب المعنى الثانى قوله (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها) إذ لها ثواب العمل ، وعليها عقابه (ثم الى ربكم ترجعون) فيجازيكم على أعمالكم

الاعتبار والتأسى بقصص بنى اسرائيل

قال تعالى (ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب) التوراة (والحكم) الحكمة النظرية والعملية وفصل الخصومات (والنبوة) فقد كان فيهم أنبياء فى أكثر الأزمان ، وهذه هى النعم الروحية والأخروية (ورزقناهم من الطيبات) مما أحل الله من الرزق الواسع (وفضلناهم على العالمين) حيث أعطيناهم مالم نعط غيرهم (وآتيناهم بينات من الأمر) أى أمر الدين كبيان الحلال والحرام (فما اختلفوا) فى ذلك الأمر (إلا من بعد ماجاءهم العلم) بحقيقة الحال (بغيا بينهم) عداوة وحسدا (إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) بالمؤاخذة والمجازاة (ثم جعلناك على شريعة) طريقة (من الأمر) أمر الدين (فاتبعها) فاتبع شريعتك الثابتة بالحجج (ولاتتبع أهواء الذين لايعلمون) أى مراد الكافرين ، فلقد كانوا يقولون له ارجع الى دين آبائك فانهم كانوا أفضل منك (إنهم لن يغنوا عنك) لن يدفعوا عنك (من الله شيئا) أى من عذاب الله شيئا ان اتبعت أهواءهم (والله ولى المتقين) أى هو ناصرهم فى الدنيا والآخرة (هذا) القرآن (بصائر للناس) أى معالم للناس فى الحدود والأحكام يبصرونها به (وهدى ورحمة لقوم يوقنون) يطلبون اليقين (أم حسب الذين) أى بل أحسب الذين (اجترحوا السيئات) اكتسبوا المعاصى والكفر ، يقال : فلان جارحة أهله أى كاسبهم (أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى مثلهم ، إذ قال قوم من مشركى مكة للمؤمنين : لئن كان ما تقولون حقا لنفضلن عليكم فى الآخرة كما فضلنا عليكم فى الدنيا (سواء محياهم ومماتهم) أى أحسبوا أن حياة الكافرين ومماتهم كحياة المؤمنين ومماتهم سواء . كلا . فالمؤمن مؤمن فى الحياتين ، والكافر كافر فى الحياتين ، وقوله « سواء محياهم الخ » أى حال كونهم مستويا محياهم الخ وان قرئ سواء بالرفع ، فالجملة بدل من الكاف (ساء مايحكمون) أى بئس مايقضون اذا حسبوا أنهم كالمؤمنين ثم أتى بالدليل على ذلك من علم المخلوقات المشاهدة قائلا (وخلق الله السموات والأرض بالحق) بالنظام التام والعدل والقسط ، ولولا العدل ما انتظمت أحوال هذه الدنيا ، فلولا سير الشمس فى أوقات معينة ونظام تام ولولا دخول العناصر فى النبات بحساب معين ، ولولا وضع الأعضاء بعدد مخصوص فى الحيوان ومقادير معينة لم يستقم لهذا العالم وجود وللحقه العدم ، وهذا كالآية السابقة فى سورة الشورى « الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان » إذ أفاد أن مالايقوم فيه العدل فى الدنيا من طريق القضاء الذى نزل به الكتاب يكون العدل فيه فى الآخرة تبعا للميزان العام ، وهنا يقول : ان الله خلق السموات والأرض بالعدل والقسط ، ولا يعقل هذا حتما إلا الذين درسوا هذه العوالم وأتقنوا دراستها ، ولم تكن دراستهم لمجرد الوظائف ، أو لمجرد الصناعات بل يكون الغرض منها الوقوف على نظام هذه الدنيا حتى تطمئن النفس لما يجرى به القدر عليها وعلى غيرها ، ومتى عرفت النفس ذلك أشرقت بالنور ، ووقفت على السر المكنون ، وأيقنت بالعدل فى

الموت والحياة ، والخفض والرفع ، والايمان والكفر ، واذن تعلم أن الله خلق العالم بنظام وحساب ليعدل فى تسويته فى ذراته ومركباته (ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لايظلمون) بنقص ثواب وتضعيف عقاب . واعلم أنه لا يعقل العدل فى هذا العالم ، ولافى الثواب والعقاب إلا من درس هذا الوجود وأتقن فهمه ، واذن يصير ممن تربت عقولهم الذين ذكروا فى أول السورة إذ أبان أن المفكر يكون أولا مؤمنا ثم موقنا ثم عاقلا وقد قدمنا أن المراد بالعقل هنا هو الذى تربى تربية إلهية ، والتربية الإلهية بقراءة الكتاب الذى خطه الله بيمينه ووضعه وهوهذا الوجود الذى لايقرؤه إلا المفكرون ، ولا يعقله إلا العالمون ، فلفظ العقل اذا أطلق فى مثل هذا المقام إنما يراد به العقل الذى تربى على المبادئ الإلهية بالتفكر فى نظام الوجود ، وكما أن طبيعة الحيوان تكون حاصلة من تفاعل المواد التى دخلت فى عداد جسمه وصارلها مزاج خاص ناشىء من تفاعل العناصر الداخلة فى جسمه وانتظامها والتئامها حتى يرى على شكل خاص ناجم من تلك المواد وائتلافها ، هكذا عقول الحكماء والمفكرين تتربى تربية خاصة بالنظر فى العوالم فانها تغتذى تغذية روحية . كل نظرة من نظراتها . وكل خطرة من خطراتها تزيدها نموا وتكاملا الى أن يتم مزاجها ويكمل وجودها . وحينئذ تصبح تلك النفس خليفة الله فى الأرض لأنها قرأت ماخطه بيمينه ، وصنعه بيده ، وهندسه بحكمته ، وزوقه بعلمه ونماه ، وأحكمه وسوّاه ، فتنطبع تلك النظم فى عقلها ، فتصبح تلك النفس إلهية حكيمة مشرقة عالمة ، فاذا ورد عليها أمثال هذه الآية «وخلق الله السموات والأرض بالحق» فهمتها لأنها ترى فى العلوم المدونة الأرضية ذلك مسطورا فى لوح الوجود . واذا سمعت « ولتجزى كل نفس بما كسبت» أيقنت بذلك لأنها تشاهد النظام تاما ، ونقول حقا إنى أشاهد أن الذين يهملون أنفسهم بلاتعليم ولاتأديب يصبحون فى الدنيا مقدرة قيمتهم بمقدارحالهم ، ويراهم الناس على مقدارماوصلوا اليه ، ومن عرف سر صناعة تراه يكافأ بابرازمصنوعه بحكمة ، ومن جهل ذلك ينبذ ، وهكذا أصبح الناس فى نظر الحكيم وأعمالهم كالأشجار وأحوالها ، فعلى مقتضى نظام الشجر وأصله يكون ثمره لاخلل فيه هكذا على مقدارما كسب الانسان تكون نتائج أعماله فثواب الأعمال ليس إلا نتائج لها كما أن ثمر الأشجار نتائج لها ، واذا كانت الحرارة نتيجتها نمو النبات والبرودة نتيجتها ضعفه وخلوه من قوة الحياة ، فهكذا الأعمال الطيبة والأعمال الخبيثة نتائجها لازمة لها لزوما عاديا « وهم لايظلمون » ومن شرب المسهل أنتج ما أعد له من الاسهال ، ومن تعاطى الدواء المسكن أوالمهيج أوالحار أوالبارد أوتعاطى السم ، فكل أولئك يجنون على مقدارماتعاطوا تسكينا وتهييجا وحرارة وبرودة وموتا ، هكذا نرى المتكبرين والمستذلين بجبن ، وسريعى الغضب ، والبخلاء ، وذوى الحرص ، كل أولئك ينالون فى الحياة مقت الناس ، أوإذلالهم ، أو بغضهم ، أوذمهم ، وهكذا نرى العلماء والكرماء والشجعان ، وذوى القلوب النقية ، والعافين عن الناس ، ينالون احترام الناس ، وحبهم وقضاء حاجاتهم ، وذكرهم بالجميل . كل ذلك نتائج كثمرات الأشجار . ومن نال مالايستحقه فى الدنيا ، أونال أقل من حقه فبعد الموت ترجع الامورالى نصابها وتكون هناك الثمرات مقدرات بميزان . هذا معنى هذه الآية . فاذا كانت آية الميزان جاءت فى سورة الشورى ونفس السورة مسماة باسم يشعر بالميزان والعدل بين الناس اذا التأموا وتشاوروا ، فهكذا جاءت هذه الآية هنا دالة على العدل المشاهد فى نفس الطبيعة لمن عقل ولايعقلها إلا الدارسون لنظام السموات والأرض ، أما أولئك الذين لايدرسون ولا يعقلون ، وصارالهوى معبودهم فان الله ينزلهم المنزلة التى هم بها جديرون لأن الأرواح الانسانية طوائف ، فنها المظلمة ، ومنها النيرة ، ومنها المتوسطة فهذه الأرواح الفجة الغليظة التى لم تصل لدرجة النضج والكمال بعد فان الله حكم ببقائها فى الضلال لأنه عالم بجوهرها وأنها لاقبل لها بالحكمة والعلم ، وهؤلاء يقولون : ما الحياة إلا حياتنا الدنيا ، وموتنا إنما يكون بمرورالزمان ، فلانظام ولاناظم ، ولاحساب ولاحاسب ، ولاعدل ولاعادل ، وانما صدر ذلك منهم لقلة

علمهم ، وانما ينطقون بالقول تقليدا لآبائهـم وأساتذتهم ومعلميهم وقرنائهم ، وهذا قوله تعالى (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) أى هومطواع لهوى النفس ، يتبع مايدعوه اليه ، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه (وأضله الله على علم) أى وخذله عالما بضلاله وفساد جوهر روحه استعدادا معلوما فى الأزل (وختم على سمعه وقلبه) فلايبالى بما يسمع من وعظ (وجعل على بصره غشاوة) فلاينظر بعين الاستبصار (فمن يهديه من بعدالله) من بعد اضلاله (أفلاتذكرون ٭ وقالوا ماهى) ما الحال أوما الحياة (إلا حياتنا الدنيا) التى نحن فيها (نموت ونحيا) أى يصيبنا الموت والحياة فيها ، وليس وراء ذلك الموت حياة (ومايهلكنا إلاالدهر) إلامرور الزمان (ومالهم بذلك من علم إن هم إلايظنون) وانما ذلك بناء على التقليد والانكار . فأما العالمون فهم أولئك الذين فكروا فآمنوا ثم أيقنوا ، وهناك تربت عقولهم كما جاء فى أول السورة . فأما هؤلاء فلم تترب عقولهم لحرمانها من الغذاء النفسى وهودراسة ماصنعه الله تعالى ، فهوغذاء العقول كما أن المادة غذاء الأجسام فكما نرى المزارع والأشجار ، والحبوب بها حياة الأجسام ، هكذا نظامها وحكمها واتقانها بدراستها حياة العقول . فهذه المخلوقات أقامت أجسامنا وبالتفكر فيها تمو عقولنا ، والمحروم من ذلك ضال (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات) واضحات الدلالة على خلاف ما يعتقدون (ما كان حجتهم) ما كان مايزعمون أنه حجة (إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا) أى أحيوهم (إن كنتم صادقين) فى دعوى البعث (قل الله يحييكم) فى الدنيا (ثم يميتكم) فيها عند انتهاء آجالكم (ثم يجمعكم الى يوم القيامة) أى يبعثكم يوم القيامة جميعا ، فالاتيان بآبائكم أيسر من ذلك (لاريب فيه) أى فى الجمع (ولكن أكثرالناس لايعلمون) ذلك لأنهم لايفكرون فى نظام هذا العالم ، ولوأنهم فكروا لعرفوا بعقولهم سعة القدرة وبدائع الحكمة فى هذا العالم الواسع ، وعبرعن سعته بقوله (ولله ملك السموات والأرض) وهو مسرح الانظار ، وقبلة النظار ، ونورالاستبصار . وضياء للأبصار فلوفهموه لعرفوا بعقولهم مايتضمنه قوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسرالمبطلون) يومئذ بدل من يوم المتعلق بيخسر أى يومئذ يظهرخسران أصحاب الأباطيل وهم الكافرون (وترى كل أمة جاثية) أى باركة على الركب وهى جلسة المخاصم بين يدى الحاكم ينتظر القضاء (كل أمة تدعى الى كتابها) الذى فيه أعمالها ويقال لهم (اليوم تجزون ماكنتم تعملون) وتقولون فى الدنيا (هذا كتابنا) ديوان الحفظة (ينطق عليكم بالحق) يشهد عليكم ببيان شاف كأنه ينطق (إنا كنا نستنسخ) نستكتب الملائكة (ماكنتم تعملون) أعمالكم أى نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم وكتابتها واثباتها عليكم (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهـم فى رحمته) جنته (ذلك هوالفوزالمبين) الظفرالظاهر (وأما الذين كفروا) فيقال لهم (أفلم تكن آياتى تتلى عليكم) أى آيات القرآن (فاستكبرتم) عن الايمان بها (وكنتم قوما مجرمين) كافرين منكرين (واذا قيل إن وعد الله حق) أى البعث كائن (والساعة لاريب فيها) لاشك فى أنها كائنة (قلتم ماندرى ما الساعة) أى أنكرتموها وقلتم (إن نظن إلاظنا) أى مانعلم ذلك إلا توهما (وما نحن بمستيقنين) أنها كائنة (وبدا لهم) وظهر لهم (سيئات ماعملوا) على ما كانت عليه بأن ظهرت لهم صورأنفسهم الحقيقية بعد الموت ويوم القيامة فرأوا قبحها ، وتشويه صورها (وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون) أى نزل بهم جزاؤه (وقيل اليوم ننساكم) نترككم فى العذاب ترك المنسى (كما نسيتم لقاء يومكم هذا) أى كما تركتم الايمان والعمل للقاء هـذا اليوم (ومأواكم النار ومالكم من ناصرين) يخلصونكم منها (ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا) استهزأتم بها فلم تتفكروا فيها (وغرتكم الحياة الدنيا) فحسبتم أن لاحياة سواها (فاليوم لايخرجون منها) من النار (ولاهم يستعتبون) أى ولايطلب منهم أن يرضوا ربهم لفوات أوانه (فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين) فان كل ذلك مثارللحمد وسبب له ، فعجائب السموات ، وبدائع الأرض ، وتربية المخلوقات المحدثات ، ينفتح بدراستها للنفس أبواب العلوم ، وبالمعرفة تكون المحامد (وله

الـكبرياء فى السموات والأرض) لظهوره آثارها فيهما (وهو العزيز) الذى لايغلب (الحكيم) فيما أتقنه وقدره . انتهى التفسير اللفظى

ابتداء السورة كانتهائها

انظر كيف ابتدأ السورة بالعزة والحكمة ، وقد بينا لك أن القهر والحكمة مصطحبان معا فى غضون هذه العوالم ، مشاهدات فى صغيرات الامور وكبيراتها ، ولذلك ذكر العوالم من مطر ونبات وحيوان الخ لأن العزة والحكمة شملتاها ، هكذا ختم السورة بذينك الوصفين ، ليبين أن هاتين الصفتين واضحة آثارهما فى السموات والأرض ومابينهما والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى : إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين

(٢) فى قوله تعالى : وفى خلقكم وما يبث من دابة . الى قوله : وتصريف الرياح الخ

(٣) فى قوله تعالى : الله الذى سخر لكم البحر الخ وهى المعبر عنها ببهجة العرفان الخ

(٤) فى قوله تعالى : أم حسب الذين اجترحوا السيئات الخ .

(٥) فى قوله تعالى : إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون .

(٦) فى قوله تعالى : وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم

اللطيفة الأولى

فى قوله تعالى : إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين

وفيها غرضان : الغرض الأول فى ذكر عشرة أسئلة وأجوبتها . الغرض الثانى : كيف قصر المسلمون فى هذه العلوم ، وكيف خالفوا علماءهم .

الغرض الأول فى ذكر عشر مسائل وأجوبتها

نقلا من كتابى جواهر العلوم

ثم سألها قائلا :

(١) مامقدار محيط الكرة الأرضية عند خط الاستواء بالأمتار ؟

(٢) ومامقدار نصف قطر الأرض بالامتار أيضا ؟

(٣) وما مقدار سرعة الحركة الأرضية فى مصر فى الثانية الواحدة ؟ ومامقدارها فى خط الاستواء ؟ وما مقدارها فى باريس عاصمة فرنسا ؟

(٤) وقال العلماء : إن دوران الارض كلما زادت سرعته نقص ثقل الاجسام عليها على حسب السرعة فكم سرعة مثل الحالية تحتاج لها الارض حتى يعدم الوزن فى خط الاستواء وتبطل مقادير الموازين

(٥) وهل يمكن وزن الهواء الجوى ؟

(٦) ومامقدار ارتفاعه بالأمتار ؟

(٧) وهل بين ثقل الهواء والزئبق نسبة معلومة ؟

(٨) فى أى درجة من درجات العرض يصير أطول نهار ٢٤ ساعة ، وأقصر ليل معدوم بالمرة فيكون الشروق مع الغروب . فقالت الفتاة عندئذ : عجبا للقدرة الباهرة والصنع العجيب !

(٩) مامقدار حجم الشمس ؟ ومامقدار نصف قطرها ؟
(١٠) وما مسافة بعدها عنا ؟ ومامقدار سرعة الضوء فى الثانية الواحدة
فهذه عشر أسئلة ، فشرعت الفتاة تجيبه فقالت :
(١) أما مقدار محيط الكرة الأرضية عند خط الاستواء فهو ٤٠٫٠٧٦٫٦٣٠ مترا
(٢) ومقدار نصف قطرالأرض ٦٣٦٦١٩٨ مترا
(٣) ومقدار سرعة الحركة الأرضية فى خط الاستواء ٤٦٥ مترا فى الثانية ، وفى مصر ٤١٩ ، وفى باريس ٣٠٥ مترا
(٤) اذا صارت سرعة الأرض قدرأصلها ١٧ مرة ينعدم الوزن فى خط الاستواء تماما ، فما أقدره سبحانه على هـذا الحساب العجيب الذى به دبر الأرض فدارت على هذا الوضع الذى حفظت به الموازين وغيرها ، ولوأسرعت عن هذا لما بقى عليها سكان ألبتة « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحدمن بعده انه كان حليما غفورا * ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا »
(٥) ثقل الهواء على الأرض يعادل ثقل ١٠ أمتار و٣٣٤ ملليمترا من الماء ، وهذا عام فى جميع سطح الكرة الأرضية ، فكأننا فى بحرمن الماء يبلغ ماؤه فوقنا ماذكر ، فالانسان كسمك فى قاع بحر يرتفع الماء فوقه بهذا المقدار أعنى زيادة عن ١٠ أمتار ، ولوكان بدل هذا الهواء زئبق لكان ٧٦ سنتيمترا أعنى نحو ¾ المتر فكانت الناس تخوض فيه خوضا ولا يغطيهم ، فسبحان الحكيم فى صنعه الذى خلق كل شىء فقدره تقديرا ، وقد حسب هـذا الثقل فوجـد أنه ٥٫٢٦٣٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ تقريبا ، وهـذا بالطونلاته (والطونلاته عبارة عن ألف كيلوجرام وهى ٢٢ قنطارا و٢٢ رطلا و٣٢ درهما) أعنى ٥ كترليون و٢٦٣ ترليونا تقريبا ولوكان نحاسا لكان عبارة عن ٥٨٥ ألفا كلها مكعبات من النحاس ضلع المكعب الواحـد ألف متر ، فما أجل العلم الذى به عرفنا مقدار الهواء نحاسا وماء وزئبقا « وكل شىء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال »
(٦) ارتفاع الهواء بالأمتار ٤٨٫٠٠٠ مترا على حساب العلامة (بيوت) وهذا المقدار تقريبا $\frac{1}{130}$ من نصف قطر الأرض أعنى أن الأرض لوأدخل فيها محور من حديد وزج به حتى خرج من الجهة الأخرى ، فان ارتفاع الهواء فوقها يكون قدر جزء من ٦٥ من هذا المحور
(٧) الزئبق أثقل من الهواء بمقدار ١٠٤٦٠ مرة أعنى أننا اذا ملأنا زجاجة من الزئبق فثقله يعادل ثقل الهواء الذى فى عشرة آلاف وأربعمائة وستين زجاجة قدر تلك الزجاجة « وربك يخلق مايشاء ويختار »
(٨) يكون أطول نهار ٢٤ ساعة فى الدائرة القطبية التى فى درجة ٦٦ و٣٣ دقيقة من درجات العرض فى الشمال والجنوب ، وحينئذ ينعدم الليل بالكلية
(٩) حجم الشمس قدرحجم الأرض ١٫٢٨٠٫٠٠٠ ونصف قطرها ٦٩٢٫٠٠٠ كيلو مترا
(١٠) أما بعـدها عنا فهو ٣٧ مليونا من الفراسخ ، والضوء يقطع فى الثانية الواحـدة ٧٥ ألف فرسخ ، ثم ان ضوء الشمس حين يشرق منها لايصـل لنا إلا بعد ٨ دقائق و١٨ ثانية ، فلله الحكمة البالغة . انتهى ما أردته من كتابى جواهر العلوم . وبهذا تم الكلام على الفرض الأول

الفرض الثانى

كيف قصر المسلمون فى هذه العلوم وعصوا علماءهم

انظر أيها الذكى الى الأمة الاسلامية كيف نامت دهورا ودهورا ، وغطت فى نومها غطيطا ، وعلماؤها يوقظونها وهى غافلة ، و يعلمونها وهى راقدة لاتبدى حراكا ، ولاتريد فكاكا ، غابت عنها شمس العلم فأظلم جوّها ، وسكنت ريحها ، وذهب عزّها ، وطاح مجدها ، فلانعلم كيف تبدى وتعيد .

انظر الى ماجاء فى هذه الآيات كيف طلب الله من المسلم أن يفكر فى السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وانزال المطر ، وبث الحيوان ، وخلق النبات بمجرّد عقله ونظره لا بالتقليد والسماع . وانظر كيف ذكر أن هذا النظر به إيمان و به إيقان و به عقل ، وانظر كيف كان علماؤنا يقولون ذلك والشعب غافل عما يقولون .

يقول العلامة الرازى فى هذه الآيات مانصه : « واعلم أن كثيرا من الفقهاء يقولون انه ليس فى القرآن العلوم التى يبحث عنها المتكلمون ، بل ليس فيه إلا مايتعلق بالأحكام والفقه وذلك غفلة عظيمة لأنه ليس فى القرآن سورة طويلة منفردة بذكر الاحكام وفيه سور كثيرة خصوصا المكيات ليس فيها إلا ذكر دلائل التوحيد والنبوّة والبعث والقيامة . وكل ذلك من علم الاصوليين (يريد علماء التوحيد) . قال : ومن تأمل علم أنه ليس فى يد علماء الاصول إلا تفصيل ما اشتمل القرآن عليه على سبيل الاجمال ، ثم قال تعالى : تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، والمراد من قوله الحق هوأن صحتها معلومة بالدلائل العقلية ، وذلك لأن العلم بأنها منه صحيحة إما أن يكون مستفادا من النقل أوالعقل . والأوّل باطل لأن صحة الدلائل النقلية موقوفة على سبق العلم باثبات الإله العالم القادر الحكيم ، وباثبات النبوّة ، وكيفية دلالة المعجزات على صحتها ، فلو أثبتنا هذه الاصول بالدلائل النقلية لزم الدور وهو باطل ، ولما بطل هذا ثبت أن العلم بحقيقة هذه الدلائل لايمكن تحصيله إلا بمحض العقل . واذا كان كذلك كان قوله : « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق » من أعظم الدلائل على الترغيب فى علم الاصول (يريد علم التوحيد) وتقرير المباحث العقلية ، ثم قال تعالى : « فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون » يعنى أن من لم ينتفع بهذه الآيات فلاشىء بعده يجوز أن ينتفع به ، وأبطل بهذا قول من يزعم أن التقليد كاف ، وبين أنه يجب على المكلف التأمل فى دلائل دين الله » انتهى ما أردته من مقال العلامة الرازى فى تفسيره « مفاتيح الغيب »

انظر كيف أثبت علماؤنا فى القرون الأولى أمثال هذا القول ، وكيف أبانوا أن العلوم الطبيعية والفلكية المذكورة فى السور المكية الكثيرة واجبة على كل مكلف ، وأن المسلم لاحق له أن ينأى عن هذه العلوم مكتفيا بالتقليد

إن هذه العلوم لايخرج المسلمون من ذمهم إلا بدراستها وفهمها ، ويكون المتعلمون فيها قسمين : قسم يختص بتلك العلوم كاختصاص طائفة بعلم الفقه وبعلم النحو كماهوجار اليوم فى بلادالاسلام ، والقسم الثانى وهوأ كثر الأمة يستنيرون بأضواء هؤلاء العلماء ، فكما أننا نرى فى الاسلام اليوم فقهاء متنورين والعامة يسألونهم فى أمور دينهم ، هكذا يجب أن يكون فى الأمة قوم مختصون بهذه العلوم حتى يرجع اليهم الشعب فى فهمها ، ويؤلفون الرسائل المشوّقة لتلك العلوم كماتراهم يؤلفون رسائل فى علم الفقه ونحوه ، وعلى المسلمين فى أقطارالأرض أن لا يكثروا من الفلسفة فى القدرة والارادة وسائر الصفات ، بل يجدّون فى معرفة الآثار طبقا لمقتضى القرآن ، فالقرآن وجه العناية الى الآثار وعجائبها ، ذلك هوالنور المبين

فياعجبا لأمة يقول علماؤها : « إن الدين لايقوم الاستدلال بآياته إلابعد ثبوت القدرة والعلم والحكمة

والوجود

والوجود والنبوّة ثبوتا عقليا ، ومعنى هذا أن الايمان به ﷺ وبالله و بعلمه وقدرته وحكمته إنما يكون بالعقل ثم بعد ذلك نكون قد قرّرنا أن الدين حق ، فلادين إلا اذا بنى على العقل أوّلا ثم النقل ثانيا . هذاملخص مامضى من كلام العلامة الرازى ، والله هوالولىّ الحيد .

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : وفى خلقكم ومايبثّ من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح الخ

في هذه اللطيفة غرضان

الغرض الأول اختلاف الليل والنهار

وقد مرّ الكلام عليه فى ﴿ سورة البقرة ﴾ و﴿ يس ﴾ وغيرهما ، ولكن لابدّ من ذكرماناسب المقام مختصرا ، فهاك جدولا تعرف منه النقص والزيادة فى الليل والنهار فى كل يوم من أيام السنة ، واليوم الذى يدخل فيه البرج من الشهورالشمسية القبطية وموازنتها بالشهور السريانية وشهور الروم ، والمنازل وطلوع المنازل بالفجر ، وانما أوردت لك هذا الجدول ليكون لك نموذجا تعرف به نظام الشمس فى سيرها ، واذا فكرت فيه وعقلته فى ذهنك قام مقام النتيجة السنوية قياما إجماليا بحيث تعرف فى أىّ يوم من أيام السنة مقداراليوم ومقدارالليل أى مقدارمدة ظهورالشمس ومدة اختفائها واحتجابها تقريبا ، وانما قلنا تقريبا لأن الحساب اجمالىّ .

انظر فى الجدول (فى صحيفة ٥٧ الآتية) وتأمّل فى دخول البروج فى الشهور القبطية ، فانى لما أردت موازنته بما فى النتائج المعتادة وجدت الفرق يكون يوما أويومين ، مثلا ترى الشمس قد حلت فى السنبلة سنة ١٣٤٣ ﻫ التى هىسنة تأليف هذا الكتاب يوم ٢٢ المحرّم وهويوم ١٧ مسرى وفى الجدول يوم ١٩ وحلت فى الميزان يوم ١٢ مسرى ، وفى الجدول يوم ١٤ وحلت فى العقرب يوم ١٣ من بابه وفى الجدول يوم ١٥ منها ، وحلت فى القوس يوم ١٣ هاتور ، وفى الجدول يوم ١٤ منه . وحلت فى الجدى يوم ١٢ كيهك ، وفى الجدول يوم ١٤ منه ، وحلت فى الدلو يوم ١١ من طوبه ، وفى الجدول يوم ١٣ منها . وحلت فى الحوت يوم ١١ من أمشير ، وفى الجدول يوم ١٣ منه ، وحلت فى الحمل يوم ١٢ من برمهات ، وفى الجدول يوم ١٣ منه ، وحلت فى الثور يوم ١٢ من برموده ، وفى الجدول يوم ١٤ منه ، وحلت فى الجوزاء يوم ١٢ من بشنس ، وفى الجدول يوم ١٤ منه ، وحلت فى السرطان يوم ١٤ بؤنه ، وفى الجدول يوم ١٦ منها ، وحلت فى الأسد يوم ١٤ أبيب ، وفى الجدول يوم ١٧ منه

فأنت ترى من هذا أن هذا الجدول الذى جاء فى الكتب القديمة يخالف الحساب اليوم فى يومين غالبا وقد يكون يوما ، و يندرأن يكون ثلاثة أيام ، والقصد من ذكر الجدول بيان نظام الله تعالى الذى لايتغير ولا يتبدّل على مدى السنين ، فأماتلك الفروق القليلة فان الذى أوجبها تداول السنين وتغيرأوضاع الكواكب الثابتة ، وذلك يعرف من مسألة مبادرة الاعتدالين ، ولانطيل فى ذلك ، ولنذكرلك قبل ذكرالجدول مقدمة تعلم منها عجائب الحساب عند الأمم ، فنقول :

الكلام على السنة الاصطلاحية

وهى الشمسية وشهورها اثنا عشر شهرا كما فى السنة الطبيعية إلا أن كل طائفة راعت دوران سنيها جعلت فى أشهرها زيادة فى الأيام إما جملة واحدة واما متفرّقة ، وسمتها نسيئا بحسب ما اصطلحوا عليه ،

وعدد أيامها عنـد جميع الطوائف من القبط والفرس والسريان والروم وغيرهـم ثلاثمائة يوم وخمسة وستون يوما وربع يوم فتكون زيادتها عن العربيـة عشرة أيام وثمانيـة أعشار يوم وخمس سدس يوم . وقد قال بعض حذاق المفسرين فى قوله تعالى : « ولبثوا فى كهفهم ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعا » انه ان حمل على السنين القمرية ، فهوعلى ظاهره من العدد ، وان حمل على السنين الشمسية فالتسعة الزائدة هى تفاوت زيادة الشمسية على القمرية لأن فى كل ثلثمائة سنة تسعة سنين لاتخل بالحساب أصلا .

قال صاحب مناهج الفكر : « وكذلك كانوا فى صدر الاسلام يسقطون عند رأس كل ثلاث وثلاثين سنة عربيةسنة ، و يسمونها سنة الازدلاف ، لأن كل ثلاث وثلاثين سنة عربية اثنتان وثلاثون سنة شمسية تقريبا . قال : وانما حملهم على ذلك الفرار من اسم النسىء الذى أخبر الله تعالى انه زيادة فى الكفر . ثم المعتبرون السنة الشمسية اختلفت مصطلحاتهم فيها بحسب اختلاف مقاصدهم .

﴿ المصطلح الأوّل ﴾ — مصطلح القبط ، وقد اصطلحوا على أن جعلوا شهرهم ثلاثين يوما كما تقدم فاذا انقضت الاثناعشر شهرا أضافوا اليها خمسة أيام يسمونها أيام النسىء ، يفعلون ذلك ثلاث سنين متوالية فاذا كانت السنة الرابعـة أضافوا الى خمـسة النسىء المذكورة ما اجتمع من الربع الزائد على الخمسة أيام فى السنة الشمسية فتصـير ستة أيام ، ويجعلونها كبيسة فى تلك السنة ، و بعض ظرفائهـم تسمى الخمسة المزيدة السنة الصغيرة . قال أصحاب الزيجات : وأوّل ابتدائهم ذلك فى زمن أغسطس ، وكانوا من قبل يتركون الربع الى أن تجمع أيام سنة كاملة ، وذلك فى ألف سنة وأربعمائة واحدى وستين سنة ، و يسقطونها من سنيهم ، وعلى ذلك المصطلح استقرّ عملهم بالديار المصرية فى الاقطاعات والزرع والخراج وماشا كل ذلك .

﴿ المصطلح الثانى ﴾ — مصطلح الفرس ، وشهورهـم كشهور القبط فى عدد الأيام على ماتقدم ، وقد أطال فيه القلقشندى .

﴿ المصطلح الثالث ﴾ — مصطلح السوريان ، وشهورهم على ماتقدم منها سبعة أشهر يزيد كل شهر منها يوما على الثلاثين كما سيأتى فى الجدول الآتى فى الصحيفة التالية ، فتكون الزيادة سبعة أيام يكمل منها شباط وهوثمانية وعشرون يوما بيومين يبقى خمسة أيام وهى نظير النسىء فى سنة القبط والفرس .

﴿ المصطلح الرابع ﴾ — مصطلح اليهود ، ولاحاجة للاطالة فيه ، والذى يهمنا أن نبين لك فى الجدول الآتى فى الصحيفة التالية السنين الرومية والقبطية والسريانية والفصول والبروج وعدد أيام الشهور والمنازل وطلوعها بالفجر

الغرض الثانى فى الكلام على قوله تعالى : وتصريف الرياح

قد مرّ الكلام على الرياح فى تفسير سورة الحجر ، وهومفصـل أيضا فى سورة الأعراف . فترى هناك كيف كانت الرياح تمرّ بين استراليا والهند والصين ، ولابدّ من ايضاح المقام هنا ليعجب المسلمون من عجائب تدبير الله تعالى .

أنظر أيها الذكى الى الشمس فى سـيرها كما تراه فى الجدول ، وكيف انتقلت فى البروج ، وانظر آثارها ، آثارها هى الحرارة بالقرب ، والبرودة بالبعد ، فياسبحان الله : حرارة بقربها و برودة ببعدها يكون بهما نظام أرضنا ، وكيف يتمّ النظام إلا اذا كان ذلك بحساب . هاأنت ذا رأيت الحساب ، فانظر الآن الى الأرض عند خط الاستواء ، ألم تر أن الشمس هناك شـديدة الحرارة ، انها تلح دائما على تلك المنطقة ، فماذا يحصـل ؟ يحصل أن الهواء يسخن ، يسخن جدا ، ومتى سخن علا فى الجوّ ، وهذا العلوّ لابدّ أن يصل الى غاية منتهاه لشدّة الحرارة هناك بحيث لايكون للهواء فى الأرض علوّ فوق علوّه ، ومتى وصل الى نهاية العلوّ قابل الطبقة

الباردة

جدول فى الفصول

وبيان الزيادة والنقص فى الليل والنهار من الدرجات كل يوم مع بيان البروج وتدخلها فى الشهور القبطية وتدخل الشهور القبطية فى الشهور السريانية المتصلة الموافقة للشهور الرومية ، وذكر المنازل وطلوعها بالفجر محسوبة بالشهور القبطية ، واعلم أن هذا الجدول يفهم القارىء على وجه التقريب عدد ساعات النهار والليل ودقائقهما فى كل فصول السنة ، فهو نتيجة اجمالية دهرية ، واعلم أن كل مقدار نقصه النهار زاده ليله وبالعكس

الفصول الأربعة	النقص والزيادة فى الليل والنهار معا	البروج	اليوم الذى يدخل فيه البرج من الشهر	الشهور القبطية لدقلطيانوس	شهور السريان للاسكندر	عدد الأيام	شهور الروم الأفرنج	عدد الأيام	المنازل	طلوعها بالفجر
الخريف	ينقص النهار									
	نصف درجة	الميزان	١٤ من	توت يدخل فى	٢٩ آب	٣١	أغسطس	٣١	الشرطان	٢٣ برموده
	ثلث درجة	العقرب	١٥ من	بابه يدخل فى	٢٨ ايلول	٣٠	سبتمبر	٣٠	البطين	٦ بشنس
	سدس درجة	القوس	١٤ من	هاتور يدخل فى	٢٨ تشرين الأول	٣١	اكتوبر	٣١	الثريا	١٩ بشنس
الشتاء	يزيد النهار									
	سدس درجة	الجدى	١٤ من	كيهك يدخل فى	٢٧ تشرين الثانى	٣٠	نوفمبر	٣٠	الدبران	٢ بؤنه
	ثلث درجة	الدلو	١٣ من	طوبه يدخل فى	٢٧ كانون الأول	٣١	ديسمبر	٣١	الهقعه	١٥ »
	نصف درجة	الحوت	١٣ من	أمشير يدخل فى	٢٦ كانون الثانى	٣١	يناير	٣١	الهنعه	٢٨ »
الربيع	يزيد النهار									
	نصف درجة	الحمل	١٣ من	برمهات يدخل فى	٢٥ شباط	٢٨	فبراير	٢٨	الذراع	١١ أبيب
	ثلث درجة	الثور	١٤ من	برموده يدخل فى	٢٧ آذار	٣١	مارس	٣١	النثره	٢٤ »
	سدس درجة	الجوزاء	١٤ من	بشنس يدخل فى	٢٦ نيسان	٣٠	ابريل	٣٠	الطرفه	٧ مسرى
الصيف	ينقص النهار									
	سدس درجة	السرطان	١٦ من	بؤنه يدخل فى	٢٦ ايار	٣١	مايو	٣١	الجبهة	٢٠ مسرى
	ثلث درجة	الأسد	١٧ من	أبيب يدخل فى	٢٥ حزيران	٣٠	يونيو	٣٠	الخرتان	٤ نسىء
	نصف درجة	السنبلة	١٩ من	مسرى يدخل فى	٢٥ تموز	٣١	يوليو	٣١	الصرفه	١٢ توت
									العوّاء	٢٥ توت
									السماك	٨ بابه
									الغفر	٢١ بابه
									الزبانان	٤ هاتور
									الاكليل	١٧ »
									القلب	٣٠ »
									الشوله	١٣ كيهك
									النعايم	٢٦ »
									البلدة	٩ طوبه
									سعد الذابح	٢٢ »
									سعد بلع	١٥ أمشير
									سعد السعود	١٨ »
									سعد الأخبية	أول برمهات
									الفرغ المقدم	١٤ »
									الفرغ المؤخر	٢٧ »
									بطن الحوت	١٠ برموده

الباردة ، لأنك تعلم أن زوايا انعكاس الضوء تكون منفرجة كلما ارتفعنا الى أعلى ، وتزيد انفراجا كلما زاد البعد امتدادا ، وهناك تزيد البرودة وتقل الحرارة تدريجا بعكس طبقات الأرض ، فانك كلما أوغلت فيها نقصت البرودة وازدادت الحرارة ، فاذا وصل الهواء المرتفع الى الطبقة الباردة اجتمع فصار سحابا فأمطر ، فالمطرهناك دائم لدوام التبخر ، وهذا الهواء الذى ارتفع الى أعلى اذا وصل الى منتهاه أخذ يسيرجهة الشمال وجهة الجنوب لأن هواء غيره يحل محله من أسفله لشدة الحرارة على الأرض ، والهواء الذى يحل محله آت من الشمال والجنوب ، وهذا الهواء الجديد يتأثرسريعا بالحرارة فيرتفع أيضا ويحل مكانه غيره ، وهكذا ولذلك تهب دائما نحوخط الاستواء رياح من الشمال الشرقى ومن الجنوب الغربى تسمى الرياح المنتظمة أوالرياح التجارية ، وهذا الهواء المرتفع المتجه الى الجنوب والشمال لايزال يسيرحتى يصل الى درجة (٢٥) شمال وجنوب خط الاستواء ، فاذن يثقل ويهبط الى الأرض ، ومتى وصل سطحها لسعته الحرارة فارتفع ثانيا فكأن الحرارة عصا من عصى الله يضرب بها الهواء فيرتفع وينقسم قسمين : أحدهما يرجع الى خط الاستواء ، والثانى يذهب الى جهة القطب ، فما يتجه جهة خط الاستواء يسمى بالاسم المتقدم وهي الرياح المنتظمة أو التجارية ، والتى تتجه الى الجهة القطبية تسمى الرياح المتغيرة ، أوالتجارية الضدية ، فاذا وصلت الرياح التجارية الضدية الى الدائرة القطبية الشمالية والدائرة القطبية الجنوبية ، فهناك يرتفع الهواء كما ارتفع عند خط الاستواء لأنه يقابل الهواء البارد الآتى من جهة القطبين ، فهذا الهواء البارد يحل محل ذلك الحار فيرتفع الحار ويحل محله الرياح القطبية الشمالية والرياح القطبية الجنوبية كل منهما فى مكانه . ثم انك ترى جنوب آسيا الغربى وجنوبها الشرقى تهب عليها رياح غير ماتقدم تسمى الرياح الموسمية ، ذلك أن داخل القارة فى فصل الصيف أشد حرارة من البحار المحيطة بها ؛ ذلك لأن اليابس يتأثر بالحرارة أسرع من الماء وأشد منه فاذن يصعد الهواء عن سطح الأرض ويحل محله هواء آخر يهب من الجنوب الغربى والجنوب الشرقى فيحدث كثيرا من الأمطار على الشواطئ ، أما فى فصل الشتاء فانه يكون بالعكس فيكون داخل القارة أبرد من البحار المحيطة بها ولذا تخرج الرياح منه الى الجنوب الغربى والجنوب الشرقى ، وتكون جافة وشديدة البرودة . وهناك نسيمان أحدهما يسمى نسيم البر ، والآخر نسيم البحر ، فترى الجهات القريبة من البحار يهب فيها الهواء نهارا من البحر الى البر ، ويسمى نسيم البحر ، وفى الليل يهب من البر الى البحر لأن الأرض تتأثر بالحرارة أسرع من البحر فتكون فى النهار أكثر حرارة من البحر فيرتفع هواؤها ويحل محله نسيم البحر الذى هو أقل حرارة . أما فى الليل فان البر يكون أبرد من البحر لسرعة تبرده لأن مايسخن بسرعة يبرد بسرعة ، ومتى برد البر ليلا ثقل هواؤه ، فأما هواء البحر فانه لايزال خفيفا لأن البرودة لاتسرع فيه كسرعتها فى البر فيجرى نسيم البر الثقيل ويطرد نسيم البحر الخفيف الى أعلى ، ففى النهار يكون الهواء على البر أكثر حرارة وأقل كثافة من هواء البحر فيرتفع الأول ويحل محله الثانى ، وفى الليل بالعكس .

ألا نعجب مما ترى ! هواء جهة خط الاستواء ارتفع بالحرارة فوصل الى الطبقة الباردة فحل محله من أسفله هواءان من الجنوب والشمال فسار هوالى الجهتين حتى وصل الى قرب مدارى السرطان والجدى فثقل فهوى الى الأرض لأنه وجد الجو أبرد فقابلته الحرارة فارتفع واتجه الى خط الاستواء بعضه والى الدائرتين القطبيتين البعض الآخر ، ولما وصل الى الدائرتين القطبيتين عمل معه مثل ماحصل له فى خط الاستواء ارتفع الى أعلى وحل محله البارد الآتى من القطبين ، وهكذا تجد قارة آسيا اذا كان الحر فى الصيف أتاها النسيم من البحر على شواطئها الجنوبية فكثرت الأمطار . واذا كان الشتاء برد جوها فحل محله النسيم البحرى الذى هو أقل كثافة فهب النسيم من نفس القارة الى البحار ، وهكذا نسيم البر والبحر فى كل مكان بالليل والنهار على هذه القاعدة يذهب نسيم البحر الى البر نهارا ونسيم البر الى البحر ليلا ، وكل هذه الرياح على قاعدة

واحدة

واحدة حرارة وبرودة .

أسباب كثرة الأمطار

(١) أسباب كثرة الأمطار أن يرتفع البخار فيصل للطبقة الباردة كما فى خط الاستواء فان شدّة الحرارة ترفعه الى أعلى جدا فيصيب الطبقة الباردة فيمطر ، ولما كان ذلك أمرا دائما كثرت الأمطار هناك .

(٢) وكذلك فى الجهات التى تكون الجبال فيها ، فان الهواء اذا قابل الجبل اضطر أن يرتفع فيصل الى الطبقة الباردة ، ولذلك يكثر المطر على سفوح الجبال ، فالهواء فى خط الاستواء انما ترفعه الحرارة ، وعلى سفوح الجبال ترفعه الجبال .

(٣) وهكذا الرياح الضدية المتقدمة تتجه من الجهات الحارّة الى الباردة وان لم تكن مرتفعة ، ولذلك يسقط مطر غزير على القسم الغربى من أوروبا .

(٤) وترى الرياح الموسمية المتقدمة من هذا القبيل ، فانها تهبّ على جنوب آسيا الشرقى فى فصل الصيف لأنها كما علمت تنتقل من خط الاستواء الى الجهات الشمالية التى تزيد برودة عليها فيسقط مطر غزير على بلاد الهند والصين واليابان . وتحقيق هذه وايضاحها فى سورة الأعراف عند الآية التى ذكر فيها الرياح ، وكذلك فى سورة الحجر عند آية : « وأرسلنا الرياح لواقح »

هذا هو معنى قوله تعالى هنا : « وتصريف الرياح » . ها أناذا أدعوك لتنظر تصريف الرياح ، أدعوك لتتأمل كيف كان أصل هذا كله ؟ أصله الشمس ، فلو وقفت ولم تتحرّك لكان للعالم شأن غير هذا ولكنها تحركت بالحساب الذى فى الجدول السابق ، وبحركتها أزجت الشعاع والحرارة على الأرض ، ولما أزجاها عليها رفعت الهواء جهة خط الاستواء ، وحركت ريحين شمالية وجنوبية ، وهذان اتجها الى الجهتين ونزلا عند مدارى السرطان والجدى وارتفعا وسافرا الى المدارين ، وهكذا خفض ورفع فى أماكن معينة وفى كل ذلك تنزل أمطار فى مواضع وتمتنع فى أخرى ، وانظر كيف نصب الجبال فى بعض المواضع ، ونصب البرودة فى أخرى ، فالجبال ترفع الهواء فيصل الى الطبقة الباردة فيمطر ، وهكذا البرودة التى عند الدائرتين القطبيتين تقابل الرياح الحارّة فتكون لها قائمة مقام الطبقة الباردة : « إنّ ربى لطيف لما يشاء »

يا رباه : جعلت الحرارة سببا للوصول للطبقة الباردة ، وكذلك الجبال ، وهكذا أنزلت البرودة فقابلت الحرارة لانزال المطر ، فالبرودة إما أن يرتفع الهواء اليها بالحرارة عند خط الاستواء ، واما أن يرتفع بالجبال ، واما أن تنزل نفس البرودة فتقابل الحرارة فينزل المطر ، وهذا معنى قوله تعالى : « إنّ ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » وبهذا يفهم لم ابتدأ السورة وختمها بهذين الاسمين « العزيز الحكيم »

بمثل هذا فلتفهم أيها الذكىّ معنى العزّة والحكمة ، وبمثل هذا تفسر أسماء الله الحسنى ، انظر تر السورة ابتدئت بالعزة والحكمة وختمت بهما ، فهو عزيز ، عزّ فغلب ، وقهر الهواء والماء ، وتصرّف فيهما بالحرارة والبرودة ، وجعل الشمس مسيطرة عليهما ، تقرب وتبعد بنظام ، وتؤثر فيهما بنظام ، انظر كيف كانت الرياح ترتفع بالحرارة وبالجبال ، أو تقابل البرودة ، كل ذلك لنتائج معلومة ، وذلك كله بحساب متقن ظاهر فى حركات الشمس ، ألا ترى الى نسيم البرّ والبحر والى الرياح الموسمية صيفا وشتاء ، أليس ذلك كله تابعا لحركات الشمس ليلا ونهارا فى الأوّل وصيفا وشتاء فى الثانى ، فالأوّل تابع لحركتها حول نفسها ، والثانى تابع لحركتها حول الشمس ، هذا هو معنى الحكمة ، وهذا هو معنى العزيز الحكيم ، وكرّرها فى الأوّل والآخر ليفهمنا هذه المعانى ، وليقول لنا هكذا فلتعرفوا كتابى ، كتابى أنزلته لتدرسوا صنعتى ، فاذا قلت إنى عزيز وحكيم

فلتقرءوهما في صنعتي لا في خيالكم .

بهذا وأمثاله فليدرس القرآن ، وبه و بأمثاله فليرتق المسلمون ، وقد جاء أوانه ، وحلّ زمانه ، والله أذن به ، والله هو العزيز الحكيم . والى هنا تمّ الكلام على اللطيفة الثانية والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

بهجة العرفان ، في جزائر المرجان

في آية : الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون

ما كدت أكتب هذا العنوان حتى حضر صاحبي العلامة المفضال الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير . فقال : إن هذا العنوان يدل أنك تريد ذكر أهمّ عجائب البحر وهو المرجان ، والمرجان قد تقدم الكلام عليه ، ورسمته في سور كثيرة كسورة النحل وكسور غيرها ؟ فقلت : ههنا أمر أعجب ! وعلم أبدع لم يسبق له نظير ، ههنا الجمال والحكمة وسعادة الدنيا والآخرة ، ألم تتذكر أيها الذكيّ يوم أن كنت تناقشني في عجائب الحساب الذي وضعت بعضه في ﴿ سورة الرحمن ﴾ فيما سيأتي عند آية « الشمس والقمر بحسبان » و بعضه الآخر في ﴿ سورة الذاريات ﴾ عند آية « وفي الأرض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون » قال : أذكر ذلك ولا أنساه . قلت : ألم تتذكر أني وقعت في يدي مجلة انكليزية وعنوانها هكذا : « منظر في مملكة الحيوان ، يسحر الألباب ، ويحرّك الوجدان » وفيها صور المرجان البديع التي أخذت بلبي ، أتتذكر ماقلته لك إذ ذاك ؟ قال : قلت لي إن هذه الصور المرجانية حديثة العهد لم يطلع الناس عليها إلا اليوم ، ولقد أخذت بلبي كما أخذ الحساب الذي نحن بصدده بمجامع قلبي . قال : نعم نعم أتذكر ذلك . قلت : فاذكر ملخصه لتظهر المناسبة بين بدائع الحساب التي في نفوسنا ، وبدائع المرجان التي خلقت في بحارنا ، فقال : إن ذكر الشمس والقمر وانهما بحساب في ﴿ سورة الرحمن ﴾ وكذلك ذكر أن في أنفسنا آيات ، وانا مطلوب منا إبصارها ودراستها استبان منه أن كل كوكب وكل شجر ونبات لا وجود لها إلا بحساب في حركات الكوكب ذي الأجزاء اللاتي تركب منها النبات الخ وهناك ذكرت أنواع الحساب من الجذر والتربيع وحساب مثلثات القوائم الزوايا التي ترجع في حسابها الى (١-٢-٣-٤) وهكذا ، وأن الجذر والتربيع في هذه الأعداد البسيطة ينتج مثلثات قوائم الزوايا لا حصر لها ، وهناك بدائع وعجائب مثل النظام لارتفاعات الأوتار والقواعد ، وهكذا مما لا حصر له ، وذكرت هناك كيف كان الكسر الدائر المركب يشبه سير الكواكب في حسابها ، فهي منظمات لا حصر لأدوارها ، ومن أهمّ ما تقدم في الموضعين صور الأوفاق التي نقلتها من كتاب خواص الأعداد للمرحوم على مبارك باشا الذي ترجمه من اللغة الفرنسية ، وأثبت فيه كيف كان جمال الأوفاق وحسابها وكيف كانت هذه الأوفاق من عجائب الحساب الكامن في نفوسنا المستمدّة من نور الله عزّ وجل ، وأن اتساعها لتلك العلوم المدهشة المنظمة فتح باب للقاء الله ، وأن الأمم الاسلامية اللاحقة تبعا للأمم الوثنية السابقة لما انحطت مداركهم أخذوا يستعملون تلك الأعداد في الأدعية وجلب الرزق بالعزائم والدعوات ومزجها بآيات القرآن ، والصابئون كانوا يتقدمون بها الى الكواكب ، هؤلاء وهؤلاء ضلوا السبيل في أواخر قرونهم مع أن هذه العلوم مرقية للأمم والعقول ، مرغبة في لقاء الله ، مصغرة لأمر الحياة الفانية الجاهلة . هذا ما أتذكره ، ولكن اذا تفضلت بذكر وفق واحد من تلك الأوفاق ليكون جمالها واضحا بحيث لا يتكرر مع الأوفاق الآتية هناك ويفيد فائدة أتمّ ، فانه به يستبين ما مناسبة جزائر المرجان للحساب ؟ فقلت له : المذكور هناك أن الأوفاق إما فردية واما زوجية ، وكلاهما تكون فيه المتوالية العددية والمتوالية الهندسية ، وأنا لا أذكر هنا إلا وفقا فرديا فيه المتوالية الهندسية ، وهذه المتوالية وان كانت موضوعة هناك في وفقها لم يبين

هناك

هناك كيف يوضع كل جدول فرديّ ، فني عرف الأذكياء وضع هذا الجدول الفردي وماثله بالمتوالية الهندسية قاسوا عليه كيف يضعون المتوالية العددية فى المثلث ، وكيف يضعون المتوالية الهندسية والعددية فى كل وفق فردي مخمس ومسدس ومسبع الى مالاحصر له ، وهاهوذا :

		١		
	٨		٢	
٦٤		١٦		٤
	١٢٨		٣٢	
		٢٥٦		

فهذه متوالية هندسية وضعت ثلاثة أعداد فى الصف الأول الأيمن وتركنا صفا يليه وأنزلنا ٣ تليها فى الصف الثالث وتركنا صفا يليه وأنزلنا الأعداد الثلاثة الباقية من ٦٤ الى ٢٥٦ فى الصف الأخير ، ولاجرم أن المثلث الأصلى هو الذى أحيط بخطين فى داخله ٤ مربعات لارقم بها ، فهذه المربعات يملأ كل منها عما فوقه فى صفه من الأرقام بشرط أن يكون الرقم الأبعد لا الرقم الأقرب ، فرقم ١ يوضع أسفل ورقم ٢٥٦ يوضع أعلى ، ورقم ٦٤ يوضع على اليمين ، ورقم ٤ يوضع على اليسار ، فاذا تمّ هذا فانك ترى ناتج ضرب أعداد كل صف أفقى أو رأسى أوقطرى يساوى مكعب الرقم الذى فى قلب الوفق وهو ١٦ وهو ٤٠٩٦ وهناك يظهر جمال الحكمة وجمال نفوسنا ، فان هذا النظام البديع فيه تجلى للنفس وفى النفس أن كل عدد مرتبط ارتباطا وثيقا بما يليه ، وكل صف مسار للصف الآخر وجميع الصفوف مساويات لمكعب الرقم الذى فى القلب .

ومن عجب أن يكون ذلك العدد هو العدد الخامس من أعداد ٩ فكما كان فى وسط الوفق هو وسط فى الأعداد ، وهذا من أسرار نفوسنا المملوءة عجائب وغرائب .

فلما اطلعت على المجلة المذكورة الانجليزية ابتهجت نفسى بمنظر المرجان : وسحره الحلال ، والابداع العجيب ، وخيل لى أن نفوسنا أشبه ببحر متلاطم الأمواج ، وأن عجائب الحساب المنظمة فيها تشبه عجائب المرجان فى البحار ، كيف لا وأنا أسرّ وأفرح بعجائب هذا الحساب كسرورى وفرحى بعجائب المرجان المنظورة المصوّرة من أقاصى البلدان ، أفلاترى رعاك الله أيها الذكىّ أن المرجان نوع واحد : وتراه منوّعا تنوّعا مدهشا فى البحار كما أن الأعداد أصلها الواحد ، وبانضمام ١ آخر اليه كان اثنان والاثنان كان منهما كل زوج فى جميع الأعداد ، ولاشك انك ان ضربت ٢ فى أىّ عدد فردى أو زوجى كان الناتج عددا زوجيا ، فلاعدد زوجى إلاوهو ناتج من ضرب عدد ٢ وجميع الأعداد الكاملة والمتحابة الآتى بيانها فى ذينك الموضعين تنتج من عدد ٢ والأعداد المتحابة والكاملة من الأعداد النادرة البديعة ، ومع ذلك يمكن استخراج مالانهاية له منها بقاعدة واحدة ستتضح هناك .

فقال صاحبى : هذا القول حسن جدا وجميل ، وتبيان المرجان وصوره البهجة جمال ، ولكنى سمعت كثيرا من أهل العلم بمصر وغيرها يقولون : ما فائدة مثل هذه العلوم سواء أكانت فى تفسير القرآن أم فى غيره ، إن هى إلا أشياء تسرّ بها النفوس ، ولكن لافائدة منها فى الحياة . فقلت : إن هذه كلمة أسمعها فى كل مكان يتسلى بها الجهلاء الغافلون الذين هم لاعرفوا علم الشرقيين ولا الغربيين .

إن رقىّ الحياة وسعادة الممات بحب العلم ، ولوكان مايقولون حقا ما أغرم الناس فى أرضنا بالكواكب البعيدة ، ولاتنافست فيها دول الأرض مع أن الكواكب لا أكل فيها ولاشرب ولادرهم ولادينار وهاهوذا

علم الأعداد وخواصه لما تركه الشرقيون قديما انتقل الى أوروبا وترجم بعضه أستاذنا المرحوم على باشا مبارك مع انى كنت لما قرأت مقدمة ابن خلدون ورأيت فيها عند الكلام على الارتماطيقى مايفيد أن هناك فى هذا العلم جداول منظمات بينها مناسبات مدهشات وعجائب ولم يذكر شيئا منها ، اشتاقت نفسى لهذه العجائب . وتحسرت على جهلى بها ، فلذلك وضعتها فى التفسير لما حان حينها . فقال : إن هذا الجواب به دحضت حجة هؤلاء الكاسلين ، ولقد آن أوان شرح الصور المرجانيـة المرسومة فى تلك المجلة الانجليزية ، فقلت : إن فى المجلة لعجائب :

العجيبة الأولى

صور السمك العائش حول سلاسل الصخور المرجانية فى البحار

وهناك صور الأسماك بألوانها . وهذا شرح المجلة لها ، وهاك تفصيله : « إن كثيرا من السمك الذى يكثر حول سلاسل الصخور المرجانية فوق وصف الواصفين من حيث بدائع ألوانها البراقة المؤثرة بهيئة خطوط ملوّنة مجتمعة وأحزمة مختلف ألوانها ظهرا و بطنا ، إن هذه الألوان وان كانت بهجة لماعة فى أنفسها ليست ظاهرة كما ينتظر ، ذلك أنها متناسبات تناسبا تاما مع السلاسل المرجانية المجاورة لها من حيث ألوانها ، وبهذه المناسبة اللونية الموسيقية البديعة قد ينجو السمك ممن يصطاده بدون احتياج الى الاسراع فى جريه ، لأنه لايكاد يميز الرائى بين لونه ولون الصخور البديعة النقش ، وفى أكثر الأوقات ينجو السمك بأن يجرى فى مجارى داخل تلك الصخور ليغيب عن الأبصار » اه

أقول : وهذه السلاسل لونها الحمرة البديعة والبنفسجية ، ولون الشفق والزرقة والصفرة ، وهكذا ألوان السمك ، فترى فى السمكة خطوطا صفراء ، وأخرى زرقاء ، وأخرى حمراء ، وكل هذا واضح فى الرسم .

العجيبة الثانية : سمك يسمى النعل المنقوش

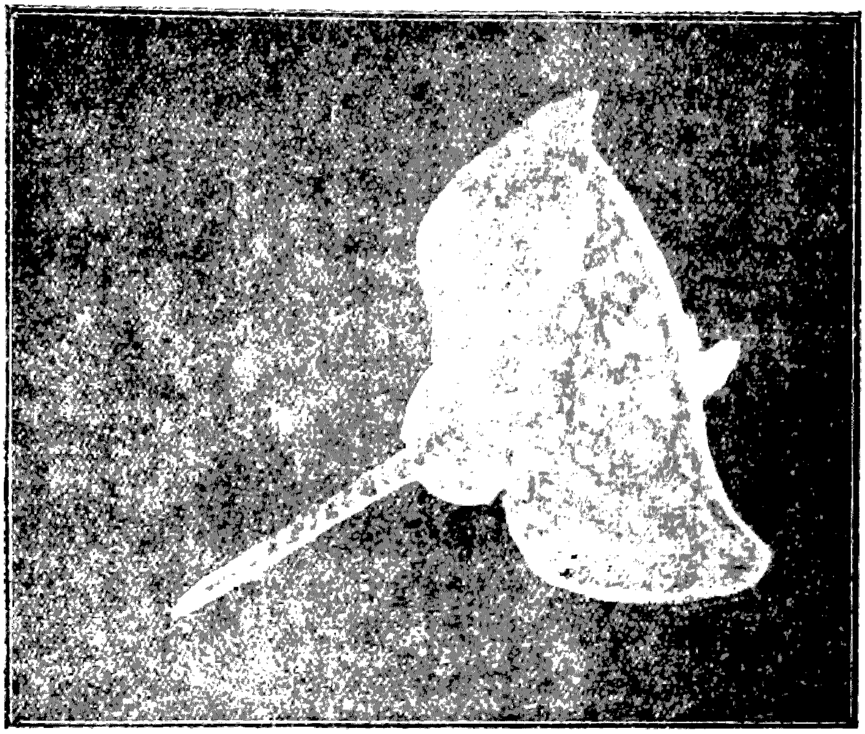

(شكل ٤ — سمك يسمى النعل المنقوش)

ان

إن هذا وان لم يكن مرجانا فهو سمك فيه عجائب وحكم ، كما ترى أن كل سمك يستعين بذيله على العوم ولكن هذا السمك ذيله مفقود ، فلاقدرة له على التحرك به ، فهذا إنما يتحرك بهذه الزعنفة التى تراها أشبه بالمثلث الذى تراه أمامك مرسوما بالصورة الشمسية (الفوتوغرافية)

العجيبة الثالثة : بيض سمك النعل المنقوش

اعلم أن هذا السمك إنما سمى بالنعل لأنه يشبه النعال التى يستعملونها فى المشى على الثلج ، فأما نقشه فهو ظاهر واضح أمامنا ، وأما البيض فهذه صورته (انظر شكل ٥)

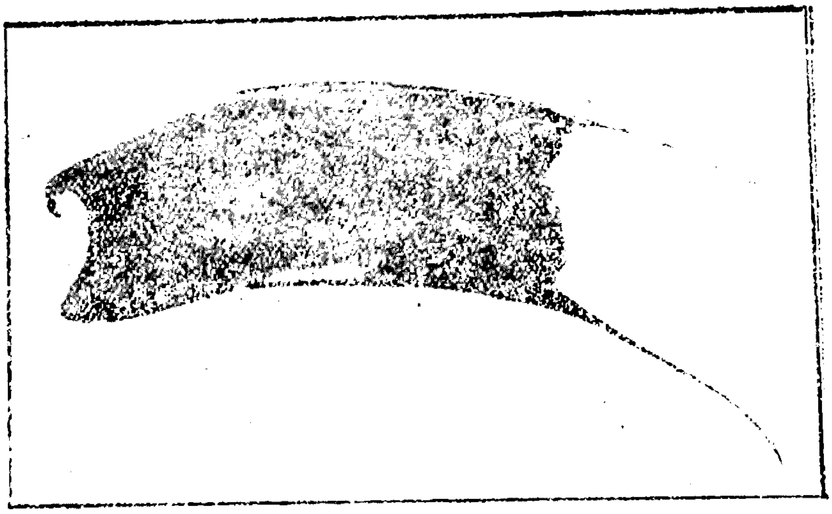

(شكل ٥ — غلاف بيض سمك النعل المنقوش)

« إن غلاف بيض سمك النعل المنقوش خلقت جوانبه الأربعة من المادة التى صنعت منها أصابعنا ، (و بعبارة أخرى) هو قرن وهو يخلق فى مبيض الأنثى محيطا بالبيضة بعدما يتم تكونها ، وفى داخل هذا الغلاف الأسود القرنى الصدفى تكون المادة البيضاء من البيضة (الغرقئ) وفى وسطه الكرة التى يخلق منها الجنين فى داخل ذلك البياض « المح » (انظر شكل ٦)

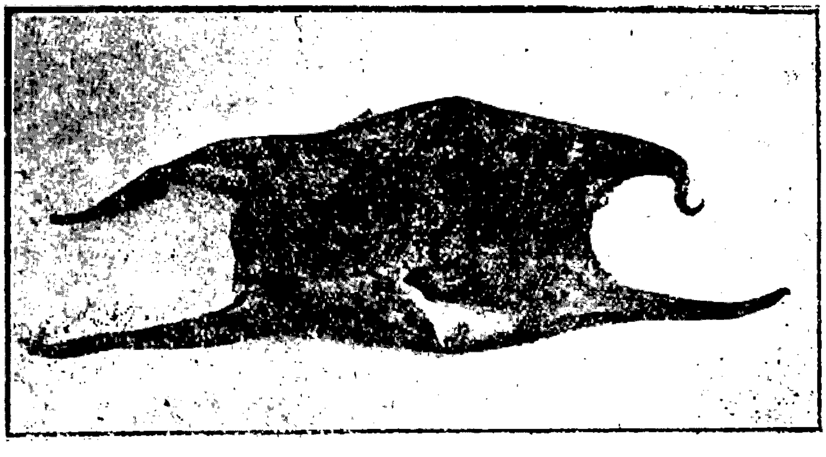

(شكل ٦ — غلاف بيض سمك النعل المفرغ منه)

« غلاف سمك النعل ينزل الى قاع البحر وتنمو البيضة فى داخله قليلا قليلا ، و بعد أشهر كثيرة يرى سمك النعل الصغير التام الخلقة جاثما فوق قمة (مح البيضة) التى قد امتصت قليلا قليلا ، ثم يحصل هناك تغير كيمائى

فى بياض البيضة فيذوب القرن عند طرف من أطرافه ، وهناك تخرج السمكة الصغيرة »

العجيبة الرابعة

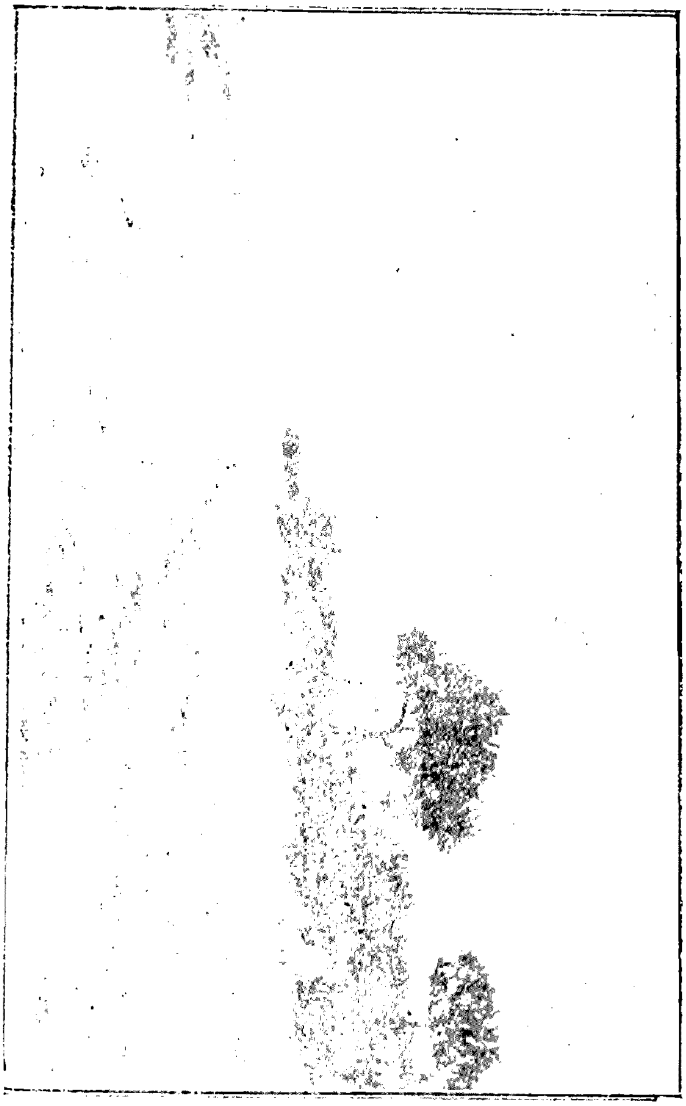

(شكل ٧ — قطعة من الجزيرة المسماة « جزيرة الثلاثاء »)

« إن الجزائر المرجانية (سواء أكان وضعها فوق أكتاف بركان لم يصل فى ارتقائه الى سطح الماء ، أم كانت حول جزيرة ارتفعت فى البحر بوسيلة أخرى) انما تبنى فتصير مستعمرة من سلاسل صخرية فى البحار ومن قطع مضمومة لبعضها مهشمة من بقايا تلك السلاسل المذكورات ، وحوالى تلك السلاسل الصخرية البحرية يكون رمل جميل ذو امتداد ، وهذا هو الذى تراه فى هذا الرسم المصوّر بالتصوير الشمسى أمامك الآن وقد اتخذته السلاحف الخضر الألوان (التى تؤكل) مكانا مناسبا لأن تضع فيه بيضها وهى فى هناء وحبور « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم »

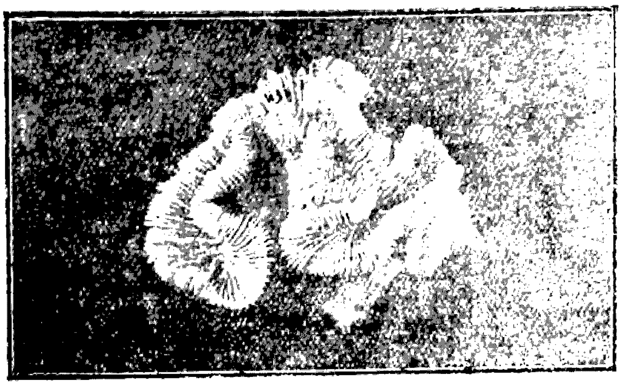

(شكل ٨ — مرجان ورقىّ يشبه ورق الأشجار)

المرجان الورقى يكون فى جهات فى بحار خط الاستواء ، وينمو بحجم كبير والمستعمرة الصغيرة منه تشبه الكبيرة : الحديقة الغناء ، والمروج البهجات ، وحيوان المرجان المتراكم فى تلك المستعمرة تضرب ألوانه للزرقة الخفيفة .

(شكل ٩ — سلاسل الصخور المرجانية)

هذه إحدى المستعمرات الكثيرة المكوّنات من السلاسل الصخرية المرجانية المشتملة على مالاحصر له من حيوان المرجان الدقيق ، وهو يتضاعف بأحد أمرين : إما بالانقسام ، واما بحدوث براعم فى الحيوان .

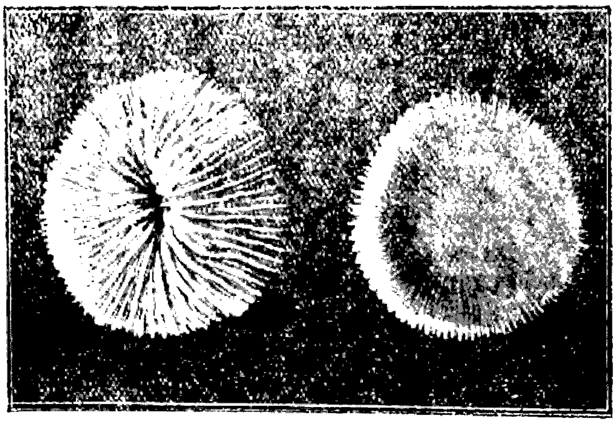

(شكل ١٠ — المرجان الذى يشبه فى هيئته بعض النباتات الفطرية الصالحات للأكل خبز الغراب)

وهو يظهر فوق سطح الماء وتحته ، وهـذه الصورة المشبهة الفنجال فى شـكلها هيكل حيوان مرجانى واحد يشبه من وجوه كثيرة شجرة كبيرة من الشقائق البحرية

العجيبة الخامسة

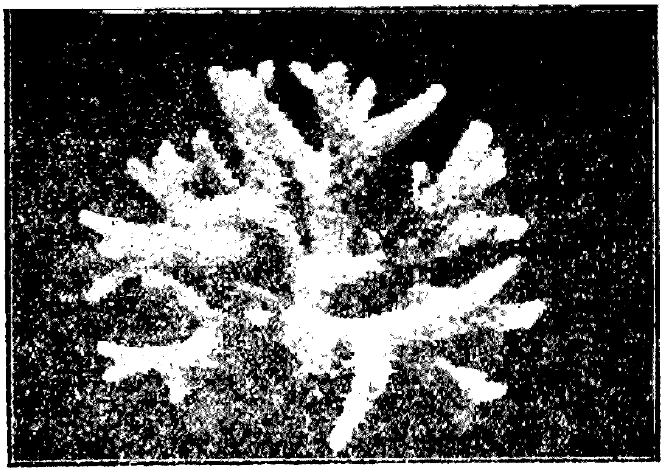

(شكل ١١ — مرجان مشدود بخيوط)

هذه مستعمرة حيوان يعيش على الأعشاب ، وهذه المستعمرة تخالف مستعمرة المرجان من عدّة وجوه ولكنها تشبهها فى أن كلا من أفراد الطائفتين المجتمعة تحيط به مادّة كافية لحفظه « فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » .

(شكل ١٢ — مرجان مدريبور)

هذه مستعمرات مرجانية لنوع المرجان الحقيقى المسمى (مدريبور) وهو ينمو بهيئة الورق المجدول ، وترى نوعا منه فى المتحف البريطانى محيطه يبلغ ١٦ قدما

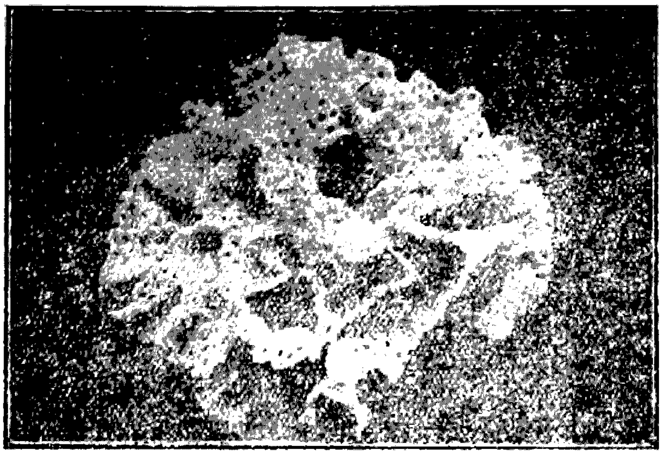

(شكل ١٣ — مرجان يشبه الشبكة)

هذه مستعمرة أخرى للحيوان الجميل الذى يعيش على الأعشاب ، وهو أقرب الى الدود منه الى حيوان المرجان ، وماهذه النقط السود إلا فتحات فى هذه المستعمرة الشبكية

العجيبة السادسة

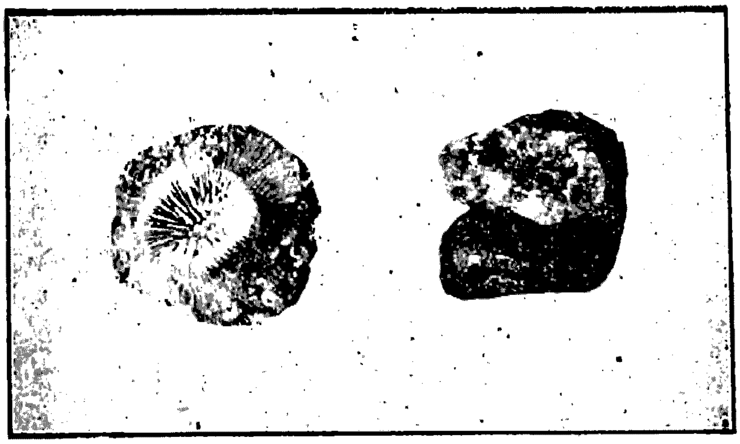

(شكل ١٤ — مرجان الكوب)

هـذا المرجان البسيط البريطانى فى حجمه الطبيعى حيوان مفرد يشبه نبات الشقائق البحرية ، وأسفل هيكله مشدود بصخر ، أوحجر ، أوصدف .

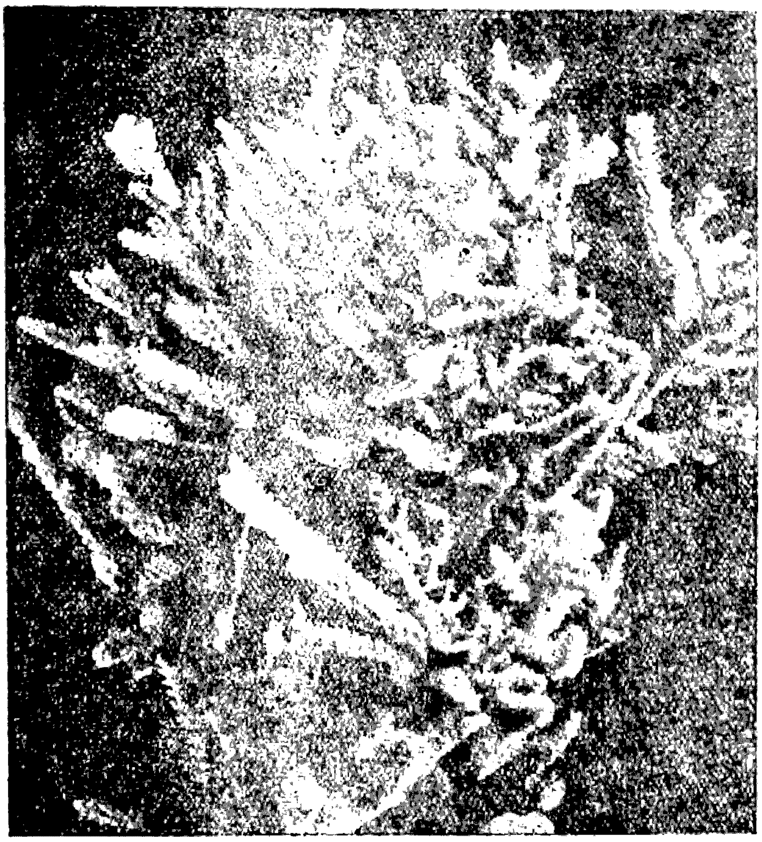

هذه مستعمرة بهجة المنظر بما فيها من كؤوس الزهر البديع المحيط بالأغصان المشبهات أصابع اليدين وكل كأس من كؤوس الزهرات عبارة عن محارة أو صدفة تشبه كوبا فيه حيوان المرجان المشبه نبات الشقائق البحرية ، وهذه المستعمرة تنمو بطريق البراعم حتى يكون فيها آلاف من حيوانات المرجان المجتمعة بأدق انتظام .

(شكل ١٥ — مرجان المحيط الهندى)

العجيبة السابعة : مرجان كوب البحر

نجم المرجان ، ومرجان كوب البحر

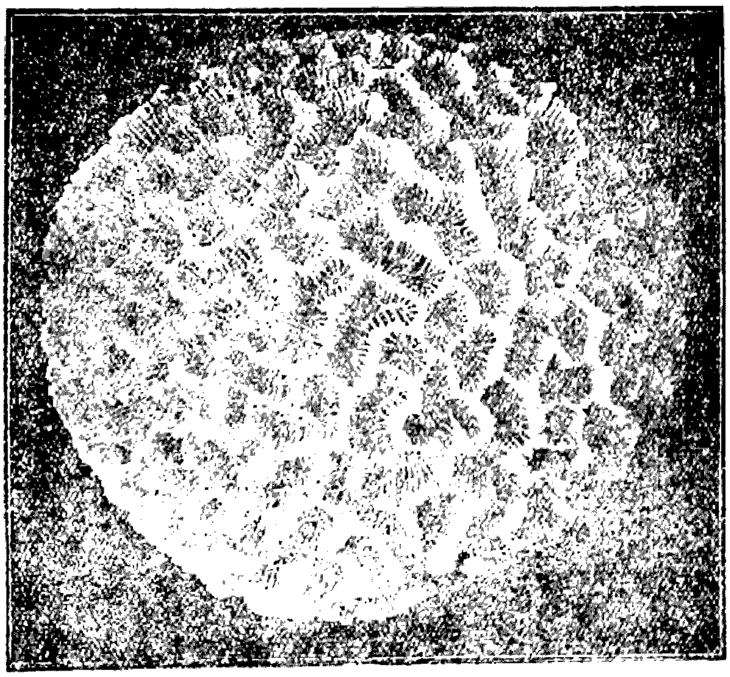

(شكل ١٦ — نجم المرجان)

هذا هيكل جميل المنظر ، بديع الشكل ، لمرجان نجمى فيه انتظمت حيوانات المرجان التى بها انشئت المستعمرة ، إن هذه المستعمرة المرجانية تتكاثر بما يظهر فيها من البراعم التى دائما تتجدد

(شكل ١٧ — هذا كأس بحرى من المرجان)

هذا الرسم وان كان يشبه الكأس فى شكله ليس قريبا من الكأس المرجانية المتقدمة الذكر (كرو فيلياالبريطانى) كلا فان هذا مستعمرة لحيوانات مرجانية كثيرة جدا ، وكؤوس أزهارها البديعات بهجات ترى فى داخل هذه الكأس المكسورة كسرا جزئيا .

العجيبة الثامنة

حصير البحر — أنابيب بحرية مصنوعة من المرجان

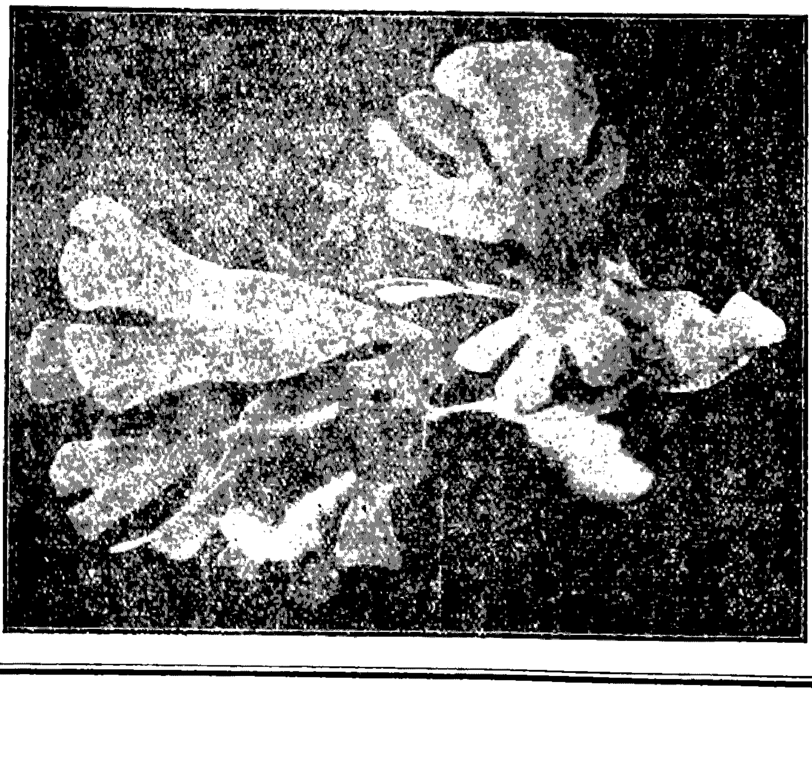

(شكل ١٨ — حصير البحر)

« إن حصير البحر مستعمرة سمراء تشبه من أبعض الوجوه الاعشاب البحرية ، وماهى إلا حيوانات دقيقة تنسب الى فصيلة من فصائل المرجان ، إن كثيرا من جماعات هذه الفصيلة مكون من الكلس ولذلك يسمى بالمرجان ، ولكن حصير البحر الذى كلامنا فيه له هيكل قرنى لين مرن لطيف ، إن أول موضوع كتبه (تشارلس داروين) فى العلوم الطبيعية كان على حصير البحر »

(شكل ١٩ — أنابيب بحرية مكونات من المرجان)

هذه صورة بحجمها الطبيعى للأنابيب المكونات من المرجان ، إن كل حيوان مرجانى فى هذه المستعمرة

يعيش فى أنبوبة حمراء مكوّنة من موادّ الجير الذائبة ، وهذه الأنابيب منضم بعضها الى بعض مكوّنات مايشبه قلائد الأطفال ، إن هذه الأنابيب الكثيرة العدد مرتبطات بعضها ارتباطا وثيقا محكما بواسطة قناطر ، وفى كل أنبوبة حيوان مرجانى يخرج من أعلى جسمه ٨ قرون ريشية خضراء ، إن هـذه الفصيلة المرجانية المسماة (تابيبورا) تظهر عادة فى الماء القليل (الرقراق) فى أطراف السلاسل المرجانية الصخرية فى الدنيا القديمة والجديدة .

العجيبة التاسعة

(شكل ٢٠ — مرجان الكوزيان الحى)

هذه مستعمرة جيلة ذات أغصان تشبه الأعشاب وهى من مرجان الكوزريان ، وهذا النوع يشمل أصناف المراوح البحرية والأقلام البحرية ومايسمى أصابع الرجال الميتين ، وههنا ترى مئات من حيوان المرجان اتحدت مع بعضها فى الحياة بواسطة قناة ، وكل حيوان منها له مايشبه قرون الحشرات الريشية ، وله سلاح اتخذه من الموادّ الجيرية ، ثم إن هذه الحيوانات يجمعهن محور يحفظ الجيع فى نظام واحد ويشبهن المستعمرة .

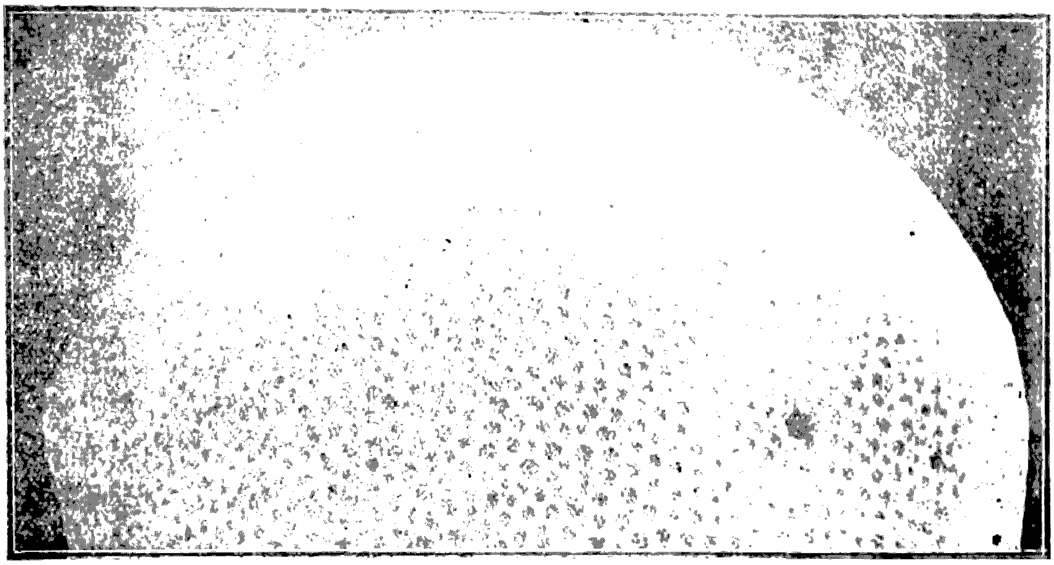

(شكل ٢١ — مستعمرة المرجان فى البحر الهندى)

إن لفظ «مرجان» يدخل تحته مئات من الحيوانات المختلفة الأشكال كما تقدم ، ولكنه يجب أن يعلم أن التاريخ الطبيعى ليس فيه فصيلة اسمها فصيلة المرجان ، وانما المرجان منسوب الى فصيلة (الزوفيت) تشبه أشجار (الشربين البحرى) ، فهناك صنف يقال له : مرجان المديبور ، وهذا ينتسب الى مايسمى «المرجان الشقيق» المنسوب الى نبات الشقائق البحرى المتقدم ذكره مرارا ، وهناك مرجان أسود اللون له مايشبه الساق الثقيل الشديد ، ومرجان آخر يشبه المروحة البحرية ، وآخر يسمى «هروزون» ينسب الى «حصير البحر» المتقدم ، وهناك غير ذلك .

(شكل ٢٢ — شقائق البحر فوق الصخور)

هذه أشبهت باقة الأزهار فى شقائق البحر من وجهين : فأولا شعاعها اللامع منتظم فى جوانبها ، وثانيا اللون الجيل ؛ إن جسمها الاسطوانى مثبت فى قاعدته ، والفم عند قطبها الأعلى محوط بأوراق منتظمات بهيئة دائرة حول الساق ، مسلحة بما يشبه قرون الحشرات اللاسعات الموفرة الحياة ، إن الشقائق البارزة فى هذه الصور الشمسية نوع منها يسمى « بلاموز » ذوقرص موشح بأهداب ذات أشواك كثيرة صغيرة تشبه قرون الحشرات اللاسعات .

(شكل ٢٣ — سلاسل الصخور المرجانية فى جزيرة « داكو »)

هذه السلاسل الصخرية المرجانية تغطى مساحات شاسعة الأكناف ، ممتدة الأطراف ، فى شواطئ جزيرة الملك ، فأقتبس ما كتبه العالمان « كانت » و « هارلى » ان هذا اللون المنظم البراق يخدع الناظر فيخيل اليه أن أمامه على الشاطئ حديقة ممتدة على مدى الجوانب ، كثيرة الأزهار ، اذا هو برق خلب ، سحر العين برآه ، إن من المرجان ماتراه ردئ اللون ، أوقرنفليه ، أوضعيفا يتكسر بأدنى لمس ، ويخر واقعا على الأرض ، ومنه ماهوقوى متين شديد صلب ، لاتؤثر فيه المطرقة ولا تكسره الفؤوس

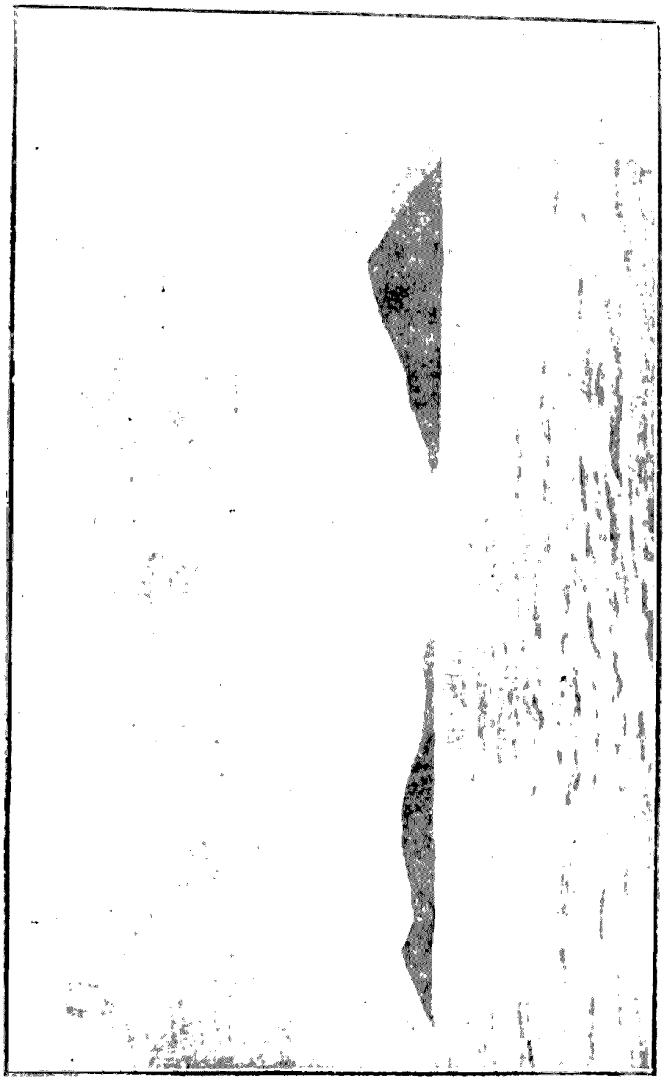

(شكل ٢٤ — الجزيرة البركانية)

إن الجزائر على قسمين : جزائر قارّية (منسوبة للقارّات) أى انها كانت قطعة من القارّة فانفصلت منها ، وجزائر بحرية ، وهى التى تبرز فى البحر بسبب اهتياج بركانى فى البحر ، إن هذه الصورة الشمسية ترينا الجزيرة البحرية . انتهى ما أردته من المجلة الانكليزية المذكورة

فلما أتممت هذه المقالات الشارحات للصور . قال صديقى : لئن صدق ظنى ليكونن فى الأمم الاسلامية بعد اليوم حكماء لم يسمح بأمثالهم الزمان من قبل ذلك ، إن مباهج الصور ومحاسن الأشكال مفاتيح العلوم وكيف يعقل أن انسانا يهتاج للعلم ، ويشتاق للبحث ، إلا بمشوّقات ، وصور بهجات ، تبارك الله أحسن الخالقين وكيف يعشق شبان المسلمين العلم ، ويحبون الأمة ، ويغرمون بصانع العالم ، إلا بمشوّقات تراها أبصارهم ، ومعشقات تحرّك وجدانهم ، واذا سمعنا ابن سينا يقول فى كتابه : « إن الصوت اللطيف ، والعشق العفيف والعبادة مع الفكر توصل العبد لربه » فان هذه الصور فيها أرقى العبادات ، وهى أعظم من المغانى ، انها لموسيقى بصرية أبعد أثرا من الموسيقى السمعية ، على أن الموسيقى السمعية قد كدّرتها القصائد المملوءة بالشهوات الفاسدات ، والأهواء والضلالات ، أما هذه المناظر فانها قدسية إلهية ، صنعتها يد القدرة وزخرفتها

بالحكمة فأصبحت هى ونجوم السماء ، وعجائب الزرقاء والغبراء ، جنة عرضها السموات والأرض لخاصة المفكرين ، ما أكثر هذا النوع الانسانى فانهم عن هذا الجمال غافلون . فقلت : لقد نطقت بعلم وأفدت بحكمة . فقال : هذا هوالذى جال بخاطرى أثناء هذه المناظر ، وأنا أقرأ فى نفسى : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم و يتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا » فالذكر فى الآية أشبه بمقدمة ، والفكر فى خلق السموات والأرض كنتيجة له ، فالناظر فى هذه العجائب على هذا النمط قدوصل الى النتائج ، ولم تكن الصلاة والصيام إلا معدات للتفكر ، فصلاة الغافل كلاصلاة ، والعبادة لاتقرب الى الله إلا مع الفكر ، فهذا هوالفكروههنا فى هذه الآية التى نحن بصددها يذكر (بعد ذكر البحار وتسخيرها وتسخير السموات والأرض لنا) الشكر والفكر ، أى ان نتيجة هذه العوالم هوالشكر والفكر ، وهل للناس شكر إلا بعد فكر ! فرجع الأمر كله الى الفكر ، وأجل ما يحصر الفكر بشوق إنما هى الصور الجميلة التى لاتهيجنا للشهوات ، وانما تهيجنا للعلم بمعانى الأرض والسموات . ثم قال : هذا ماجال بخاطرى ، فهل تسمح لى أن أعرف ما أثر فى نفسك ، واهتاج به لبك ، عند دراسة هذه المناظر . فقلت : نعم أنا عند رسم صورة بيض السمك المسمى «النعل المنقوش» وهى الصورة الثانية ، خطرلى وأنا أكتب فى شرح تلك الصورة أن أقول « إن البيضة تنزل الى أسفل البحر شهورا كثيرة ، فاذا تم خلق الجنين حصل هناك تغير كيماٰئى فى بياض البيضة فيؤثر ذلك فى القرن وهو (القيض) أى قشر البيضة فتخرج السمكة الصغيرة ، إن الصانع الذى يبدع هذا الابداع فى صنعه ، و ينظر السمكة صغيرة محبوسة داخل حصن قوىّ متين شديد نظر رحمة فيحدث فى الغذاء المحيط بها عملا وهو التغير الكيمائى فى البياض ، فيؤثر فى الحصن ، فيسهل على السمكة الصغيرة أن تخرج من محبسها وتسبح فى الماء وتفرح بنعمة ربها

أقول : إن الصانع الذى يفعل هذا و يريه لنا بأعيننا هو نفسه الذى أسمعنا بآذاننا آية « ولكل قوم هاد » فلا أمة فى هذه الأرض إلا لها هداة يخلقون فيها ، وهؤلاء الهداة يتولون هدايتها بما يناسب أخلاقها ، فهاهى ذه جزيرة العرب جاءهم رسول منهم أمىّ مثلهم فعقلوا كلامه ، وهاهم الأنبياء كلٌّ يأتى على شاكلة من أرسل اليهم ، وهاهم أولاء علماء الاسلام فى كل قرن كانوا يتلاحقون ، وهم مصلحون بحسب أزمانهم ، ولولاهم لذهب هذا الدين فى الأرض . وخطرلى أن بعض أمم الاسلام اليوم أشبه بهذا الجنين فى هذا القرن سواء بسواء ، فقد أحاطت بعقولهم الخرافات ، فمنعتهم عن الحرية فى دولهم ، وعن الترقى بين أمم الأرض وهم علماء ، ونحن انغمسنا فى الجهالات ، فهذه الجهالات المتراكمات أشبه بذلك الحصن المحيط بالبيضة المتقدمة ، ثم هؤلاء الهداة فى الاسلام الذين ظهروا فى الأصقاع الاسلامية أشبه بما حدث فى البيضة من التغير الكيمائى ، ذلك أن العلم الصادر من هذه العقول الممتازة فى بلاد الاسلام يحلل الجهالات المتراكمة ، فتصفو النفوس ، وبهذا التحليل العلمى تتخلص الأمم من الاستعباد الجسمى باحتلال الفرنجة وظلم الحكام الاسلاميين ومن الاستعباد العقلى بنفور النفوس وبعدها عن العلم بما ذرأ الله فى الأرض والسموات ، ولا يزال المسلم يجاهد فى مباحثه العلمية وهو يشهد الله فى كل حجر وشجر ، وبحر وجزيرة وأرض حتى ينقذ أمته من الخطر ويرفعها الى سماء المجد بأبحاثه ، وهناك ينطلق عند الموت من سجن الأرض الى فسيح عالم الأرواح والسموات كما انطلقت السمكة الصغيرة من سجنها الى ماء البحر الفسيح ، ولكنها لم تنطلق إلا بمقدمة كيمائية هيأتها العناية الإلهية ، هكذا نفس هذه العناية هى التى تهيئ اليوم نفوسا ونفوسا فى الأمم الاسلامية تحلل ماتراكم من الخرافات ، وبسببها تنطلق عقول الأفراد من سجن الضلالات وأجسام ونفوس الأمم من الذل والجهالات « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » .

إن هذه المناظر والمباحث تعشق الناس فى ربهم وفى العلوم وفى أممهم فيدرسون حبا فى ربهم وحبا فى العلم ، و يعملون طبعا لرقىّ أممهم ، لأن من أحبّ الله وأحبّ العوالم والعلوم لاجرم يحب الأمم . وهذه نهايات

السعادات فى الحياة والممات .

وأنا أحمد الله الذى خلقنا فى زمان النهضة الاسلامية التى يستنسخ الجهالات المتراكمة التى أحاطت بهذه الأمة منذ عدة قرون . فقال : وأنا بالتجربة أثناء نشر هذا التفسير وجدت هذه الآراء بحذافيرها والأخلاق بأنفسها قد انتشرت بين قراء هذا التفسير . فقلت : أنا لاشك عندى أنهم من دعاة هذه النهضة الحديثة ، والله هو الهادى الى الصراط المستقيم . انتهى صباح يوم الأحد ١٩ ابريل سنة ١٩٣١ م

المعانى المجسمة فى الحقل

بضواحى القاهرة يوم ٢٠ ابريل سنة ١٩٣١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

لما أتممت كتابة هذا الموضوع المتقدم رأيت أنى يجب علىّ أن أخرج من القاهرة الى ضواحيها لأستنشق النسمات ، وأروّح النفس ، وأىّ سبيل لذلك أفضل من أن أذهب الى حقلنا الذى أزوره وقتا فوقتا .

بتّ ليلة الثلاثاء ٢١ ابريل سنة ١٩٣١ بتلك القرية وكان معى بعض ورق مطبوع من سورة الزخرف لأضع له الفهرست ، فلما كان يوم الثلاثاء بدرت لى ثلاث معان : فى الأكل ، وفى النساء ، وفى السماء ، ذلك أنى وأنا أتعاطى الطعام وقاربت الشبع أخذت نفسى تحدّثنى قائلة : « ماهذا الجوع ؟ وما هذا الشبع ؟ إن ههنا قائدين وسائقا ، والقائدان أحدهما باللين ، وثانيهما بالشدة ، وأوّلهما أدوم من ثانيهما ، فالسائق للطعام هو الجوع ، والسائق دائما قاهر للمسوق ، والقائد المؤدّب باللين هى لذة الطعام ، والقائد المؤدّب بالشدّة هو المرض وتعاطى الدواء . فعل الله مع الانسان مايفعله مع دابة نافرة ، فهذه لابدّ لها من سائق ، ولشدة نفورها لابدّ لها من رجل آخر يكون معه برسيم لتأكله ، والجوع سائق ، ولذات المآكل قائدات ، وقد يجرع الدواء تجريعا »

ثم قفلت راجعا الى بلدة المرج لأركب القطار ، فلمحت امرأة تحمل جرة على صدرها حلى لامع ، فما كادت تظهر من بعد حتى حجبت هذه الزينة تأدبا ، وما كاد بصرى يقع عليها حتى أخذ الفكر يجول فى هذا المعنى وهو : « أن جمال الانسان والحيوان محدود من جهات ثلاث : من جهة الزمان ، إذ لا يكون إلا فى زمان معلوم ثم ينطفئ ، ومن جهة المكان ، وهو بعض الأعضاء . ومن جهة المقدار ، فقداره محدود له نهاية »

فأما جمال النجوم والشموس والأقمار ، وجمال البحار ، والدّر والمرجان الذى تمّ كلامنا فيه ، فان ذلك ليس محدودا زمانا ، لأننا لانعرف متى ابتدأت هذه العوالم ، ومكانا لأننا لاندرى نهاياتها ، ولامقدارا لأننا لانعرف عدد النجوم ، ولاعدد حيوان المرجان ولاغيرها

واذا علمنا أن جمال المرأة أونحوها من نوع الانسان محصور بثلاث اعتبارات ، وجمال العوالم غير محصور أدركنا لامحالة النتائج والثمرات واللذات الناجمات عن كل جمال ، فنتائج جمال المرأة هو الولد ، ولولاه لم تجمل ، لأن الجمال إذ ذاك عبث ، ولذلك تحرم هى والرجل من الجمال فى حال الصغر والكبر إذ لاقدرة لهما على الذرّية .

أما جمال النجوم والشموس والأقمار ، والأزهار والمرجان فى البحار ، فانما ذلك لاستخراج القوى الكامنة فى هذا الانسان ليرقى الى العلا ، فكما أن هذا الجمال لاحدّ له هكذا لاحدّ لنتائجه العلمية . إذن العلم لاحدّ له ، ويتبع ذلك اللذة ، فههنا علم لاحدّ له ، ولذة لاحدّ لها ، فأما فى الانسان والحيوان فذلك كله محدود كما شرحناه

ولما

ولما كان هذا الخاطر مناسبا لموضوع المرجان المتقدم أثبته هنا ، إذ هـذه المنحة موافقة لهذا المقام .
ومن عجب أن الانسان لايشعر له بحدّ فى حوز المال ، ولا فى الشهوات واللذات ، ولـكن الحد يأتى له قهرا فيضعف جسمه فى طعامه وشرابه ، وتنحل قواه فلايقدرعلى الوقاع ، وتحيط به الـكوارث فيقلّ ماله .

سبحانك اللهم وبحمدك ، أنت بالمرصاد لمن حاد عن ذلك الصراط ، فالذين يتعدّون حدودك فى طعامهم وشرابهم ووقاعهم ، ولايدركون أنك قدّرت اللذات فيها بقدر ، يعتريهم المرض والضعف والهزال ، وتقصر أعمارهم ، ويحل بساحتهم الشقاء ، والفقر والبلاء ، ويعوزهم الطبيب ، والدواء الـكريه ، كل ذلك لأنهم لم يزنوا هذه الحياة وزنا حقيقيا واعتبروا المقدمات نتائج ، وذلك اسوء التفـكير ، والجهل بالمصير ، كتب ليلة الخميس ٢٣ ابريل سنة ١٩٣١ وبهذا تمّ الـكلام على اللطيفة الثالثة والحمد لله رب العالمين

اللطيفة الرابعة

فى قوله تعالى : أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهـم ساء مايحكمون ☆ وخلق الله السموات والأرض بالحقّ ولتجزى كل نفس بمـا كسبت وهم لايظلمون

لقد تبين لك فى التفسير اللفظى أن قوله تعالى : « وخلق الله السموات والأرض بالحق » جعل برهانا على الجزاء يوم القيامة ، وأن هذا العالم بنظام ، والنظام ملازم له ، فمحال أن يـكون عاما فى كل شىء ، ويختلف ذلك فى الانسان ، ولـكن الآن أذكر لك شيئا عجيبا ! أنقل لك آراء علماء العصر الحاضر ، أنقل لك آراء (اللورد اسبنسر) كيف يقول ؟ يقول : « إنّ الطبيعة نفسها فيها العقوبة ، العقوبة فيها مقدّرة على مقدار الذنب » ، بل جعل تلك العقوبات من الطبيعة نعمة ، فـكأنه نطق بقوله : « وهم لايظلمون » وانما جعلها نعمة لأنها منذرات ومحذرات ، فإذن كل ألم نعمة لأنه منذر ومحذر ، وأتى بمثل ما ذكرناه من عقوبات الطبيعة ، ولافرق بين قولنا وقوله إلا أنه رجل غربى ، فترى تضافر الشرق والغرب على رأى واحد والرأيان يفسران القرآن ، فـكأن هذا القرآن أنزل لهذا الزمان ، والافـكيف يتبين الآن فى هـذا الوجود أن لاعقوبة ، وأن مايسمى عقوبات بحسب ظاهره هونعم بحسب باطنه ، وهو الذى طالما قلناه فى التفسير ويتضح إذن معنى قوله تعالى : « إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن » ، فعـذابه إذن تحذير لاغير ، وقدّمنا فى هـذا التفسير أن مسألة الـكفار وعقابهـم الدائم لا أتعرّض لها بل أنت سيفتح عليك وتعرف الحقيقة ، لاسيما اذا قرأت كتاب الامام الغزالى وهو « فيصل التفرقة ، بين الاسلام والزندقة » ، فلا نقل لك الآن كلام العلامة (اسبنسر) الموافق لمافهمناه من كتاب الله لتعلم أن دين الاسلام سيظهر فى مستقبل الزمان ظهورا أوسع بعلم أشمل .

قال : « انظر لى نوع العقاب الذى يبـدو فى الطبيعة ، فانك اذا تأمّلته وجدته أجدر أن يسمى ثوابا لاعقابا ، وفرق عظيم بين عقاب الانسان المتـكلف وبين عقاب الطبيعـة المنظم الحسن الجميـل ، إن عقاب الطبيعة زجر عمـا أغفلناه ، وتعليم لمـا جهلناه ، فهو مقدّر بقدر الذنوب ، فلازيادة ولانقصان « وجزاء سيئة سيئة مثلها » لا قلّ ولا أكثر ، فليس فى الطبيعة حقد ولاحسد ولاعفو ، فاذا عثر الطفل لطيش فاصطدم بشىء أمامه لم ينل من الطبيعة ألما إلا على مقدار عجلته وسرعتـه ، فان قلت قلّ الألم ، وان عظمت عظم الألم ، ذلك هوالانصاف والعدل ، تعاقب الطبيعة بذلك وهى ساكتة صامتة لاتبدى حراكا ، ولانسمع شتما ، فهى بالمرصاد مصممة مؤكدة ماضية فى عزيمتها لاتنى ، يشاك الطفل بشوكة فيألم ، وكلما عاد الشك عاد الألم واذا لم يشك لم يألم . وهـذا هو الصدق . فاذا رأى الطفل من الطبيعة ذلك التصميم تأدّب أدبا حقا فنجا

إن هذه العقوبات ليست خاصة بالأطفال ، فكما أنها لاترحم صغيرا لاتوقر كبيرا ، فاذا كبر الانسان وليس له والد يزجره قعدت له الطبيعة بالمرصاد وأدّبته كما تؤدّب الأولاد ، فاذا كان مأجورا ولم يراع حق العمل وفرط فيه ينزع منه العمل ويترك ليتجرّع الضرّ والفاقة ، ويشرب الكأس التى ملأتها يده .

وترى الرجل الذى يخلف وعده يناله من سوء فعله مايفقده ثقة الأصحاب بوعده فتفوت عليه الفرص ويحلّ به الندم . وترى التاجر الذى يغلى على المبتاعين بضائعه ينفضون من حوله وهو كئيب حسير .

وترى البائع الذى يحسن الظنّ بالمشترين منه فيبيعهم نسيئة ، وكذلك المساهم المخاطر ، فهذان ينالهما من ضياع المال مايؤدّبهما ويزجرهما جزاء وفاقا ، انهما كانا لايرجوان على جهلهما حسابا .

وترى الجائر المضلل يناله الهوان ، والخائن يلحق به الذّل والصغار ، فيرجع الى رشده بعد تأديبه ، فتى تخلص من ورطته ثبت على الهدى ، وتخلص من أسباب الردى ، ولم يخدعه خادع بعدها . ثم طلب بعد ذلك أن يكون عقاب الآباء كعقاب الطبيعة الخ اهـ

هذا مايقوله العلامة (اسبنسر) أفلست ترى أن هذا المعنى بعض قوله تعالى : « وخلق الله السموات والأرض بالحق » . أفلست ترى هنا بعض الحق أى العدل ، والعدل فى العقاب . ثم انظر الى قوله تعالى : « ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لايظلمون » كأنه يقول :

أيها الناس : ماظلمتكم ، إنما أنتم أطفال ، وليس فى طبيعة العالم الذى تسكنون فيه أن ترتقوا إلا بما فعلناه ، تشوككم الشوكة فتألمون والألم لمنفعتكم ، فالألم نوع من الاحساس به تكون العلوم ، فكما تحلون المسائل الهندسية والحسابية والجبرية والفلكية بصفاء عقولكم ، هكذا تفهمون مضارّ الطبيعة بحاسة اللمس المخلوقة فيكم ، فالعلم علمان : علم تدركه العقول ، وعلم تدركه الحواس وكلاهما له أثر فى نفوسكم والنتيجة أن تكونوا عالمين . فاذا كان الألم علما فليس ظلما . إنما الظلم ألم لا فائدة منه . وفى هذا الألم أكثر فوائد الانسان . انتهى الكلام على اللطيفة الرابعة

اللطيفة الخامسة

فى قوله تعالى : إنا كنا نستنسخ ماكنتم تعملون

اعلم أن قول الله : « إنا كنا نستنسخ ماكنتم تعملون » قد عبر عنه علماء الأرواح الذين سألوها ، فأجابت بحقيقة أحبّ أن أذكرها لك هنا سواء أصحت عندنا أم لم تصح ، فلأذكرها وليفكر فيها عقلاء المسلمين ، وليحضروا الأرواح ، وليسألوها كما يسألها أهل أوروبا ، فاذا كان المسلمون لم يتعلموا هذا العلم فليس ذلك بمانع أن نذكر منه ماوافق المقام ، بل انه معجزة للقرآن ، بل هو نفس قوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » سأنقل لك ما ذكره علماء الأرواح لفائدتين : الأولى أن ماستسمعه هو عين قوله تعالى : « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » . الثانية : أنك متى وقفت على ما أقوله الآن يعتريك خشية وخوف شديد أكثر مما فى الكتب السماوية لأنك ترى أن كل كلمة ، وكل فكرة ، وكل خطرة تخطر لنا ترسم فى أجسامنا الروحية وهذا أمر عظيم ، فان الانسان يصبح بهذا خائفا وجلا اذا أدرك أن كل مايجول بخاطره يرسم على جسمه الروحى ، فاذا مات ظهرت جميع الآثار ، ذلك أمر عظيم ، فلأكتف بالمقدمات ، ولأشرع فيما قالوه . قالوا ما ملخصه : « إن الحيوان فى هذه الأرض إما أن يكون فى الماء ، أو فى الهواء . فالذى فى الماء لايستطيع الحياة فى الهواء ، والذى فى الهواء لايستطيع الحياة فى الماء . هكذا هناك عوالم فوق الانسان والحيوان تعيش فى عالم يسمى (الأثير) وهو عالم لطيف ألطف من النور يحيط بأرضنا وبالأراضى والعوالم الأخرى ويقولون

إن أرضنا عالم متأخر خلقت فيه أرواح متأخرة هى أرواحنا ، أخلاقها وحشية ، قريبة من أخلاق البهائم ، لذلك عشنا معها فى دار واحدة ، و يحيط بأرضنا مادّة أثيرية ألطف ألف مرّة من الهواء ، ولكنها بالنسبة للمادة الأثيرية المحيطة بغيرها من العوالم أخشن وأخشن بما لاحدّ له ، وكلما كان الانسان ألطف أخلاقا متجرّدا من الأنانية استحقّ النقل الى عالم يناسبه ، وكلما كان أحسن أخلاقا ، وأغزرحبا ، وأنفع لبنى جنسه ازداد نقاء ، فيرتفع من عالم الى عالم ، وليس هناك مانع من الموانع تصدّ الانسان عن الرقّ الى العوالم العالية إلا ذاته فانها ان لم تستعدّ لتلك العوالم تبقى فى مكانها الخاص بها كالأرض التى نحن عليها ، فهى إذن أشبه بالسمك لايصدّه عن الأرض إلا ضعفه عن استنشاق الهواء ، وكالانسان لايصدّه عن الحياة فى البحر إلا أن الماء أغلظ من الهواء فيقتله ، فاذن كل عالم من عالم الأرواح المفارقة أجسادها وهى فى البرزخ محكوم عليه أن يعيش فى عالم خاص ، فلو أنه تجاوز عالمه الخاص لم يتحمل ماهوفوقه بل يكاد يكون فيه معدوما فيرجع أسرع من البرق الى عالمه ، هذا مايقولونه فى الأرواح بعد مفارقة الأبدان

أعمال الأرواح

ثم إن الانسان فى الحياة الدنيا وهو فى هذا الجسم المادّى يقولون انه يحيط به مادّة أثيرية ، وفكره مسلط عليها ، مؤثرفيها ، فكل فكرأوعمل لابدّ أن يرتسم فى جسمه الروحى (المنطبق على الجسم المادى) الذى سيبقى بعد الموت معه ، ثم ينتقل الفكر من جسمه الروحى الى السائل المحيط به فيحدث فيه صلاحا أو فسادا كما تنتقل الروائح العطرية والمكروهة الى الأجسام حولنا بالهواء ، فالمادّة الأثيرية موضوع أعمال الأرواح فى الحياة و بعد الموت كما أن الهواء محل أثرالأصوات ، فترى للنفس علائق بالأرواح المحيطة بها ، والسائل الأثيرى ينقل آثارها اليهم وآثارهم اليها ، فترى أننا اذا كنا فى جمع ملتئم نحسّ بسرورمنشؤه ذلك السائل ، واذا تحادثنا مع من يبغضنا ونبغضه نحسّ بتنافرفى قلوبنا ، فاذا تخلصت الروح من الجسم وأصبحت حرّة كانت أفعالها فى ذلك الأثيربنفس الارادة فتفعل فى السائل الأثيرى ما كنا نفعله ونحن أحياء فى المادة بأدواتنا ، وتؤثرالروح فى الأثير آثارا طوعا لأخلاقها وأحوالها ، وكمالها ونقصها .

واذا كان الفكرالروحى فى حال الحياة و بعد الموت يؤثرفى السائل الأثيرى صورا على مقدار تصوّره فانه بالأولى يرسم فى جسمه الروحى تلك الصور ، وهنا بيت القصيد ، فاذا كنا نرى أن الخجل يظهر أثره على وجوهنا والخوف ، فبالأولى يرتسم فى جسمنا الروحى تلك الصور المتعاقبة ولايمحو أحدها الآخر وتتراكم إذ ذاك الصفات المتعاقبة ، فيكون الجسم الروحى مجمع الأخلاق والأعمال ، فتظهر عواطف البغض والحسد والحقد والاشفاق والحلم والكبرياء والأنانية والغضب والرياء والجود والوداعة والحب ، وتلك العواطف لها آثاركآثارالعقاقيرالطبية فتكون مهيجة أومسكنة أوقابضة أوملينة أونافذة أومقوّية أومخدرة أومنوّمة أوسامّة أوشافية . و بالجملة تكون السوائل على عدد العواطف والفضائل والرذائل البشرية ، ويكون اختلافها كاختلاف خضرة النبات ، أوكاختلاف روائحه أوصوره وماشا كل ذلك اهـ

ذلك ملخص ماتقوله الأرواح وعلماء الأرواح ، أفليس هذا يشرح قوله تعالى : « اقرأ كتابك الخ » وقوله : « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » .

فانظرالفرق بين نسخنا ونسخ الله ، نحن ننسخ الحروف ، ولكن الله ينسخ ماهوأجلّ . من الحروف ينسخ نفس الأعمال ، برسم صورها ، يجعلها ظاهرة فينا واضحة ، فبدل (ح س د) فى معنى الحسد ، وبدل (ح ب) فى حب يرسم صورة الحب وضاءة مشرقة بهجة ، وصورة الحسد معتمة قابضة ، يراها الناس فيفرحون بالحب و يشمئزون من الحسد والبغض ، هذا هونفس قوله تعالى : «كفى بنفسك اليوم عليك

حسيبا » ، فنسخة الانسان إذن نفسه فيها صور أعماله واضحة لاحروف مكتوبة ، بل أعمال مرسومة واضحة ظاهرة ، وهذا هو كتاب الله الذى يكتبه فى أرواحنا ، وهذا عينه من قوله تعالى : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » وهذا بعينه هو قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » . وانما يظهره لأن الكشف الحديث فسر القرآن ، تلك من أجل معجزات القرآن والحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على اللطيفة الخامسة . كتب يوم ٤ مايو سنة ١٩٢٥ م

اللطيفة السادسة

فى قوله تعالى : فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين * وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم

نفحة فى صلاة العصر

يوم الأربعاء ٣٠ رمضان سنة ١٣٤٩ هجرية

فى هذه الآية أربعة أمور

(١) ان الله يربى عوالم السموات والأرض ، ويربى العوالم التى فيهما
(٢) وله الكبرياء فيهما
(٣) وهو غالب لهما ولما فيهما
(٤) وهو مع هذه التربية له الكبرياء والقهر ، وهو حكيم فى أعماله

إن التربية لامندوحة لها عن العلم بما تستدعيه حال من وجهت التربية لهم ، وقصد المربى تكميلهم ولابد من الحكمة فى الاعطاء والمنع ليتم مقصود التربية ، وهذه المعانى فى الاسم (رب) والاسم الحكيم ثم إن الله مع علمه وحكمته وتربيته لما خلق ليس شرعة لكل وارد ولايرد عليه إلا الواحد بعد الواحد ، فهو منيع الجناب ، رفيع الدرجات ، مترفع عن كل المخلوقات ، تناهت عظمته ، وعظمت منته ، وهذا معنى « وله الكبرياء الخ » وهذا الكبرياء وهذه العظمة بحق ، لأنه عزيز مرهوب الجانب غالب

واعلم أن هذه المعانى وأمثالها تتضمنها الصلاة ، سبحانك اللهم وبحمدك ، أنت الحكيم العليم ، خلقت الانسان وجعلته فى الأرض ، وأحطته بالنجوم والشموس والأقمار ، وأظهرت حكمتك وبدائع صنعك فى خلقه وتربية جثمانه وعقله ، وأعميته وغشيت على عقله فلايراها وهو يراها ولايعلمها وهو يحس بها ، وشغلته بحاجات نفسه ، ومكافحة بنى جنسه ، ولكنك مع ذلك فتحت له الباب فى الصلاة

الانسان يرى العظمة فى الكواكب والشموس ، ويرى الجمال فى الأنوار والصور الحسان التى لا يمكن أن يعرفها إلا باشراق هذا النور عليها ، فههنا عظمة وههنا جمال والانسان حائر بينهما ، تارة يلحظ العظمة كما يرى فى عظمة السموات ، وتارة يلحظ الجمال كما يرى فى الأضواء والزروع والأنهار والأزهار ، وتارة يلحظ العناية والحكمة معا كما فى ابداع خلق الأعضاء والأعين والآذان والأعصاب وقوى الدماغ ، فاذا رفع رأسه وقال : « ربنا لك الحمد ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ماشئت من شىء بعد » فههنا يلحظ المصلى العظمة والكبرياء فى السموات والأرض ، واذا ركع فسبح لربه العظيم وقال : « اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، خشع لك سمعى وبصرى ومخى وعظمى وعصبى وما استقلت به قدمى لله رب العالمين » ، وهكذا اذا سجد وسبح لربه الأعلى وأخذ يقول : « سجد وجهى للذى خلقه وصوّره وشقّ سمعه وبصره » وختم القول بهذه الجملة : « تبارك الله أحسن الخالقين » فهو فى هذين المقامين

يلحظ

يلحظ الحكمة وإحكام الصنعة ودقتها والعناية ، ففى الرفع والاعتدال تظهر للمصلى العظمة وفى الركوع والسجود يلحظ إحكام الصنعة وجمال لوضع المؤدى للحب والغرام والهيام ، فههنا تربية تصحبها رحمة تؤيدها حكمة ، تحيط بها عناية ، فهذه موجبات الحب ، والحب أعلى درجات السعادة ، وهذه المعانى هى مبادى سر قوله ﷺ : « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » ، ففى الصلاة ملاحظة الكبرياء العامة والعظمة والتربية والرحمة والحكمة . كل ذلك فى خلق الأعضاء التى يذكرها المصلى فى ركوعه وسجوده ، وهل قرة أعين العقول الكبيرة فى هذا الانسان إلا أن تحب وتعشق ، والعشق والحب إنما يكون لمن كملت أوصافه من جمال وعلم وعظمة وحكمة وابداع فى الصنع ورحمة لهذا المحب ولغيره من كل من يتصف بالحياة . كل ذلك يقوله المصلون فى صلواتهم والنبى ﷺ يلحظ معانيها ويتقد فؤاده بنار الحب ، وأكثر الناس لا يلحظون هذه المعانى .

(١) لا ظهور لبهجة الحدائق والبساتين والزروع والأنهار ، ولا للوجوه الجميلة إلا بالأنوار الكوكبية ، أو ماصنعه الانسان من الأنوار مشاكلة لها عند فقدها كالشمع والبترول ، اذا لم يكن نور فلا علم لنا بالجمال ، إذن الشمس سبب فى وجود كل جميل ، وسبب فى ظهوره ، فالحرارة والضوء معا تعاونا على ظهور هذه المخلوقات ، والضوء وحده سبب لظهور الجمال .

(٢) فاذا كانت هذه حال الشمس مع كل مخلوق فلنقل هكذا فى نفس الكواكب والشموس ، إن هى إلا آثار الذات المقدسة الغائبة عنا ، فكما كانت الشمس سببا لخلق الذوات الجميلة وغيرها وسببا فى ظهورها ، هكذا الذات العلية المقدسة سبب فى خلق نفس الشموس ، وسبب فى ظهورها لنا ولغيرنا على سبيل قياس التمثيل .

(٣) واذا رأينا أن الذات الجميلة من نوع الانسان مصدرها وجودا وظهورا الشمس ، فهكذا نقول : الشمس مصدرها وجودا وظهورا الذات القدسية .

(٤) واذا ثبت أن كل جميل فى أرضنا مشتق من الشمس وجودا وظهورا والشمس عن الذات القدسية وجودا وظهورا ، فليكن هذا الجمال الذى يدهشنا فى أرضنا أونعقله فى الكواكب وأضوائها أثرا من آثار ذلك الجمال المقدس ، إذن قرة عينه ﷺ فى الاستغراق فى ذلك الجمال ، فاذا تفكر فى الرفع والاعتدال فى السموات والأرض وفى الركوع والسجود فى خلق الأعضاء فههنا ترجع نفسه من الأثر العظيم والأثر الجميل الى مصدرهما وتكون العظمة ويكون الجمال هناك .

وأضرب لك مثلا أيها الذكى : ترى الصانع المتقن لصنعته وقد أبدع وملأ البلاد والعباد بضاعة ونقشها ورقشها ، وأعجبت الخاص والعام ، فمم جاءت هذه الصناعة ؟ انها لولم تستقر فى أعماق نفسه لم تظهر فى الخشب والحديد والذهب ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، ولذلك نجد الناس يتوقون لرؤية هذا الصانع ، ومتى وجدوه أخذوا يلتفون حوله ، ويعجبون به ، ويسرهم منظره وكلامه ، وينسون تلك الصنعة ، وهذا شأن الناس جميعا مع العلماء والحكماء ، فهم بهم مغرمون ، فالصانع أفضل من صناعته ، إن الحكمة والابتداع والعلم المغروسة فى قلب الصانع وعقله هى هو لأن العلم هو نفس العالم ، والمصنوعات المتقنات له تسوق الناس لحبه وتشوقهم لمناظره ، وانما أحبوه وأغرموا به لأنهم لما رأوا الصنعة أدركوا أن روحه نفسها فيها الكمال والجمال والحكمة التى تجلت وظهرت فى المادة التى أمامهم من باب أوشباك أوكرسى وانما يتركون الصنعة ويسعون لمشاهدة الصانع وحبه لأنهم يعلمون أن روحه أكمل وأعظم من صنعته ، وهذه الروح الكاملة تقدر أن تصنع آلافا وآلافا من هذا مع أن الانسان باعتبار صورته الشخصية ليس فيه شيء من ذلك ولكن ذلك كله راجع لروحه . ان العالم كله عند المصلى من عظمة السموات والأرض فى حال الذكر عند الرفع

والاعتدال ، ومن احكام صنع الأعضاء والرحمة فى حال الركوع والسجود ، ماهو إلا مرآة صقيلة يلحظها المصلى و يرى فيها (الذات القدسية) رؤية قلبية ، فهنالك تقر عينه بذلك الجمال وينشرح صدره ، وهذه المبادئ هى التى يتجلى آلاف أضعافها للأنبياء عليهم الصلاة والسلام عند المناجاة لاسيما نبينا ﷺ .

هذا بعض معنى : « وجعلت قرّة عينى فى الصلاة » وهناك يلحظ أن كل حب ورحمة فى أنسان أوحيوان فى العوالم كلها ماهى إلا آثار من ذلك الحب والرحمة ، ولاجرم أن ذلك يستغرق قلب من أفيضت عليه هذه المعانى مرة واحدة ، بل لن يتحمل توارد هذه المعانى على قلبه إلا نادر فى نوع الانسان . ومن رحمة الله على أكثر نوع الانسان أنهم لاينالون هذه النعمة لأنها تمزق أفئدتهم بهجومها مرة واحدة ولا يقوى عليها إلا مثل من يقول : « وجعلت قرّة عينى فى الصلاة » انتهى الساعة الواحدة بعد نصف ليلة الثلاثاء ٢٤ فبراير سنة ١٩٣١ م

نور النبوّة وبهجة العلم

فى الحديث المتقدّم : « وجعلت قرّة عينى الخ »

حيا الله العلم والحكمة ، اللهم إنا نحمدك ونشكرك على ما أنعمت وتجليت بالعلم والحكمة ، سبحانك اللهم وبحمدك ، إنك خلقت جميع ما أحاط به العلم ، ومما أحاط به علمك هذه الأرض وماعليها ، وقداتضح فى الكشف الحديث وتقدم فى هذا التفسير كثيرا أن الأرض اذا صغرت فرضا فأصبحت جوهرا فردا وصغرت العوالم المعروفة كلها على نمطها أصبحت كل العوالم المعروفة ألف مليون أرض كأرضنا المعروفة لنا الآن ، إذن أرضنا أشبه بالعدم ، فماذا يكون شأننا نحن بنى آدم عليها ، واذا كنا نسكن مايشبه العدم المحض ، فهل فى خطة الانصاف والعدل أن نوازن أنفسنا بمن يسكنون العوالم التى هى أكبر من أرضنا ، وهل من العقل أن يقول هذا الانسان (المسكين الذى يعيش فوق ذرّة منبوذة فى العراء لاهى فى العير ولا فى النفير واذا قيست بالعوالم لم تكن إلا هباء ودون الهباء)

انى فى العلم كمن يسكنون نفس الشمس (اذا كانت مسكونة بعض أجزائها) وهى أكبر من أرضنا مليونا ونحوثلث مليون أوكمن يسكنون بعض كواكب الجوزاء ، وهناك كوكب منها أكبر من شمسنا ٢٥ مليون مرة (وضوء شمسنا بالنسبة لضوئه كضوء الحباحب بالنسبة لضوء الشمس) إذن لايوضح حال هذا الانسان إلا قوله تعالى : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »

أما بعد فان الله الذى هذه نموذج مخلوقاته لفرط جماله وعلمه ورحمته أراد أن يظهر آثار علمه وجماله ورحمته لكل عالم من العوالم على حسب استعداده ، ومن الرحمة أن لايعطى الأدنى علم الأعلى ، كما لايعطى الجنين غذاء الشاب والكهل والامات ، فلوأن بنى آدم على الأرض أعطوا العلم التامّ لذابت مهجهم ولتقطعت أفئدتهم وهلكوا فى أقرب من لمح البصر ، بهذه البراهين يتحقق العقلاء بعض أسرار هذه الدنيا ﴿ وبيانه ﴾ أن تاريخ هذا الانسان مشحون بالأصنام وعبادتها والأوثان والتقرّب اليها ، وعبادة الحيوان والأشجار والنار والأنهار والأحجار والصالحين وقبورهم . هذا من ناحية الانسان العقلية إذ أخذ يتلمس السبيل لمعرفة خالقه وهو لايزال غارقا فى بحور الأحوال الحيوانية ، فلم يجد سبيلا لخرجه منها إلا بتلمس تلك السبيل بما يواتى عقله ويوافق ضعفه كما تدرّ البقرة اللبن اذا رأت صورة ولدها أمامها ، فكما أن البقرة والجاموسة لاتدران اللبن إلا اذا رأتا صورة ولدهما التى لاروح فيها . هكذا هذا الانسان فى أوّل تلمسه الخروج من حال الحيوانية الى حال الانسانية لاتظهر فيه مبادئ الأحوال الشريفة من أخلاق وعبادات إلا اذا رأى مايمثل خالقه تمثيلا لانسبة بينه و بين الحقيقة إلا كنسبة جلد ولد البقرة الميت الى حقيقته الغائبة عنها

هذه

هذه حال الانسان من حيث مباحثه العقلية ، فأما حاله من حيث نظره لظواهر الجمال فان الله عزّ وجل علم ضعفه وأنه لن يرى ربه إلا فى حال أخرى ، إذلا نسبة بين المخلوقات والخالق ، ففعل معه فى الجمال مافعله فى العلم والعبادة ، فحجبه عن شهود ذاته ، وخلق له الصور الجميلة فى الأرض ، وشغل الذكور بالاناث وبالعكس وجعل ذلك سلما لتكاثر النسل ، وجعل العيون والأبصار سلالم لنظر السموات والعجائب ، ومن هناك ترتقى العقول الى جمال خالقها بالبصائر لا بالأبصار .

عظم الله فى علمه ورحمته ، وتنزّل الناس أيام وحشيتهم الى عبادة الأصنام ، وأيام تقهقر عقولهم فى دياناتهم الى التقرّب بالنذور للصالحين ، وعظم وكمل فى جماله فأشرق نوره على الشموس والأقمار والكواكب ، ثم على الوجوه الحسان ، فكان ذلك خيرا به انتظم أمر المعاش بالمودّة والذرّية فى حال الحيوانية ، إذن نسبة حال الجلد المنفوخ لابن البقرة والجاموسة الى حال نفس ابن البقرة الحىّ كنسبة حال الأصنام بالنسبة لصانع العالم ، وكنسبة جمال الوجوه الحسان من نوع الانسان الى مبدع العالم وجماله .

قصة الخليل عليه السلام وقصة سيدنا محمد ﷺ

اذا علمت هذا فاعجب من قصة الخليل وقصة النبىّ ﷺ ، الخليل كسر الأصنام كما فى آية الأنعام ، ثم أخذ يدرس النجم والقمر والشمس وانتهى الى الله .

الله أكبر : أفلا تعجب معى إذ ترى أن هذه القصة هى قصة الانسانية ، عبادة أصنام وأحجار ثم ارتقاء الى النظر فى العالم العلوى ، ثم الوصول لله وهل هذا العالم كله إلا أرض وعوالم علوية ؟ ثم خالقها ، ثم انظر الى أمر الحواس الخمس كالسمع والبصر والشم ، فهذه بها نفرق بين الجميل وغير الجميل من الأصوات والألوان والطيب والخبيث من الروائح ، ثم ترتقى نظرات العيون الى العوالم العلوية من شمس وقرائح فتعرف الحكمة وتقف على النظام الكامل ثم تصل الى الله ، إذن هنا نهاية واحدة وهى الذات القدسية ، وهنا مبدآن : مبدأ من جهة التعبد ، ومبدأ من جهة الشهوات الظاهرة ، وهذان المبدآن بعدهما العلوم ثم الوصول . فاذا كان أكثر نوع الانسان عاكفا على عبادة الأصنام وما نحا نحوهما ، فان قصة الخليل أبانت الدرجتين الأخريين للانسان : درجة العلوم ، ودرجة الوصول ، واذا كان أكثر هؤلاء الناس غارقين فى الشهوات لايجدون منها مخرجا ، ظانين أن هذه اللذات المحسوسة ليس وراءها لذات أخرى ، فهاهوذا رسول الله ﷺ يقول : « أيها الناس : هاأناذا أحبّ الطيب ، وأحبّ النساء ، وكما كسر الخليل الأصنام ودرس الكواكب ووصل الى الله ، فها أناذا كسرت الأصنام بمكة وعبدت الله وحده ، وهكذا انتقلت من لذة النساء المحسوسة الى لذة القرب المعقولة « وجعلت قرّة عينى فى الصلاة » لأنى فيها وصلت للدرجة الثالثة ، إن العلوم أفيضت علىّ بالوحى فلست فى حاجة الى دراسة فلسفية ، فأما أنتم فعليكم أن تنظروا ماحولكم من العوالم ، وبالعلم تصلون الى الله تعالى كما فعل الخليل فى نظام سيره ليبين لكم ، وبالجملة فعكوف الناس على عبادة المحسوسات وحوز المشتهيات أمر عام ، والخليل مثل خروجهم من الحال الأولى ، والنبىّ ﷺ مثل لهم الحال الثانية ، وكل ذلك بسرّ : « وله الكبرياء فى السموات والأرض » ، فلولا تكبره لعلم عظمته جميع الجهال فلم يعبدوا الأصنام ولاالقبور ، ولهام بجماله كل امرئ فى هذه الأرض ، ولم يعشق أحد الصنفين الآخر ، ولكنه مع هذا الكبرياء والعزّة حكيم ، فاتخذ من هذا الضعف الانسانى حكمة ، ذلك أنه جعل غرام أحد الصنفين بالآخر سببا للحياة وللتناسل وان كانا محجوبين عنه تعالى كما جعل فضلات الحيوان سمادا لظهور نبات آخر نافع للحيوان . هذا ماعنّ لى هذه الليلة أثبته هنا والحمد لله رب العالمين . كتب الساعة الثانية بعد نصف الليل صباح يوم الأربعاء ٢٥ فبراير سنة ١٩٣١ م

جوهرة النفحة المتقدمة

فى آية : فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين ﴿ وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم

(١) الله مربى العوالم (٢) متكبر عزيز (٣) وهو حكيم ، فههنا تربية ، وكبرياء مع عزة ، وحكمة فلننظر آثار هذه الصفات :

﴿ أولا ﴾ فى نظام الأغذية فى الأرض .

﴿ ثانيا ﴾ فى نظام الآثار العلوية من خلق الجبال والتلال والبراكين و إحداث الزلازل والخسوف ، وهناك نفهم الكبرياء والعزة المصحوبتين بالحكمة فى التربية

﴿ ثالثا ﴾ فى تعليم الأنبياء والايحاء اليهم أو تكليمهم الخ .

﴿ رابعا ﴾ فى تربية النشء ، وكيف كانت تعاليم الأمم للنشء كلما كانت أرقى كانت أقرب الى النظام الأتم وكلما كانت أدنى وأخس كانت أبعد منه .

﴿ خامسا ﴾ فى أمر الأمم من حيث سياستها . وانه عز وجل يفعل معها فى السياسة المدنية مايفعله مع الناس فى عوالمه الطبيعية سواء بسواء . فاذا كان من الأغذية مايضرهم فهم المسئولون عن ذلك الضرر الحاصل لهم لأن لهم عقولا توجب عليهم الاستنتاج والبحث . فاذا أناموها فهم المسئولون . هكذا فى السياسة . فاذا حكمهم ملوك عادلون ثم قام أبناء أبنائهم الذين هم غالبا يكونون فاسقين جهلاء غير مجربين . فالأمم هى المسئولة عن اهمال أمورهم وتسليمهم الزمام لغيرهم فأين الشورى وأين العقول إذن ؟ « وقفوهم انهم مسئولون مالكم لا تناصرون »

﴿ سادسا ﴾ فى نظام (دالتون) فى التربية والتعليم .

فلنشرح هذه الفصول الستة تذكرة للمسلمين وهاك بيانها :

الفصل الأول فى الكلام على نظام الأغذية

اللهم إنى أحمدك وأشكرك ، وأعترف بعجزى وقصورى كما أعترف بنعمتك علىّ وعلى اخوانى قرّاء هذا التفسير وعلى سائر المسلمين ، لولا فضلك وانعامك و إلهامك وتوفيقك ما كتبت حرفا واحدا .

اللهم انك برحمتك وحكمتك شرحت صدرى لما أكتبه الآن . فأقول أولا لأقدّم مقدمة فأقول :

لقد احتجبت أنوارك وعلمك وجمالك وحكمتك وبهاؤك عن عقول خلقك ؛ فأنت ذو الكبرياء وذو العزة والحكمة والجمال ، ولكنك برحمتك أريتهم آثار تلك الصفات من وراء حجاب ، فهذه العقول الانسانية الشريفة ، ومزاياها العلية المنيفة ، وغرائز الحيوان اللطيفة ، وعطف الأمهات على ذريتها ، وحب الأساتذة لتلاميذهم ، وغرام أحد الصنفين بالآخر ، كل ذلك آثار تلك الصفات العالية ، ظهرت من وراء حجب السموات والأرضين ومابينهما ، وأقرب مثل مضروب لذلك الماء المحيط بالكرة الأرضية ، فهو الجزء المهم فى جسم كل انسان وحيوان ونبات ، ولا يخلو حى من هذه الأحياء من قطرات من الماء ، فان كانت فى الحيوان سميت عرقا تبرز منه ، وان كانت فى النبات سميت ندى (وهذا تقدم شرحه فى هذا التفسير) أى ان الندى لم ينزل من السماء . كلا . بل هو قطرات بارزات من نفس النبات كالعرق بالنسبة للحيوان ، وتكون صفات ذلك الندى من حيث الرائحة والطعم تابعة لصفات ذلك النبات كما أن العرق تكون رائحته ومزاجه وطعمه على مقتضى مزاج الانسان والحيوان الذى ظهر منه ذلك العرق ، ومانسبة عرق الحيوان وندى النبات الى

الماء

الماء المحيط بالأرض ومافوقه من البخار والسحب والثلوج المتراكمة فوق الجبال إلا نسبة ضئيلة ، فكما أن هذا العرق وذلك الندى أمر ضئيل بالنسبة للبحر المحيط بالأرض ، هكذا علومنا وحكمتنا والرحمات التى فى قلوبنا ، والجمال الذى نراه فى وجوه الفتيان والفتيات ، والصور البديعة فى كل نبات وحيوان وأحجار كريمة والحب والغرام اللذين بهما عاش الناس وانتظمت الأسرات كلها ضئيلة بالنسبة لعلم الله ورحمته وجماله وحكمته كلها ، وماعندنا منها إلا آثار ضئيلة كضآلة الندى والعرق بالنسبة للماء المحيط بالكرة الأرضية وقد تنوعت آثار تلك الصفات فينا كما تنوع الندى فكان متصفا بصفات النبات الذى برز منه من رائحة وطعم طيب وردىء وكما تنوع العرق بحسب الأخلاط التى فى الجسم الذى قام به العرق ، الماء واحد اختلفت آثاره باختلاف مادخل فيه وتخلله من كل نبات وحيوان ، ولقد أدهشنى والله ماعرفته من نفسى أنا ، ذلك أنى لم أترك اللحم إلا منذ عشر سنين ، ولكن هذا الترك كان جزئيا لا كليا ، ذلك أنى كنت آكل الخضراوات المطبوخة بمرقة اللحم ، فهذه فيها شوائب اللحم ، فأما منذ سنتين اثنتين ، فانى اقتصرت من الطعام غالبا على الخضر نيئة فى الأكثر ، أومطبوخة فى النادر ، ونبذت ماطبخ باللحم ، واقتصرت من الادم على الزيت الطيب ، ومن الخبز على ما كان غير منخول ، وأكثرت من الفاكهة الى آخر ما أوضحته فى مقام آخر ، أفليس من عجب أنى قبل هاتين السنتين كان يكثر عرقى وهو مصحوب برائحة غير مقبولة ، وذلك يقل ويكثر حسب الأخلاط ، وكان الاستحمام يزيل تلك الروائح ، فأما الآن فان العرق أصبح قليلا جدا ، وربما أسير فى الحر ساعات ولا أحس بعرق ما إلا قليلا ، واذا ظهر منه قليل لم تصحبه تلك الرائحة ولاجزء منها ، أفليست هذه الحادثة الجزئية تكون نبراسا لهذا الموضوع كله ، فههنا عرق اتصف بوصفين متضادين تبعا لأحوال الأخلاط فى جسمى أنا ، وهذا العرق فى جسمى قطرات قليلة بالنسبة للماء المحيط بالكرة الأرضية ، فاذا رجعنا الى ماسقنا الكلام لأجله ، وهى رحمة الله وحكمته وعلمه اللاتى من آثارها كانت لنا صفات سميناها باسمها فقلنا فلان رحيم أوحكيم الخ كما اختلف الندى والعرق من حيث طيب الروائح وخبثها بحسب المزاج طيبا وخبثا ، وهذه الصفات أيضا ضئيلة بالنسبة لصفات الله كضآلة قطرات الندى والعرق بالنسبة للماء المحيط بالأرض ، ومن هنا لانعجب من وسوسة الشياطين لبنى آدم ، وكيف نعجب ونحن نشاهد أن أمزجة النبات والحيوان لها آثار فى اتصاف الندى والعرق بصفات تلك الأمزجة النباتية والحيوانية ، فتكون طعومه وروائحه على مقتضى ما اتصف به ذلك النبات والحيوان ، فاذا ألفينا الماء المحيط بالكرة الأرضية ينقلب فى الحنظل مرًّا مثله فليس بعجب اذا ألفينا النور الشريف البهيج فى عقولنا وعواطفنا والشجاعة ينقلبان فى النفوس الخسيسة مكرا وخبثا وحقدا وحسدا وعداوة وانقيادا للشيطان الرجيم .

وخلاصة هذه المقدمة أن علومنا وصفاتنا الشريفة آثار صفات الله تعالى ، وهى بالنسبة لها كقطرات بالنسبة للبحر وهى تتلون فينا بحسب استعدادنا

انظر فيما تقدم فى ﴿ سورة الكهف ﴾ فى قصة الخضر وموسى عليهما السلام ، وما ورد فى الصحيح مامعناه : « مانقص علمى وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا الطائر بما أخذ بمنقاره من البحر » فلله الكبرياء فى السموات والأرض ، وله العزة ، ولكنه من جهة أخرى مرب وحكيم ، التربية يعوزها الحكمة ، والكبرياء والعزة سياج لها . مامن عاقل يشعر بأن له ربا إلا وهو يحب أن يراه ، ولكن الله يقول : كلا . أنت ضعيف ، واذا رأيتنى صعقت ، هاهوذا موسى خر صعقا ، والجبل صار دكا لما تجليت له ، وكفاكم أنى أريتكم ماتحمله عقولكم من آثار صفاتى ، فترون جمالا فى الوجوه ، ورحمة فى القلوب ، وعلما وحكمة ولكنها قليلة جدا : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

كبرياء الله جميلة محبوبة لأنها رحمة لعباده ، انه لم يحجبنا عن رؤية ذاته وصفاته بكبريائه إلا لرحمتنا لأننا

ضعفاء ، ومن هنا نفهم معنى قوله تعالى : « وهو العزيز الحكيم » فعجزنا عن مشاهدة ذاته وصفاته حاصل بمقتضى صفتى الكبرياء والعزة ، واجتزاؤنا برؤية هذه الآثار الضئيلة حاصل بمقتضى الحكمة والتربية ، وبهذا تم الكلام على المقدمة التى بها عرفنا ضرب مثل لكبرياء الله فى السموات والأرض ، إذن فلنبدأ بالكلام على ما أردناه فى الفصل الأول من الكلام على الأغذية .

بث الله فى الأرض النبات ، وبث الحيوان والانسان ، وأعطى الحيوان غريزة ، وغرس فى الانسان كما غرس فى الحيوان شهوات وأحوالا ، فأما الحيوان فعاش بغريزته ، وأما الانسان فانه تقلب فى صفتى الغريزة والاختيار فظهرت أمامه الأغذية فعرفها بحواسه ، ولكنها مملوءة بالأسرار المحجبات عنه ، وانما حجبها عنه لأمرين كبريائه وحكمته ، ولولا هذه الكبرياء لم تمكن تربية الانسان بالحكمة والعلم ، إذ الحكمة لاتكون إلا بعد الطلب ، ولاطلب إلا بعد الشوق ، ولاشوق إلا عند الحاجة ، ولاحاجة إلا لجلب منفعة أودفع مضرة

ولوأن كل نبات ، وكل حيوان ظهرت فوائدها للناس بلاطلب ولانصب لم يجشموا أنفسهم النصب فى معرفة تلك الفوائد ، بل ظل الناس خامدين جاهلين أمد الحياة وكانوا أشبه بالدواب فى مرعاها .

فاذا رأينا هذه الأغذية الموزعة على الأرض ، والمنافع التى خبئت فيها والمضار حجبت عن نوع الانسان فذلك من كبرياء الله وعزته أولا ، ومن حكمته فى تربيته للناس ثانيا ، ولو أن الأشجار وأنواع النبات فعلت مع الناس مافعلته مع سليمان عليه السلام (كما جاء فى الأساطير القديمة) إذ تخبره الأشجار والنباتات بما فيها من الفوائد والمزايا والمنافع لكان هذا الانسان حيوانا جديدا أدرج فى قوائم الحيوان البالغات نحو (٥٠٠) ألف نوع أوأكثر ، إذن صمت هذه الأشجار ، وهذه النباتات ، وهذه الأحجار ، وعدم نطقها لنا بما استكن فيها ، وعدم ظهورمنافعها لنا من أجل الحكم فى تربيتنا ، وتلك الكبرياء محمودة .

اللهم لك الحمد إذ أفهمتنا معنى : « فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين ﴿ وله الكبرياء فى السموات والأرض وهوالعزيزالحكيم » وبهذا تم الفصل الأول .

الفصل الثانى فى نظام الآثار العلوية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله رب العالمين « أمابعد » فقد عرفت أيها الذكى ما كان من كبرياء الله فى أمر النبات ، وكيف كانت الكبرياء والعزة مصحوبتين بالتربية القائمة على الحكمة . أفلا تعجب معى أن يكون مافعله معنا فى الأغذية هونفسه الذى فعله فى أمر الآثار العلوية ، واظهار الجبال والبراكين والحمم والتلال والزلازل ، ذلك أن هذه الأرض لم تكن إلا كرة نارية كما هوالرأى السائد الآن ، وهذه الكرة أخذت تبرد من ظاهرها شيئا فشيئا كما ترى الفحمة المتقدة فانها تبرد شيئا فشيئا ، ولكن باطنها لايزال متقدا ، وهذا الرأى وان كان ظنيا قدأيده عمال المناجم : ان نصف قطر الأرض نحو أربعة آلاف ميل ، وعمق المنجم قد يصل الى ميل واحد ، والحرارة ترتفع كلما ازداد العمق ، وقد يشتد الحر على عمال المناجم فلايطيقونه ، ولاجرم أن زيادة الحرارة بزيادة العمق توصلنا الى أن فى باطن الأرض طبقات درجة حرارتها تذيب الصخور والمعادن ، ومما يدل على ذلك الينابيع الحارة التى درجة حرارة بعضها ١٩٠ درجة وظهورها على سطح الأرض .
اذا علمت هذا فانظر فى أمر الجبال والبراكين والزلازل ، إن الذى ينزل من قاع المحيطات وغيرها الى الطبقات الحارة من باطن الأرض يتحول حالا الى بخار ، وهذا البخار أخف من الهواء ، فهو يحاول الخروج الى مقره فى الجو ، فماذا يصنع إذن هو ومامعه من الغازات المكونة من المواد المصهورة ؟ فتارة تندفع فلاتجد لها منفذا ، فيهتز سطح الأرض اهتزازا على مقدارذلك الضغط ، وهذا هوالزلزال الذى يهد المدن وتخر بسببه

الجبال هدّا ، واذا اشتدّ هـذا الاهتزاز وكانت هناك موادّ مصهورة فى باطن الأرض كثيرة وحاولت الخروج وطاوعتها قشرة الأرض ، فهناك يكون البركان ، واذا ثار البركان سمعنا طقطقة فى الجوّ وفى باطن الأرض وأصواتا كالرعد ، وهناك تتطاير كتل الصخور العظيمة ، وألسنة اللهب ، وتهلع النفوس .

وقد يعقب الزلزلة خسف ، فانه اذا اشتدّ الضغط فى باطن الأرض يمينا وشمالا ولم ينفذ السائل والغازات الى الجوّ فقد تنهار فى الفجوات الواسـعة فى باطن الأرض طبقة من سطحها فتهوى سريعا ويبتلعها جوف الأرض ، وهذه الفجوة تارة يغمرها الماء ، وتارة لا ، وهـذا هو الخسف . وبهذا عرفنا البراكين والزلازل والخسف .

ومن تأمّل ماحصل فى بركان (دبلى) سنة ١٩٠٢ الذى ارتفع الى (٤٤٠٠) قدم واتقد رأسه ثم تكوّن له رأس آخر ارتفاعه (٥٠٧٠) قدما ، وكان الى آخر يونيو سنة ١٩٠٣ لايزال آخذا فى الارتفاع ، ويقال انه ارتفع ٢١ قدما فى أربعة أيام ، وهذا الرأس الجديد كان قمما مصهورة ذائبة ثم تماسكت فصارت جسما صلبا .

أقول : من تأمّل ماحصل فى هذا البركان أدرك كيف تكوّنت أكثر جبال الأرض ، فأكثرها تكون منها على هـذا الاسلوب . إن الله عزّوجـل هو الذى خلق الجبال والخسف والزلازل والبراكين ، والخسف والزلزلة والبركان كلها مهلـكات مدمرات . فانظر كيف :

(١) زلزلت اسبانيا (سنة ١٨٨٤) فتخرّب من غرناطة سـبعة آلاف منزل ، ومات فيها أكثر من ٢٠٠٠ نفس .

(٢) وكيف زلزلت اليابان (سنة ١٨٩١) فتخرّب فيها أكثر من ٤٠٠٠ منزل ، ومات أكثر من ٨٠٠٠ نفس .

(٣) وفى سنة ١٨٩٥ طغى الماء بسبب الزلزلة على بعض البلاد باليابان فأغرق آلافا من أهلها .

(٤) وفى سنة ١٩٠٢ زلزلت كشغر من تركستان فمات نحو ثلاثة آلاف نفس .

(٥) وفى سنة ١٩٠٨ زلزل مضـيق (مسينا) بايطاليا فأتلفه ، وخرب مدينتى مسينا بصـقليه ورجيو بايطاليا ، ومات بسببها آلاف من الناس كما بقى منهم آلاف بلامأوى .

(٦) وانفجر بركان فى جزيرة (كركتوا) بالقرب من جاوه بينها وبين سومطره ، فقطعها إربا ، ولم يبق منها إلا قسم صغير .

(٧) وثار بركان (ويزوف) بايطاليا سنة ٧٩ ق.م فغطى مدينتى (بمبى) و(هركولانيوم)

هذه بعض أفعال الزلازل والبراكين ، وقد تقدم أكثر من هذا فى ﴿ سورة آل عمران ﴾ وفى مواضع أخرى من هذا التفسير ، ولـكن سقنا هذه الحوادث هنا لنبين كبرياء الله وعزّته المصحو بتين بحكمته وتربيته ، هذا فعل البراكين وهذا تخريبها وتدميرها وإهلاكها للناس وللحيوان والمدن . كل ذلك لـكبرياء الله عزّوجل هو يفعل ذلك مع الأحياء ولايبين لهم سرّ مافعل ويقول : « لايسأل عما يفعل وهم يسألون » ويقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليـلا » ، ويقول أنبياؤه : « إن علم الناس أشبه بما أخذه منقار الطائر من ماء البحر » . يفعل الله ذلك كما فعل فى الأغذية فى الفصل السابق ، حجب أسرارها وأعطى الناس عقولا وقال ادرسوا ولم يزد فى الوحى السماوى عن القول الاجمالى ، وكما درس الناس منافع النبات والحيوان بعقولهم فانتفعوا بقدر ماعرفوا ، هكذا درسوا فوائد تلك البراكين وغيرها بعقولهم فرأوا عجبا ! رأوا :

﴿ أوّلا ﴾ إن جماعة من الامريقيين اشتروا بركانا فى بلاد المكسيك بمليون من الجنيهات ليستخرجوا الـكبريت الراسب حول قنته

﴿ ثانيا ﴾ رأوا أن جزيرة (فى أرخبيل آسوره) ارتفعت بسبب ثورة البركان سنة ١٨١١ ولم يكن لها قبل ذلك أثر ولا عين

﴿ ثالثا ﴾ رأوا أن جزيرة أخرى ارتفعت فى بوغاز (بيرنغ) بين آسيا وأمريقا بسبب البركان والزلزلة أيضا .

﴿ رابعا ﴾ رأوا جزيرة ارتفعت فى خليج بنفاله طولها ٩٢١ قدما وعرضها ٦٥١ قدما ، وارتفاعها وقت مدّ البحر ١٩ قدما . وهى والسابقة بركانيتان .

﴿ خامسا ﴾ رأوا أنه ارتفع تلّ بالقرب من نابل سنة ١٥٣٨ يسمى (منت نوفو) .

رأى الناس ذلك ، فماذا يشعر عقلاؤهم ، إن عقلاء الناس وحكماءهم يقولون : إن البراكين فى الأرض كمخاض المرأة ، فالناس لما اعتادوا أن يروا مخاض النساء ، وأن المرأة تقاسى الأهوال فى الوضع ، وربما ماتت بسبب ذلك الوضع لم يكن ذلك عندهم غريبا ، بل نفس المرأة تفرح اذا وجدت لها طفلا بجانبها بعد هذا العذاب ، وتحمد ربها وتشكره ، ولاتبالى بهذه الأهوال ، هكذا حكماء أهل الأرض يرون هذه البراكين والزلازل نعمة ، لأنها يعقبها ظهور جبال نافعات فى حفظ الثلج فوق رءوسها لمدّ الأنهار والعيون طول السنة وفى حفظ المعادن فى باطنها لمنفعة الانسان ، وفى أنها تجتذب السحب المسخرة بين السماء والأرض ، فتسقط أمطارها لمنفعة الحيوان والانسان ، وفى وقاية ماخلفها من هبوب الرياح الباردة تارة كما فى جبال الألب وأقاليم أوروبا الجنوبية ، ومن هبوب الرياح الحارّة كما فى جبال اطلس ، وأقاليم مراكش ، وريف البحر من بلاد البربر ، وفى أن سفوحها تغطى بأشجار نافعة ، ومنها ذوات الثمر اللذيذ النافع ، وفى أن اعتدال هوائها يلائم صحة الانسان ويعيد له صحته ، فأكثر الناس على الأرض يسمعون بالبراكين والزلازل والخسف فيكونون أحد اثنين : إما أنهم لايفكرون وهم الأكثرون ، واما انهم يكونون ملحدين وهؤلاء هم المتعلمون تعلما ناقصا فقد عرفوا المضارّ ، ولم يزاولوا التعليم والدرس حتى يعقلوا أن الآلاف المؤلفة من المنازل ، والناس الذين هلكوا بالبركان أو الزلزلة ماهم إلا عدد يسير جدا بالنسبة لمن سيعيشون بذلك الجبل الذى نشأ بسبب البركان أو بتلك الجزيرة ، أو بتلك التربة الخصبة التى أظهرها البركان والزلزلة كما تقدم فى أوّل ﴿ سورة سبأ ﴾ عند آية : « يعلم مايلج فى الأرض » الخ ، فانى ذكرت لك هناك أن الأرض البركانية أرقى أراضى الزراعة ، فهذه الجبال ، وهذه التلال ، وهذه الجزائر ، وهذه الأرض البركانية يعيش بها آلاف من الأمم فى مئات آلاف السنين ، فأما الذين هلكوا بتلك البراكين فهم آلاف معدودة ، أومدن محدودة ، يموت أكثر منها كل سنة بالوباء ، أوالطاعون ، أوالحمى ، أوالتيفوس ، فهذه أمور يسيرة فى جانب سعادات لاحدّ لها .

فههنا انقسم الناس ثلاثة أقسام : حكماء لكن يفهمون هذا التفسير ، وملحدون : وهم الذين يقفون فى الوسط بين بين ، لاهم حكماء ولاهم عامة ، وهم أغلب المتعلمين فى الشرق والغرب الآن ، وعامة وهم أكثر من على الأرض ، والحكماء والعامة قلوبهم فى راحة ، والطبقة الوسطى يعيشون فى ألم مبرح مبين ، وبكبرياء الله وعزّته حجب الناس ماعدا الحكماء عن معرفة هذه الأسرار والايقان بها ، وبحكمته ربى الحكماء فعرفوها بعد النصب والتعب ، إن ذلك خير أساليب التربية وأنفعها لنوع الانسان ، وبهذا تم الكلام على الفصل الثانى فى الآثار العلوية والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثالث فى تعليم الأنبياء
والإيحاء اليهم وتكليمهم الخ

وذلك قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا » وذلك كما كان يوحى اليه ﷺ فى أوّل

البعثة

البعثة ، وذلك فى المنام ستة أشهر « أومن وراء حجاب » وذلك لموسى عليه السلام « أو يرسل رسولا فيوحى باذنه مايشاء » وذلك كما كان يوحى اليه ﷺ بعد الأشهر الستة الى آخر حياته ، وقد تقدم ذلك بأكثر من هذا فى ﴿ سورة الشورى ﴾ ، إنما المدهش فى هذا المقام أن الله عزّ وجل على صراط مستقيم فهو فى هذه الأحوال الثلاثة حكيم ، وفى آيتنا التى نحن بصددها ، الكبرياء والعزة فى مقابلة العلوّ فى آية الشورى ، والتربية والحكمة فى مقابلة الحكمة هناك .

يا ألله : عجبنا لنظامك فى خلقك ، ودهشنا دهشا أشدّ من نظامك فى كلامك ، فأنت هنا تقول : إن الحمد مختص بالله لأنه ربى السموات والأرض وربى العالمين ، وأردفت ذلك بأن هذه التربية مصحوبة بالكبرياء والعزّة والحكمة ، فبحثنا ذلك ! فألفيناك وهبتنا عقولا ، وغرست فينا شهوات ، وخلقت لنا أغذية . وأخذت تقلب الأرض أمامنا ، فتجعل فيها نيرانا خارجة من باطنها ، وتصنع لنا جبالا ، وتخسفها تارة ، وتزلزلها أخرى ، فمن درس منا فقد انتفع فى الدنيا ، واستقرّت نفسه ، وعمرت بالحكمة . ومن لم يدرس خيانه حياة حيوان ، فأشرت للدراسة بالتربية والحكمة ، وللغفلة بكبريائك وعزّتك ، لأنك تعرض عن الناقص الغافل ، وهكذا نراك لاتكلم الأنبياء كما يكلم أحدنا الآخر ، بل كلمتهم تارة بالرؤيا المنامية ، وتارة بملك يلقى الوحى اليهم ، وتارة من وراء حجاب . فبالكلام بأحد الطرق الثلاث اتصفت بالحكمة ، وبحصر خطابك لهم فى ذلك كنت عليا ، إذن كما أن لك الكبرياء والعزّة فى السموات والأرض كان لك العلوّ على الأنبياء ، ولكن التعبير بالكبرياء والعلوّ فى السموات والأرض غير التعبير بالعلو فى مقام الأنبياء لأن الحجاب هنا رقيق جدا بخلاف العوالم ، فلشدّة حجابها ذكر فى جانبها الكبرياء والعزّة ، وهذا المقام فى غاية الدقة ومن الأسرار البديعة والعلوم المخزونة التى أراد الله اظهارها اليوم للمسلمين .

اللهم إن لك الأسماء الحسنى ، وقد جاء فى كتابك : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » وجاء فى سورة طه « الله لاإله إلا هو له الأسماء الحسنى » . فياليت شعرى : أكان الحسن فى الألفاظ وحدها . كلا . فالله يقول : « كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب » إذن هذا الكتاب لنتذكر به لا أننا نقف عند لفظه إذ التذكر لا يكون إلا فى المعنى ، إذن حسن أسماء الله من حيث معانيها ، فاذا سمعنا أنه جبار متكبر قهار قابض خافض مذلّ علىّ كبير مميت منتقم ضارّ ، فاننا ندرسه فى هذه العوالم ، فنجد البراكين وجبال النار والصحارى والقفار . كل هذه مزعجة مخيفة مهلكة ، ونراه تعالى يميت الأحياء وهم يبكون على ميتهم ، و يبتلى الناس بأنواع الهموم والمصائب ، وهذه تنطبق عليها تلك الأسماء الاحدى عشرة فهو بهذه الأعمال الجبار متكبر قابض منتقم الخ ، فظاهر هذه الأسماء منطبق على ظواهر البراكين والزلازل وما أشبهها ، ولكن اذا بحثنا أسرارها بالحكمة والبراهين والعلم ألفينا هذه الظواهر لها بواطن سارّة فظاهرها من قبله العذاب وباطنها فيه الرحمة ، فالبراكين تقدم الكلام فى أنها رحمة مشروحا شرحا كافيا ، وهكذا الموت ظاهره هلاك وباطنه حياة .

***

قدشاهدت أمس جنازة متوجهة الى مقبرة سيدى زين العابدين ، وأمامها موسيقى محزنة ، تضرب ضربا يحدث فى النفس انقباضا ، ماشيتها إلا برجل يضرب آخر على ظهره فيصرخ من الألم ، والنساء باكيات فى الجنازة فهذا إنما كان للجهل الذى غشى على عقول أهل الأرض لأن هذه مرتبتهم ، فهم يجهلون حال الأنفس بعد مفارقة أبدانها ، وعلمهم بها ضئيل قد أخذوه من الديانات ، وما كان من الدين فما هو إلا إيمان ، ولكن العلم واليقين فوق الايمان ، ولكن لا يكون اليقين إلا بالجد والتشمير ، ومتى درس المسلم بقية أسماء الله الحسنى مثل : السلام المؤمن المهيمن العزيز الخالق البارئ المصوّر الغفار الوهاب الرزاق الفتاح الباسط الرافع

الهادى النور ، وهكذا وهى نحو ٨٨ اسما ، فهذه الاسماء لها معان ، وتلك المعانى موزعة فى القرآن ومبثة فى أكناف الطبيعة ، وينضم اليها مادخل تحت الأسماء الاحدى عشرة المتقدّمة التى ظاهرها العذاب ، فإن البحث كالذى تقدم يظهر لنا أن باطنها الرحمة ، فالقهر الذى نراه ظاهرا فى حرارة الشمس إذ تكون محرقة فى حمارة القيظ والانتقام الجسم فى الاسود والفهود والنمور والضباع والحيات وأنواع الحيوانات الذرّية المهلكة لنوع الانسان . كل هذه من حيث ظواهرها راجعات لظواهر الأحد عشر أسما المتقدّمة أولبعضها ، ولكن بواطنها أنها شروط للرحمات مقدّمات لها ، والمطلع على أكثر هذا التفسير وبالأوّل ماذكرناه هنا يوقن بهذه المعانى إيقانا تاما ، وبهذا تمّ الكلام على الفصل الثالث والحمد لله رب العالمين .

الفصل الرابع فى تربية النشء

وكيف كانت تعاليم الأمم كلما كانت أرقى كانت أقرب الى النظام المتقدم ، وكلما كانت أدنى وأخسّ كانت أبعد منه

أذكرك أيها الذكىّ بما مرّ فى ﴿ سورة الزمر ﴾ عند قوله تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » ، وكيف ترى الاستاذ (كانت) الألمانى قد عوّل على أن تكون عقول التلاميذ موجهة الى التفكر ، وما المدرّس إلا مرشد لهم ومذكر ، وبالاختصار يكون التلميذ معوّلا على جدّه نفسه بارشاد المعلم ، ومن عجب ماجاء فى حديث البخارى الذى ذكرته فى ﴿ سورة السجدة ﴾ عند آية « الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين » إذ ذكرت لك هناك جمال ظواهر الأشجار وجمال بواطنها وأبنت تشريح النخلة ومعرفة مافى داخلها من الأعضاء ، ولهذه المناسبة ذكرت حديث البخارى إذ سأل رسول الله ﷺ أصحابه عن شجرة كالرجل المسلم لايتحاتّ ورقها واذا قطع رأسها ماتت ؟ فوقع الصحابة فى أشجار البادية ، فقال ﷺ هى النخلة ، فهذه هى السنة التى درج عليها علماء أوروبا الآن بحيث يكون أكثر الفهم راجعا لنفس التلميذ ، وهذه هى الخطة التى سنها الله للناس فى أغذيتهم إذ أبهم كثيرا من أسرارها ، وهاهم الآن وغدا كما كانوا أمس يبحثون ، وكلما ازدادوا فى منافع الأغذية بحثا ازدادوا شوقا ، ولا آخر لما يدرسون ، وهكذا فى أمر الأحوال الطبيعية من البراكين والخسف والزلزلة كما تقدم ، وهكذا هنا فى التعليم فكما كانت الكبرياء لله فى الفصول المتقدّمة هكذا فى فصل التربية يجب على المعلم أن يستنّ بالسنة الإلهية من حيث انه يجعل تلاميذه مجدّين بأنفسهم ، مفكرين بعقولهم ، كما فعل الله مع الناس فى منافع أغذيتهم ، والآثار العلوية الحاصلة فى أرضهم ، فهو اكتفى بأن خلق لهم عقولا ، وأراهم هذه الظواهر ، وشوّقهم الى أسرارها ، لمنفعتها تارة ، وللوقوف على حقائقها ، ودفع الحيرة فى النظام العامّ تارة أخرى ، ولأكتف الآن بما جاء فى مجلة الشبان المسلمين تحت العنوان الآتى ، وهذا نصه :

التربية الحديثة

طريقة دولتون فى التربية والتعليم

ظهرت طريقة دولتون بعد سنة ١٩١٩ وهى الطريقة التى كانت تستعملها (مس هيلين باركهرست) فى مدرسة بدولتون فى (مساكسيتز) بالولايات المتحدة فى أمريكا ، ولقد ذكرت (مس باركهرست) فى محاضراتها عن طريقتها الجديدة أنها ليست محدّدة تحديدا يضمن جعلها صالحة لكل مدرسة ، وكل نوع من الأطفال ، بل هى طريقة قابلة للتغيير والتبديل ، وتتضمن آراء محدّدة معينة ، فهى فى جوهرها مجموعة مبادئ وقواعد ، لامجموعة أوصاف وأوامر ، فلقد أعطت المدرّس نفس الحرّية التى أعطتها للتلميذ ، وأعطت التلميذ

المثل

المثل الأعلى الذى أعطته للمدرّس ، وتختلف عن طريقة تعلم الطفل فى منزله تحت إرشاد أحد المربين .

ماهذه الطريقة ؟

هى طريقة انتقلوا فيها من تعليم الفصل ، أوتعليم الكل الى تعليم الفرد ، والفكرة الرئيسية فى هذه الطريقة أن تحوّل حجر الدراسة أوالفصول الى معامل كعامل الطبيعة والكيمياء بحيث توجد فيها الكتب الضرورية ، وكتب المراجعة (من قواميس ودوائر معارف وغيرها) والأدوات العلمية التى يحتاج اليها فى البحث عن المادة التى يبحث عنها التلاميذ والتلميذات بحثا عمليا فى فصولهم لتساعدهم على الوصول الى مايرغبونه من الكشف والاطلاع والتنقيب .

وفى هذه الطريقة يلقى مقدار كبير من المسئولية على التلاميذ فى مذاكرة دروس معينة فى مدة محدودة مقدارها أسبوع ، أوأسبوعان ، أوشهر مثلا ، وفى هذه المدة تترك التلاميذ للقيام بأنفسهم بأعمالهم المفروضة عليهم بحيث ينتهون من أدائها فى نهاية المدّة المخصصة لهم ، ويكونون على استعداد لاختبار خاص فى الدروس التى قاموا باعدادها وتعلمها بأنفسهم بعد ارشاد أساتذتهم ، وللتلاميذ الحرّية فى :

(١) أن يبتدئوا معرفة أى مادّة يختارونها من الموادّ المعينة لهم .

(٢) وأن يمكثوا أىّ مدة يريدونها فى فهم هذه المادّة ماداموا يرغبون فى ذلك ، وهذه حسنة من حسنات دولتون ، فكثيرا مايشعر الانسان بالألم حينما يقطع عليه بدقّ الناقوس فى المدرسة ، وكثيرا مايتمنى أن يترك ولو بعض الوقت حتى ينتهى من العمل الذى فى يده ، فهذه الطريقة تشجع على أن يستمرّ الانسان فى عمله متى أراد الاستمرار .

أما المعلمون فيتركون التعليم ويصيرون مرشدين وناصحين وقوّادا للطلبة ، بحيث يعينون ساعات خاصة فى حجر معروفة لارشاد التلاميذ الذين هم فى حاجة الى الارشاد ، والذين يجدون صعوبة فى عملهم ، ولتوضيح القواعد والنظريات الجديدة ، والمفروض أن المدرّسين لايتدخلون فى عمل التلميذ مالم يكن مخطئا ، ومالم يستشرهم التلميذ ، وكل تلميذ حرّ فى أن يعمل مايريد بقدر مايستطيع مادام ينجح فى القيام بعمله .

وحينما ظهرت هذه الطريقة الحديثة فى أمريكا وانجلترا لم يوافق عليها طبعا بعض المدرسين ، شأن كل مشروع جديد ، أما الآن فقد اتضح لكل مدرّس حديث أنها هى الطريقة المثلى فى تعليم كثير من الموادّ ولقد قام بتجربتها كثير من المدرّسين والنظار فى مدارسهم حتى أصبحت مبادئها مستعملة فى معظم المدارس بالولايات المتحدة وانجلترا وكندا وايطاليا ، فالمدرّس الحديث يكلف تلاميذه أعمالا خاصة يقومون بها بأنفسهم فى أوقات معينة تحت إرشاد المدرّس فى موادّ خاصة كالرياضة والجغرافيا والتاريخ وقواعد اللغة وآدابها .

اليوم المدرسى على طريقة دولتون

فى مدرسة دولتون كان التلاميذ أحرارا فى عملهم المدرسى من الساعة الثامنة والدقيقة ٤٠ الى الساعة الحادية عشرة والدقيقة ٥٠ أى فى النصف الأوّل من اليوم المدرسى ، وفى النصف الثانى من اليوم كان المدرّسون يقومون بتدريس المواد التى يحسن تدريسها فى الفصول بالطريقة المعتادة عندنا ، وفى الوقت الحر عند التلاميذ يقومون بتعلم الدروس المعينة لهم بالطريقة التى يحبونها ، أما المدرّسون فى هذا الوقت فيخصصون أنفسهم لهذه الواجبات الخمسة :

(١) أن يقوموا بحفظ النظام فى الفصل بحيث تكون الحجرة صالحة للمذاكرة .

(٢) أن يشرحوا النقط التى تحتاج الى شرح من الدروس المعينة للتلاميذ .
(٣) أن يبينوا للتلاميذ كيفية استعمال الأدوات والأجهزة الخاصة فى المعمل .
(٤) أن يوعزوا بآرائهم فى كيفية حل المسائل الصعبة .
(٥) حينما يظهر للمدرسين أن التلاميذ حقيقة فى حاجة الى شرح نقطة معينة ، فعليهم أن يشرحوها و يبينوا صلتها بالقاعدة العامة فى المادة .

ولقد ادّعى أن طريقة (دولتون) سارت سيرا حسنا ، وأن التلاميذ بعد أن تركوا وأنفسهم يبحثون وسمح لهم باتباع الطريقة التى توافقهم قد نجحوا نجاحا باهرا فى عملهم ، نجاحا أكثر من نجاحهم المعتاد ، وفى الوقت نفسه قد حصلوا على الثقة بأنفسهم ، واعتادوا مقابلة القواعد الجديدة والتفكير فى حلها من غير اعتماد على أحد : سيوجد فى الابتداء شىء من الصعوبة فى تنفيذ هذه الطريقة ، ولكن سرعان ماسيعتادها التلاميذ وسيفضلونها على غيرها ، غير أنهم سيجدون أن بعض المواد يمكن السير فيها على هذه الطريقة أحسن من بعض المواد الأخرى ، فهى تحسن فى الجغرافيا والتاريخ والحساب والهندسة والجبر والقواعد والانشاء ، والمطالعة وقانون الصحة وأدب اللغة ، ولاتحسن فى الموسيقى والألعاب الرياضية واللغة الأجنبية ، فان اللغة الأجنبية مثلا تحتاج الى مدرّس يعرف منه التلاميذ النطق ، و يتحادثون معه و يتحادث معهم ، و يسمعونه يتكلم حتى تعتاد آذانهم الاستماع وألسنتهم التكلم .

الصلة بين طريقة دولتون
و بين طريقة منتسورى

إن هناك صلة كبيرة بين طريقة منتسورى و بين طريقة دولتون ، ولكن فضل الأسبقية يرجع الى الدكتورة منتسورى فقد ابتدأت طريقتها قبل دولتون ، وان (مس هيلين باركهرست) مؤسسة طريقة دولتون كانت من تلميذات منتسورى ، وكانت مساعدة لها حينما ذهبت منتسورى الى كاليفورنيا سنة ١٩١٥

ومن المهمّ فى طريقة دولتون إعطاء حرية كبرى للأطفال فى أعمالهم المدرسية ، و يقول الدولتونيون « إن التلاميذ يستطيعون أن يسيروا على هذه الطريقة من السنة الثامنة من عمرهم ، فمن الممكن استعمالها فى مدارسنا العالية طبعا والثانوية من غير شك ، والابتدائية من السنة الثانية ، فى الوقت الذى يستطيع فيه التلميذ أن يقوم بشىء من العمل بنفسه مع ملاحظة المدرّس وارشاده ، وبهذه الطريقة يكون التلميذ أوالطالب مسئولا عن عمله المدرسى وأكثر ولعا به ، وأشتياقا اليه ، ورغبة فيه ، والغرض من هذا المشروع أن نعطى الطفل حرّية فى عمله المدرسى ، وأن نجعل المدرسة كهيئة اجتماعية يستطيع فيها التلميذ أن يقوم بعمله الخاص وأن يشترك مع جماعة من التلاميذ فى تنفيذ عمل معين اشتراكا متبادلا بينهم .

حجر الدراسة على طريقة دولتون

أما حجر الدراسة فتصبح معامل للدراسة تجمع فيها جميع الكتب والأدوات المناسبة للمواد الخاصة المراد تعلمها ، والتلاميذ لايزالون يجمعون تحت اسم معين لأجل الراحة فى العمل كالجماعة الأولى والجماعة الثانية الخ وحجرة الجغرافيا ، وحجرة التاريخ ، وحجرة الرسم ، ومعمل الطبيعة والكيمياء ، وحجرة اللغة العربية ، وحجرة العلوم الرياضية الخ . ولايزال التلاميذ يستعملون الحجرة كمكان للبحث والتعليم ، بحيث يبحث فيه كل تلميذ على انفراده ، أومع بعض اخوانه الذين معه فى درجة واحدة ، وسنة واحدة . فاذا أراد بحثا تاريخيا ذهب الى حجرة التاريخ ، واذا أراد اعداد دروسه فى الجغرافيا ذهب الى حجرة الجغرافيا ، وفى كل حجرة يوجد طبعا مدرّس خاص للمادة التى عينت لها هذه الحجرة يقوم بمساعدة من يحتاج الى المساعدة

وارشاد من يحتاج الى الارشاد . انتهى ما أردته من مجلة « الشبان المسلمين » والحمد لله رب العالمين .

* * *

هذا آخر ما جاء فى فن التربية ، أليس هذا وأمثاله إنما هو ترديد لحديث النحلة المتقدم ، ولما فى هذه العوالم من المنافع المخبوءة المشوّقة للانسان ، ومن الحوادث المهلكة المزعجة له حتى يعقل الأولى لنفعها والثانية لفهمها ، والاحتراس مما يمكن الاحتراس منه ، ولن يتمّ ذلك إلا بالجدّ والتشمير ، لا بمجرّد التلقين والتعليم ، إذن هذه المعانى كلها شملتها آية : « فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين الخ » ، فهو يربى العالمين بالكبرياء والعزّة المصحوبتين بالحكمة ، وهذا بعينه هو مايريد أن يتبعه أهل الأرض اليوم فى مدارسهم ، و بهذا تمّ الكلام على الفصل الرابع .

الفصل الخامس

فى أمر الأمم من حيث سياستها ، وانه عزّوجل يفعل مع الأمم فى سياستها مايفعله مع الناس فى عوالمه الطبيعية سواء بسواء

فاذا كان فى الأغذية مايضرّهم فهم المسئولون عن ذلك الضرر الحاصل لهم لأن لهم عقولا توجب عليهم الاستنتاج والبحث، فاذا أناموها فهم المسئولون ، هكذا فى السياسة ، فاذا حكمهم ملوك عادلون ، ثم قام بدلهم أبناؤهم أو أبناء أبنائهم الذين هم غالبا يكونون غير مجرّبين وهم مترفون منعمون ، فالأمم هى المسئولة عن ذلك * و بيانه : أننا نرى المصريين وجميع سكان شمال افريقيا وأهل الشام والعراق والموصل ونجد والحجاز واليمن ، كل هؤلاء كانوا سادة العالم ، وهم الذين نشروا العلم فى العالم كله ، ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فلقوا غيا .

ومن أعجب العجب أن سند العلم متى انقطع فى جيل من أمة انقطع أجيالا وأجيالا ، فهذه الأمم لما اغترّت بعظمة الملك نامت على وساد الراحة الوثير ، ونام الأبناء على الخيرات التى خلفها لهم الآباء ، وشرّ الأبناء من عاشوا من كدّ آبائهم ، إذ يكونون عالة على المجتمع ، فماذا فعل الله معهم ؟ جعل ملوكهم يشبهونهم ، ذلك لأنهم تربوا فى مدارسهم ، وتعلموا آراءهم ، وهل يحكم الأمير إلا بما درس فى مدارس الشعب ، والشعب إن هو إلا عابد للشهوات ، فان الغنائم كثرت ، والأرزاق والخيرات غمرتهم ، فمالهم وللعمل ؟ فلتكن البطالة والراحة ، ومتى استراح جيل واحد ذهبت النخوة والمروءة والشرف . قال تعالى : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمرناها تدميرا »

إن عذاب الخزى فى الحياة الدنيا بالترف ، وعذاب جهنم فى الآخرة بالترف : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال فى سموم وحميم * وظلّ من يحموم * لابارد ولا كريم * إنهم كانوا قبل ذلك مترفين » .

فانظر كيف ذكر الترف قبل أن يذكر الكفر ، فهو كما يكون سبب الكفر يكون سبب الاستعباد ، ولقد اتخذ آباؤنا العرب من الفرس أجنادا ومن الترك ، واتخذ الأندلسيون أجنادا ممن جاورهم من الأمم ، وهكذا ملوك شمال افريقيا اتخذوا من السود الافريقيين جنودا ، فما كاد الملك الذى استعان بهم يفارق الحياة حتى التحق كل فريق من هؤلاء العبيد بأحد أبناء الملك ليحارب فى صفه ضد أخيه ، وهذا درس واحد اتحدت فيه هذه الممالك ، فكان بمصر الطولونيون ، فالاخشيديون ، فالفاطميون ، فالأيوبيون ، فالمماليك البرّية والبحرية ، فالترك ، فالفرنسيون ، فأسرة محمد على الحالية ، فالانجليز .

وكانت المماليك البرّية والبحرية بمصر وكذا ولاة الترك بعدهم يتحكمون فى رقاب الأمة ، ويهتكون الأعراض ، ويخربون الديار ، ومن عجب أن هؤلاء كانوا عبيدا يشترون بالمال ثم يملكون البلاد .

إن هذا كله هو آثار كبرياء الله فى السموات والأرض وعزته ، فهو كما أعطى الناس عقولا ، وخلق لهم أغذية ، وأغراهم بالبحث عنها ، وهكذا خلق لهم أمورا مزعجة من رعد وخسف وبركان ، وشوقهم لمعرفتها وأخرجهم من بطون أمهاتهم لايعلمون شيئا ، وألهم المربين أن ينسجوا على منوال سنة خالقهم فى نظام خلقه من حيث استقلال التلميذ بالتفكير ، هكذا فعل معهم فى السياسة ؟ أعطاهم عقولا ، وأنزل فى القرآن آية الشورى ، وألهم عمر والخلفاء الراشدين أمر الشورى ، ولما لم يفهموا ذلك وأعرضوا ، ولى عليهم ملوكا عظماء ، فاذا ماتوا تولى أبناؤهم الجهلاء المترفون بحجة أن ابن الملك أولى بالملك على أى حالة كان ، وهذه حجة داحضة ، فان قصة آدم وابليس التى شرحت مقاصدها فى ﴿ سورة الأعراف ﴾ أبانت ذلك أيما تبيان ان الحجج فى علم المنطق إما برهان ، وإما جدل ، وإما خطابة ، وإما مغالطة ، وإما شعر . وأخس أنواع الحجج حجة المغالطة وهى التى احتج بها ابليس ، فامتنع عن السجود لآدم ، ولعمرى أين آدم وأين ابليس ؟ إن القرآن لايقرأ فى زماننا إلا لنا نحن ، لا لآدم ولا لإبليس ، إنه مانزل إلا عبرة لنا نحن ، فاذا لم نعتبر فلاحياة لنا ولاعلم . احتج ابليس بأنه خير من آدم ، وبرهانه أن أصله من نار وأصل آدم من طين ، والنار فى نظره أشرف من الطين ، ومتى كان الأب أشرف كان الابن أشرف ، إذن ابليس أشرف من آدم ، وهل هذه الحجة إلا مغالطة ، وهل هى إلا نفس الحجج التى تلقفها جهلة المسلمين فى الأمم المتأخرة ، فقالوا : « ابن الملك ملك لا بمزاياه ، وعواطفه ، وأخلاقه ، بل بمجرد الانتساب »

والله تعالى يقول فيمن استحق الملك : « وزاده بسطة فى العلم والجسم » ويقول : « ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى الخ » ، فحجة المغالطة التى أقامها ابليس محتجا بالنسب الى الأشرف هى هى نفس الحجة التى أقامتها أمم الاسلام حججا ومعاذير فى قبول ابن الملك أوقريبه أومملوكه ، كابن طولون ، وكافور الاخشيدى ، والمماليك البرية والبحرية ، ولكن الله لهم جميعا بالمرصاد وقد عامل هذه الأمم الاسلامية معاملة الأساتذة لتلاميذهم ، يطلقون لهم الحرية فى الدراسة حتى يستيقظوا ، فالله وهب لهم العقول ، ونصب لهم ملوكا ، وكلما مات ملك ورثه ولده ، أوعبده ، وأصبحت هذه الأمم :

كرة طرحت بصولجة ☆ فتلقفها رجل رجل

ومن هؤلاء المتلقفين لتلك الكرة الماهر فى اللاعب والجاهل ، وأصبح التعليم فى ديار الاسلام فى أيدى أخس طبقات الأمة وأجهلهم ، وتركت العقول الراجحة والنفوس الشريفة معطلة ، وبيوت العلم خاوية على عروشها ، اللهم إلا دور العلم المشهورة فى بلاد الاسلام التى لولاها لم يبق للدين أثر ، إن خير وسيلة لتعليم السباحة فى النهر أن يرمى المتعلم فى النهر وهو يجاهد ويكاوح حتى يتعلم السباحة بطريقته هو ، وهذه هى التى فعلها الله مع الأمم الاسلامية المتأخرة ، فهى ذاقت الأمرين من جهلة أمرائها ، ولما لم تستيقظ أرسل لها أمم الفرنجة ، فاحتلت بلادها ، فاستيقظت ، وهذا التفسير قد جعله الله سبيلا من سبل نجاتها ، ولن تعود تلك الأضاليل والجهالات من بعد ، بل الأمر سيكون شورى ، ويستقيم التعليم ، وسيكون الملوك والأمراء أكفاء للحكم ، وسيكون وارث الملك مقيدا بالشورى ، وله امتيازات خاصة ، والأمر بيد الأمة لابيده هو ، وسيكون لميراث الملك فى بيوت الامارة شروط وقيود لابد منها ، ولن يحصل بعد اليوم ماحصل فى الأزمان الغابرة من الاقتتال على الملك ، واضعاف الأمة بالتفرق والاختلال والاضطراب .

إن لانحطاط الأمم سببين رئيسين : أحدهما الجهل المطلق ، ثانيهما اختلال الحكومات ، وقد منيت أكثر البلاد الاسلامية فى القرون المتأخرة بذلك ، وأول السببين أهمها ، إذ لاسبيل لرقى الحكومات إلا برقى التعليم ، ولقد تقدم فى هذا التفسير أن كتب الامام الغزالى أحرقت إبان القرن الخامس فى بلاد الغرب وبعد ذلك بقرن نفى ابن رشد وغضب الأمير عليه ، ومن ذلك الزمان سقطت النهضة العلمية فى بلاد الاسلام

إلا قليلا وتبعها ضعف الحكومات ، وغفلة الحكام ، وقد حل الله على هذه الأمم آمادا وآمادا لعله أن هذا الحلم مع العزة والكبرياء أيقظهم اليوم إيقاظا تاما ، فها هم أولاء أقبلوا إقبالا جديا على العلم ، وقد قيض الله للأمم الاسلامية كتابا ومؤلفين ومحررين يذكرونهم بمجدهم ويزيدونهم علما ، ومن معدات النهضة المستقبلة فى القريب العاجل هذا التفسير ، فإن ما فيه من المعارف لو ألقى بعضه الى تلك القرون الخالية التى كانوا فيها يمقتون الحكمة لنبذوه ظهريا ، ولوسموا قائله بالالحاد والكفر ، ولكن الله عز وجل يعامل الأمم معاملة الانسان الواحد ، فهو فى صغره لا يعقل العلم والحكمة ، بل يهيم باللهو واللعب ، فاذا بلغ سنا معلومة أدرك وفهم وعقل ، فهكذا هذه الأمم نبذت العلوم أيام الطفولة ، فها هى ذه اليوم تتلقاها بشغف وشوق عظيم .

الله أكبر : هذا التفسير يتلقاه المسلمون فى أقطار الأرض بشوق عظيم ، وهذا يظهر لنا أن أهم السببين المتقدمين لانحطاط الأمم أخذ يزول ، وكيف يبقى الجهل والشوق للعلوم فى ازدياد ، إن الأمم الاسلامية ستعمم التعليم عاجلا ، ولن يبقى إلا السبب الثانى وهو ضعف الحكومات ، وقد قدمنا أن ضعفها من لوازم الجهل ، ولقد أثبتنا أن الجهل آخذ فى الزوال ، وأن العلم آخذ فى الازدياد ، وستصلح الحكومات على أثر ارتقاء التعليم وذلك كله راجع لأمرين : أحدهما الكبرياء والعزة المذكوران فى الآية اللذان يترتب عليهما اضطراب الأمم أجيالا حتى تدرك خطأها . ثانيهما : التربية بالحكمة التى ظهرت بوادرها بعد أن فعلت الكبرياء فعلها ، فالكبرياء والعزة فى مقابلة السبب الأول ، والتربية والحكمة فى مقابلة السبب الثانى .

إن الأمم الاسلامية فى القرون المتأخرة لما أغفلت التعليم ، وتلا ذلك أنها لم تكن حكوماتها منتظمة أصبحت أشبه بالأنعام فى مرابضها تسام الخسف ، ولا تجد لها محيصا من الذل ، متى أعرض المرء عن الكمال بالتعليم أصبح عرضة أولا لذوى الأهواء من رجال الدين ، والجاهلين من الصوفية ، وظلمة الحكام ، سواء أكانوا من أهل الوطن والدين . أم من غيرهم ، ويكون ارتقاؤهم وإسعادهم موقوفين على الحاكم ، إن أراد الخير لهم نالوه ، أو الشر ألزموه ، ولكن الأمم المستنيرة الحرة تكون أشبه فى عزتها بالحيوان فى القفر ، عزيز الجانب ، مرهوب القوة ، يسعى بجده كالأسد ، والغزال فى القفر . لا كالكلب والعنز فى الريف والمدن ، إن الله يقطع مدده عن كل عضو لا عمل له ، والعقول التى لا عمل لها يسخرها الله ويذلها للعقول العاملة المفكرة ، وهذا هو السبب فى أن هذه الأمم الاسلامية المتأخرة أصابها الذل وسلط عليها الظالمون من أممهم ومن أمم غيرهم ، ونبذة من ملخص تاريخ الأندلس تريك برهانا على ما تقدم ، فهاك ما جاء فى كتاب تاريخ العرب فى الأندلس ، وهذا نصه :

« مما شيد عظمة الدولة الأموية الفتوحات الاسلامية لذلك العهد التى جعلت للإسلام عالما مترامى الأطراف نشر فيه مدنية وعلما ودينا جديدا ، ونقصر الكلام هنا على ما كان من فتح الأندلس ، واذا ما راجعنا ما تقدم نجد أن الحوادث مكنت العرب من الاستيلاء على الأندلس . ويرجع فضل ذلك الى جرأة طارق ، وإقدام موسى بن نصير ، ثم لا نلبث أن نرى عودة هذين القائدين ، ومصير الأندلس الى الولاة ، وكان خروج موسى عام ٩٦ هجرية ، واستمر حكم الولاة حتى عام ١٣٨ هـ وفى تلك المدة الوجيزة تعددت الحوادث الهامة ، ومما يلفت الأنظار : تعدد الولاة وظهور العصبيات ، وهذه عادة العرب اذا ما استقر بهم الفتح وقعدوا عن الحرب والقتال مما يؤدى حتما إلى تفرق الكلمة وضعف القوة ، ثم نرى ما كان بين العرب وحلفائهم أهل المغرب الذين ساعدوا بكل ما استطاعوا فى فتح الأندلس ، وكان جزاؤهم سوء معاملتهم ففقد العرب بذلك أنصارا أشداء مخلصين ، وهذا دليل واضح على ضعف الحكمة السياسية من جهة العرب خاصة وكان عهدهم حديثا بتلك البلاد البعيدة عن مقر الخلافة الاسلامية .

كان من الطبيعى أن تؤدى تلك الحال الى الفوضى والثورات الداخلية ، وليس أدل على ذلك مما كان

من أمر صميل وأبي الخطار ، وثورة جند الشام ، ومصير الامارة الى يوسف بن عبد الرحمن الفهري . ثم كان ما كان من ظهور عامر وحباب وغيرهما من القرشيين ، وانقسام الناس على بعضهم ، مما جعل المؤرخين يقولون : إن سلطان الدولة الأموية كان ضعيفا على بلاد الأندلس ، أوعديم الوجود ، وما كان للأمويين فى آخر سنيهم بالمشرق أن يعيروا الأندلس أى اهتمام لما أحاط بهم بالمشرق من ظروف .

وبينما كانت الأندلس تسير فى حالتها هذه ، دبر الأمويون بها نقل الأمارة الى أميرهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، واستعانوا بجند اليمن ، وبعض البربر ، ودخل عبدالرحمن الأندلس ، وانتصر على يوسف وصارت له الامارة ، فشيد ملكا للأمويين ، دام ثلاثمائة من السنين ، ويقسم بحسب حالته الى عصر التأسيس ، ويشمل حكم الداخل وابنه هشام والحكم بن هشام ، وظهر كل منهم بمظهر الحزم والقوة فيما أحاط به من ظروف ، فنرى الداخل يخضع الثورات بقوة السيف ويغزو الشمال حيث كان المسيحيون ، وتطلبت اليه الظروف أن يبنى ملكا على حكم استبدادى ، المكانة الأولى فيه للسيف ، وتبعه على سياسته من خلفه ، ولما كان هذا النوع الحكومى لايتفق مع أهواء العرب نرى أنهم كانوا يخضعون صاغرين مادام السيف مشهورا ، واذا ما أغمد ثاروا ، وعملوا على استرجاع حرياتهم .

تعددت الثورات فى عصر الداخل نفسه ، وتآمر عليه بعض رجاله وأهله ، ولكنه انتصر عليهم ، وأهم ما نجده فى عصر هشام وابنه الحكم ما كان من دخول مذهب مالك بلاد الأندلس وانتشاره فيها مما أدى الى تطلع الفقهاء الى زعامة سياسية تتفق مع منزلتهم الدينية ، وزوال أيام الداخل واستبداده ساعدهم على ذلك ، فاتخذوا من حلم هشام وطيبة خلقه فرصة ، ولما كان عصر الحكم ولم يسمح لهم بشىء مما أرادوا قاد يحيى بن يحيى ، وعيسى بن دينار ، وغيرهما طلبة العلم ، وحرضا الغوغاء على الثورة ، فقامت فتنة كادت تسقط إمارة الحكم ، ولكنه انتصر بقوته ، وعاقب الخارجين شديد العقاب .

وبموت الحكم بن هشام ، وانتقال الامارة الى ابنه عبد الرحمن الثانى يبدأ عصر ضعف يتناول حكم محمد ابن عبدالرحمن ، ثم المنذر وعبد الله ولدى محمد بن عبدالرحمن ، وكاد ذلك العصر ينتهى بسقوط ملك الأمويين بالأندلس ، وأسباب ذلك الضعف ترجع الى :

(١) اشتغال عبد الرحمن عن ملكه بتجميل قرطبة وتركه سياسة البلاد ليحيى بن يحيى والسلطانة طروب ، ونصر الخصى ، فتسربت الفوضى الى البلاد ، فأدرك ما كان من خطئه ، وأسرع الى اصلاح ما فسد .

(٢) وفى عهد محمد بن عبد الرحمن الذى أصبح أميرا على الأندلس على حسب رغبة الخصيان والموالى بقصر الخلافة كره الناس الامارة لسوء سياسة الأمير وموقفه هذا من شعبه شجع بعض الأقاليم على الخروج فاستقلت طليطلة نظير مبلغ من المال تدفعه سنويا ، وما لبث أن بسط موسى الثانى نفوذه على أرجونة والأقاليم الشمالية ، وكان ذلك بمساعدة الفونسو الثالث ، ولاشك فى أن تدخل المسيحيين فى أمر المسلمين كان له أثر سىء للغاية كما أن استنجاد المسلمين بالمسيحيين يدل على عدم ارتباط المسلمين ببعضهم ، ثم تمكنت ماردة من احراز انفصالها عن إمارة رطبة ، وهذه الحال بتلك البلاد شجعت ابن حفصون باقليم ريا على مقاتلة الامارة الاسلامية ، ولقد سببت حروبه ضعفا شديدا لها ، ونتج عن ذلك كله أن سقطت هيبة الامارة .

(٣) كانت امارة المنذر أقصر من أن تدفع شرا ، أوتعيد الى الامارة عظمتها الأولى ، ولما آل الملك الى عبد الله بن محمد ساءت الحال جدا ، قامت العصبيات ، وبلغ ابن حفصون وأمثاله قوة عظيمة وعمل أمراء العرب على الانفصال عن الامارة ، فعمت الفوضى ، وأصبح ملك الأمويين على قاب

قوسين أو أدنى من السقوط . وفى هذه الحال مات عبدالله بن محمد وخدم بلاده بذلك أجلّ خدمة إذ أفسح المجال لحفيده عبد الرحمن الناصر .

بدأ الناصر عصر عظمة الأندلس واستمرّ العصر الذهبى مدة الناصر والحكم الثانى المستنصر ومدة حكم المنصور بن أبى عامر وولديه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن المأمون ، وفى ذلك العصر خلقت الأندلس خلقا جديدا ، تبدّل ضعفها الى قوة ، فأخضعت الثورات ، وأعيدت الولايات المستقلة الى الطاعة ، وسارت الجيوش الى بلاد المسيحيين شمالى الأندلس ، وأذلتها ، ولم ينل منها الفاطميون مأربا ، وسارت البلاد فى طريق الحضارة والعمران خطوات واسعة ، واذا كان المنصور بن عامر وصل بالبلاد الى درجة عظيمة من القوّة والمجد ، فانه أساء الى الأسرة الأموية بطعنها طعنة نجلاء فى صميم فؤادها ، وذلك بما كان من أمره مع هشام الثانى حفيد الناصر وتمهيد الحكم لولديه الواحد بعد الآخر ، فلما عجز ثانى الولدين عبد الرحمن المأمون أن يسير بالبلاد سيرة أبيه قتل ، وانتقلت البلاد الى عصر يعرف بعصر الفوضى

(٤) وعنوان العصر كاف للدلالة على سير الحكم الأموى بالأندلس الى سقوطه الأخير ، ومميزات هذا العصر :

(١) تنافس الأمراء من أحفاد الناصر وأعقابه على الخلافة ، واستعانة بعضهم على بعض بالمسيحيين ، وكانت تلك الحال خير فرصة لهؤلاء

(ب) انتقال النفوذ من يد الخليفة الى الوزراء وقوّاد الجند الذين سعوا لإدراك أغراض شخصية ولم يهتموا بأمر الخلافة أقلّ اهتمام ، فساعدوا بذلك على تهديم ما تبقى من الخلافة .

(ج) ظهور دولة بنى حمود بمالقه وانتقال الخلافة اليها ، وصارت لعلى بن حمود أوّلا ، ثم لأخيه القاسم بن حمود ثم ليحيى بن على بن حمود ، ثم للقاسم ثانية ، ثم ليحيى لثانى مرّة ، ولكنهم لم يفلحوا فى الاحتفاظ بالخلافة

(د) بداية عودة الامارات الى الانفصال عن قرطبة واعداد الطريق لقيام حكم ملوك الطوائف ففى عهد المستعين المروانى اقتصرت سلطة الخلافة على قرطبة وثلاث مدن حولها ، ثم كانت خلافة المرتضى ، ثم المستظهر ، ثم المستكفى ، ثم هشام الثالث ، ثم أمية وضعف أمرهم أدّى بالناس الى التفكير فى إسقاط الأسرة الأموية نهائيا ، وقام بذلك زعيم من قرطبة يدعى ابن جهور .

(٥) ولابد أن نضيف الى ماتقدم من أسباب ما كان من موقف المسيحيين العدائى نحو الاسلام وعملهم المتواصل على استخلاص البلاد من أيديهم واتهاز كل فرصة ممكنة لاسقاطهم وطردهم ، ويقول ليفنبول : « إن من شرّ ما ارتكبه العرب من خطأ إهمال أمر المسيحيين من بدء الأمر .

(٦) ونختم جلة الأسباب بما كان من تغير كلى للأخلاق العربية مما أدّى بهم الى نسيان شجاعتهم وعدم التمسك بدينهم والانغماس فى الترف والنعيم ، والكيد لبعضهم ، وقعودهم عن نصرة بعضهم لبعض لم يغن قيام حكم ملوك الطوائف شيئا ، كثرة عددهم دلّ على ضعفهم وصغر ملكهم ، وتنافسهم أدّى الى حرب متواصلة بينهم ذهبت بريحهم ، وكانت حالتهم خير أمنية للمسيحيين الذين استولوا على البلاد ، وفرضوا الجزية على الاسلام وأذلوا الناس ، وكان خلاص المسلمين على أيدى المرابطين لزمن محدود ، ثم كانت دولة الموحدين ولم تعمر طويلا ، وفى آخر عهد الاسلام بالأندلس اقتصر الأمر على دولة بنى الأحمر بغرناطة فشيدت

أثرا باقيا ، ومجدا دوّنه لها التاريخ ، فقاتلت وصبرت وانتصرت حتى انتابتها الفتن الداخلية ، وكانت المسيحية وصلت الى عظمة قوّتها على يد (فردناند) و(ايزابلا) فأسقطا المعقل الأخير من المعاقل الاسلامية وبادت دولة الاسلام بهذه البلاد بعد أن قامت بأجلّ الخدمات للمدنية والحضارة والعلم والعمران ، وكلّ المؤرّخين على اختلاف جنسياتهم يشهدون لها بذلك . انتهى ما أردته من كتاب « تاريخ العرب فى الأندلس » تأليف الاستاذ حسن أفندى مراد ، والحمد لله رب العالمين .

***

بأمثال هذا التقرير ترقى أمم الاسلام ، وبه تعرف بعض أسرار آى القرآن لاسيما أسماء الله الحسنى المذكورات فى ثنايا آى القرآن « والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » انتهى الفصل الخامس

الفصل السادس

فى أن نظام دالتون فى التعليم الذى تقدم فى الفصل الرابع هو نفسه الذى صنعه الله فى أرضه قبل خلق العالم كما ستراه الآن فى هذا المقام

بهجة العلم فى هذه الآيات

« فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين الخ »

اعلم أن هذه المعانى التى تقدّمت فى الفصول السابقة تتضمنها الصلاة ، ألا ترى أن قوله تعالى : « فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » تتضمنه أوّل الفاتحة « الحمد لله ربّ العالمين » ، وقوله : « وله الكبرياء فى السموات والأرض الخ » يذكر به تكبيرة الاحرام وتكبيرات الركوع والسجود والرفع منه والتكبير ٣٣ مرّة عقب كل صلاة . هذا ما أردت بيانه فى هذا المقام تفسيرا لآيات : « فلله الحمد ربّ السموات » الى آخر السورة ، والحمد لله رب العالمين . انتهى فى ليلة الجمعة الساعة العاشرة يوم ٢٧ فبراير سنة ١٩٣١ م

نفحة فى صلاة الصبح يوم الجمعة ٦ مارس سنة ١٩٣١ م

بيان الكبرياء والعزّة أيضا مع التربية فى السموات ، والتربية فى الأرض ، وتربية العالمين المصحوبة بالحكمة

أحمدك اللهم على نعمة العلم والحكمة والعرفان ، قرأت اليوم فى صلاة الصبح أوّل سورة طه وأخذت أردّد الآيات لفهم معناها ، فلك الحمد اللهم ولك الشكر على ما أنعمت به علينا من الفهم ، ذلك أننا أصبحنا نرى نظام نفس الأرض وتاريخ حياتها يضارع فى تصاريفه وتاريخ أحواله نظام الدراسة فى المدارس على أحدث الطرق ونظام الفرد الكامل فى حياته أيام الطفولة وأيام الشباب وأيام إفاضة العلم على غيره واشراق أنواره على الناس فى هذه الأرض . جاء فى قصة موسى ، أن الله يقول :

(١) « إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى » ولا جرم أن هذه عبارة عن ظواهر الاسلام وعن بواطنه وهو التفكر ، فالتوحيد والعبادة والصلاة المذكورات فى هذه الآية هى من ظواهر الاسلام وباطنه ، والمقصود منها هو الذكر كما يقول تعالى فى سورة ﴿آل عمران﴾ : الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض » ، فالتفكر بعد الذكر لأن الذكر باللسان يحرّك القلب للفكر ، والا لجدواه قليلة ، والذكر هنا فى سورة طه

لوروده بعد ظواهر الصلاة يرجع للفكر فى السموات والأرض وعجائب الصنع لأن ظواهر الذكر تضمنتها الصلاة التى هى عبارة عن أقوال وأفعال ؛ ومن الأقوال الذكر اللفظى ، إذن قوله تعالى « لذكرى » هنا يراد به معرفة الحقائق المقابلة للتفكر فى سورة ﴿ آل عمران ﴾ كما قدمناه .

(٢) حديث الله مع موسى إذ أمره بالقاء العصى ، فألقاها فصارت حية ، نخاف موسى ، فقال الله له : « لاتخف » وأعادها لحالها الأولى كرة أخرى .

(٣) تبيان أن هذه الحادثة التى جرت بين الله وموسى نموذج لثلاث حوادث كلها كان فيها الخوف أولا والسلامة آخرا ﴿ و بعبارة أوضح ﴾ إن حديث موسى مع ربه وخوفه أولا وسلامته آخرا نظير :

(ا) لما حصل لأمه إذ ألقته فى التابوت ، وألقت التابوت فى اليم ، واليم ألقاه بالساحل ، وأخذه العدو ، والعدو صار حبيبا له ، وقيل لها : « لاتخافى ولاتحزنى إنا رادوه اليك » فقوله : « لاتخافى » فى مقابلة : « خذها ولا تخف » وقوله « إنا رادوه اليك » فى مقابلة « سنعيدها سيرتها الأولى »

(ب) ونموذج لما حصل له فى قتله القبطى : « وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا » ويقول شعيب لموسى (لما ورد ماء مدين وسقى لابنتيه) وقص عليه القصص : « لاتخف نجوت من القوم الظالمين » ، وذلك أنه لما جاء له رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين ☆ فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين ، فهاهوذا وهوخارج من أرض مصر كان خائفا ودعا الله أن ينجيه من القوم الظالمين ، ولما توجه تلقاء مدين وقابل شعيبا قال له : « نجوت من القوم الظالمين » إجابة للدعاء الذى دعا به أولا وهو خارج من أرض مصر .

(ج) ونموذج أيضا لما حصل بينه و بين السحرة إذ أجمعوا كيدهم ثم أتوا صفا وألقوا حبالهم وعصيهم ، فخيل اليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة موسى فقال له الله : « لاتخف انك أنت الأعلى ☆ وألق مافى يمينك تلقف ماصنعوا إنما صنعوا كيد ساحر »

عجب يارب من هذا الكتاب المقدس وهوالقرآن ، خوف من العصا إذ صارت حية فأرجعتها له سيرتها الأولى فذهب الخوف ، وخوف أم موسى عليه إذ ألقته فى اليم ، فأزلت خوفها و بشرتها بنجاته ، وخوف موسى من أن القوم يقتلونه فنجيته من الغم ، وخوفه من حبال القوم وعصيهم إذ خيل له أنها حيات ، فألقى عصاه فتلقفت مايأفكون .

ههنا حوادث ثلاث : حادثة أمه ، وحادثتاه ، كلهن على نمط واحد ، ويجمعها كلها مثال واحد ، وهوأنه ألقى عصاه فصارت حية ، فأمرته بعدم الخوف ، وأرجعتها الى حالتها الأولى . أليس هذا يارب من العجب ! عجب صنعك ! وعجب كتابك !

يارب أنت هذا فعلك ، وهذا قولك ، انك أريتنا هذه الوقائع فى نظام أرضنا كلها لأنك تربى السموات وتربى الأرضين ، وتربى العالمين .

هاهى ذه أرضنا التى هى أقرب الينا ألفينا تربيتها على نظام هونفسه نظام حياة الفرد الشريف العظيم كموسى عليه السلام وكجميع المصلحين فى الأرض لأنهم من العالمين الذين تربيهم ، أليس نظام الارض أنها تحدث فيها الحوادث العظيمة كالزلازل والبراكين والصواعق والخسف (وهذا شرحناه قريبا فى نفس هذا المقام) فيكون الذعر ، ويكون الخوف ، وتبلغ القلوب الحناجر ، ويظن الناس بالله الظنونا ، فماذا يحصل

بعد ذلك ؟ يحصل أن البراكين :

(١) يعقبها حدوث أراض زراعية جديدة لا نظير لتربتها للزراعة ولاتحتاج الى سماد .

(٢) ويعقبها منافع معدنية كالكبريت الذى ذكرناه آنفا الخارج من أحد البراكين واشترته شركة أمريكية بألف ألف جنيه لمنافع الناس ، وهكذا نرى ايطاليا تستعمل حرارة البراكين لمنافع عظيمة أخرى ، إذ بها تدير آلات لمصالح الحياة العامّة كما تقدم فى غير هذا المكان .

(٣) ويعقبها حدوث جزائر وجبال ، وقد تحدث قارّات فى مئات الآلاف من السنين ، فالزلازل والبراكين ونحوها تحدث خوفا لنوع الانسان وذعرا شديدا ، فيقول الله للناس : ياعبادى لاتخافوا هذه كعصا موسى ، ألقاها فصارت حية ، فخاف ، فرجعت الى حالها ، فالخوف إنما أبدعته فى نفوسكم ليكون المران على الصبر ، وبغير الصبر لاعلم ولاسعادة ، صبرت أم موسى ، وربطت على قلبها لما فارقها ، إذ ألقته فى اليمّ ، وهكذا علمت موسى الصبر لما خاف من العصا وقد صارت حية إذ ألقاها بأمرى ، ليكون ذلك مرانا له على مايحصل له ، إذ يلاقى السحرة فيرى الحبال والعصىّ حيات ، إن التربية ياعبادى هذا شأنها ، فلتكن المشاق ، ولتكن المخاوف أوّلا ، ثم لتكن القوّة ، وليكن السير فى سبيل الحياة .

وذلك مثال لما يفعله من يعلم ابنه العوم ، إذ يلقيه فى اليم بلا آلة تساعده على العوم ، فيجاهد بكل قوّته حتى يتخذ له طريقا خاصة له ، فهناك خوف ، وهناك نجاح بعدالصبر ، هكذا تربية المدارس على أحدث طريقة ، وهى التى تقدم ذكرها عن (دالتون) .

يذر الاستاذ تلميذه فى ارتباكه وحيرته واضطرابه فى حلّ المسائل العلمية ، ويعينه معاونة إجمالية ، ويترك له التفصيل ، ويعامله معاملة الله لموسى ، ومعاملته للأرض فى نظامها ، فكما أن الأرض تضطرب اضطرابا شديدا حتى يظنّ الناس أن القيامة قامت بما يثور من براكينها ، وبما يحدث من زلازلها ، فيعقب ذلك حياة جديدة بتربة جديدة نافعة جدا ، أو بجبل ، أو بجزيرة ، أو بمنافع أخرى ، وهكذا موسى خاف من عصاه لما صارت حية ، وعلم الصبر على الخوف ، وهذه الاخافة صارت له نعمة لما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم الخ وصار ذلك مرانا له وقدرة إذ قال موسى «ماجئتم به السحر ان الله سيبطله الخ» ثم غلبهم ، هكذا التلميذ فى المدارس يضطرب فى حلّ المسائل ، والمعلم يذره يتخبط ، ويفتح له الطرق ويذره ، وتكون عاقبة ذلك قوّة يكتسبها أيام عمله فى المستقبل ، إن آخر طريقة للتعليم هى التى وضعها الله فى نظام أرضه العام وهى التى وصفتها فى تربيته لموسى عليه السلام ، إذ أخافه ليكون ذلك الخوف مرانا على أعماله المستقبلة ، وملخص ماتقدّم فى هذا الجدول :

	الكبرياء والعزة	تربية السموات . تربية الأرضين . تربية العالمين . وأن الله حكيم فى صنعه
تربية السموات	(١) الشمس كانت كرة غازية والأرض منها ثم بردت (وهذه مرسومة فى سورة فصلت)	(١) الأرض بعد أن برد ظاهرها صلحت لهذه المخلوقات
تربية الأرضين	(٢) البراكين والزلازل والخسوف	(٢) ظهور جبال وتلال وجزائر وقارات ومعادن
تربية العالمين	(٣) خوف أم موسى عليه فى اليم ، وخوفه إذ ألقى عصاه فصارت حية ، وخوفه من أن القوم ائتمروا به ليقتلوه	(٣) كل ذلك مران له على ماقابله من المكاره بعد ذلك إذ ألقى السحرة الحبال والعصى الخ ، فألقى عصاه وبطل سحرهم
	(٤) ترك الاستاذ تلميذه يبحث فى مسائل العلم بنفسه	(٤) نجاح التلميذ فى الابتكار والاعتماد على نفسه فى العمل

إذن مايلاقيه الناس فى هذه الحياة مران لهم فى نفس الحياة ، أوفى حياة أخرى ، ألاترى أننا مأمورون بالجهاد والموت فى سبيل الله ، إن فى ذلك لمرانا لنا على ترك ما نألفه ، وهـذه الأرض مألوفة لنا ، والموت اخراج لنا منها ، والخروج من المألوف صعب . والله له عوالم غير هذه الأرض ، ولابدّ من أننا نرى عدله ، وجمال صنعه فيها ، وهل يتسنى لنا ذلك إلا بتركها ، وهل تركها إلا الموت ! فهنا تناقض ، نحب أن نعلم جمال العوالم فوقنا ، ونحب البقاء فى أرضنا ، ولكن الله الذى له الكبرياء فى السموات والأرض لا فى الأرض وحدها التى نحن فيها يقهرنا على ترك المألوفات فى نفس الحياة ، وعلى ترك نفس الحياة وان كرهنا ذلك لأنه سيرينا إبداع صنعه فى عوالمه الجميلة التى هى أرقى وأبهج وأبهى من أرضنا المتأخرة فى أحوالها ونظامها عن غيرها .

تطبيق على ماتقدم من كبرياء الله وعزّته مع تربيته لنا بالحكمة

وذلك فى تذكرتين

﴿ التذكرة الأولى ﴾ هى مازاولته أنا فى هذه الحياة

﴿ التذكرة الثانيـة ﴾ فى حديث سمكتين تتحاوران فى ثقل ماء البحر عليهما ، وكيف أخـذ البخار يصعد الى الجوّ لينقص الماء وماهو بناقص ، وكيف صار بخارا ، ثم ماء فى سحاب ، ثم مطرا سقط على الجبل و بقى بعضه ثلجا ، فتراكم الثلج ، فأخذ ينزلق من الجبل حاملا معه صخورا سائرا الى البحر كرة أخرى فساقطا فيه ، فواضعا تلك الحجارة أشبه بالبناء يقى ذلك السمك من ثقل الماء

التذكرة الأولى

لقد ذكرت فى هـذا التفسير مرارا أننى فى زمن الصبا عاهدت الله أنى اذا نلت من العلم واليقين حظا نشرته بين المسلمين ليزول الشكّ من قلوب أذكيائهم ، ولما نلت من العلم حظا ، وأتممت الدراسة بدارالعلوم وعينت موظفا بالتدريس ، ونقلت من القاهرة الى مدرسة الجيزة الابتدائية ، هنالك أخذت أفكر فيما عاهدت الله عليه من التأليف ، ولقد كانت الدروس تستغرق النهار كله ، ولم يكن عندى من الليل مايزيد على تحضير الدروس واصلاح خطأ التلاميذ فى كراريسهم ، فعوّلت على أن أجعل يوم الجمعة مقسما قسمين ، فمن الصباح الى قبيل صلاة الجمعة يكون عملى فى التأليف ، ومن صلاة الجمعة الى الغروب يكون ذلك خاصا بالرياضة فى الحقول والرياض الناضرة والخلاء ، ليكون ذلك الشطر للفكر وللجسم ، فدمت على ذلك مدة . ثم إنى يوما قلت فى نفسى : لأترك التأليف فى هـذا الاسبوع ، ولأخرج فى الخلاء من الصباح ، فما كدت أخرج الى شاطئ البحرحتى قابلنى رجـل أعرفه من القاهرة جاء الى الجيزة ليشترى عجلا من البقر ليذبحه فى عيد الأضحى ، فرافقته الى سوق البهائم ، وهناك تتصاعد الروائح الكريهة من أبوالها وأرواثها ، و يسمع الانسان عبارات السماسرة والمتبايعين ، والحلف المتكرّر ، ورفع الأصوات ، والجلبة فى البيع والشراء ، ولم أخلص من ذلك المأزق إلا وقت صلاة الجمعة ، هنالك عرفت أن ذلك معناه مايأتى : « انك طلبت الرياض الناضرة ، والحقول الباهرة ، والمناظر السارّة ، والحدائق الجميلة ، تاركا ما عاهدت الله عليه من التأليف ، فهانحن أولاء عاقبناك فأرسلناك الى سوق البهائم لتكون بين البقر والجاموس والحمير ، ولتسمع مالاتألفه ، ولتشم ماتكرهه ، وذلك ضد ماتطلبه على خط مستقيم ، هنالك عرفت أن ترك التأليف فى ذلك الموعد ذنب عوقبت عليـه ، فذلك راجع لكبرياء الله وعزّته أوّلا ، وتربيته وحكمته ثانيا « ولله عاقبة الامور » .

ويتبع هذه التـذكرة الأولى حديثان : الحديث الأول : إنى قبـل ذلك أى حين أردت أن أبتدئ

فأكتب ما عاهدت الله عليه وأنشره بين المسلمين ، أحاطت بى من المزعجات النزليات والأحوال الداخلية ما آذانى وساءنى ، ومن عجب أنى إذ ذاك خطرت لى خواطر عجيبة ، فكنت أقول : أنا فى المستقبل سأكتب لرقىّ الاسلام ، ولابدّ لكل عامل من حسدة وأعداء ، فهذه المزعجات اليوم قد أحاطت بى ، لأن من خاق شدة الحياء ، وسرعة التأثر ، وهذه المزعجات تعطينى درسا به أتعلم الثبات فى الأعمال الدفعة ، وأقول أيضا فى نفسى : هذا تدريب لنفسى على الثبات ، وعدم التزلزل أمام الحوادث ، وفى تلك النوازل والحوادث والمزعجات أخذت أؤلف كتاب «جواهر العلوم» وكتاب «ميزان الجواهر» قائلا للحوادث المنزلية كلا. والله لا أنثنى عن مطالبى مادمت حيا . وبهذا تم الحديث الأول التابع للتذكرة الأولى .

﴿ الحديث الثانى ﴾ : انى فى أوائل طبع هذا التفسير أحاطت بى حوادث خارجية وهى مزعجة أشد من الأولى ، فقابلتها بصدر رحب ، ولم أدّخر وسعا فى تذليلها ، ومرّت بسلام ، ولم تعقنى عن السير فى التأليف والطبع ، وكنت أجد المعونة من الله واضحة جلية ظاهرة .

التذكرة الثانية : حديث السمكتين

حدّثنا الحارث بن همام . قال : ركبت فى سفينة تجارية فى لجج البحار العميقة ، وقد قادها الربان بمهارة وإتقان ، ولم أكن لأعتاد ركوب الأخطار ، ولامقاساة الأسفار ، فما أن مضت ساعات حتى أغمى علىّ ، وغبت عن حواسى ، وخيل الىّ أنى فى قاع المحيط ، وأمامى آلاف السمك تتفرج علىّ وتدهش لمنظرى ، وقد أنطقهن الله ، فصرن يحدثن بأحاديث عجيبة ، ومما أذكره أن سمكة منهن تسمى (سانده) وأخرى معها تسمى (مانده) أخذتا تتسامران مسامرة أشبه بأقاويل الفلاسفة وعلماء الحكماء . فقالت (سانده) لأختها (مانده) : حدثينى أيتها الأخت ، إن ماء البحر يعلو فوقنا فوق (٢٠٠٠) ألفى قامة ، وهذا الانسان لاثقل فوقه أكثر من (٧) قامات ، لأن الهواء الجوّى المحيط بهم (وإن كان عظيم الارتفاع) لايزيد فى ثقله على عشرة أمتار من الماء وهى تساوى ٧٥ سنتيمترا من الزئبق ، نحن هنا فى كرب شديد ، فكيف نتحمل هذا كله ، وهذا الانسان فى راحة بال لايزيد الثقل فوقه عن ٧ قامات تقريبا ، فأين السبعة وأين الألفان ؟ إن هذا لهو البلاء . فقالت لها (مانده) : قومى ندعو الله نحن وبقية السمك فى قاع المحيط عسى الله أن يخفف الأثقال عنا .

هنالك غابت السمكتان عنى ، ثم رجعتا بعد مدة ، وأخذت (سانده) تقول لأختها : إن الله استجاب دعاءنا ، وهاهوذا أخذ يخفف العبء عنا ، فان المحيط أخذ يبخر وهذا البخار يقلل الماء من فوقنا ، فاستغرقت إذ ذاك (مانده) فى الضحك وقالت لها : ما الذى يرفعه البخار من الماء ؟ إن هو إلا نزر يسير ، فقالت لها (سانده) : إذن أين إجابة الدعاء ؟ فقالت لها (مانده) : عجب لك ! إن الله له (الكبرياء والعزة) ففعله لحكمة ، ولابدّ من الصبر حتى نفهم كيف استجاب الدعاء ، ألاترين أن العنكبوت تخرج من جسمها خيوطا فلايدرى العاقل لماذا تخرج ، و بعد حين يظهر أنها شبكة لصيدها ومنزل لسكناها . فقالت لها (سانده) علمينى مما علمك الله ؟ فقالت لها (مانده) : إن البخار يذهب الى الجوّ ويصل الى الطبقة الباردة فيصير ماء ثانيا ولكنه خال من الملح ، ثم يصير سحابا ، فيسوقه الهواء الذى تكون الحرارة والبرودة بسببه ، ذلك أن الحرارة تمدّد الأجسام والبرودة تكمشها ، والصخور بتوالى الليل والنهار ، وتعاقب الصيف والشتاء تمدّد وتنكمش ، وينشأ عن ذلك تشققها بشقوق رأسية طولية وعرضية ، فاذا كانت الصخور طبقية أصبحت كالطوب المرصوص بغير ملاط مستعدّة للانهيار (انظر شكل ٢٦ الآتى فى الصحيفة التالية) فلا تلبث أن تتسلط عليها عوامل الطبيعة من الماء والثلوج فتمزق شملها وتجرفها .

شكل

(شكل ٢٥ — تشقق الصخور من أثر التغيرات الجوية)

آثار المطر في التعرية

(شكل ٢٦)
واد ناشيء عن سقوط سقف مغارة جيرية

في شكل (٢٧) واد عميق كان فيما مضى كهفا من الكهوف الجيرية التي وصفنا لك طريقة تكوينها بسبب ذوبان الصخور بفعل ماء المطر ، وقد رق سقف الكهف وسقط فكشف الوادي كما تراه .

وتأثير ماء المطر بهذه الكيفية في الصخور الجيرية تأثير كيميائي ناشيء عن التأثير الحمضي لهذا الماء بسبب ما يمتزج به من غاز حامض الكربونيك في أثناء سقوطه في الهواء .

ويؤثر المطر في الصخور بطريقة أخرى ، وذلك بتكرار لطمها ، وتمزيقها ، وتشتيت مادتها .

وتتشرب الصخور أحيانا ماء المطر ، ثم تجف ، ويتكرر التشرب والجفاف فتتراخى وتصبح عرضة لجرف المياه الجارية كما ستريته مفصلا في عمل الأنهار .

فقالت سانده لماندة : أما الآن لم أعرف إجابة دعائنا ، فانك أيتها الأخت لم تذكري لي إلا أن الحرارة والبرودة تؤثران في الصخور فتمزقها ، وأن المطر الذي من بخار البحار يؤثر بطريقة أخرى ، ولكن هذا كله فوق وجه اليابسة التي خلق فيها هذا الانسان ، ولكن أين إجابة دعائنا بتخفيف الضغط عنا ؟ فقالت لها

(مانده) : ألم أقل انك لن تستطيعي معي صبرا ، فاصبري حتى تفهمي ، لأن العلم يعوزه الصبر ، ولا علم بلا صبر ، ولا سعادة بلا نصب ، وأعلى السعادات سعادة الحكمة والعلم . فقالت : خذني إذن . فقالت مانده :

نشأة الأنهار

انها تنشأ من تضاريس صغيرة في وجه الأرض الحديثة ، هذه التضاريس تعين اتجاه سير المياه ، ومتى تعين مرة أصبحت مسالك متبوعة ، وأمعنت المياه في الأرض نحتا وتعميقا حتى يكمل تنسيق حوض النهر.

العيون والآبار

بعض صخور القشرة الأرضية ذات مسام ينفذ فيها الماء وبعضها مصمتة فلا ينفذ فيها ، فالقلة في الطبق ترشح فيه لأنها من الفخار ، وهذا له مسام ، ولكن الطبق يحفظ الماء ولا يرشحه لأنه مصمت ، فان رشحت القلة حتى امتلأ الطبق وفاض سال الماء على جانب الطبق ، فهكذا تتفجر العيون والينابيع على جوانب الجبال إذ ينفذ بعض ماء المطر من المسام والشقوق حتى تحجزه طبقة مصمتة ، فاذا ملأ تجويف هذه الطبقة وفاض نشأت العيون والينابيع ، وفي شكل (٢٨) مقطع رأسي في جانب الجبل يسيل منه الماء عند (ع) والصخور التحتية مصمتة كالصلصال ، والفوقية ذات مسام كالجير ، وقد تشربت هذه الصخور بالماء الى الارتفاع المشار اليه بعبارة (منسوب الماء) ، فاذا حفرت بئر عند (ب) وعمقت الى ماتحت منسوب الماء أمكن استخراج الماء منها بالدلو أو المضخة . وهاك صورته :

(شكل ٢٧ — مقطع رأسي في جانب الجبل فيه بئر عند ب وعين ماء عند ع)

الآبار الارتوازية

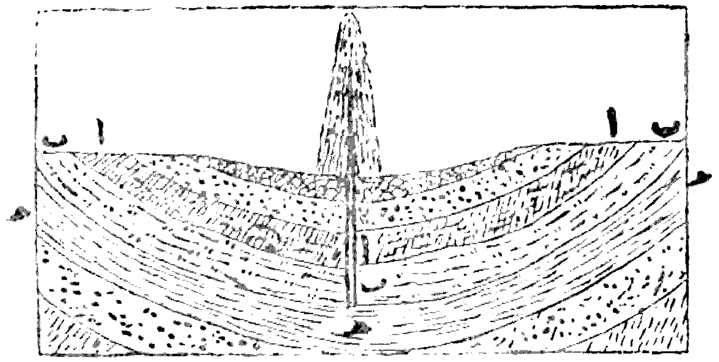

(شكل ٢٨ — نظرية الآبار الارتوازية)

في شكل ٢٩ طبقة من الصخور ذات المسام (ب) محصورة بين طبقتين من الصخور المصمتة (ا) و (ح) والطبقات كلها ملتوية مقعرة ، وللطبقة (ب) حافتان على وجه الأرض تقع عليهما الأمطار فتملأ صحن

هـذه الطبقة ، بحيث لو ثقبت الطبقات التى فوقها بحفر بئر فى وسطها ، يخرج الماء من تلقاء نفسه ويملأ الحوض ، وهذه الآبار الارتوازية عظيمة الأهمية فى رىّ الجهات البعيدة عن الأنهار والترع (انظر شكل ٢٩)

(شكل ٢٩ ـ منظر بئر ارتوازى)

حفر المجرى وتوسيع الوادى

تحفر الأنهار مجاريها وتنحت الوديان ، فاذا مرّ النهر بجهات عديمة الأمطار ، حيث لا يمكن أن يتزوّد بنهيرات تمزّق جدران الوادى وتساعد فى توسيعه ، ينحت النهر واديا غائرا يسمى خانقا مثل خانق نهر كلورادو ، وترى صورة مثل هـذا الخانق فى (شكل ٣٠)

وفى الجهات الأخرى تمزّق الأمطار والسيول والنهيرات جدران الوادى ، وتجرف الصخور الى مجرى النهر فينقلها الى حيث شاء ، وبذلك تتكوّن الوديان العريضة ، ولكل نهر واد قد كوّنه بنحت الصخور المجاورة لمجراه .

(شكل ٣٠ ـ واد عميق ضيق)

وقد عرفت أن الهضبة الحديثة اذا انسابت فيها الأنهار شققتها بالوديان تاركة سلاسل جبلية كالجدران تفصل الأحواض المختلفة ، ويبين شكل (٣١) تكوين الوديان العريضة والجبال المتخلفة . وهذه صورته :

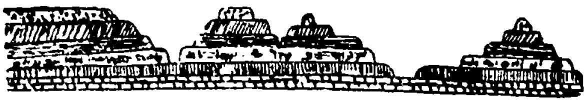

(شكل ٣١ ـ تحول الهضبة الى وديان وسلاسل جبلية بفعل عوامل التعرية)

وفى عمق خانق كلورادو دليل على مقدار مايستطيع الماء نحته رأسيا فى الصخور ، فان حافة الصخر مرتفعة عن سطح الماء هناك بأزيد من ميل ، فلو أضفت الى ذلك مايحتمل أن تعمله الأمطار والنهيرات على جانبى النهر من توسيع الوادى ، وخاصة اذا كانت الصخور رخوة أمكنك أن تتصور كيف يتسنى للأنهار الصغيرة أن تنحت لها وديانا عريضة منبسطة .

دورة التحات

تنشق الهضبة الحديثة اذا انسابت فيها الأنهار ، فتتحول الى وديان تفصلها الجبال المتخلفة ، ثم لاتزال الأنهار تنحت فى صخور هذه الجبال حتى تأتى على آخرها فتعود الهضبة مسطحا واحدا مستويا كما بدأت ، ويسمى هذا النوع من السهول (سهلا منحوتا) وهو ينحدر عادة انحدارا خفيفا تجاه الساحل ، ويبين شكل ٣٢ دورة التحات فى درجاتها الثلاث .

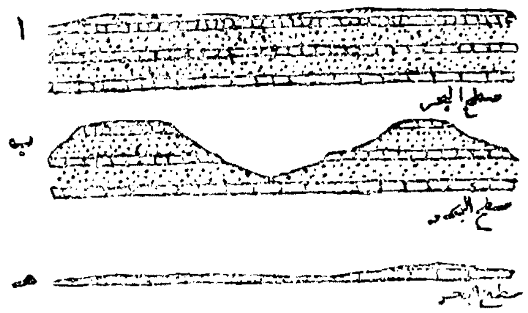

(شكل ٣٢)
(ا) هضبة حديثة (ب) الهضبة بعد التضاريس ، (ج) السهل المنحوت .

سرعة الجريان وشدة التحات

كلما كان التيار شديدا ازداد فعل النهر فى التعرية ، وازداد تحات الصخور ، لذلك نجد تخريبا عظيما فى الصخور عند المنابع ، حيث يكون الانحدار شديدا والمجرى حديثا ، إذ تمزق كتل صخرية فيجرفها الماء ، وتتلاطم فتتفتت وتحتك بعضها ببعض وبالمجرى ، وقد ترقد بعض الحجارة فى حفر فلا يستطيع الماء أن يخرجها منها ولكنه يقلبها على كل جانب ، ويصقل سطحها ، فتتكون منها الجلاميد (الزلط) المعروفة لنا ، أما الحفر فتتعمق ويكون لها أشكال وعائية غائرة ، ويوضح شكل ٣٣ الحفر الوعائية فى حوض نهر آر بسويسرة .
وهذه صورته :

(شكل ٣٣ ـ الحفر الوعائية فى حوض نهر آر بسويسرة من أثر دوران الجلاميد)

مساقط المياه والشلالات

(١) بين اسوان والخرطوم ستة شلالات مشهورة ، والسبب فى تكوينها وجود طبقات جرانيت صلبة تتخلل الطبقات الرخوة التى يجرى عليها النهر ، فتتحات الطبقات الرخوة أكثر من الطبقات الصلبة وتظهر الشلالات على شكل صخور وجزائر تعترض مجرى النهر ، والجزء الأول من شكل ٣٤ يوضح ذلك .

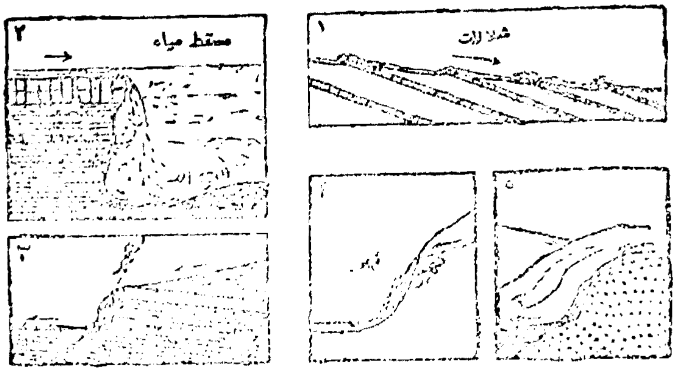

(شكل ٣٤ — أسباب وجود الشلالات ومساقط المياه)

(٢) ومن مساقط المياه المشهورة فى الدنيا مساقط مياه فكتوريا على نهر زمبيزى حيث يهوى الماء من علو ٤٠٠ قدم ، ومساقط مياه نياجرا حيث يسقط الماء من ارتفاع ١٧٠ قدما ، والسبب فى تكوين مساقط المياه وجود طبقات رخوة تحت الطبقات الصلبة ، فتتحات الطبقات السفلى بفعل الماء ، ثم تتداعى الطبقات التى فوقها بزوال دعامتها ، وهكذا يزداد علو المسقط ويتراجع من مكانه صاعدا نحو أعلى النهر ، والجزء الثانى من شكل ٣٤ يوضح ذلك .

(٣) وقد تنشأ مساقط المياه عن وجود عيب فى الطبقات يترتب عليه مسقط طبيعى فى الصخور .

(٤) كما تنشأ عند ملتقى نهير مجراه أعلى من مجرى النهر الأصلى .

(٥) وكذا عند تغير نوع صخور القشرة من نارية صلبة الى رسوبية رخوة .

المنعطفات والبحيرات المقتطعة

فى أدنى المجرى يضعف التيار ويبطؤ سير النهر فيغير مجراه اذا اعترضته الصخور ، ولايخفى أن الماء يحتّ فى المجرى ، ويحمل الغرين ، ويحتفظ به ما دام التيار سريعا ، لكن اذا ضعف التيار تنعكس الحال ويغلب الترسيب ، والنهر المستقيم تياره فى القلب أعظم منه فى الجانبين ، لكن تختلف هذه القاعدة عند المنعطفات ، فان التيار يكون بالغا أشدّه فى المنحنى الظاهرى ، ويكون فى أضعف أشكاله فى المنحنى الباطنى ، فينشأ عن ذلك نحت وجرف فى الأول (حيث تكون المرتفعات عادة) وترسيب وردم فى الثانى (حيث تكون الأراضى الواطئة)

ولايزال المنعطف فى ازدياد حتى يستدير ويجد النهر سبيلا لاجتيازه أخيرا فى اتجاه مستقيم ، فيترك بحيرة

مقتطعة على شكل الهلال . وفى شكل ٣٥ منعطفات المسيسبي الأدنى والبحيرات المقتطعة . وهذه صورته

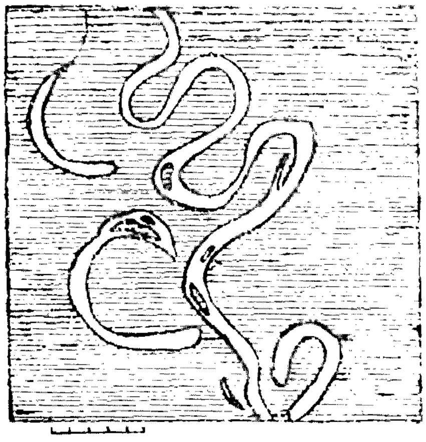

(شكل ٣٥)
منعطفات نهر المسيسبي فى أدنى مجراه

سهل الفيضان

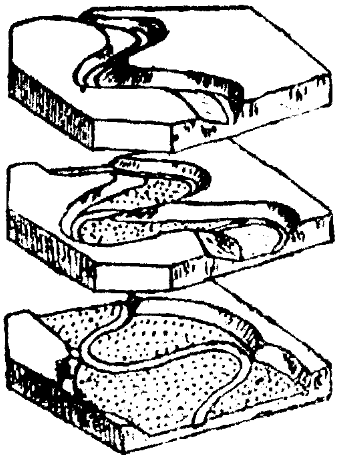

(شكل ٣٦)
تكوين سهل الفيضان

ينتج من عمليتى النحت والترسيب عند المنعطفات تكوين سهل فسيح فى أواسط مجرى النهر وأدناه كما ترى فى شكل ٣٦

وهذا السهل عادة قليل الارتفاع عن البحر ويسير النهر فيه بطىء فيرسب الغرين فى قراره ويرتفع القاع ، فاذا جاء زمن الفيضان لسبب اقبال موسم الأمطار ، أو ذوبان الثلوج ، تعرضت الأراضى المجاورة لخطر الغرق اذا لم تكن الجسور قوية ، واذا غمر الفيضان الأراضى رسبت عليها طبقة من الغرين تجعلها فائقة الخصب ، والقطر المصرى مثال من سهول الفيضان ، وكذلك حوض نهر هوانهو المتكوّن من الغرين الأصفر فى بلاد الصين ، وقد تغلب هذا النهر الأخير على جسوره مرارا فغير مجراه ، وسبب الكوارث ، ونقل مصبه أخيرا من البحر الأصفر الى خليج بتشيلى .

وينشأ فيضان النيل عن الأمطار الموسمية التى تسقط على الحبشة فى الصيف ، ويظهر الفيضان فى مصر بوضوح فى شهر سبتمبر من كل عام ، وقد حسب أن الأراضى الزراعية فى مصر قد ارتفعت فى خلال أربعة آلاف السنة الماضية أربعة أمتار ، تكوّنت من الطبقات الغرينية التى رسبت فى مواسم الفيضان ، لذلك نجد الآثار مطمورة فى الطين الى هذا العلو . أما الأنهار التى تنبع من الثلاجات مثل « السين » بفرنسا ، فموسم فيضانها أول الصيف عند ذوبان الثلوج .

تكوين دال النهر

عند المصب يقف جريان الماء ، فيرسب الغرين المعلق فيه ، فاذا كان البحر عظيم المدّ والجزر كالمحيط

الأطلسى فانه لايترك هذه الرواسب تعترض النهر بل ينقلها جانبا .

ولكن الأنهار التى تصب فى البحار القليلة المد والجزر كالبحر الأبيض المتوسط ، يرسب غرينها بمجرد وقوف التيار عند مقابلة البحر الملح ، فيتكون من ذلك سهل غرينى مثلث الشكل غالبا تنفذ منه مياه النهر الى البحر من عدة فروع ، وتسمى الأرض الغرينية المتكونة بهذه الصفة (دلتا) أو (دالا) لقرب شبهها عادة من حرف الدال ، غير أن لبعض الدالات أشكالا غريبة مثل دال المسيسبى التى تمتد فى خليج المكسيك امتدادا عجيب الشكل ، وقد يكون للنهر فروع كثيرة فى الدلتا ، فمثلا لنهر أورنوكو بأمريكا الجنوبية أكثر من خمسين فرعا ، ويجىء نهر المسيسبى كل عام بثلثمائة وخمسين مليون طن من الغرين الجديد ليزيد بها بناء داله ، واستمرار تشييد النهر فى الدال يقلل أهمية الثغور الواقعة عند المصب بابعادها عن البحر ، كما قلت أهمية دمياط ورشيد أخيرا ، وقد كانت (أدريا) مدينة رومانية عند مصب (نهر بو) ومنها اشتق اسم بحر الادريانيك ، وهى الآن بعيدة عن الساحل بعشرين ميلا من الأراضى الغرينية .

ردم البحيرات التى تجتازها الأنهار

يصب نهر سمليكى فى بحيرة البرت فيرسب الغرين فى أولها على شكل دلتا صغيرة ، ويخرج منها بحر الجبل صافيا قليل الغرين لرسوب كثير منه فى البحيرة ، ومآل البحيرات التى تصب فيها الأنهار أن يردمها الغرين نهائيا ، ولا يبقى مجوفا إلا مجرى النهر الذى يخترقها ، والبحيرات التى لاتتصرف مياهها الى البحر بالأنهار مثل بحيرة (شاد) فى أفريقية تكون ملحة لكثرة الأملاح فى نفايات اليابس التى ترد اليها ، أما البحيرات التى تتصرف مياهها الى البحر مثل فكتوريا (التى تتصرف مياهها فى النيل) فانها تكون عذبة .

* * *

هنالك قالت سانده لمانده : يا أختاه . قد طال الحديث ، ولم نصل الى إجابة دعائنا ، ولم أستفد منه إلا ان العيون تتفجر على جوانب الجبال بسبب طبقات مصمتات خاصات تمنع سريان الماء الى أسفل فيفيض الماء فيكون عيونا ، وقد يستخرج الماء بالأعمال الصناعية ، وهكذا عرفت أن النهر يوسع مجراه ويتسع الوادى ، وتحول الهضبة الى أودية وسلاسل جبلية بفعل عوامل التعرية ، بل ان الهضبات ترجع آخر الأمر سهولا بذلك السبب ، وهكذا عرفت أسباب الشلالات ، ومساقط المياه ، والمنعطفات فى بعض الأنهار وهكذا سهل الفيضان وأنهار الجليد وفعلها ، فقالت لها : قريبا ستعرفين الجواب ، فاسمعى بقية الحديث :

المطر والبرد والثلج

يسقط فى مصر المطر ماء ، وقد يسقط معه البرد (بفتح الباء والراء) فى بعض الأوقات ، فنرى قطعا صغيرة من الثلج الجامد كالملح الحجرى ، ولكن فى الأقاليم الباردة يسقط الثلج الأبيض الرخو بدل المطر ، وخاصة فى الشتاء حتى اذا ما أتى الصيف ذاب كله أو بعضه بحسب دفء المكان أو برودته .

الثلاجات وخط الثلج

وفى الجهات القاصية الشمالية مثل (ايسلند) و (جرينلند) ، والجنوبية القاصية مثل (انتاركتكا) لاسبيل الى ذوبان الثلج فى مكانه ، فهو يزيد كل عام ، وتتراكم طبقاته ، ويندمج بعضها فى بعض فتتكون منها مسطحات عظيمة من الثلج الجامد الأزرق ، سمكها بضع مئات من الأمتار ، وتسمى بالثلاجات ، ولا يقتصر وجودها على الجهات القريبة من القطبين ، فان الارتفاع عن سطح البحر من شأنه نقص درجة الحرارة ، ولذلك صارت رءوس الجبال فى كثير من جهات المنطقة المعتدلة مسرحا لنزول الثلوج وتراكمها ،

فاذا وقفت تشاهدها من بعد تراها مكسوة بقلنسوات مفضضة من الثلج اللامع ، ومتى جاء فصل الصيف وتزايدت الحرارة ذاب الجزء الأسفل من هذا الغطاء الى حدّ معين يسمى (خط الثلج) ، وكل مازاد علوّا عن هذا الخط دامت عليه الثلوج صيفا وشتاء .

الأنهار الجليدية

لا يمكن أن تزداد الثلاجات باستمرار من غير أن يكون لها مصرف تنفذ منه ، لأن الثلوج الجديدة لاتفتأ تسقط عليها من الجوّ ، ومتى زادت هناك الثلوج وتراكمت الطبقات الجديدة على القديمة ينزلق الثلج فى فرجة بين الجبال وينحدر لثقله ودفع غيره له ، فيصبح لسانا من الثلج ممدودا تجاه سفح الجبل ، ولايزال هذا اللسان يمتد وينعطف عند كل منعطف ويتزوّد بثلوج أخرى من اليمين واليسار ، وهو ينحدر نازلا على شكل نهر جليدى كما تراه فى شكل ٣٧ وهاك صورته :

(شكل ٣٧ — صورة الطرف الأدنى من الجرف الثلجى فى الرون بجبالى فركا منحدرا الى رأس واد من الأودية حيث يبتدىء منه النهر)

الهيارات الثلجية

ربما لاينصرف الثلج المتراكم فى الثلاجات المرتفعة فى الوقت المناسب ، فيزيد حجمه فى إحدى النواحى فينهار منه الهيار إثر الهيار ، وتكون له قعقعة مرعبة ، إذ يهوى وهو يتقلب و يتدحرج ، فيتلاطم و يحطم ، ويهشم و يدمر ، فلا يبقى ولا يذر ، وأهل القرى العالية يحرصون على الغابات ، لتكون بينهم و بين الهيار سدًا

فعل الأنهار الجليدية فى التعرية

من خواص الأنهار الجليدية أنها كثيرا ماتنعطف مع الوادى من غير أن تنكسر ، وكثيرا ما تنزلق على مجار خشنة مضرسة وهى متماسكة ، واذا تشققت فقد تلتحم بسهولة ، لكن المجارى قد تكون وعرة جدًا فى بعض الأحيان ، فتتشقق الأنهار الجليدية بشقوق طولية وعرضية ، والأنهار الجليدية كالأنهار المائية أسرع فى قلبها منها فى الجانبين ، وذلك طبيعى لأن الصخور الجانبية تعوق سير الثلج ، ولذلك تتقوس الشقوق العرضية أثناء سير النهر الجليدى (انظر شكل ٣٨)

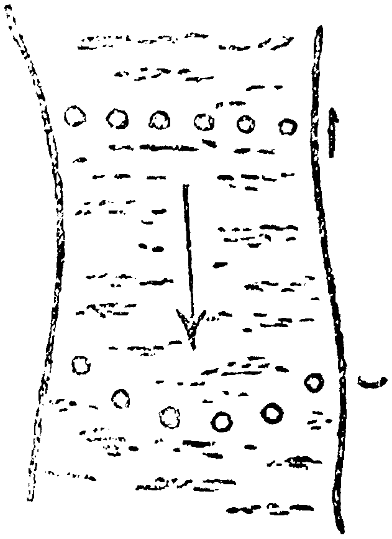

(شكل ٣٨)
زيادة سرعة النهر الجليدى فى القلب عنها فى الجانبين

وفى أثناء هذا السير أيضا تنهار الصخور الآيلة للسقوط من أثر الصقيع والهيارات الثلجية السابقة وتقع على حافتى النهر الجليدى فيحملها معه على شكل (ركامين جانبيين) وعند ملتقى نهرين جليديين يتحد ركامان جانبيان فى (ركام وسطى) ، فاذا تجمعت عدّة أنهار جليدية تعدّدت الركامات الوسطية ، فالنهر الجليدى فى شكل ٣٦ المتقدم ينحدر نحوك ببطء وعلى وجه الثلج بجانب كل حافة سطر من الصخور هو الركام الجانبى ، وفى الوسط ركام وسطى ناشىء من اجتماع نهرين جليديين .

وقد تقع الصخور فى الشقوق فتصل الى قاع النهر الجليدى فيجرفها الثلج ، ويسير بها على شكل (ركام أرضى) ، وفى أثناء ذلك يصقلها وينحت بها المجرى . ويوضح شكل ٣٩ صقل الثلج للصخور . أما المسحوق الناعم الذى يتحات منها فيسير مع الثلج الى (خطم النهر الجليدى) حيث يذوب الثلج ويجرى الماء العكر بداية لنهر مائى عظيم ، وعند الخطم يتجمع فتات الصخور المختلفة التى جاءت مع الركامات كلها فى ركام نهائى قد تنشأ عنه رابية عظيمة .

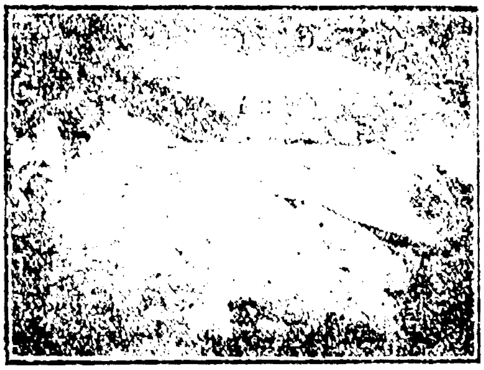

(شكل ٣٩ — صقل الثلج للصخور)

الأجماد الطافية

لايسمح البرد القارس فى أطراف المعمورة من الشمال والجنوب للأنهار الجليدية بأن يؤول أمرها الى الذوبان ، فتستمر ألسنتها فى الانزلاق حتى تصل الى الساحل ، وهناك تنقضم منها الكتلة إثر الكتلة فتقع فى البحر ، وتطفو على الماء كأنها جبال من الثلج : قد يكون الجزء الظاهر منها فوق الماء بضع مئات من الأمتار ، لكن باقى جرمها وهو تسعة أمثال ذلك ، يكون مختفيا تحت الماء (انظر شكل ٤٠)

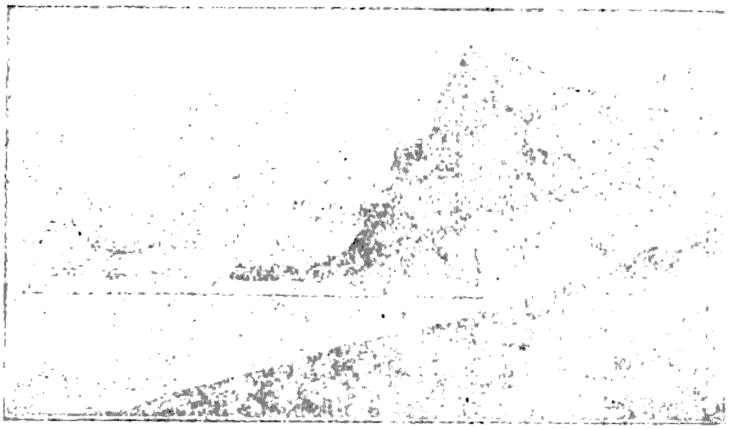

(شكل ٤٠ — تكوّن الأجماد من الأنهار الجليدية)

وكلما ذاب منها ركن تزحزح مركز ثقل هذا الجمد الهائل . وصار يتمايل ويتقلب ، وهو يسير مع التيارات البحرية تحفّ به غيوم كثيفة ، وينشأ عنه خطر عظيم على الملاحة ؛ فقد دهم أحد هذه الأجماد الباخرة (تيتنك) فى أوّل سياحة لها فى ابريل سنة ١٩١٢ تجاه سواحل جرينلند ، وكانت عروس بواخر الدنيا .

والأجماد كالأنهار الجليدية التى اشتقت منها تحمل معها ركامات صخرية ، ومتى ذابت رسبت الصخور فى قرار المحيط ، فتكوّنت مسطحات مرتفعة يأوى اليها السمك ليقيم فيها ، حيث يكون ضغط الطبقات المائية عليه أخف منه فى أعماق المحيط ، وقد اشتهرت سواحل نيوفوندلند بأمريكا الشمالية ، وسواحل (هكيادو) فى اليابان بكثرة مصائد السمك لهذا السبب .

فقالت (سانده) هيا بنا نذهب الى سواحل اليابان . فقالت (مانده) : إن العلم أحسن شيء فى الوجود فأرجو أن تتمى درس الصقيع والثلج بحيث تسمعين ما أعلمك للنهاية ، وبعد ذلك نسافر . فقالت حبا وكرامة يا أختى فقالت مانده :

عمل الصقيع فى التعرية

قد عرفت فى (شكل ٢٥) المتقدم كيف أن الصخور تتشقق من تغير درجة الحرارة ، فاذا تشققت الصخور فان ماء المطر يشغل الفراغ بينها ، واذا برد الجوّ يتحوّل الماء الى ثلج ، وقد رأيت الثلج يطفو على الماء فى القدح ، ورأيت كذلك أن الأجماد تطفو على المحيط بحيث يكون العشر فوق الماء ، وتسعة الأعشار تحته . ومعنى هذا فى علم الطبيعة أن الماء عند مايستحيل الى ثلج يتمدّد ، لأن الثلج أخفّ من الماء ، فالماء الذى فى شقوق الصخور عند مايتجمد يزيد حجمه فيضغط عليها ويمزّقها ، وفى البلاد الباردة مثل كندا يساعد الصقيع على تمزيق التربة فيوفر حرث الأرض ، وأنابيب الماء فى الأقطار الباردة مثل انجلترا

تتعرّض أحيانا للانفجار لضغط الثلج المتكوّن من الماء فى داخلها .

الواقف عنـد الساحل تلفت نظره الأمواج بارتطامها على الشاطئ ، وخاصة اذا هاج البحر وتلاطمت الأمواج ، فيناطح الموج الصخور ، فيوهنها ويقدّ منها قطعا يجرفها معـه بعيدا عن الساحل ، ثم يعود بها ، فيناضل الساحل من جديد ، فاما قطع الصخور فتتفتت الى رمال وجلاميد ، واما صخور الساحل فتتحات ، ومنها ماينهار ، ومنها ماينخرم بالثقوب والمغارات .

والمتأمّل فى قوّة الأمواج وفعلها يدور بخلده ذكر الأبدية و يسأل هل ظلّ البحر يناطح الساحل طول الأبد ، ولماذا لم يأت على آخراليابس فيدفنه تحته ، و يظهر منتصرا عليه ؟ لكن لايلبث أن يتذكر حركات القشرة الأرضية وأثرها فى بروز أراض جديدة من قرار البحر لتعيد التوازن ، والصخور اللينة أسرع تحاتا من الصخور الصلبة . ففى (شكل ٤١) مسلات طبيعية قاومت الأمواج فبقيت بعد أن تحاتّ ماحولها من الصخور ، واذا كانت الصخور التحتية رخوة بليت وتخرت فتداعت الصخور التى فوقها من تلقاء نفسها .

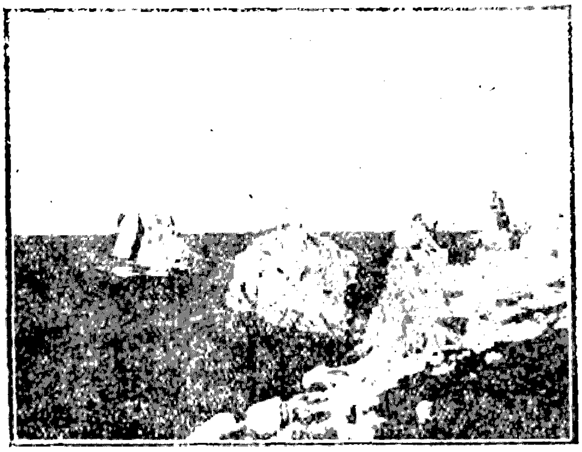

(شكل ٤١ — مسلات طبيعية من تحت الأمواج)

والمدّ اذا ملأ مغاور الشاطئ ضغط الهواء فيها ، فاذا جاء دور الجزر انحسر الماء سريعا ، فانسحب الهواء وراءه من شقوق المغاور ، فيتداعى مالايحتمل الجذب من الصخور ، و بمرور الزمان تتخرّم سقوف المغاور بالمناور الطبيعية ، ثم يحين الوقت أخيرا لتداعى السقف كله وتكوين فرجة فى الساحل ، ومن تفاوت مقاومة الصخور للأمواج تنشأ الشروم والرؤوس وتتكوّن تقاطيع الساحـل ، وهذه التقاطيع عظيمة الأهميـة فى الملاحة ، فان السفن لايهولها اشتداد العواصف وسط المحيط مهما غضب البحر عليها ، ولكن تذرعها الأنواء قرب الشواطئ الوعرة . والمرافئ الجيدة هى التى تتوافر فيها حماية السفن من الأنواء ، ومتى وجدت المرافئ الصالحة أصبح مؤكدا نشوء الثغور وتبادل التجارة . انتهى

ثم قالت (سانده) : الآن قد تمّ الحديث . فقالت مانده : أماالآن فقد طاب السفر ، فهيابنا الى سواحل بلاد اليابان لنعيش هناك تحت الحجارة ، فلما قالت ذلك سانده حتى غابت السمكتان عن عينىّ ولم ترجعا لأنهما سافرتا .

قال الحرث ابن همام : وما كانت السمكتان تسافران حتى استيقظت اذا طبيب السفينة وأعوانه يضعون السعوط فى أنفى والأدهان على جسمى وهم يدلكونه ، ولم تزد المدة على ثوان معـدودة . قال : فعلمت أنها أضغاث أحلام ، وهل لأضغاث الأحلام من تأويل ؟

فلما سمعت ذلك من الحارث بن همام عجبت من ذلك وأيقنت أنه من فتوح العزيز الرحيم ، وانه مناسب

هذه الآية . فوصف (مائده) لأختها (سائده) فعل الأمطار فى الجبال والصخور والأنهار وتكوّنها ثلوجا فوق الجبال ثم رجوعها للبحر ثانيا إجابة لدعاء السمك مشابه للعجائب التى أسمعها الله لنا فى قصة أم موسى والتابوت ووقوعه فى يد فرعون وحفظه ، وفى قصة موسى وإلقائه عصاه وخوفه منها لما صارت حية ، ثم ذهاب خوفه وهكذا خوفه من القوم أن يقتلوه ، وخوفه من عصىّ السحرة إذ صارت حيات ، ثم نصره عليهم ، فهذه المقدّمات والحكم التى نسمعها فى التنزيل نظير مافى هذه العوالم من عجائب البخار والبرودة التى تجعله ماء ، ثم الهواء المسير للسحاب ، فالمطر ، فانقلابه ثلجا ، فتراكمه ، فنزوله فى البحر فيصير مأوى للسمك .

تباركت يا ألله ، تباركت وتعاليت . لك الكبرياء يا ربنا ولك العزّة ، لك العجائب فى قصص أمّ موسى وموسى ، ولك الابداع فى قصص المطر والنهر والثلج والحجارة ، حكم أبدعت ، كيف هذا ؟ بخار يثور من البحار فيصير ماء ، فثلجا . ثم يفعل هذا البخار فعلا يعجز عنه البناءون والمهندسون والعمال ، فيكسر الصخور ويقطعها من الجبال ، ويحملها ، ويجرى بها : وينزل بها فى البحر ، ويبنيها ، وتصير مأوى للسمك عجب وألف عجب ! دنيانا يارب عجيبة ، مملوءة بالجمال ، فأنت بهذه الأعاجيب والمقدّمات قبل ظهور النتيجة ذوكبرياء وعزّة ، وبرحمتك للسمك وأمّ موسى وموسى مربّ وحكيم ، وهذه الآيات فى آخر سورة الجاثية لتبيان مافى أوّلها ، لأنه بدأها بأن الكتاب نزله عزيز حكيم ، وهل العزّة والحكمة يظهران إلا فيما بعدها من الآيات وهوماذكرته من السموات والأرض ، وخلق الدواب ، وإنزال المطر ، وتصريف الرياح ، وختم السورة بأنه محمود لأنه ربى السموات والأرض المذكورتين فى أوّلها مع العزة والحكمة ، فأوّل السورة عزة وحكمة ، وآخرها كذلك ، وهذا ملخص الفاتحة فان الحمد والرحمة والهداية كلها حكمة ، وقوله : « مالك يوم الدين » وذكر المغضوب عليهم والضالين راجع للعزّة . هذا هو الذى خطر لى فى تفسير هذه الآية والحمد لله رب العالمين . كتب ضحى يوم ٨ مارس سنة ١٩٣١ م

***

تذكرة

فى قوله تعالى فى أوّل السورة : وما أنزل الله من السماء من رزق الخ مع آية : وقدّر فيها أقواتها الخ فى سورة حم فصلت

لما أتممت هذه السورة جاء صاحبى العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير . فقال : لعلك نسيت ما وعدت به فى سورة حم فصلت ؟ فقلت : وما الذى وعدت به ؟ فقال : ألم تقل هناك عند إيضاح آية : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » مانصه : « وسيأتى تفصيل هذا المقام فى أوّل سورة الجاثية فراجعه ولاتعوّل إلا على التفصيل هناك » . فهاأنا اذا قرأت أوّل السورة فلم أجد اجمالا ولاتفصيلا للكلام على الأغذية النباتية المناسبة لآية : « وما أنزل الله من السماء من رزق » الآية ومقاديرها التى أشار لها الله فقال : « وقدّر فيها أقواتها الخ » . فقلت : أتذكر أننى بعد أن قلت ذلك فصلت الكلام هناك بعد نحو صفحتين . فقال : نعم ، ولكنك بهذا الوعد تحير الذى يقرأ التفسير ، فلا يعوّل على ما أوضحته هناك . فقلت : انى أوضحته هناك فى صحيفة ٢٣١ فى الجزء التاسع عشر ، وأبنت أن الانسان اذا كان فى فراشه يعوزه فى اليوم ١٨٠٠ سعر ، والسعر معروف هناك فلانعيده ، وان كان فى شغل شاقّ يعوزه ٤٠٠٠ سعر فى اليوم ، وان كان فى شغل متوسط يعوزه ٣٠٠٠ سعر فى اليوم أيضا . فقال : ولكن أذكياء القرّاء يتطلعون الى زيادة هنا . فقلت : هاك نص ماجاء فى كتاب « الغذاء فى الأمراض » تأليف الدكتور حسن عمر ، فقد جاء فيه تحت العنوان الآتى مانصه :

القيمة الغذائية للمأكولات

إن أهمية المأكولات موكولة لقيمتها الغذائية أى مايستفيد الجسم منها ، وذلك بأن يتحول الغذاء المأكول الى حرارة فى الجسم وحركة (أى ان كل الحركات التى يعملها الشخص تنشأ عن الحرارة التى تتولد من الجسم) فكل جرام من هذا النوع من الغذاء يولد حرارة جديدة بدلا من الحرارة التى استنفدها الجسم وقت حركاته ، ووحدة هذه الحرارة تسمى (الكالورى أو السعر) .

فالجرام الواحد من المادة الزلالية يعادل ٤ كالورى ، والجرام الواحد من المادة الدهنية يعادل ٩ كالورى ، والجرام الواحد من المادة النشوية يعادل ٤ كالورى .

نحن محتاجون للغذاء لتوليد الحرارة ، وكلما كثر العمل استنفد الجسم مقدارا من الحرارة يعادل العمل الجسمانى . إذن فقد وجب أن نتناول من الغذاء مقادير تعادل مايتطلبه العمل من الحرارة أو أزيد قليلا حتى لايستنفد العمل كل حرارة الجسم فيظهر الضعف وانهاك القوى ، ولكل عمل جسمانى قيمة معينة من وحدات الحرارة (السعر) يتمكن بها من القيام به خير قيام . ويجب فوق ذلك ملاحظة وزن الجسم ، لأن اختلاف الأوزان يدعو الى اختلاف الوحدات المطلوبة ، مثلا رجل وزنه ٦٥ كيلوجراما يحتاج من الغذاء يوميا الى مايأتى :

الحالة	السعر اللازم للكيلوجرام فى اليوم	مجموع مايحتاجه فى اليوم بالسعر
فى الفراش	٢٨	١٨٠٠
جالس	٣٢	٢١٠٠
شغل بسيط	٣٣	٢٣٠٠ — ٢٥٠٠
شغل متوسط	٤٠	٢٦٠٠ — ٣٠٠٠
شغل صعب	٤٨	٣١٠٠ — ٤٠٠٠

أما اذا كان العمل شاقا فان قيمة الغذاء تختلف باختلاف مايتطلبه العمل من مجهود جسمانى ، فمثلا عمل الفلاح ليس كعمل البناء ولا النجار ، إذ كل عامل منهم يحتاج الى قيمة غذائية معينة حتى يمكنه القيام بالعمل على الوجه الأصح ، وهاك جدولا بمختلف الحرف وماتحتاجه من سعر يوميا :

أعمال عادية

الصنعة	السعر المحتاج له يوميا
الجزمجى	٢٤٠٠
الغزال	٢٧٠٠
النجار ــ البناء	٣٢٠٠
الفاعل ــ الفلايكى	٤٠٠٠
الفلاح (أيام العزق والحرث والحصاد)	٤١٠٠
الساعى (راكب الدراجة)	٥٠٠٠
السيدة (شغل بسيط)	٢٤٠٠

أعمال فنية

الصنعة	السعر المحتاج له يوميا
الطبيب	٢٦٠٠
قاضي ــ مهندس رسام	٢٧٠٠
أستاذ الجامعة ــ كاتب	٢٨٠٠
محام ــ مدرس ــ تاجر	٣٢٠٠
تلميذ ابتدائى مصرى (داخلية)	٢٥٠٠
تلميذ ثانوى مصرى (داخلية)	٢٩٠٠
طالب مدرسة الفنون والصنائع المصرية (داخلية)	٣٦٠٠
طالب بالزراعة العليا (داخلية)	٣٧٠٠
طالب بالقسم العالى الأمريكى	٣٥٨٠
طالب شد الحبل ولاعب كرة القدم (أمريكى)	٦٥٠٠
العسكرى الانجليزى (فى السلم)	٢٢٠٠
« الألمانى «	٢٧٠٠
« المصرى «	٢٧٠٠
« الاسبانى «	٣٤٠٠
« الأمريكى «	٣٧٠٠
« الايطالى «	٤١٠٠
« الفرنسى فى الحرب	٤٠٠٠

وقال فى صحيفة ٥١ ومابعدها مانصه : « ولكل جسم قدرة معينة وميزانية خاصة للاستفادة من خليط الغذاء الذى نأكله ، فما زاد عن حاجة الجسم إما أن يخزن ، واما أن يخرج كافرازات تالفة عديمة النفع للجسم ، وأهمّ علاج هذه الحالات هو تنظيم مقادير الأكل وأنواعها ، وقد قام رجال عدّة بهذه الأبحاث ، وقدّروا مايجب أن يؤكل من الموادّ الزلالية والنشوية والدهنية بمقادير معينة تفيد حالة الجسم ولاتزيد مابه من من دهن ، وأهمها هى :

اسم الاستاذ	زلال بالجرام	نشا بالجرام	دهن بالجرام	السعر	اسم الاستاذ	زلال بالجرام	نشا بالجرام	دهن بالجرام	السعر
بانتج	١٧٢	٨١	٥	١١٠٠	أورتل	١٥٦	٧٥	٢٥	١١٨٠
هيرشفيلد	١٠٠	٥٠	٤١	١٠٠٠	كشن	٢٠٠	١٠٠	١٢	١١١٦
فون نوردين	١٥٥	١١٢	٢٨	١٣٦٦	ابشتين	١٠٢	٤٧	٨٥	١٣٠٠

هذه هى المقادير التى يجب اتباعها فى علاج السمنة مع ملاحظة التمرينات الرياضية ، وعلاج ماسببته السمنة فى الجسم كالأكزيما والأمراض الجلدية الأخرى وتصلب الشرايين وضعف القلب ، وكذلك معالجة الغدة الدرقية أوأى غدة أخرى ذات إفراز داخلى يكون لها يد فى هذه السمنة. انتهى ماأردته من الكتاب المذكور

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : لوعرفنا تحليل الأغذية لكان ذلك نفعا عظيما . فقلت : تقدم فى سورة ﴿ فصلت ﴾ فارجع اليه ، فاطلع عليه ففرح وقال الحمد لله رب العالمين . انتهى تفسير سورة الجاثية

تفسير سورة الأحقاف

(هي مكية)

إلا ثلاث آيات ، وهي قوله تعالى : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم » وقوله : « أولئك الذين تتقبل عنهم أحسن ما عملوا وتتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون » وقوله : « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون » فمدنية

آياتها ٣٥ — نزلت بعد الجاثية

(بِسْمِ ٱللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)

حمٓ ۞ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ ٱللهِ الْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۞ مَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ ۞ قُلْ أَرَءَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمٰوَاتِ ٱئْتُونِى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ ٱللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۞ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۞ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ۞ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۞ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ۞ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا

فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٭ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ٭ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ
وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ
إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٭ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ
فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ٭ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا
أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ
اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٭ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ
خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ٭ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا
وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ٭ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ
طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ
تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ٭ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ
قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٭ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ ٭ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا
تَجْهَلُونَ ٭ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا
اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ٭ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا
مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ٭ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا
لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ
كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٭ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا
حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٭ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ٭ وَإِذْ صَرَفْنَا

إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ .

هذه السورة قسمان

﴿القسم الأول﴾ فى تفسير البسملة

﴿القسم الثانى﴾ فى تقسيم السورة

القسم الاول فى تفسير البسملة

تجلت الرحمة فى هذه السورة بما ابتدى بها من ضروب الحكمة ، وفنون العلم ، وأزاهير النظام الاجتماعى فبينما نراها مبدوءة بوصف الكتاب بالعزة والحكمة ، ومختومة بالتوصية بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل اذا نحن نرى القوم مخاطبين باظهار الأدلة على تلك الآلهة التى عبدوها ، والأصنام التى أقاموها ، موبخين على مااقترفوا من إثم الذم بالسحر ، مقامة لهم الأدلة على صدق النبوّة التى ليست بدعا بأن بعض بنى اسرائيل صدّقوها وآمنوا بها وهم أعلم منهم ، وقد تبع ذلك استهجان مايهرفون به من أن الفضل خاص بهم فكيف يتعدّاهم الى غيرهم ؟ فلوكان القرآن كذلك لكانوا هم أولى به ، وتلاه الاشادة بمدح الذى حفظ وصية الله فى والديه فبرّهما وأطاع ربه ، والذم لمن عصى الله ووالديه ، ثم أتى بالقاعدة العامّة التى بها نظام الدول والممالك والأسرات والامارات ، وهى أن الانهماك فى اللذات والشهوات ، والاسراف فى انفاق الأموال والخروج عن حدّ الاعتدال فى الطعام والشراب . كل ذلك مورث لهلاك الأمم ، وضياع الدول والأفراد ، والوقوع فى الأمراض والخزى فى الحياة الدنيا ، وضرب لذلك مثلا بعاد الذين أرسل لهم هود ، فانهم كذبوا واستكبروا فهلكوا فأنزل الله بهم العقاب فى هذه الدنيا ، وسيتبعه عقاب الآخرة ، وهذه أمة عربية فى بلاد حضرموت وهى الأحقاف ، وهم أقرب الى الأمة العربية ، المنزل الكتاب بلسانها ، وهذا كان فى الحقيقة ذكرى لأمم الاسلام التى جاءت بعد نزول القرآن ، فياليت شعرى : أىّ رحمة ، وأىّ نعمة على مسلمى زماننا هذا من

أن يتذكروا ماحل بالأمة الأموية والعباسية والممالك السلجوقية والفاطمية والتركية والمملكة الأندلسية من ذهاب مجدهم ، وأفول شمسهم ، وغروب سعدهم ، و بزوغ نحسهم ، وظهور ذلهم وعذابهم فى الحياة الدنيا لما استكبروا فى الأرض بغير الحق ، وتفننوا فى ضروب الملاهى ، واتبعوا الشهوات ، وأسرفوا فى كل ضرب من ضروب الحياة فذهبت ريحهم وخرّ عليهم السقف من فوقهم ، أليس كل هذا هو ما أنذر به القرآن وحذر بذكر عاد ، وانهم أذهبوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا ، فعذّبوا فيها بعذاب الخزى ، وسيعقب ذلك عذاب الآخرة ، وسيأتى مقدار ما أسرفت أممنا السابقة ، لحق علينا القول ، فهذا عذاب من الرحمن ، فالله عزّ وجل عذب الأمم الاسلامية عذابا نتيجته الرحمة ، وهل الرحمة هنا إلا أن نجتنب نحن مافعله آباؤنا من التغالى فى تبذير المال ، واقتناء الجوارى اللاتى يبلغن المئات كما ستراه واضحا فى هذه السورة ، وأن نسير على منوال الخلفاء الراشدين فى نظام حياتهم فتكون لنا السعادة فى الدنيا والآخرة ، لهذا جاء القرآن ، ولهذه الذكرى كان هذا التفسير ، ثم ان الايمان بالكتاب لم يقتصر من غير العرب على اليهود بل تعدّاهم الى الجنّ

فهذه نبذ من مجامع علوم هذه السورة ، وهى مما تتضمنه الرحمة المذكورة فى البسملة . انتهى الكلام على القسم الأوّل فى تفسير البسملة . كتب يوم السبت ١٨ يوليو سنة ١٩٣١ م ، والحمد لله ربّ العالمين .

القسم الثانى فى تقسيم السورة

هذه السورة ستة مقاصد

﴿ المقصد الأوّل ﴾ فى التوحيد من أوّلها الى قوله : « بعبادتهم كافرين »

﴿ المقصد الثانى ﴾ فى المعارضات التى ابتدعها الكفار للنبوّة ، والاجابة عليها ، والبراهين على فسادها ، من قوله : « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات » الى قوله : « و بشرى للمحسنين »

﴿ المقصد الثالث ﴾ فى أهل الاستقامة الذين وحدوا وصدّقوا بالنبوّة ، وأن جزاءهم الجنة ، وذكر بعض وصايا تتعلق بالمؤمنين من اكرام الوالدين ، وذكر المحاورات بين الوالدين والمولودين ، و بيان مايرضى الله فى ذلك ، وذكر من صرفوا الحياة الدنيا فى اللذات والشهوات ، وأذهبوا طيباتهم فى شهواتهم ، من قوله تعالى « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » الى قوله : « بما كنتم تفسقون »

﴿ المقصد الرابع ﴾ فى ذكر عاد والاستدلال بما حلّ بهم بعد العظمة والجلال ، على أن صرف الطيبات والنعم فى غير محلها يورث الهلاك فى الدارين ، فهى كالاستدلال على ماقبلها ، وفى ذكر الأمم التى هلكت بالقرب من مكة كثمود وقوم لوط ، وأن هؤلاء لم تنفعهم الشركاء التى ابتدعوها ، وذلك من قوله : « واذكر أخا عاد » الى قوله : « وما كانوا يفترون » .

﴿ المقصد الخامس ﴾ فى استماع الجنّ لرسول الله ﷺ وأنهم بلغوا قومهم ، وذكروا فى الاستدلال ماناسب أوّل السورة من أن القرآن مصدّق لكتاب موسى وغيره ، ومايتبع ذلك ، من قوله : « وإذ صرفنا اليك نفرا من الجنّ » الى قوله : « بما كنتم تكفرون » .

﴿ المقصد السادس ﴾ عظة للنبىّ ﷺ والمجاهدين من أمته ، وهى ختام السورة ، وذلك بالصبر كما صبر أولو العزم من قوله : « فاصبر كما صبر أولو العزم » الى آخر السورة .

المقصد

المقصد الأول

﴿ التفسير اللفظى ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

(حم) تقدّم الكلام عليها فى السور السابقة ، وأيضا تذكير بالحمد المتقدم فى آخر السورة السابقة إذ قال الله تعالى : « فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » . ثم أتبعه بتبيان أن الكبرياء فى السموات والأرض مختص به ، إذ ظهرت آثار كبريائه وعظمته فيهما ، وأردفه بإفادة أنه قاهر غالب حكيم فيما قدّره وقضاه ، هذا ملخص آخر السورة السابقة ، وجاء فى أوّل هذه السورة ذكر الرحمة فى « بسم الله الرحمن الرحيم » كأنه يقول : « إن كبريائى وعزّتى وحكمتى مصحوبات بالرحمة ، فكل ماقهرته من هذا الوجود وغلبته وحكمت عليه ، فانما ذلك بحكمة تامة ، ورحمة عامة وخاصة» ثم قال « حم » أى ان من يفعل ذلك يجب أن يحمد فاحمدوه ، وهذا كالنتيجة للمقدمات السابقة المذكورة بعد قوله « فلله الحمد » ، فكأنه استدل على اختصاص الحمد به بما تقدم ، وختم الاستدلال بالنتيجة ، وهى أنه يجب حمده بقوله « حم » وبهذا البيان صارت هذه السورة وماقبلها فى نمط واحد ، وسلك منتظم ، ونسق واحد ، لاتغيير فيه ، ولذلك ترى ذكر العزّة والحكمة هنا كما ذكرا فى آخر السورة .

يقول الله : الكبرياء لى فى السموات والأرض ، وأنا الغالب القاهر ، المحكم لعملى ، المتقن لصنعى فى السموات والأرض ، وفى تنزيل القرآن ، فاذا أنا قهرت المادّة وأحكمتها ، فهكذا فعلى فى القرآن أقهر من لايؤمن به فأنتقم منه ، وقد أنزلته بحكمة ، ففعلى بحكمة وقولى بحكمة ، إن (آل حم) أوّلها وآخرها ملتبسان بالحمد ، فأوّل (آل حم) مسبوقة بالحمد وآخرها كذلك ، فهذه السور فيها المقام المحمود ، والمقام المحمود مبناه العلم . ثم قال تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * ماخلقنا السموات والأرض ومابينهما إلا بالحقّ وأجل مسمى) أى خلقا ملتبسا بالعدل وهو ماتقتضيه الحكمة والمعدلة ، و بتقدير أجل مسمى لكل مخلوق ينتهى اليه أجله ، ومدة بقائه ، فلانبات ، ولاحيوان ، ولاانسان ، ولاجبل ، ولا كوكب ، ولاجامدا ، ولاسائلا إلا لها آجال تنتهى اليها ، وهذا معلوم مشاهد . يقول الله : إن خلق السموات والأرض وخلق مابينهما مصحوب بالحقّ ، قائم بالعدل والنظام ، ومن النظام أن تكون الآجال معلومة مقدرة لكل نوع ولكل فرد ولكل كوكب ولكل شمس ولكل روح ، وهذا مشاهد معلوم ، فان النظام يعلمه الحكماء ، وهكذا الآجال معلومة لله والناس يرون أنه لاموجود فى هذا العالم دائم ، واذا كان الأمر كذلك فليكن ذلك دليلا اقناعيا ان لهذه العوالم كلها ، حقيرها وجليلها ، يوما يكون موعدا للجميع ، وهو يوم القيامة ، وهذا يفيده النظام ، إذ النظام يقضى أن يكون هذا العالم لغاية وحكمة ، وأن لايستوى المحسن والمسىء (والذين كفروا عما أنذروا) أى عما أنذروه من هول ذلك اليوم الذى لابد لكل مخلوق من الانتهاء اليه (معرضون) لايؤمنون به ، ولايستعدّون له ، ولايتفكرون فيه ، فلابالكتاب المنزل وانذاره اعتبروا ، ولا بما يشاهدون فى العالم من النظام والحكمة فكروا ، فهم قاصرون سمعا و بصرا ، فلاهم بسماع الوحى متعظون ، ولا بالنظر فى العالم المشاهد يتذكرون (قل أرأيتم ماتدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أوأثارة من علم إن كنتم صادقين) أى أخبرونى عن حال آلهتكم بعد تأمّل فى خلق السموات والأرض ومابينهما ، والنظام الشامل لهما ، والحكمة السائرة على نظام واحد فيهما ، و بعد تأمّل فى حال آلهتكم هل يعقل أن يكون لها مدخل فى خلق شىء من أجزاء هذا العالم فتستحق به العبادة

ولوكان لها دخل لظهرفى هيئة المخلوقات وصارهناك تفاوت بين أجزاء النظام ، ولكن نظام العالم واحد يستمد أدناه من أعلاه ، فكأنه حيوان واحد ، أوانسان واحد ، حتى ان كل كوكب أومجموعة كواكب من الثوابت تفيد أهل الأرض علما بسير سفنهم ، وسير قوافلهم فى البحر والبرّ ، فكل النظام مرتبط بعضه ببعض ، وكأن كل فرد واحد مخدوم بجميع الأفراد فى الأرض ، وكأن كل كوكب يخدمه سائر الكواكب على نحو مّا وهيئة مّا ، فلوكان هناك شركاء لاختلف النظام ، ولاختلّ اختلالا مبينا ، وهذا هو قوله تعالى : « أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات » ثم طلب منهم أن يؤتوا بدليل على هذا الشرك المدّعى بكتاب موحى به من قبل القرآن « أوأثارة من علم » أى بقية من علم بقيت عليهم من علوم الأوّلين هل فيها مايدل على استحقاق العبادة لهؤلاء الأصنام ، ومعلوم أن الدليل إما من الوحى ، واما من العقل ، فأما الوحى فأين الكتاب قبل القرآن الذى فيه أنهم شركاء ، وأماالعقل فأين بقية علوم العلماء المفكرين فى خلق السموات والأرض ، ومعلوم انهم قد أيقنوا بوحدة النظام ، فالفلاسفة مجمعون على حسن النظام ووحدته ، والوحى جاء بالتوحيد ، فهذا قوله : « قل أرأيتم » الى قوله : « إن كنتم صادقين » لأن الصدق فى الدعاوى بالبراهين ، والبرهان هنا جاء على ضد مازعموا فليسوا بصادقين ، ثم بين ضلالهم . فقال : (ومن أضلّ ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له) يعنى الأصنام لاتجيب عابديها الى شىء يسألونها (الى يوم القيامة) فهى لاتجيب أبدا مادامت الدنيا (وهم عن دعائهم غافلون) فهم إما جمادات ، واما عبادمسخرون مشتغلون بأحوالهم (واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء) يضرّونهم ولاينفعونهم (وكانوا بعبادتهم كافرين) مكذبين ، إما بلسان الحال ، واما بلسان المقال . انتهى تفسير المقصد الأوّل من السورة .

المقصد الثانى

.وهو الذى فيه ذكر معارضات النبوّة والاجابة عليها

قال تعالى (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات) واضحات ، أومبينات (قال الذين كفروا للحقّ) أى لأجله وفى شأنه ، والحق المراد به الآيات المذكورة ، والذين كفروا هم المتلوّ عليهم ، وذلك لتسجيل الحق على الآيات والكفر عليهم لشدة انهماكهم فى الضلالة (لما جاءهم) أى بادءوه بالجحود ساعة أتاهم وأوّل ماسمعوه من غير نظر ولافكر (هذا سحرمبين) ظاهر أمره فى البطلان ، ثم أضرب عن ذكر تسميتهم الآيات سحرا الى ذكر قولهم ان النبىّ ﷺ افتراه واختلقه وأسنده الى الله كذبا . فقال : (أم يقولون افتراه) أى بل أيقولون (قل) يامحمد (ان افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا) أى لاتقدرون أن تردّوا عنى عذابه إن عذبنى على افترائى فكيف أفترى على الله من أجلكم (هوأعلم بما تفيضون فيه) تندفعون فيه من القدح فى آياته والتكذيب وقولكم انه سحر (كفى به شهيدا بينى و بينكم) يشهد لى بالصدق وأن القرآن من عنده و يشهد عليكم بالانكار والكذب ، وهذا وعيد لهم على افاضتهم فى القرآن (وهوالغفورالرحيم) لمن تاب وآمن منكم ، وهذا فتح لباب الرحمة ليؤمنوا بعد الانذار السابق بالكفر (قل ماكنت بدعا من الرسل) بديعا منهم أدعوكم الى مالايدعون اليه ، ولقد سبقنى كثير من الأنبياء وأنا أدعوكدعوتهم فكيف تنكرون نبوّتى ، أوماكنت بدعا من الرسل أقدر على مالم يقدروا عليه وهو أنهم يأتون بكل مايقترح عليهم . كلا . وانما ذلك باذن الله ، فليس لى من الأمر شىء ، و يؤيد هذا المعنى قوله (وما أدرى مايفعل بى ولابكم) فى الدارين تفصيلا ، فما الغيب إلا لله (ان أتبع إلا مايوحى الىّ) لا أتجاوزه (وما أنا إلا نذير) من عقاب الله (مبين) بين الانذار بالشواهد المبينة والمعجزات الصادقة ، فلست أتجاوز ذلك الى الاخبار بالغيب عما يقترحه

المشركون

المشركون ، أوأخبر بأمرى وأمر أصحابى ، أأترك فى مكانى أم أخرج أنا وهم الى أرض ذات نخل كما رأيت فى منامى ، فلست أعلم بتفصيل شىء من ذلك كله (قل أرأيتم ان كان) القرآن (من عند الله وكفرتم به) وقوله (وشهد شاهد من بنى اسرائيل) وهوعبد الله بن سلام (على مثله) أى على نحوذلك وهوكونه من عند الله (فآمن واستكبرتم) هذه الجملة كلها عطف على جملة «كان من عند الله» الخ وجواب الشرط محذوف ، أى ألستم ظالمين ، ويدل عليه قوله (إن الله لايهدى القوم الظالمين) . يقول تعالى : اخبرونى ان اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به ، واجتمع شهادة أعلم بنى اسرائيل على نزول مثله مع استكباركم عنه وعن الايمان به ، ألستم أضلّ الناس وأظلمهم ؟ (وقال الذين كفروا للذين آمنوا) لأجلهم (لوكان) الايمان (خيرا ماسبقونا اليه) وهم سقاط فقراء مثل عمار وصهيب وابن مسعود من العرب ، ومثل عبدالله بن سلام من اليهود (و) ظهرعنادهم (إذ لم يهتدوا به) وهذا سبب فى افترائهم إذ يقولون انه إفك قديم ، وهذا هوقوله (فسيقولون هذا إفك قديم) وكيف يكون إفكا قديما (ومن قبله) أى القرآن (كتاب موسى) وهوالتوراة حال كونه (إماما ورحمة وهذا) القرآن (كتاب مصدّق) لكتاب موسى وغيره فكيف يكون إفكا قديما ، إذن هوصدق قديم لاإفك حال كون الكتاب (لسانا عربيا) والتوراة عبرى فتصديق الأوّل للثانى دليل على اتحادهما صدقا واتحاده مع ماقبله أوكد فى الصدق ، فبطل كونه إفكا قديما وثبت الصدق القديم ، وقوله (لينذر) أى ليخوّف متعلق بقوله «مصدّق» (الذين ظلموا) أشركوا (وبشرى للمحسنين) أى للانذار وللبشارة . انتهى المقصد الثانى .

المقصد الثالث

فى أهل الاستقامة الذين وحدوا وصدّقوا بالنبوّة ، وأن جزاءهم الجنة ، وذكر بعض وصايا تتعلق بالمؤمنين من اكرام الوالدين ، وذكر المحاورات بين الوالدين والمولودين الى آخر ماقدّمناه

قال تعالى : (إنّ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) جمعوا بين فضيلتى العلم والعمل الذى هو نتيجة العلم الذى هو أشرف منه ، فلذلك قدّم عليه (فلاخوف عليهم) مما يلحقهم فى المستقبل (ولاهم يحزنون) على فوات محبوب (أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) من التحلية بالعلم والعمل ، وجزاء مصدرأى جوزوا جزاء الخ (ووصينا الانسان بوالديه) أى وصيناه بأن يحسن بوالديه (احسانا) أو وصيناه بوالديه أمرا ذا حسن أى بأمر ذى حسن ، فهو بدل اشتمال من قوله «بوالديه» وفيه قراءتان كما عرفت ثم ذكر سبب هذه التوصية ، وخص الكلام بالأمّ لأنها أضعف وأولى بالرعاية وفضلها أعظم (حملته أمّه كرها) أى حملا ذا كره (ووضعته كرها) وهوالمشقة فيهما (وحمله وفصاله) أى ومدة حمله وفصاله أى فطامه (ثلاثون شهرا) وفى أثناء ذلك تكابد أمه الآلام فى التربية ، ويؤخذ منه أن أقلّ مدة الحمل ستة أشهر لأننا نعتبر مدة الارضاع حولين كاملين لقوله تعالى : «حولين كاملين لمن أراد أن يتمّ الرضاعة» فلم يبق للحمل إلا ستة أشهر ، وبذلك يعرف أقلّ الحمل وأكثرالرضاع لتحقق حكم النسب والرضاع * ويروى عن ابن عباس أنه قال : «اذا حملت المرأة تسعة أشهرأرضعت أحدا وعشرين شهرا ، واذا حملت ستة أشهرأرضعت أربعة وعشرين شهرا» ، (حتى اذا بلغ أشدّه) جمع شدّة عند سيبويه وهوجمع لاواحد له من لفظه عند غيره ، أى حتى اذا اكتهل واستوفى السنّ التى تستحكم فيها قوّته وعقله ، وذلك فيما بين الثلاثين والأربعين ، وقوله (وبلغ أربعين سنة) بيان لنهاية تلك المدّة (قال ربّ أوزعنى) ألهمنى (أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ) من التوحيد والاسلام (وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذرّيتى) أى واجعل لى الصلاح ساريا فى ذرّيتى راسخا فيهم (إنى تبت اليك) عما لاترضاه ، أوعما يشغل عنك (وانى من المسلمين)

المخلصين لك (أولئك الذين تتقبل عنهم أحسن ماعملوا) أى أعمالهم الصالحة التى عملوها فى الدنيا فالأحسن بمعنى الحسن فيثيبهم عليها (ونتجاوز عن سيئاتهم) فلا نؤاخذهم بها لتوبتهم حال كونهم (فى أصحاب الجنة) أى مع أصحاب الجنة ، ولما كان قوله « تتقبل » . « ونتجاوز » وعدا لهم أكده فقال : (وعد الصدق الذى كانوا يوعدون) فى الدنيا . وهذه الآية تنطبق على سعد بن أبى وقاص وعلى أبى بكر الصدّيق اللذين قيل فى كل منهما انها نزلت فيه وتنطبق على كل مؤمن ، فهوموص بوالديه وأمه حملته ووضعته كرها ، وأرضعته حولين ، وهومأمور أن يشكر نعمة الله عليه ، وعلى والديه ، وأن يعمل صالحا ، وأن يسعى فى إصلاح ذرّيته . كل ذلك بالجدّ فيه ودعاء الله أن يوفقه له ، فهذا له الجنة ، وأما من اتصف بضد ذلك ، فهو من يأتى وصفه ، وهو : (والذى قال لوالديه) إذ دعواه الى الايمان بالله والاقرار بالبعث بعد الموت ، وهومبتدأ خبره ماسيأتى : « أولئك الذين حقّ عليهم القول الخ » وهذا القائل يعمّ كل كافر عاق لوالديه مكذب بالبعث ، وليس خاصا بعبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنه ، إن صحّ أنها نزلت فيه قبل اسلامه ، ومقول القول (أفّ) وهى كلمة للتضجر كما أن كلمة « حس » للتوجع ، وهذا التأفيف كائن (لكما) خاصة ، ولأجلكما دون غيركما (أتعداننى أن أخرج) أبعث (وقد خلت القرون من قبلى) فلم يرجع واحد منهم (وهما يستغيثان الله) يقولان الغياث بالله منك ، أو يسألانه أن يغيثه بالتوفيق للايمان حال كونهما يقولان له (ويلك) وهو دعاء بالثبور ، والمراد به الحضّ على الايمان لاحقيقة الهلاك (آمن) بالله والبعث (إنّ وعد الله) بالبعث (حقّ فيقول) لهما (ماهذا إلا أساطير الأوّلين ✲ أولئك الذين حقّ عليهم القول) أى « لأملأنّ جهنم » الخ (فى أمم) فى جملة أمم (قد خلت) مضت (من قبلهم من الجنّ والإنس انهم كانوا خاسرين ✲ ولكل) من الأبرار والفجار المذكورين فى هذا المقام (درجات مما عملوا) أى منازل ومراتب من جزاء ماعملوا (وليوفيهم أعمالهم) أى جزاءها (وهم لايظلمون) بنقص فى ثواب ، أوزيادة فى عقاب (ويوم يعرض الذين كفروا على النار) أى يعذبون فيها من قولهم : عرض بنوفلان على السيف اذا قتلوا به ، ويوم متعلق بفعل محذوف أى يقال لهم (أذهبتم طيباتكم) لذائذكم (فى حياتكم الدنيا) باستيفائها (واستمتعتم بها) فما بقى لكم منها شىء (فاليوم تجزون عذاب الهون) أى الهوان (بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) أى باستكباركم الباطل وفسقكم . انتهى المقصد الثالث .

المقصد الرابع

قال تعالى : (واذكر أخا عاد) أى هودا (إذ أنذر قومه بالأحقاف) جمع حقف ، وهورمل مستطيل مرتفع فيه انحناء ، من احقوقف الشىء اذا اعوجّ ، وهو واد بين عمان ومهره ، وقيل كانت منازل عاد باليمن فى حضرموت بموضع يقال له مهره ، وكانوا أهل عمل سيارة فى الربيع فاذا هاج العود رجعوا الى منازلهم ، وكانوا من قبيلة إرم ، وسيأتى إيضاح هذا المقام إيضاحا تاما ، ثم قال تعالى (وقد خلت النذر) الرّسل جمع نذير أى المنذر (من بين يديه ومن خلفه) قبل هود وبعده (ألا تعبدوا إلا الله) أى لاتعبدوا ، أو بألا تعبدوا (إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) هائل بسبب شرككم (قالوا أجئتنا لتأفكنا) لتصرفنا (عن آلهتنا) عن عبادتها (فأتنا بما تعدنا) من العذاب على الشرك (إن كنت من الصادقين) فى وعدك (قال إنما العلم عند الله) لاعلم لى بوقت عذابكم (وأبلغكم ما أرسلت به) اليكم (ولكنى أراكم قوما تجهلون) لاتعلمون أن الرسل بعثوا منذرين ، فلايقترحون ، ولايسألون غير ما أذن لهم (فلما رأوه عارضا) حال كونه سحابا عرض فى أفق من السماء (مستقبل أوديتهم) متوجها اليها (قالوا هذا عارض ممطرنا) أى يأتينا بالمطر قال هود : (بل هو ما استعجلتم به) من العذاب ، ثم فسره فقال : (ريح فيها عذاب أليم ✲ تدمّر كل شىء) تهلك من نفوس عاد وأموالهم الكثيرة (بأمر ربها) ربّ الريح (فأصبحوا لاترى إلا مساكنهم) أى

فأتتهم الريح فدمرتهم ، فصاروا بعد الهلاك لايرى إلا آثار مساكنهم ، لأن الريح لم تبق منها إلا الآثار والمساكن معطلة (كذلك نجزى القوم المجرمين) وذلك تخويف لأهل مكة (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه) أى فى الذى ما مكناكم فيه ، فهم كانوا أكثر منكم عددا وأشد قوة (وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة) ليعرفوا نعمنا عليهم ويشكروها (فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولاأفئدتهم من شيء) من الاغناء وهوالقليل ، وقوله : (إذ كانوا يجحدون بآيات الله) الظرف منصوب بما أغنى ، وهو يجرى مجرى التعليل تقول ضربته حيث أساء ، أواذ أساء ، تريد تخصيص الوقت بالضرب لوجود الاساءة فيه ، وقد غلب هذا فى إذ وحيث ، ومنه مايجرى فى أحكام القضاء بمصر إذ يقال حيث حصل كذا ، وحيث حصل كذا حكمنا بكذا ، فحيث متعلق بحكمنا فى معنى التعليل (وحاق بهم) نزل بهم (ما كانوا يستهزئون) أى جزاء استهزائهم ، هكذا ستكون حالكم يا أهل مكة ، ثم أخذ يذكر أهل مكة فقال (ولقد أهلكنا ماحولكم من القرى) كحجر ثمود وقرى قوم لوط (وصرّفنا الآيات) كرّرنا عليهم الحجج ، وأنواع العبر (لعلهم يرجعون) عن الطغيان الى الايمان فلم يرجعوا (فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة) أى هلا منعهم من الهلاك آلهتهم الذين يتقرّبون بهم الى الله حيث قالوا : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، وقوله : « اتخذوا » أى اتخذوهم ، وآلهة مفعول ثان ، وقربانا حال (بل ضلوا عنهم) غابوا عن نصرتهم (وذلك إفكهم وما كانوا يفترون) أى وامتناع نصرة آلهتهم وضلالهم عنهم أثر إفكهم الذى هو اتخاذهم إياها آلهة ، وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب . انتهى المقصد الرابع .

المقصد الخامس

اعلم أن بعض علمائنا يقولون : « إن الجنّ فرق وملل كأهل الأرض من الإنس ، ففيهم اليهود والنصارى ، والمجوس ، وعبدة الأوثان ، وفى المسلمين منهم المبتدعة ، ومن يقول بالقدر ، وبخلق القرآن ، وأجمع علماؤنا المحققون أنهم مكلفون »

وسئل ابن عباس : هل للجنّ ثواب ؟ قال نعم ، لهم ثواب وعليهم عقاب .

كيف كانوا يسمعون قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) يقال إن الجنّ كانت تسترق السمع ، فلما حرست السماء عجبوا ودهشوا ، وأرسلوا سبعة نفر ، أوتسعة من أشراف جنّ نصيبين أونينوى ، فضربوا حتى بلغوا تهامة ، ثم اندفعوا الى وادى نخلة فسمعوا قراءة رسول الله ﷺ وهوقائم فى جوف الليل ، أوفى صلاة الفجر .

(٢) ويقول سعيد بن جبير : ماقرأ رسول الله ﷺ على الجنّ ولارآهم ، وانما كان يتلو فى صلاته ، فمرّوا به فوقفوا مستمعين وهولايشعرفأنبأه الله باستماعهم ، وهذا القول كالذى قبله

(٣) وقيل بل أمر رسول الله ﷺ أن ينذرالجنّ ويقرأ عليهم ، فصرف اليه نفرا منهم ، فقال انى أمرت أن أقرأ على الجنّ الليلة ، فمن يتبعنى ؟ قالها ثلاثا ، فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : لم يحضره ليلة الجنّ أحد غيرى ، فانطلقنا حتى اذا كنا بأعلى مكة فى شعب الحجون فخط لى خطا وقال لاتخرج منه حتى أعود اليك ، ثم افتتح القرآن ، وسمعت لغطا شديدا ، فقال لى رسول الله ﷺ هل رأيت شيئا ؟ قلت نعم ، رجالا سودا ، فقال : أولئك جنّ نصيبين ، وكانوا اثنى عشرألفا ، والسورة التى قرأها عليهم « اقرأ باسم ربك الذى خلق الخ » .

وهذا قوله تعالى (و) اذكر (إذ صرفنا اليك نفرا من الجنّ يستمعون القرآن) أى أملناهم اليك ،

والنفردون العشرة ، وجمعه أنفار (فلما حضروه) أى الرسول (قالوا) قال بعضهم لبعض (أنصتوا) اسكتوا مستمعين (فلما قضى) أتم وفرغ من قراءته (ولوا الى قومهم منذرين) إياهم بما سمعوا ، و بين ذلك الانذار فقال (قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى) وقد كانوا يهودا ، واليهود يكفرون بعيسى (مصدّقا لما بين يديه) من الكتب (يهدى الى الحق) الى الله تعالى (والى صراط مستقيم ✡ ياقومنا أجيبوا داعى الله) محمدا ﷺ (وآمنوا به يغفرلكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم) أى يغفرلكم ربكم ذنوبكم فى الجاهلية و ينجيكم من عذاب وجيع ، ثم قال تعالى (ومن لايجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض) أى لاينجى منه مهرب (وليس له من دونه أولياء) يمنعونه منه (أولئك فى ضلال مبين) حيث أعرضوا عن إجابة من هذا شأنه (أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن) ولم يتعب ولم يعجز (بقادر على أن يحيي الموتى) أى قادر (بلى) جواب للنفى (إنه على كل شىء قدير ✡ ويوم يعرض الذين كفروا على النار) يقال لهم (أليس هذا بالحق) والاشارة الى العذاب (قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) بكفركم فى الدنيا ، ومعنى الأمر هنا الاهانة والتوبيخ لهم . انتهى المقصد الخامس .

المقصد السادس

قال تعالى (فاصبركما صبرأولوا العزم من الرسل) أولوالثبات والجدّ منهم ، فانك من جلتهم ، ومن للتبعيض وأولوالعزم المذكورون فى الأحزاب نوح وابراهيم وموسى وعيسى ، فهؤلاء هم أصحاب الشرائع الذين أسسوها وصبروا على تحمل المشاق ومعاداة الطاعنين فيها ، و بعضهم جعل منهم يعقوب و يوسف وأيوب وداود لصبرهم (ولا تستعجل لهم) لكفارقريش بالعذاب فانه نازل بهم فى وقته لامحالة (كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) فهم يستقصرون حينئذ مدة لبثهم فى الدنيا حتى يحسبوها ساعة من نهار ، وهذا (بلاغ) أى هذا الذى وعظتم به لغاية فى الموعظة (فهل يهلك) هلاك عذاب أى فلن يهلك بعذاب الله (إلاالقوم الفاسقون) المشركون الخارجون عن الاتعاظ به ، والعمل بموجبه . انتهى التفسير اللفظى .

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا .
(٢) « « : واذكر أخا عاد .
(٣) « « : وإذ صرفنا اليك نفرا من الجنّ .
(٤) « « : أولم يروا أن الله الذى خلق الخ .
(٥) « « : فاصبركما صبر أولوا العزم الخ ،

اللطيفة الأولى

فى قوله تعالى : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا الخ

(١) لقد مرّ فى بعض سور الربع الثالث من القرآن حكاية الربيع بن زياد وعمر رضى الله عنه ، وقد حضرالأوّل مع أبى موسى الأشعرى من البحرين بأمر عمر رضى الله عنه ، وكان عاملا لأبى موسى فلما مثلوا بين يدى الخليفة صوّب وصعد ، ثم صوّب وصعد ، فلم يعجبه غيرالربيع من الولاة الذين ولاهم أبوموسى لأنه تزيا بالزى الذى يرضاه بإشارة يرفأ خادم الخليفة ، ولما جلسوا على المائدة لم يجد رجلا منهم قد أكل بشهوة إلا هو ، وكان الطعام ليس مما يسرّ المترفين ، فظنّ أن ذلك

طبع فيه ، فأخذ يكلمه ، فرأى الربيع أن ذلك فرصة ، فكلمه فى أمر الطعام ، وانه كان الأليق أن يكون أنعم من هذا وأوفق لصحة أمير المؤمنين ، فزجره ، ثم قال : لوشئت لملأت هذه الأفنية من رقيق الطعام ولذيذه ، ولكنى رأيت الله ذمّ قوما فقال : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا الخ انتهى ملخصا بالمعنى . فانظر كيف كان يفهم الصحابة فى القرآن ، ولم يجعلوا الآية موجهة الى الكفار فقط كما يظنّ أكثر المسلمين اليوم ، فغاب عنهم كتاب الله تعالى .

(٢) اعلم أن الذى لايريد من الحياة إلا اللذات يفقد اللذات ، فاذا قال الله تعالى : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون الخ فاعلم أن هذا القول صدى فى هذه الحياة الدنيا ، ولذلك نجد النهم ، وكثير الشبق يحرمان من اللذات متى انكبا عليها ، وانظر الى قول سقراط : « إنّ العفيف يتمتع باللذات ، ويحرم منها من ليس عفيفا . وضرب مثلا ، فقال : ألم تر الى من يكثر شرب الماء كيف يحرم لذة الماء ، فأما من عطش فانه يستلذ ، هكذا جميع اللذات . أقول : إن أكثر الناس فى الدنيا غافلون نائمون .

(٣) جاء فى البخارى ومسلم والنسائى عن أبى سعيد رضى الله عنه . قال : جلس رسول الله ﷺ على المنبر ، وجلسنا حوله ، فقال : إن مما أخاف عليكم مايفتح عليكم من زهرة الدنيا (أى حسنها) وزينتها ، فقال رجل : أو يأتى الخير بالشرّ ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، ورأينا أنه ينزل عليه ، فأفاق يمسح الرحضاء أى العرق الكثير ، وقال : أين هذا السائل ؟ وكأنه حمده ، فقال : انه لا يأتى الخير بالشرّ ، وان مما ينبت الربيع مايقتل حبطا (نفخا ، يقال حبط بطنه اذا انتفخ فهلك) أويلم إلا آكلة الخضر (١) فانها أكلت حتى اذا امتدّت خاصرتاها فاستقبلت عين الشمس فثلطت (ثلط يثلط (٢) ألقى رجيعه سهلا رقيقا) وبالت ثم رتعت وان هذا المال خضر حلو ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل ، وان من يأخذه بغير حقه كمن يأكل ولا يشبع ، ويكون عليه شهيدا يوم القيامة اه

وملخص الحديث أن المال وكل ماعلى الأرض خير ، وهذا أشبه بالعشب النابت فى الأرض بالمطر ، فمن البهائم ماتستضرّ بأكله فتنتفخ وتموت ، ومنها ماتأكل وتستريح ، وقد وافقها النبات ، فالعيب ليس من نفس النعمة بل العيب من المنعم عليهم ، فاذا كثر المال ، فان جعل للكنز أضرّ بصاحبه ، وان جعل للاحسان والمنافع العامة نفع صاحبه ، فالمال فى حدّ ذاته ليس شرّا ، بل الشرّ والخير يرجعان للاستعمال وللمستعمل نفسه . وفى البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب . قال : دخلت على رسول الله ﷺ فاذا هو متكئ على رمال حصير ، قد أثر فى جنبه . فقلت : أستأنس يارسول الله ؟ قال نعم ، فجلست فرفعت رأسى فى البيت ، فوالله مارأيت فيه شيئا يردّ البصر إلا أهبة ثلاثة ، فقلت : ادع الله أن يوسع على أمتك ، فقد وسع على فارس والروم ولايعبدون الله ، فاستوى جالسا ، ثم قال : أفى شكّ أنت يا ابن الخطاب ؛ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا ، فقلت : استغفر لى يارسول الله . وفى البخارى ومسلم أيضا عن عائشة . قالت : ماشبع آل محمد من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ . وفى رواية أخرى . قالت : « إنا كنا لننظر الى الهلال ، ثم الهلال ، ثم الهلال ، ثلاثة أهلة فى شهرين ، وما أوقد فى أبيات رسول الله ﷺ نار . قال عروة : ياخالة فما كان يعيشكم ؟ قالت الأسودان التمر والماء ، إلا انه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار ، وكانت لهم منائح ، فكانوا يرسلون الى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا . وعن ابن عباس رضى الله عنهما . قال : « كان رسول الله ﷺ يبيت الليالى المتتابعة طاويا ، وأهله

(١) الخضر بضم الخاء (٢) يثلط كينصر

لايجدون عشاء ، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير» أخرجه الترمذى .

وفى البخارى عن أبى هريرة . قال : لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفة مامنهم رجل عليه رداء ، إما إزار واما كساء ، قد ربطوا فى أعناقهم ، فنها مايبلغ نصف الساقين ، ومنها مايبلغ الكعبين ، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته .

وفى البخارى أيضا عن ابراهيم بن عبد الرحمن أن عبد الرحمن بن عوف أتى بطعام وكان صائما . فقال : قتل مصعب بن عمير ، وهو خير منى ، فكفن فى بردة ، إن غطى رأسه بدت رجلاه ، وان غطى رجلاه بدا رأسه . قال وأراه قال : قتل حمزة وهو خير منى ، فلم يوجد ما يكفن فيه إلا بردة ، ثم بسط لنا من الدنيا مابسط وقد خشيت أن تكون عجلت لنا طيباتنا فى حياتنا الدنيا ، ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام .

وقال جابر بن عبد الله : رأى عمر بن الخطاب لحما معلقا فى يدى ، فقال ماهذا ياجابر ؟ قلت اشتهيت لحما فاشتريته . فقال عمر : أوكلما اشتهيت ياجابر اشتريت ، أما تخاف هذه الآية : «أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا» انتهت اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : واذكر أخا عاد

قد تقدم الكلام على قوم عاد فى سابق التفسير . وسيأتى بسط الكلام فيها

اللطيفة الثالثة

فى الكلام على الجن وأنهم آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم

إن من اطلع على ماتقدم فى هذا التفسير يرى أن هذا الزمان هو الزمان الذى تظهر فيه أسرار القرآن ان الملائكة والجن وأمثالهما لايقوم عليها دليل عقلى ، وماهى إلا سمعيات ، والسمعيات لابرهان لها إلا السمع ، فأما العقل فهو بمعزل عنها ، فليس فى العقول أن هنا جنا تحيط بنا ولاملائكة ، فثل هذا القول نؤمن به بمجرد ايمان ونسكت ، هذا هو الذى عليه الرأى فى الأمة ، ولكن انظر الى الأمم المحيطة بالأمة الاسلامية اليوم ، انظر كيف أصبح قوله تعالى هنا : «واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا» الى آخره معقولا فى الأمم الاوروبية كما تقدم مرارا فى هذا التفسير ، واذا كان العلامة الرازى فى ﴿سورة ابراهيم﴾ يقول ناقلا عن قدماء الفلاسفة : «ان أرواح الناس بعد الموت تكون إما ملهمة للخير أو موسوسة بالشر للناس على مقتضى طباعها» ، وهكذا الغزالى ، واخوان الصفاء ، وغيرهم . فانظر اليوم الى أمم أوروبا وتأمل كيف أصبحوا يخاطبون الأرواح التى فارقت الأجساد ، وكيف يقولون انهم بعد الموت على ما كانوا عليه من أخلاق وآداب وديانات وعلوم وأحوال ، فالميت يموت ومعه جميع أخلاقه لم يفقد منها شيئا ، وانظر الى قول أكبر عالم طبيعى فى بلاد الانجليز وهو اللورد أوليفرلودج إذ يقول : «إن عالم هذه المدركات أى الأرواح ليس عالما غريبا عن عالمنا ، فان الكون واحد ، إن مداركنا ونحن هنا على الأرض محدودة ، فلانرى كثيرا من الامور التى تجرى ، ولكن تحيط بنا كائنات ، وتعمل معنا ، وتساعدنا ، قد عرفها قليل من الناس بعض المعرفة من الرؤى التى رأوها . وعندى أن كل ماتقول به الأديان من أن الملائكة والقديسين معنا ، وأن الله نفسه يساعدنا على وجهه من غير تأويل ، هذه الجملة نقلتها عنه فى كتابى المسمى ﴿الأرواح﴾ .

ثم إن السير أوليفرلودج من أشهر علماء الطبيعة فى هذا العصر ، وهو من المعتقدين أن أرواح الناس تخرج من أجسادهم وقتما يموتون ، وتلبس أجسادا روحية ، وتبقى فى الفضاء بوجدانها ومشاعرها وقواها

العقلية ، وتتصل ببعض الأحياء ، فيرونها بهذه الأجساد ويخاطبونها وتخاطبهم ، كأنها لم تزل بأجسادها الأرضية ، ويقول إن هذا الاعتقاد سيشيع قريبا ، إذ تكثر الأدلة على صحته ويزيد عدد الذين يخاطبون الأرواح فيتم الاتصال بين العالم الفانى والعالم الباقى ، أو بين الحياة الدنيا والحياة الأخرى .

كل هذا مذكور فى كتابى ﴿ الأرواح ﴾ المذكور ، وقد تقدم فى ﴿ سورة آل عمران ﴾ وغيرها .

موازنة بين علماء الاسلام وعلماء أوروبا فى هذا المقام

لقد قرأت فى تفسير السورة اللفظى الذى تقدم قريبا ما قاله سعيد بن جبير من أن النبى ﷺ كان يقرأ والجن يسمعون ، ولم يشعر هو بذلك ، وما قاله عبد الله بن مسعود انه خط له خطا ولزمه ، وقرأ النبى ﷺ والجن يسمعون ، وأن ابن مسعود رآهم . وأيضا يقول بعض علمائنا انهم أصناف ، فنهم اليهودى والمسلم ، والنصرانى ، والمجوسى الخ .

هذا ملخص ماتقدم ، وانظر الى علماء الأرواح كيف يقولون : « إن حولنا عوالم تحيط بنا ، فنهم من هم أرقى منا علما وأدبا ، ومنهم من هم مثلنا ، ومنهم أشرار ، ومنهم أخيار ، والأشرار والأخيار غير قاصرين على الأرواح التى خرجت من أجسام أهل الأرض ، ومعلوم أن الملائكة يمتازون عن الجن بامور أهمها أن الأولين كاملون ، والآخرين ناقصون ، ولقد علمت مما تقدم فى هذا التفسير أن أرواحنا بعد الموت فيها القسمان ، فنهم من يلحقون بعالم الملائكة أى انهم أخيار ، ومنهم من يلحقون بعالم الشياطين أى انهم أشرار ، ويقول علماء أوروبا : إن الاتصال بين عالم الأجسام وعالم الأرواح حاصل الآن بالاستحضار وسيكثر ذلك ، وانظر لهذه الآية وغيرها فان الاتصال قد تم بين النبى ﷺ و بين عالم الملائكة وعالم الجن »

فالأولون اتصل بهم فأوحى إليه على أيديهم ، والآخرون اتصل بهم فعلمهم ، وهل كان هؤلاء الجن من أرواح الناقصين من أهل الأرض كاليهود الذين ماتوا ، أوهم أرواح جاهلة لم تكن فى الأجسام ، وانما مذاهبها وأخلاقها مقتبسة من أخلاق أهل الأرض وآرائهم .

هذا مالانعلمه ، وانما مثل هذا يجب على الأمة الاسلامية بعدنا أن تجد فى بحثه ، وتنظر فى أمره ، لأن ذلك أجل العلوم وأشرفها ، وأى علم أشرف من أن نعرف مستقبلنا بعد هذه الحياة ، وأن ندرس العوالم التى هى أرقى منا والعوالم الأخرى ، ولقد جاء ذكر قراءة النبى ﷺ على الجن لندرس هذه المسائل ونفكر فيها ، والتفكير فيها باب العلم النافع ، فاذا شك المسلم واشتبه عليه أمر الجن ، ودهش من أن النبى ﷺ كان يقرأ على الجن ، فهذا مهماز من الله ، وسبب يسوقه الى الدراسة والعلم ، وقراءة علم الأرواح واستحضارها ، ومعرفة أحوالها ، وبهذا يرتقى العقل الانسانى ويستنير . إن المسلمين يمرون على مثل هذه الآيات مر الكرام ، ولكن الأجيال المقبلة سيدرسونها ، ويعرفون الحقائق بأنفسهم لا بتقليد الفرنجة الذين نقلنا عنهم ، ولقد مهد لنا أسلافنا فوجب علينا أن نمهد السبيل لمن بعدنا حتى يقفوا على الحقائق . انتهت اللطيفة الثالثة والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الرابعة

فى قوله تعالى : أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى الخ

اعلم أن الله ابتدأ السورة بما يتحقق منه المبدأ ، فههنا ختمت بما يثبت المعاد . انتهت اللطيفة الرابعة

اللطيفة الخامسة

فى قوله تعالى : فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل

هم ذوو الحزم ، والجدّ ، والصبر ، والرأى ، والعقل الكامل ، ويقال إن كل الرسل كانوا أولى عزم ، واستثنى بعضهم يونس ، وخصصهم بعضهم بالثمانية عشر المذكورين فى الأنعام الذين قال الله فيهم « فبهداهم اقتده » . وقيل هم ستة : نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم الصلاة والسلام . وبهذا تمّ الكلام على اللطيفة الخامسة والحمد لله رب العالمين .

بهجة العلم

فى قوله تعالى : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم » الى قوله : « كذلك نجزى القوم المجرمين »

فى هذا المقام فصلان

﴿ الفصل الأوّل ﴾ فى قوله تعالى : أذهبتم طيباتكم الخ .

﴿ الفصل الثانى ﴾ فى تحقيق الكلام فى أمر عاد ، وأين مساكنهم ، وفى الأحقاف ، وفى الخريطة الجامعة لديارهم ، وفى قبر هود وصالح عليهما السلام .

الفصل الأول فى قوله تعالى : أذهبتم طيباتكم الخ

هذه الآيات وما عماثلها فيها :

﴿ أوّلا ﴾ ذهاب الطيبات بالاستمتاع بها فى الحياة الدنيا .

﴿ ثانيا ﴾ المجازاة بالعذاب الهون بسبب الاستكبار فى الأرض بغير الحق ، و بسبب الفسق .

﴿ ثالثا ﴾ ضرب مثل لذلك بقصة عاد ، وأنهم كفروا ، فأهلكوا ، وأصبحوا لايرى إلا مساكنهم ، لأنهم مجرمون .

﴿ رابعا ﴾ جاء فى سورة « حم السجدة » أن عادا استكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشدّ منا قوّة .

﴿ خامسا ﴾ جاء فى سورة « القصص » أن فرعون اتصف بصفتين هما العلوّ فى الأرض والافساد فيها

﴿ سادسا ﴾ جاء فى نفس السورة نهى قارون عن الافساد فى الأرض .

﴿ سابعا ﴾ جاء فى آخر ﴿ سورة القصص ﴾ أن الدار الآخرة تجعل للذين لايريدون علوّا فى الأرض ولا فسادا .

فلننظر إذن فى هذه الآيات التى نحن بصددها . فنقول : ههنا قاعدة فى هذه السورة وهى أن الشهوات البهيمية ، والاستكبار فى الأرض ، والفسق فيها عاقبتها العذاب الهون ، ولما كانت عاد قد استكبروا فى الأرض بغير الحق كما تقدم ناسب أن يضرب بهم المثل فى ذلك كما جعل قارون مثلا لمن علوا فى الأرض ، وأفسدوا فهلكوا ، وهكذا فرعون .

هذا إجمال ماتريده فى هذا المقام ، واعلم أيها الذكيّ أرشدك الله ، وآتاك من لدنه علما أن القضايا الكلية مالم يؤت لها بالأمثال والحوادث الواقعة فقليلا ماتؤثر فى عقول الأمم ، واذا رأينا الله عزّ وجل يضرب لنا مثلا بعاد المستكبرين فى الأرض بغير الحق ، وانه أهلكهم بظلمهم واستكبارهم ، وعذبهم فى الدنيا وفى الآخرة

إذ

إذ قال : « لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون » .

ولاجرم أن هـذا القول كان مؤثرا أشدّ الأثر فى أفئدة الأمم العربية وهم آباؤنا لأنهم كانوا أقرب الى تلك الأمم ، ونحن اليوم نسمعه فى القرآن يتلى علينا ، والله يقول : « و يضرب الله الأمثال للناس » ، و يقول : « لتبين للناس مانزل اليهم ولعلهم يتفكرون » .

فلتكن قصة عاد وأمثالها ضرب مثل يتبعه أمثال متلاحقة ، ونسبة الدول الاسلامية الأموية والعباسية والتركية والطولونية والاخشيدية والأيوبية والفاطمية والبويهية والغزنوية الينا نحن الآن كنسبة عاد وثمود الى آبائنا أيام النبوّة ، فلئن اكتفوا بتلك الأمم فلأنهم أعرف بها منا ، وليس عندهم غيرها ، أما نحن فاننا لانعرف عن تلك الأمم مع بعدها الشاسع عنا إلا أنباء مجملة لاتفى بالمقصود ، فوجب أن نتبعها بأمثال من الدول الاسلامية لننظر فى ممالك الاسلام السابقة ، هل بغوا فى الأرض بغير الحق ، وهل أذهبوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا واستمتعوا فيها ؟ وهل ذاقوا عذاب الخزى فى الحياة الدنيا لما استمتعوا بالطيبات فيها ؟ وهل كان فى هذه الأمم قوم مخلصون صادقون يمكننا أن نقلدهم الآن ونتبع خطواتهم .

اذا وجدنا ذلك ، وأبنتاه فى هـذا التفسير ، واطلع عليه المسلمون ، فان ذلك موجب لسرعة ارتقاء هذه الأمة لأنهم يرون التطبيق على القاعدة حاضرا عندهم ظاهرا واضحا ، يقرءونه فى تاريخ الأمم القريبة منهم ، وهنالك يتمّ الأمر ، وتنتظم الأحوال ، ويفيد التاريخ حقا فائدته التامة ، فأما قراءة القرآن ، وفهمه ، ومعرفة القاعدة العامة ، والاقتصار فى التطبيق على الآثار البعيدة العامة ، وجهل الوقائع القريبة المعروفة للأمم الاسلامية ، فان ذلك معناه الجهل العام ، وتقلّ الفائدة العملية ، إن القواعد بلاتطبيق عليها كشجر بلاثمر ، وكأرض طيبة لم تزرع .

فهاأناذا أيها الذكىّ أفصل هذا المقام فى ﴿مبحثين : المبحث الأوّل﴾ فى أن اتباع الشهوات وعدم المحافظة على الصحة توجب ضعف الأجسام وعـدم الانتفاع بالحياة ﴿ المبحث الثانى ﴾ فى أن التبـذير فى الأموال والاسراف سبيل لهلاك الأفراد والأمم .

أما المبحث الأوّل ، وهو أن الاسراف فى المطاعم والمشارب يعذب الانسان عليها فى الحياة الدنيا بالأمراض وعـدم الانتفاع بالحياة فذلك واضح أشـدّ وضوح فى ﴿ سورة ص ﴾ ، إذ أبنت هناك كيف ظهر أن الطب الحديث يحرّض على ترك أنواع من الطعام متداولة بين الناس ، ويوجب الاقلال من الأغذية ، ويحتم الرياضة البدنية ، وهناك ترى أن سيرته ﷺ فى طعامه ، وسيرة أبى بكر وعمر وعلىّ ومن نحا نحوهم كانت أقرب الى الطب الحديث ، وأن ذلك موجب لقوّة الأبدان ، والاخلال بذلك يورث الخزى فى الحياة الدنيا بالأمراض والأمراض توجب الحرمان من نعم كثيرة لولاها لارتقى الانسان فى الآخرة درجات بأعماله ، وهناك ترى كيف كان لقدماء الفلاسفة آراء فى تربية الجند والملوك والأمراء ، وأن هذه الآراء لم يظهر لها أثر ما ، ولكن فى الصدر الأوّل من أممنا الاسلامية ظهرت آثار بطريق الوحى لا بالفلسفة التى لم يعمل بها أحد فى الأمم التى ظهر فيهم أولئك الفلاسفة ، فذلك فضلا عن كونه معجزة هو تطبيق على الآية هنا فى المبحث الأوّل من مبحثيها ولاأدلّ على ذلك من قول عمر رضى الله عنه للربيع بن زياد فيما مرّ بك : « لوشئت لملأت هـذه الرحاب صلائق وسبائك وصنابا ، ولكنى رأيت الله عزّ وجـل عير قوما . فقال : وأذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » الآية .

فلأقتصر فى المبحث الأوّل على هذا ففيه غنية لذى لب لاسيما اذا أضاف اليها ماجاء فى ﴿ سورة الشعراء ﴾ وطه والحجر والأعراف والبقرة من المسائل الطبية الواضحة هناك

المبحث الثانى

فى أن التبذير فى الأموال والاسراف سبيل لهلاك الأفراد والأمم

لما وصلت الى هذا المقام . قال لى صاحبى العالم الذى اعتاد أن يحادثنى فى هذا التفسير : لقد أجدت فى المبحث الأوّل ، أما المبحث الثانى فليس من حقك أن تكتب فيه شيئا ، بل يجب أن تشير اشارات الى ما كتبته فيما تقدم ، لقد جاء فى هذا التفسير العبر ، والمبتدأ والخبر ، بتقلب الدهر وضياع الأمم بجهلها وشرهها ، وهل بعد ماتقدم فى ﴿سورة النمل﴾ من شرح الأمم التى هلكت بظلمها ، و بعد ﴿سورة الاسراء﴾ ، و ﴿سورة سبأ﴾ وغيرها من المباحث التى بها ظهر أن أمم الاسلام التى نحن أبناؤها قد حلّ بها الوبال والهلاك بظلمها ، وليس بعد ماقلته فى أمم الاسلام قول لقائل ، فانك ضربت الأمثال فى أكثر السور بنفس التاريخ وشرحت شرحا وافيا ، فأصبح التعليم بذلك نافعا ناضجا ، وهل بعد ذلك قول لقائل ؟ إن ماتكتبه الآن لا يكون إلا تكرارا وتحصيل حاصل . فقلت :

أيها الذكىّ : إنى خطر لى أمس أمر عجب فى هذه الآيات ! فانى ما كدت أقرأ هذه الآيات ، وأعرض معناها على عقلى حتى حضرت فى نفسى القرون الأولى وحكمتها وشهواتها .

لقد والله استحضرت الأمم وحكماءها وملوكها ، كأنها كتاب أقرؤه ، وكأنها تفسير لكتاب الله تعالى فى هذا المقام .

أيها الذكىّ : إنى أعجب لقلبى ، وكيف تلوح له المعانى المختلفة فيراها موافقة . فقال لى : هذا الكلام مجمل ففصله ، وموجز فبينه ؟ فقلت : إن هذا القرآن قد أوضحته عقول الحكماء قبل نزوله ، وفسره الفلاسفة قبل الإيحاء به ، ثم فصلته وقائع الملوك بعد نزوله ، وأظهرته حوادث المسلمين فى الأزمان الغابرة . فقال : إن هذا إجمال فسرت به إجمالا ، وأظن أنى لم أصل للحقيقة ، فأنت فى مستوى الاجمال ، ولكن عقلى وفهمى فى مستوى التفصيل . فقلت : الآن أقول : إن الدين اذا نزل من السماء ، ثم جاء أتباعه فوجدوا العقول الكبيرة قد فصلته قبل نزوله بالبرهان ، ثم جاءت الحوادث بعد ذلك وفصلته ، فانه يكون دينا غاية فى العجب ! مزدوج البرهان .

انظر الى هذه الآية : «أذهبتم طيباتكم» الخ والى جمهورية أفلاطون ، أفليس من العجب أننا نرى أفلاطون فى كتابه الثالث من جمهوريته يقول ماملخصه تحت عنوان «دستور المدينة» :

قال : ولايجوز تشجيع مخاوف الموت فى قلوبهم باخبارهم أن الحياة فى العالم الآتى مظلمة ، ولا تمثيل صفات أكابر الرجال لبصرهم وسمعهم بصورة محقرة ، أومضحكة ، أودنية ، بل يجب أن تكون الشجاعة والحق وضبط النفس لحمة كل القصص المستعملة فى تهذيبهم وسداها . ثم قال : ان الصورة التى بها تزف القصص الى عقولهم تؤثر فى طبيعة نفوذها أعظم تأثير ، فيجب أن يكون قرض الشعر إما تمثيليا صرفا كما فى الرواية ، أوقصصيا صرفا كما فى خرية باخس ، أومركبا من النوعين كما فى الشعر القصصى ، ولايمكن الشخص الواحد أن يعمل أو يجيد تمثيل أشياء كثيرة ، فمن ثمّ ان أتيح لهم درس التمثيل فليقتصروا على تمثيل رجال الصفات السامية المحترمة ، والنسق الذى يستعمله أناس هذه الطبقة فى الالقاء وفى التأليف بسيط فعال يندر أن يتلبس بالتمثيل ، فهذا هو النسق الذى يجب أن يؤذن للحكام بأن يستعملوه فى إلقائهم ، والذى يتبعه الشعراء القائمون على تهذيبهم ، ويجب أن يسنّ لهم نظام شديد التدقيق فى الأغانى والألحان والآلات الموسيقية ، فلايسلم لأمة كاملة آلات موسيقية تنشىء فيها الرخاوة وتثبيط العزائم ، فيحظر عليهم كل الآلات الموسيقية إلا العود والقيثارة والزمر ، ويحظر عليهم أيضا كل الألحان المركبة ، والبسيط من هذه هو المباح لهم ،

وغرض كل هذه القوانين هو أن يتربى ويرتقي في عقول التلاميذ الشعور بالجمال والاتساق والاتزان ، وهي صفات تؤثر في سجيتهم ، وفي علاقاتهم المتبادلة .

وبعد مابحث سقراط بحثه السابق في الموسيقى الاغريقية تقدم للنظر في الجناستك . فقال : يجب أن يكون طعام الحكام بسيطا ومعتدلا وصحيا ، وذلك يغنيهم عن الاستشارة الطبية إلا في أحوال استثنائية ، وقد نخطئ في هذا الموقف اذا اعتبرنا أن نسبة الجناستك للجسد هي نفس نسبة الموسيقى للعقل ، ويجب القول أن الجناستك يراد لترقية العنصر الحماسي في طبيعتنا كما تراد الموسيقى لترقية العنصر الفلسفي ، وأقصى أغراض التهذيب إعداد هذين العنصرين ، ومزجهما معا على نسبة عادلة متزنة .

هذا مايقال في شأن تهذيب الحكام وتدريبهم ، فمن هذه الطبقة العالية يجب انتقاء القضاة ، ويلزم أن يكونوا من أكبر أعضاء الجسم الاجتماعي سنا ، وأوفرهم فطنة ، وأعظمهم جدارة ، وأعرقهم وطنية ، وأقلهم أنانية ، هؤلاء هم الحكام الحقيقيون ، والذين دونهم يسمون مساعدين ، ولكي تقنع الأمة بعدالة هذه الأنظمة وحكمتها ينبغي لنا أن نقص عليهم القصة التالية ، وهي : أنهم كلهم قدنسجوا أولا في أحشاء الأرض أمهم الكبرى ، وقد سرت الملائكة أن تمزج بجبلة بعضهم ذهبا ، وفي جبلة بعضهم الآخر فضة ، وفي غيرهم نحاسا وحديدا ، فالفئة الأولى هم الحكام ، والثانية المساعدون ، والثالثة الفلاحون والصناع ، ويجب رعاية هذا القانون وتخليده ، والا حل بالدولة الدمار .

وأخيرا يجب وقف محلة في المدينة لهؤلاء الحكام ومساعديهم يعيشون فيها عيشة شظف وتقتير ، ساكنين الخيام لا البيوت ، معتمدين على تبرعات الأهالي ، وأخيرا يجب أن لا يمتلكوا ملكا خاصا والا انقلبوا ذئابا بدل كونهم كلابا حارسة .

ثم قال سقراط : أفنحصر أنفسنا في مراقبة شعرائنا ، فنوجب عليهم أن يطبعوا منظوماتهم بطابع الخلق الجيد ، والافلاينظمون ، أونوسع نطاق مراقبتنا فتشمل أساتذة كل فن ، فنحظر عليهم أن يطبعوا أعمالهم بطابع الوهن والفساد والسفالة والسماجة ، سواء في ذلك رسوم المخلوقات الحية ، أوالأبنية ، أوأي نوع آخر من المصنوعات ، ومن لايستطيع غير ذلك فلننهه عن العمل في مدينتنا ؟ لكي لاينشأ حكامنا في وسط صور الرذيلة نشوء الماشية في مراع رديئة ، فتتسرب الأضرار الى نفوسهم فتفسدها بما تلتهم يوما فيوما من الأقوات من مختلف المواقع ، فيتجمع في نفوسهم مقدار وافر من الشر وهم لايشعرون ، وعلى الضد من ذلك أولا يجب علينا أن نستدعي فنيين من طراز آخر فيتمكنون بقوة عبقريتهم من اكتشاف أثر الجودة والجمال ، فينشأ شباننا بينهم كما في موقع صحي ، يتشربون الصلاح من كل مربع تنبعث منه آي الفنون ، فتؤثر في بصرهم وسمعهم كنسمات هابة من مناطق صحية فتحملهم منذ حداثتهم دون أن يشعروا على محبة جمال العقل الحقيقي ، والتمثل به ، ومطاوعة أحكامه .

غلوكون : إن ثقافة كهذه هي أفضل الثقافات .

سقراط : فلهذا ياغلوكون نعزو الى تهذيب الموسيقى شأنا خارقا ؟ فان الايقاع واللحن يستقران في أعماق النفس ويتأصلان فيها فيبثان فيها ماصحباه من الجمال ، فيجعلان الانسان حلو الشمائل اذا حسنت ثقافته ، والا كان الحال بالعكس ، ومن حسنت ثقافته الموسيقية ، فله نظر ثاقب في تبين هفوات الفن وفساد الطبيعة فيفندها ويمقتها مقتا شديدا ، ويهوى الموضوعات الجميلة ، ويفتح لها أبواب قلبه ، فيتغذى بها ، فينشأ شريفا صالحا ، واذا كان منه ذلك وهو بعد فتي دون سن الرشاد قبلما يبرز في تلك الامور حكما عقليا ، فانه متى بلغ رشده يزداد ولعا بها عن معرفة إذ تربى عليها وألفها .

غلوكون : لا أرتاب في أن هذه هي أغراض التهذيب الموسيقي . انتهى

ثم هاهوذا نراه فى صفحة ٧٩ فى النسخة المترجمة بالعربية يقول :

(١) يجب على حكام الدولة أن يتجنبوا المسكر، لأن الحاكم راع ، واذا سكر الراعى فمن ذا الذى يرعاه

(٢) إن الحاكم مجاهد مدة حياته ، فكيف يسكر المجاهدون وهم فى الميدان ؟

(٣) طعامهم يجب أن يكون بسيطا ، والا جلب لهم النعاس ، وهدد الصحة .

(٤) اذا حادوا عن أطعمتهم قيد أنملة انتابتهم الأمراض ، واشتد عليهم الخطر .

(٥) يجب أن يكون رجال الحرب يقظين كالكلاب الحارسة .

(٦) إن « هومروس » الشاعر المشهور وصف الجنود على ضفاف الدردنيل بأنهم شووا اللحم فقط ولم يسلقوه .

(٧) ويقول فى صفحة ٨٠ : اننى لا أستحسن طعام السيراتوسيسين ، ولا كثرة أنواع الطعام عند الصقليين .

(٨) وقال : أنكر على الرجال الذين يحبون أن يحرصوا على سلامة أجسادهم تسرى الفتيات (الكريديات) .

(٩) وأخذ يشنع على أهل أثينا تأنقهم فى صنوف الحلوى .

(١٠) ويقول أيضا فى صفحة ٨١ : إن هناك اتفاقا تاما بين تنوع الموسيقى ، وتنوع الطعام . فتنوع الموسيقى يجلب الفجور فى النفس ، وتنوع الطعام يولد عللا فى الجسد ، والبساطة فى التمرينات البدنية تولد فى الجسد صحة ، والبساطة فى الموسيقى تولد فى البدن عفة .

(١١) اذا انتشرت فى المدينة الأمراض ، وصور الفجور ، اضطر الناس لإنشاء المستشفيات ، ولانشاء المحاكم ، وهناك هناك يتيه الطب عجبا ، والحقوق تكبرا ، ويقف كثير من الشرفاء حياتهم على هذه المهن بوافر الرغبة ، وكثرة المستشفيات فى الأمة ، ووفرة القضاة فيها دليل على سوء تهذيب المدينة ، وانحطاط سكانها . وأى برهان أقطع على سوء تهذيبها من كثرة المستشفيات والقضاة !

(١٢) ما أكثر غرور الرجل الذى يضيع حياته بين مدع ومدعى عليه ويظن جهلا وغباوة أنه ماهر فى ارتكاب الكبائر ، وأستاذ فى الحيل ، والمواربة ، والدهاء والمكر بتملصه من قبضة العدالة والنجاة من براثن العقاب . وكل ذلك لأجل الحصول على أشياء طفيفة تافهة ، جاهلا أفضلية الحياة المنظمة المتسقة وجمالها ، فهى أفضل وأشرف من مثوله أمام قاض خامل .

(١٣) وقال سقراط فى صفحة ٨١ أيضا : إن الاحتياج إلى المعالجة الطبية عيب ، اللهم إلا ما كان لجرح ، أولمرض موسمى وافد . إن عارا علينا الاحتياج الى المعالجة الناشئة من كسلنا ، ونوع معيشتنا التى بها تملؤنا الرياح والأخلاط كما تملأ المياه القذرة الحمأة ، وتظهر أسماء جديدة للأمراض مثل قولهم : تطبل البطن ، الزكام الخ .

(١٤) وأخذ فى صفحة ٩١ يقسم الناس الى ثلاثة أقسام : ذهب وفضة وحديد ، وبرهن على أنه يجب أن يوضع كل امرئ فى مركزه ويقطع النظر عن مركز والده ، فالذهب حاكم ، والفضة تساعد ، والحديد فلاح . ولا يجوز الخلط ، فلا عبرة إلا بالاستعداد ، والنسب هنا لاقيمة له .

وقال سقراط : يلزم أن تكون الخيام كافلة وقايتهم من تأثير الاقليم صيفا وشتاء .

غلوكون : حسنا ، فيظهر أنك تعنى بها أن تكون بيوتا لا خياما ، هذا اذا لم أكن مخطئا فى ظنى

سقراط : نعم ، ولكن بيوتا عسكرية ، لا بيوت أغنياء .

غلوكون : فما الفرق بين هذه وتلك ؟

سقراط : سأريك ، فانّ من أفظع أعمال الرعاة ، وأدعاها الى الخزى فى الرعية أن كلابهم التى ربوها لحراسة القطيع تهجم على الأغنام ، إما لسبب جوعها ، أونهمها ، فتمزّقها بأنيابها ، فتكون ذئابا لا كلابا حارسة .

غلوكون : حقا انه أمر شائن .

سقراط : أفلايلزم الاحتياط لئلا يفعل مساعدو حكامنا هكذا بالأهلين ، لأنهم أقوى منهم فيصيرون وحوشا ضارية بدل كونهم حلفاء صادقين ؟

غلوكون : يلزم ذلك .

سقراط : أوَلايتسلحون بأفضل ضمان اذا تهذبوا تهذيبا حسنا ؟

غلوكون : لقد سبق أن سلمنا أنهم مهذبون .

سقراط : ليس من الضرورة ياعزيزى غلوكون الوقوف عند هذه النقطة ، ولكن الأمر الأجدر بأعظم أهمية هو الاصرار على ماقلناه ، وهو أنه يجب أن يهذبوا تهذيبا صحيحا مهما يكن من أمرهم ، اذا أريد بهم الحصول على أعظم مؤهلاتهم للحنان واللطف نحو رفاقهم ونحو الذين يحكمونهم .

غلوكون : حقّ .

سقراط : علاوة على ذلك التهذيب ، فان الرجل الحكيم يقول : « يجب أن تكون بيوتهم مما لايحول دون كونهم حكاما كاملين ، ولاتمكنهم من الاضرار بالآخرين » .

غلوكون : وبحقّ يقول .

سقراط : فاعتبر الرأى التالى : « أيوافق حياتهم وسكنهم اذا أريد أن يكونوا على ماذكرت من الأوصاف الامور التالية ؟ :

أوّلا — أن لايملك أحدهم عقارا خاصا مادام ذلك فى الامكان .

ثانيا — ولا يكون لأحدهم مخزن أومسكن يحظردخوله على الراغبين ، فليكونوا فى أسمى مايتطلبه الأعفاء الشجعان المدرّبون تدريبا حربيا ، ويجب أن يقبضوا من الأهلين دفعات قانونية أجرة خدمتهم بحيث لايحتاجون فى آخرالعام ولايستفضلون ، ولتكن لهم موائدمشتركة كما فى ثكنات الجنود ، وأن يخبروا أن الملائكة ذخرت فى نفوسهم ذهبا وفضة سماويين ، فلاحاجة فيهم الى الركاز الترابى ، وعيب عليهم أن يدنسوا بصناعة الملائكة السامية بمزجها بالذهب الفانى ، لأن نقود العامة فيها دخل كثير ، وهى مجلبة لكثيرمن الشرور ، ولكن ذهب الحكام السموى عديم الفساد ، فهم وحدهم من بين كل رجال المدينة مستثنون من مس الفضة والذهب ، فلايدخلونهما تحت سقفهم ، ولايحملونهما ، ولايشربون بكؤوس صيغت منهما ، وبذلك يصونون أنفسهم ودولتهم ، لكنهم اذا امتلكوا أراضى وبيوتا ومالا ملكا خاصا صاروا مالكين وزرّاعا عوض كونهم حكاما ، فيصيرون سادة مكروهين ، لاحلفاء محبوبين ويصبحون مبغضين ومبغضين ، يكاد لهم ويكيدون ، فيقضون الجانب الأكبر من حياتهم فى هذا العراك ، وخوفهم العدوّ الداخلى أكثر جدا من خوفهم العدوّ الخارجى .

ففى حال كهذه يسرعون بالدولة الى الدمار ، فلأجل كل ماذكر هل نبرم ماقرّرناه فى مصير حكامنا بالنظر الى بيوتهم وغيرها ، ونربط ذلك بأحكام الدستور أم لا ؟

غلوكون : نبرمه ونربطه . انتهى

(١٥) وهنا منع سقراط منعا باتا إدخال بدعة جديدة فى الموسيقى ، وفى التمرينات العضلية (الجناستك).
وإنّ ظهور نشيد . أو أغنية جديدة ، فيها فتح الشهوات ، يحدث خللا فى سياسة الدولة . وقال :
« يجب أن يكون التسلى والتلهى بالامور المشروعة ، لأن الملاهى اذا كانت غير مشروعة انغمس الأحداث فيها ، واستحال أن يشبوا رجالا مخلصين .

(١٦) وفى صفحة ١٠١ أخذ يذكر أن النهمين فى الطعام والشراب تكون حياتهم كلها محيرة مضطربة يعيشون بين أيدى الأطباء ولا يستفيدون منهم شيئا ، بل يسيرون من ردىء الى أردأ ، وهم دائما فى حاجة الى من يصف لهم الدواء . قال : ومن المدهش أنهم يبغضون من يصرّح لهم بالحق ، و يؤكد لهم أنهم مالم يعدلوا عن النهم والشراب والفجور والتراخى ، فان العقاقير لا تفيدهم ولا كىّ ، ولا بتر ، ولا تعاويذ ، ولا أربطة ، ولا شىء آخر من أمثال هذه . وههنا أخذ يقيس رجال السياسة فى الأمة على أحوال الفرد الواحد السكير المعربد ، قال فكما أن الشره فى الطعام المواظب على طلب اللذات مغرور لا يسمع نصح الناصحين ، هكذا رجال الدولة الفاسقة سيئة النظام يكرهون من يتعرّض لقوانينهم ، ولا يحبون إلا من يتملق لهم ببراعته و يمدح سوء فعالهم .

(١٧) ولما كانت هذه الشرائط كلها لا يمكن كمالها فى الأرض قال فى صفحة ١٢١ ومابعدها مانصه :
« إن غرض تبيان نظام الدولة الكاملة سعيا وراء الغرض المقصود منها هو اكتشاف طبيعة العدالة ، أما امكان إنشاء دولة كهذه بالفعل فهى مسألة أخرى ، ليس لها أقلّ أثر فى سلامة النظام وصحة نتائجه ، وكل مايصح أن يطلب منه هو أن يبين كيف يمكن الهيئات الناقصة الحاكمة حاليا أن تبلغ أقرب نقطة ممكنة الى مدى السياسة الكاملة التى مرّ وصفها ، وهنالك انقلاب واحد لابدّ منه لتحقيق هذا الغرض وهو تسليم مقاليد السياسة الى الفلاسفة ، وللتخلص مما يلابس ذلك من وجوه المقارمة يلزم أن نلوى عنان البحث الى تحديد الفيلسوف الحقيقى .
﴿ أوّلا ﴾ — الفيلسوف الحقيقى هو المغرم كل الغرام بالحكمة فى كل فروعها ، وعلينا أن نميز فى هذا الموقف أدقّ تمييز بين الفيلسوف الحقيقى و بين المدّعى حبّ الفلسفة تدجيلا ، وتستقرّ نقطة الفرق بينهما فى أن الدّجال يكتفى بدرس الموضوعات الجيلة مثلا ، أما الفيلسوف الحقيقى فلا يقف عند ذلك الحدّ ، بل يتجاوزه إلى إدراك الجمال المطلق ، و يمكن وصف حال الأوّل العقلى بأنه « تصوّر » وحال الثانى انه « معرفة حقيقية » ، أو « علم » ، فهنالك الوجود الحقيقى الذى يتناوله العلم ، واللاوجود ، أو العدم ، الذى نسبته الى الجهل نسبة الوجود الحقيقى الى العلم ويتوسط بين العلم و بين الجهل التصوّر ، فنستنتج أن التصوّر يتناول الوجود الظاهرى ، فالذين يدرسون الوجود الحقيقى يدعون « محبي الحكمة » ، أو « فلاسفة » ، والذين يدرسون الوجود الظاهرى يدعون « محبي التصوّر » لافلاسفة . انتهى من « جمهورية أفلاطون »

***

هنالك قال صاحبى : إن هذه الحكم المستخرجة من كلام (سقراط) مدهشة ، ذلك أنها مطابقة لمعنى الآية ، لأن هؤلاء السكارى ، أو الذين يكثرون ألوان الطعام ، أو الكسالى ، أو الذين يحدثون فى الدولة أنواع المغانى كما يحصل فى بلادنا المصرية الآن ، أو الصور المحرّضة على الفسوق ، كما يفعله الاوروبيون الآن فى بلادنا المصرية بواسطة دور السينما (الصور المتحركة) ، فكل هؤلاء أذهبوا طيباتهم فى الحياة الدنيا واستمتعوا بها ، وأخذ الجزاء يظهر فيهم ، و يعاقبون فى نفس الحياة الدنيا قبل الآخرة ، فوالله انى لأوافقك كل الموافقة على ماقلته وهو أن كتاب الله قد فسر بالفلسفة قبل نزوله ، واذا كان (سقراط) قبل النبوّة بنحو ألف سنة

فمن العجب العجاب أن يكون مافصله هو نفس ماأجلته الآية ، بل أنا أقول إنها والله لمعجزة . فقلت ياصاح ، إن هذه الأمة الاسلامية فى عصرنا تجتزئ بقولها هذه معجزة ، والمتعلمون تعلما ناقصا يشكون فى الديانات كلها ، ولكن ليس هذا جوهر الموضوع ، إن جوهر الموضوع هو بحث أخلاقنا وعوائدنا وعرضها على كتاب الله ، ولما كان كتاب الله مشروحا بالحكمة التى ظهرت فى الأمم كان ذلك أمرا مدهشا يجب علينا إذاعته فى زماننا حتى يوقن الشاك أولا ويقنع أولئك المترفون ، العاجزون ، المتعلمون نصف تعليم فى عصرنا أن شكهم فى الديانات لايخليهم من المسئولية ، ولايقوم حجة ، لأنهم يدعون أنهم متعلمون ، فنقول لهم : ويحكم ، ألستم تسمعون علماء أوروبا ومنهم « سبنسر » وأمثال « سنتلانه التليانى » وغيرهما يقولان بأعلى صوتهما : « أيها الناس : انا معاشر الفلاسفة فى أوروبا لانبلغ فى العلم والحكمة ، وأصول الفلسفة ، شأو (سقراط) ، ولا (أفلاطون) ، بل نسبتنا الى هؤلاء القوم كنسبة البقة الى الفيل ، فنحن إنما برعنا فى العلوم الجزئية ، أما الكليات التى توضح الامور العالية ، كأصل النفس ، ومنشأ العالم ، وماشابه ذلك ، فنحن منه بعيد » إذن مانكتبه الآن فى هذا التفسير حجة قائمة على كل متعلم فى بلاد الشرق ، لأنه اذا ادعى أنه يشك فى الديانات ، فلن يتسنى له أن يتخلص من أنه رجل جاهل أحمق ، لأن فلاسفة أوروبا الذين يدعى هو أنه متمسك بآرائهم متعلق بهم . متبع سبيلهم ، فهو كفر كما أنهم كفروا ، وأسرف كما أنهم أسرفوا وظلم كما أنهم ظلموا (فى زعمه) قد أعلنوا أنهم أقل شأنا من سقراط وأفلاطون وهاهوذا سقراط يفسر القرآن قبل نزوله ، ويبين لنا هذه الآية : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا » وهو لايعلم بالقرآن ولا بالنبوة ، ولا بالأمة العربية التى ستأتى بعده بنحو عشرة قرون .

فقال صاحبى : الله الله ، الآن حصحص الحق ، واستبان السبيل ، وظهر الابداع الفلسفى الذى هو أكبر معجزة قرآنية سياسية دولية ، وأن الأمم اليوم كلها عاجزة ، بعيدة عن الكمال ، فحدثنى حفظك الله عما أحدثه ملوك الاسلام من الفسوق فى الدولة الأموية والعباسية وغيرهما تطبيقا على ذلك كما وعدت . فقلت : اعلم أيها الذكى أن ما اكتبه اليوم سترى فيه مالم تره فيما مضى ، ومامثل الآراء والأحوال المختلفات فى التعاليم إلا كمثل الأزهار فى اختلاف ألوانها ، والثمار فى تباين طعومها ، والأقطار فى تنوع أهوائها ، ولكل زهر ، ولكل ثمر ، ولكل قطر قوم هم به مغرمون ، واذا لم يكن التأليف جاريا مجرى النظام الطبيعى الإلهى فى اختلاف المناظر ، وتباين المشارب ، ليجد كل امرئ فيه مآربه ، لم يحز القبول فى الأمم ، ولم يكن مثار الانتفاع ، ومجتلى الأنظار .

فها أناذا أذكرك أيها الصديق أولا بما جاء فى ﴿ سورة الشورى ﴾ وما كان من أمر عمر رضى الله عنه ومبلغ زهده وورعه ، وقد ذكرت هناك ١٧ خصلة مشروحة فى عدله وأخلاقه الكريمة ، فهل تذكرها ؟ قال نعم ، ولكن هذا القول منك انتهجت به منهجى ، واتبعت سنتى ، وسمعت نصيحتى ، لأنك تشير اليه الآن ، ولا تذكره ، وهذا هو مقولى . فقلت : إنما أشرت إليه لأننى فى هذا المقام كما تقدم أبحث فى أمرين : أمر المصلحين الذين نقتدى بهم ، وهذا هو الذى ذكرنه الآن ، وأمر المفسدين الذين نحترس من عملهم ، ونخالفهم ، وهؤلاء هم الذين سأفصل القول فيهم تفصيلا كما وعدتك ؛ وقبل ذلك التفصيل أقول فى السلف الصالح قولا مجملا غير ماتقدم لتتم القدوة بهم :

إن عصر الخلفاء الراشدين من سنة ١١ — ٤١ هجرية هو العصر الذهبى ، عصر العدل والتقوى ، كانت الحكومة جارية فيه على سنن العدل والاستقامة ، والغيرة الحقيقية على الدين ، ونبذ الدنيا ، وهو العصر الذى اتخذه المسلمون منوالا ينسجون عليه ، وكلما حادت دولة من دولهم عن جادة الحق طلبوا منها الرجوع إليه والسير على خطوات الخلفاء الراشدين ، لأن الحكومة انتقلت بعدهم الى طور جديد ، وانقلبت

من الخلافة الدينية الى الملك السياسى ، ونشأت فى الخلفاء والعمال المطامع ، وأخذوا فى حشد الأموال بأية وسيلة كانت .

﴿ بيت المال ﴾ توفى النبى ﷺ والمسلمون هم رجال الحكومة والجند ، ولم يكن عندهم بيت مال للأسباب التى قدمناها ، ولم يكونوا يتطلبون المال إلا لقضاء الحاجيات ، وكان أكثر مايرد عليهم منه ماشية وحنطة وخيلا ونحوذلك من أموال الصدقة والغنيمة ، وكانت النقود قليلة بين أيديهم ، فلما فتحوا الشام وفارس ومصر وردت عليهم الأموال ذهبا وفضة ، فأدهشتهم كثرتها ، وتنبهوا لها . يقال ان أبا هريرة قدم على عمر بن الخطاب من البحرين بمال . فقال له عمر : بم جئت ؟ قال بخمسمائة ألف درهم ، فاستكثره عمر ، وقال : أتدرى ماتقول ؟ قال نعم مائة ألف خمس مرات ، فصعد عمر المنبر ، وقال أيها الناس : قد جاءنا مال كثير ، فان شئتم كلنا لكم كيلا ، وان شئتم عددنا لكم عدا . وكان ذلك من جملة ما دعاه الى وضع الديوان ، وفرض العطاء لكل واحد من المسلمين ، باعتبار السابقة والقرابة من النبى ، ولكنه نهى عن اختزان المال ، فقال له قائل : ياأمير المؤمنين ، لوتركت فى بيوت الأموال شيئا يكون عدة لحادث اذا حدث ؟ فزجره عمر ، وقال له : تلك كلمة ألقاها الشيطان على فيك ، وقانى الله شرها ، وهى فتنة لمن بعدى ، إنى لا أعد للحادث الذى يحدث سوى طاعة الله ورسوله ، وهى عدتنا التى بلغنا بها مابلغنا .

فلما كثرت الأموال فى أيام عمر ، ووضع الديوان فرض الرواتب للعمال والقضاة ، ومنع ادخار المال ، وحرم على المسلمين اقتناء الضياع ، والزراعة ، أوالمزارعة ، لأن أرزاقهم وأرزاق عيالهم تدفع لهم من بيت المال ، حتى إلى عبيدهم ومواليهم ، أراد بذلك أن يبقوا جندا على أهبة الرحيل ، لايمنعهم انتظار الزرع ، ولايقعدهم الترف ، والقصف . فاذا أسلم أحد من أهل الذمة سكان البلاد الأصليين صارما كان فى يده من الأرض وداره الى أصحابه من أهل قريته ، تفرق فيهم ، وهم يؤدون عنها ما كان يؤدى من خراجها ويسلمون إليه ماله ورقيقه وحيوانه ، ويفرضون له راتبا فى الديوان مثل سائر المسلمين .

والغرض الذى كان يرمى إليه عمر من هذه القاعدة أن يبقى أهل الذمة وأرضهم مصدرا للمال الذى يحتاج إليه المسلمون فى إتمام الجهاد ووقفا لمصالحهم مدى الدهور ، أما اذا اشترى المسلمون الضياع فانهم يستقلون بنفعها دون سواهم ، ولايمضى بضعة أجيال حتى تصير أملاكا خاصة بهم ، وعمر يريد أن يبقيها محبوسة على آخر هذه الأمة من المسلمين المجاهدين قوة على جهاد من لم يظهروا عليه بعد من المشركين لاتباع ولاتورث لما ألزموه أنفسهم من إقامة فريضة الجهاد ، وأيد هذه القاعدة عمر بن عبد العزيز الأموى ، وكان يتحدى ابن الخطاب بكل خطواته . فقال : « أيما ذمى أسلم فان اسلامه يحرز له نفسه وماله ، وما كان من أرض فانها من فىء الله على المسلمين ، وأيما قوم صالحوا على جزية يعطونها فمن أسلم منهم كانت داره وأرضه لبقيتهم » فترتب على ذلك ونحوه ترفع المسلمين عن سائر الأعمال من تجارة أوصناعة أونحوهما .

ثروة الخلفاء وعمالهم

علمت مما تقدم أن الراشدين لم يكونوا يلتمسون ثروة ، فلما توفى أبو بكر ، لم يجدوا عنده من مال الدولة إلادينارا واحدا سقط من غرارة ، لأنه كان يفرق كل مايجتمع عنده على السواء ، لاينظر الى مصلحة نفسه ، بل هو أنفق كل ما كان عنده من المال قبل اسلامه ، وذلك أربعون ألف درهم . غير ما اكتسبه من التجارة لأنه كان يتجر ليستعين على النفقة ، ثم فرضوا له مالا معينا من مال المسلمين لينفقه على نفسه وعياله ، لئلا يشتغل بالتجارة عن النظر فى مصالحهم ، فلما دنا أجله أوصى أن تباع أرض كانت له ويدفع ثمنها بدلا مما أخذه من مال المسلمين ، وكان عنده ثوبان أوصى أن يكفن بهما .

وأخبار عمر بن الخطاب بالزهد والنزاهة أشهر من أن تذكر ، ويقال بالاجمال انه هو مؤسس دولة المسلمين وقد أسسها على أمتن دعائم الملك ، أسسها على العدل ، والتقوى ، والزهد ، والاستهلاك فى نصرة الحق مما يندر اجتماعه فى رجل واحد ، وقد يوهم لغرابته انه من قبيل المبالغة ، ويسهل علينا التصديق به اذا تذكرنا النتائج التى ترتبت على تلك المناقب مما لم يسمع بمثله فى التاريخ ، يكفى منها تلك الفتوح التى جعلت الأموال تنصب نحو بيت المال فى المدينة كما ينصب الماء من الميازيب ، وعمر مع ذلك لا يلتفت إليه ، ولا يأخذ منه إلا ما فرضه لنفسه كسائر الصحابة الأولين ، وكان اذا احتاج الى مال فوق راتبه جاء إلى صاحب بيت المال ، فاستقرضه حتى يفيه إياه من عطائه فيما بعد ، ولما طعن وأحس بدنو الأجل قال لابنه : « إنى استلفت من بيت مال المسلمين ثمانين ألفا فليرد من مال ولدى ، فان لم يف مالهم فمال آل الخطاب » . وزهده فى الطعام واللباس مشهور .

ويقال نحو ذلك فى الامام علىّ ، فقد كان مغاليا فى الزهد والعدل ، ومن أقواله : « تزوّجت بفاطمة ومالى فراش إلا جلد كبش ننام عليه بالليل ، ونعلف عليه ناضحنا بالنهار ، ومالى خادم غيرها » . وجاءه فى أيام خلافته مال من أصبهان ، فقسمه على سبعة أسهم ، فوجد فيه رغيفا ، فقسمه على سبعة أسهم ، ودعا أمراء الأسباع ، فأقرع بينهم ، لينظر أيهم يعطى أوّلا ، ولم يبن علىّ آجرة على آجرة ، ولا لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة ، وكان يأتى بحبوبه من المدينة فى جراب ، وقيل انه أخرج سيفا له الى السوق فباعه ، وقال : « لو كان عندى أربعة دراهم ثمن إزار لم أبعه » ومناقبه لا تحصى .

وقد ساعد الخلفاء الراشدين على تأييد العدل والحق ، أن عمالهم كان أكثرهم من أهل التقوى ، وحسن الاعتقاد فى الاسلام ، فكان عمر اذا اكتسب أحد عماله مالا من تجارة ، أو سبيل آخر غير عطائه المفروض له قاسمه عليه ، وهو لا يرى فى ذلك غبنا ، كذلك فعل بسعد بن أبى وقاص عامله على الكوفة وعمرو بن العاص عامله على مصر ، وأبى هريرة عامله على البحرين ، وغيرهم .

ولا غرابة فى ذلك ، لأن العامل اذا رأى خليفته زاهدا تقيا يمنع نفسه من كل شىء ويستهلك فى مصلحة الأمة فانه يقتدى به ولو كان ذلك مخالفا لرأيه ، على أن الخليفة نفسه لا يولى أعماله إلا من يكون على رأيه وخلقه ، وخصوصا عمر ، فقد كان شديدا على العمال يتفقدهم كل سنة ويعزلهم لأقلّ تهمة ، ذكروا أنه استعمل على حمص رجلا اسمه عمير بن سعد ، فلما انقضت السنة كتب اليه : « اقدم إلينا » فلم يشعر عمر إلا وقد قدم إليه الرجل ماشيا حافيا ، عكازه فى يده ، وإداوته ومزوده وقصعته على ظهره ، فلما رآه عمر ، قال : ياعمير أأجبتنا أم البلاد بلاد سوء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أما نهاك الله أن تجهر بالسوء وعن سوء الظن ، وقد جئت إليك بالدنيا أجرّها بقرابها ، فقال : ومامعك من الدنيا ؟ قال : عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدوّا إن لقيته ، ومزود أحمل به طعامى . فقال : ماصنعت بعملك ياعمير ؟ قال : أخذت الإبل من أهل الابل ، والجزية من أهل الذمة ، ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ، فوالله يا أمير المؤمنين لو بقى عندى منها شىء لأتيتك به ، فقال له : عد الى عملك .

ولأقتصر فى هذا المقام على ماسمعته الآن ، وأقفى بذكر المبذرين ، فأقول مستعينا بالله :

شيوع التبذير فى الدولة

لم تطل مدة المسلمين الأولين الذين لم يكونوا يعدّون الخلافة ملكا سياسيا ، فلما انقضى عصر النبوّة وزالت دهشتها عاد الناس الى فطرتهم أيام عثمان سنة ٢٣ — ٣٥ هجرية ، لأنه لم يكن شديدا مثل عمر ،

وكان مع ذلك أمويا ، فاعتز الأمويون به ، وأرادوا أن يعيدوا لأنفسهم السلطة التى كانت لهم فى الجاهلية ، وكان بنوهاشم قد سلبوهم إياها بعد الاسلام لأن النبيّ ﷺ منهم ، فأخذ عثمان يولى الأعمال رجالا من أقربائه ، وفيهم من لم يعتنق الاسلام إلا يأسا من فوزه على المسلمين ، وكثرت فى أيامه الفتوح ، وفاضت الغنائم فكان يختص أهله منها بأكثر من سائر الصحابة ، كما فعل بغنائم افريقية سنة ٢٧ هجرية فان المسلمين حاربوها وعليهم عبد الله بن سعد (أخو عثمان من الرضاع) ، فبلغت غنائمهم منها (٢٫٥٠٠٫٠٠٠) دينار أعطى خمسها الى مروان بن الحكم وزوّجه ابنته ، وكان هذا الخمس من حقوق بيت المال ، وأبطل عثمان محاسبة العمال لأنهم من أهله ، فازدادوا طمعا فى حشد الأموال لأنفسهم ، وخصوصا معاوية بن أبى سفيان عامله على الشام ، وهو أكثرهم دهاء ، وأبعدهم مطمعا ، فكان فى مقدمة الذين أبطلوا قاعدة عمر فى منع المسلمين من الزرع واتخاذ الضياع ونحوها .

وكيفية ذلك أن المسلمين لما فتحوا الشام ، وأقرّوا الأرضين فى أيدى أصحابها ، كان جانب كبير منها ملكا للبطارقة قوّاد جند الروم ، فلما غلبت الروم ، وفرّ البطارقة ، أوقتلوا ، ظلت ضياعهم سائبة لامالك لها ، فأوقفها المسلمون على بيت المال ، فكان العمال يقبلونها كما يقبل الرجل ضيعته (أى يضمنها) و يضيفون دخلها الى بيت المال ، فلما استقرّ معاوية على ولاية الشام ، واقتدى بالروم فى البذخ واتخاذ الحاشية ، لم يعد راتبه يكفيه ، ورأى من عثمان ضعفا وميلا ، فكتب إليه : ان الذى أجراه عليه من الرزق فى عمله لايقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائهم ، ومن رسل الروم ووفودهم ، ووصف فى كتابه هذه المزارع وأن لامالك لها ، وليست هى من قرى أهل الذمة ، ولاللخراج ، وسأله أن يقطعه إياها ، وكان عمر قد جعل لمعاوية على عمله فى الشام راتبا مقداره ألف دينار فى السنة ، وهو كثير بالنظر الى رواتب العمال فى تلك الأيام ، فلما طلب من عثمان أن يقطعه تلك الضياع أجابه الى طلبه فوضع يده عليها وجعلها حبسا على فقراء أهل بيته فجرأه ذلك على التمادى فى اقتناء الأرضين و بيعها فى أيام خلافته ، والاذن للمسلمين فى ذلك .

واقتدى بمعاوية غيره من العمال وسائر الصحابة ، فاقتنوا الضياع والعقار ، وفيهم جماعة من كبار الصحابة مثل طلحة والزبير وسعد و يعلى وغيرهم ، وزادت أموالهم ، وظهر الغنى فيهم ، حتى عثمان نفسه ، فانه اقتنى الضياع الكثيرة ، واختزن الأموال ، فوجدوا عند خازنه بعد موته (١٥٠٫٠٠٠) دينار و (١٫٠٠٠٫٠٠٠) درهم ، وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما (١٠٠٫٠٠٠) دينار ، وخلف خيلا و إبلا ، والظاهر أن عثمان اندفع الى تسهيل الثروة على المسلمين بما زاد عنده من الأموال ، وأغراه أهله على ذلك وخصوصا معاوية ، ثم صار امتلاك العقار مألوفا شائعا .

ومن أسباب شيوع الاملاك بين المسلمين أن عثمان أقطع هو وخلفاؤه بعض الأرضين مما لم يتعين مالكوه على أن يدفعوا شيئا لبيت المال بمقابل الايجار أوالضمان كما تقدم ، فلما حدثت فتنة الأشعث سنة ٨٢ هـ حرق الديوان وضاعت الحسابات فأخذ كل قوم مايليهم .

على أن المسلمين لم يكونوا راضين عن أعمال معاوية فى هذا الشأن لأنه لم يساو بينهم فيه ، فنقموا عليه وخصوصا الفقهاء ورجال التقوى ، وفى حكاية أبى ذرّ الغفارى مايغنى عن البيان ، فقد كان هذا الرجل مغاليا فى التمسك بقاعدة عمر ، وكان يرى : « أن المسلم لاينبغى له أن يكون فى ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أوشىء ينفقه فى سبيل الله ، أو يعدّه لكريم » . وكان يقوم فى الشام ويقول : « يامعشر الأغنياء ، واسوا الفقراء ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » ، وما زال يقول ذلك ويكرره حتى ولع الفقراء بقوله وأوجبوه على الأغنياء ، فشكا الأغنياء الى معاوية ما يلقون منهم ، وكان معاوية يشكو أمرّ

من

من شكايتهم ، لان أباذرّ وبخه غير مرّة لاختزانه المال ، ومما قاله له على أثر بنائه قصر الخضراء فى دمشق ، وقد سأله معاوية : كيف ترى هذا ؟ فقال أبوذرّ : إن كنت بنيته من مال الله فانك من الخائنين ، وان كنت بنيته من مالك فانك من المسرفين ، فعظم ذلك على معاوية ، فأراد أن يوقعه فيما يوجب محاكمته فبعث إليه بألف دينار أراد أن يغرّه بها ، ثم يتهمه باكتناز المال ، فلما وصلت الدنانير الى أبى ذرّ فرّقها حالا مع أنها وصلته ليلا ، وجاءه رسول معاوية فى الصباح يزعم أنه دفع المال اليه خطأ ، وأن معاوية يطلبه ، فأخبره أنه أنفقه فى ساعته ، فلم يرَ معاوية سبيلا إلا اتهامه بالفتنة ، فكتب إلى عثمان : « انك أفسدت الشام على نفسك بأبى ذرّ » ، فكتب اليه : « احمله على قتب بغير وطاء » ، فلما جاء المدينة حاكمه عثمان فلم يرهب سلطانه ، وجاهر بما يراه من جشع بنى أمية وخروجهم من الحق ، فأخرجه عثمان من المدينة الى الربذة بالعنف ، وظلّ هناك حتى مات ، فنقم المسلمون بموته على عثمان فى جملة مانقموه عليه إلى مقتله اهـ

***

هذا ماجاء فى كتاب « تاريخ التمدّن الاسلامى » وربما كان ماجاء فيه من أمر عثمان رضى الله عنه فيه مبالغة ، ومن جهة أخرى أنه رضى الله عنه كان مجتهدا ، والمجتهد مثاب ، أصاب أم أخطأ ، فله حرمته ، فلنفصل الكلام فى أيام بنى أمية :

الاسراف أيام بنى أمية

وعصرهم سنة ٤١ — ١٣٢ هجرية

هذه الدولة كانت عربية بحتة محتقرة لسواهم ، ومن أسلم من غيرالعرب يسمونهم الموالى

اعلم أن بنى أمية وان فتحوا البلاد شرقا وغربا فان عمالهم أخذوا فى الإسراف ، وبعض ملوكهم كذلك ، فدالت دولتهم . خذ لذلك مثلا :

إن محمدا أخا الحجاج بن يوسف لما تولى اليمن أساء السيرة ، وظلم الرعية ، وأخذ أراضى الناس بغيرحقها وضرب على أهل اليمن خراجا سماه « الوظيفة » . فلما ولى عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله هناك بالغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر .

وفى كلام القاضى أبى يوسف فى عرض وصيته للرشيد بشأن عمال الخراج مايبين الطرق التى كان أولئك الصغار يجمعون الأموال بها . قال : بلغنى أنه قد يكون فى حاشية العامل أوالوالى جماعة منهم من له به حرمة ومنهم من له إليه وسيلة ليسوا بأبرار ولاصالحين يستعين بهم ويوجههم فى أعماله يقتضى بذلك الذمامات ، فليس يحفظون مايوكلون بحفظه ولاينصفون من يعاملونه إنما مذهبهم أخذ شىء من الخراج كان أومن أموال الرعية ، ثم انهم يأخذون ذلك كله فيما بلغنى بالعسف والظلم والتعدى ، ويقيمون أهل الخراج فى الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ، ويعلقون عليهم الجرار ، ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة ، وهذا عظيم عند الله ، شنيع فى الاسلام .

وكان شأن بنى أمية وعمالهم وجباتهم على نحو ماتقدم حين تولى الخلافة عمر بن عبدالعزيز سنة ٩٩ هـ وكان تقيا منصفا ، فأراد أن يردّ الامور الى ما كانت عليه فى أيام سميه وجده لأمه عمر بن الخطاب ، فأصدر أوامره الى العمال بإبطال تلك المظالم ، وعينها بأسمائها مفصلة ، وابطال لعن علىّ على المنابر ، وكان أهله قد اقتنوا الضياع ، وأخذوا كثيرا منها من أهل الذمة بغيرحق ، ففتح بابه للناس وأعلن أن من كانت له ظلامة فليأت ، فأتاه المظلومون ، وفيهم النصارى واليهود والموالى وغيرهم ، ومنهم من يشتكى اختلاس ماله ، وآخر اغتصاب ضيعته ، وكان ينصفهم بالحق والعدل ، ولوأن الحكم على ابنه أواخوته أوأبناء عمه . فقال له بعضهم

وكيف تصنع بولدك ؟ فبكى حنوّا وقال : أكلهم إلى الله ، وأخذ أموال أعمامه وأولادهم وسماها مظالم ، فلما رأى أهله ذلك خافوا على سلطانهم وهو إنما قام بالمال ، فاذا خرجت الضياع والأموال من أيديهم ذهب ضياعا ، فمشوا إلى عمته فاطمة بنت مروان وشكوه إليها ، فأتته ، فقال لها : إنّ الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذابا الى الناس كافة .

ولما رأى الموالى عدله وتقواه ، اغتنموا الفرصة ، وشكوا إليه مايقاسونه من الذل والضغط ، وكان الجرّاح بن عبد الله الحكمى عامل خراسان قد أرسل الى عمر بن عبد العزيز فى الشام وفدا رجلين من العرب ، ورجلا من الموالى ، فتكلم العربيان ، والمولى ساكت ، فقال له عمر : ما أنت من الوفد ؟ قال بلى ، قال فما يمنعك من الكلام ؟ فقال : ياأمير المؤمنين عشرون ألفا من الموالى يغزون بلا عطاء ولارزق ومثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج ، وأميرنا بعد سيف من سيوف الحجاج قد عمل بالظلم والعدوان ، فقال عمر : أحرِ بمثلك أن يوفد ، وكتب الى الجرّاح : انظر من صلى من قبلك فضع عنه الجزية ، فرغب الناس فى الاسلام ، وتسارعوا إليه ، فقيل للجرّاح : إنّ الناس قد سارعوا إلى الاسلام نفورا من الجزية ، فامتحنهم بالختان . فكتب الجرّاح الى عمر بذلك ، فأجابه : ان الله بعث محمدا داعيا ، ولم يبعثه خاتنا .

وفعل عمر نحو ذلك مع عامله على مصر حيان بن شريح ، وكان حيان قد كتب إليه : أما بعد فان الاسلام قد أضرّ بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتممت بها عطاء أهل الديوان ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل . فكتب إليه عمر : أما بعد فقد بلغنى كتابك ، وقد وليتك جند مصر ، وأنا عارف ضعفك ، وقد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطا ، فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك ، فان الله بعث محمدا هاديا ، ولم يبعثه جابيا ، ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الاسلام على يديه .

وقس على ذلك عماله الآخرين ، فانه عزل من لم يوافقه منهم ، فأصبحت الدولة ورجالها كلها ضده لأنه حاول اصلاح الامور بالعنف دفعة واحدة والطفرة محال ، ومافى بنى أمية وعمالهم إلا من كره ذلك منه فلم يصبروا على خلافته ثلاث سنوات ، فقتلوه بالسم ، ويعده المؤرخون من الخلفاء الراشدين ، واذا قالوا العمرين أرادوه وعمر بن الخطاب .

فترى مما تقدم أن القواعد الأساسية التى قام عليها الاسلام تدعو الى الانصاف والرفق ، ولكنها تختلف مظاهرها باختلاف الذين يتولون شئونها ، ولوأتيح لعمر بن عبدالعزيز أن يعيدها الى ما كانت عليه فى عهد ابن الخطاب لأمحت مظالم بنى أمية ، ولكنه جاء فى غير أوانه ، فذهب سعيه هدرا ، ولما مات عادت الامور الى مجاريها ، ورافقها ردّ الفعل ، فصارت الى أشدّ مما كانت عليه قبله ، وبالغ العمال فى الاستبداد والعسف وشدّدوا فى استخراج الخراج وزادوه حتى اضطر بعض أصحاب الأرضين إلى الالجاء أى أن يلجئوا أراضيهم الى بعض أقارب الخليفة ، أوالعامل تعززا به من جباة الخراج كما سيأتى .

أما الخلفاء فانهم ازدادوا انغماسا فى الترف ، وأولهم يزيد بن عبدالملك فانه انقطع الى اللهو والخمر واشتغل عن مصالح الدولة بجاريتيه : سلامة وحبابة ، وحديثهما مشهور ، وخلفه أخوه هشام ، وكان بخيلا ، وفى أيامه زيدت الضرائب فى مصر على يد ابن الحبحاب كما تقدم ، وجاء بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وكان مثل أبيه فى اللهو والخمر ، فقتله أهله ، وولوا يزيد بن الوليد بن عبدالملك سنة ١٢٦ هجرية ، وكان عازما على اصلاح الامور اقتداء بعمر بن عبد العزيز كما يؤخذ من خطاب ألقاه عند مبايعته ، فأصابه من الفشل نحو ما أصاب عمر ، لأن الأحوال غير ملائمة ، وفى أيام خلفه مروان بن محمد تغلب بنو العباس وصارت الخلافة إليهم .

وكان بنو أمية قد انغمسوا فى الترف واللهو والخمر ، وأصبحوا لاينظرون إلى مايؤيد سلطانهم ولايبالون

فى

فى انتقاء عمالهم ، وربما ولوا العامل عملا باشارة جارية ، أومكافأة على هدية كما فعل هشام بن عبد الملك بالجنيد بن عبد الرحمن ، وكان الجنيد قد أهدى امرأة هشام قلادة من جوهر ، فأعجبت هشاما ، فأهدى هشاما قلادة أخرى ، فولاه هشام على خراسان سنة ١١١ هجرية ، وبلغ ثمن الجارية فى أيام بنى أمية (١٫٠٠٠٫٠٠٠) درهم ، وهى الدلفاء ، وأصبح العمال لاهمّ لهم إلا حشد الأموال ، والاستكثار من الضائع والموالى ، ولم يعد أهل العدالة يرضون بولاية الأعمال مخافة أن يقصروا بالمال الذى يطالبه الخلفاء ، كما حدث ليزيد بن المهلب لما ولاه سليمان بن عبد الملك العراق ، فقال يزيد فى نفسه : إن العراق قد أخربها الحجاج ، وأنا اليوم رجاء أهل العراق ، ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه صرت كالحجاج ، أدخل على الناس الحرب (١) وأعيد عليهم تلك السجون التى قد عافاهم الله منها ، ومتى لم آت سليمان بمثل ماجاء به الحجاج لم يقبل منى ، وقس على ذلك رأى غيره ممن يؤثرون الرفق ، فلم يرغب فى الولايات إلا أهل المطامع ، وجعل الخلفاء من الجهة الأخرى يطمعونهم بالرواتب الفادحة ، فبلغ رزق يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق فى أواخر أيام بنى أمية ٦٠٠٫٠٠٠ درهم ، وكان العمال يبذلون جهدهم فى اختزان الأموال لأنفسهم لعلمهم أن الولاية غير ثابتة لهم ، فكثرت أموالهم واتسعت ثروتهم ، فبلغت غلة خالد القسرى أمير العراق فى أيام هشام ١٣٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم أى نحو مليون دينار ، فأصبح الخلفاء لايعزلون عاملا عن عمله إلا حاسبوه على ماعنده من المال ، وكانوا فى أيام معاوية يشاطرون العمال اقتداء بعمر بن الخطاب ، ثم صاروا يحاكمونهم ويستخرجون كل ماتصل إليه معرفتهم كما فعلوا بخالد القسرى ، إذ وشى به كاتبه حيان النبطى أنه فرّق ٣٦٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، فبعث هشام اليه من أخرج معظم هذا المال منه ومن عماله ، ويسمون هذا العمل استخراجا ، وكانوا يستخدمون الشدة فيه ، فوقع بين العمال والخلفاء تنافر زاد الخطر على دولة بنى أمية .

وقد كان متوسط جباية العراق فى أيامهم نحو ١٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، وجباية مصر ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، أو ٣٦٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، وجباية الشام ١٫٧٠٠٫٠٠٠ دينار ، أو ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم . فيكون ارتفاع هذه البلاد نحو ١٨٦٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم يضاف إليه أموال البلاد الأخرى مما لانعرف مقداره . انتهى

هذا بعض أفعال هذه الدولة ، فسقطت وذهبت كأمس الدابر ، وهذا عذاب الخزى فى الحياة الدنيا المذكور فى هذه الآية .

دولة بنى العباس والاسراف فيها

هذه الدولة لها عصران : عصر ذهبى يمتد من أوّل نشأتها سنة ١٣٢ هجرية الى آخر أيام المأمون سنة ٢١٨ هجرية ، والعصر الثانى وهو عصر التقهقر والانحطاط ، ويبتدئ بخلافة المعتصم سنة ٢١٨ وينتهى بانقضاء الدولة العباسية .

فانظر أيها الذكىّ إسراف الخلفاء ونسائهم ، فقد جاء فى كتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » أنهم انهمكوا فى البذخ والاسراف والتبذير والترف ، فاقتنوا الجوارى ، واتخذوا الفرش ، من الخز والديباج والحرير والمسامير الفضة ، وابتنوا المتنزهات ، والقصور ، والمدن ، واقتنوا الندماء ، وأنشئوا مجالس الغناء ، وارتكبوا سائر ضروب الترف والتأنق بالطعام واللباس والرياش ، وقد سهل عليهم ذلك لقرب عهد العراق وفارس من بذخ الفرس قبيل الفتح الاسلامى ، وأطلقوا أيدى نسائهم ، وأمهاتهم ، وخاصتهم ، فى الأموال .

---

(١) كسبب ، هو سلب المال

ثروة نساء الخلفاء

لم يتزوّج السفاح إلا امرأة واحدة ، وقبل أن يتوفى المنصور أوصى ابنه المهدى أن لايشرك النساء فى أمره ، ومع ذلك فانّ الخيزران أمّ الرشيد كانت هى صاحبة الأمر والنهى فى أيام الهادى وأيامه ، وكان وزيره تحت أمرها ، فأفضى نفوذها إلى حشد الأموال لنفسها ، حتى بلغت غلتها فى العام (١٦٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم ، وذلك نحو نصف خراج المملكة العباسية لذلك العهد ، وغلة أعظم متموّلى العالم اليوم لاتزيد على ثلثى هذا المال ، فقد ذكروا أن ايراد «روكفلر» الغنى الأمريكى الشهير نحو (١٠,٥٠٠,٠٠٠) جنيه فى السنة ، وغلة الخيزران أكثر من ١٠,٥٠٠,٠٠٠ دينار وقيمة النقود كانت تساوى ثلاثة أضعافها اليوم ، والدينار نصف جنيه ، فتكون غلة «روكفلر» نحو ثلثى غلة الخيزران ، وكانت الخيزران مع ذلك شديدة الوطأة ، رغابة فى الاستئثار ، فلما آنست فى ابنها الهادى معارضة لارادتها ، دست إليه من قتله ، ولما ماتت توسع الرشيد بأموالها ، وأقطع الناس ضياعها .

على أن الخيزران كانت من أهل العلم والرأى ، فلاغرابة فى اقتنائها الأموال فى إبان الثروة العباسية ، إنما الغرابة فى اقتناء أمهات الخلفاء الأموال الكثيرة فى عصر الانحطاط و بيت المال فارغ ، فان قبيحة أم المعتز وجدوا لها من مخبآت فى الدهاليز ونحوها نحو (٢,٠٠٠,٠٠٠) دينار نقدا ، ومالاتقدر قيمته من التحف والجواهر مما نأتى بذكره على سبيل المثال ، من ذلك مقدار مكوك من الزمرد الثمين ونصف مكوك لؤلؤ كبير ونحو كيلجة ياقوت أحمر مما قدّروا قيمته (٢,٠٠٠,٠٠٠) دينار ، وكانت مع ذلك قد عرضت ابنها للقتل من أجل (٥٠,٠٠٠) دينار .

وأغرب من ذلك شأن أمّ محمد بن الواثق ، فقد كانت غلتها (١٠,٠٠٠,٠٠٠) دينار فى العام ، تنفقها فى جواريها وهى نحو غلة الخيزران ، وأخرجوا من تربة والدة المقتدر ٦٠٠,٠٠٠ دينار ، كانت مخبأة هناك ولم يعلم بها أحد مع ضيق الخليفة ، وفراغ بيت ماله . وقس على ذلك أمهات الخلفاء الآخرين فى العراق وغيره من بلاد الاسلام ، فقد كنّ يتمتعن بالنفوذ و يستولين على الأموال بالتواطؤ مع القوّاد ورجال الجند بما يتاح لهنّ من إطلاق الأيدى فى أمور الدولة كما فعل المستعين العباسى (٢٤٩ هـ) فانه أطلق يد والدته و يد اتامش وشاهك الخادم فى بيوت الأموال وأباحهم فعل ما أرادوا ، فكانت الأموال التى ترد من الآفاق يصير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة .

فلاعجب والحالة هذه اذا تحوّل الغنى الى النساء والخدم والقوّاد (وهل تستغرب بعد ذلك اذا علمت أنه كان بين رياش أم المستعين بساط أنفقت على صنعه (١٣٠,٠٠٠,٠٠٠) دينار (ربما درهم) فيه نقوش على أشكال الحيوانات والطيور ، أجسامها من الذهب ، وعيونها من الجواهر) . أواذا قيل لك : إن فلانة حشت فم الشاعر الفلانى درّا فباعه بعشرين ألف دينار . أواذاسمعت بهدايا قطر الندى وغيرها من نساء الخلفاء .

ناهيك بما كان فى بلاط الخلفاء العباسيين وغيرهم من القهرمانات اللواتى كنّ يتولين شئون دور الخلفاء والنفقة عليها بالاتفاق مع الوزير أومن ينوب عنه ، فكان لهؤلاء النساء نفوذ عظيم فى قصور الخلفاء وفى أعمال الدولة ، كما كانت تفعل أم موسى القهرمانة فى أيام المقتدر فى أوائل القرن الرابع للهجرة ، ولم يكن لأولئك القهرمانات سبيل للانفاق لولا مافى قصور الخلفاء من الجوارى والخدم وغيرهم [1] .

(١) إن هذا القول منقول من كتاب «تاريخ التمدن الاسلامى» ، وقد عزاه إلى المؤلفين المشهورين وكتبهم مثل : (١) المقريزى (٢) الجزء الأول من كتاب التمدن الاسلامى (٣) ابن الأثير (٤) الفخرى (٥) ابن عساكر نسخة كرايمر (٦) كتاب الخراج لأبى يوسف (٧) اليعقوبى (٨) المستطرف (٩) المسعودى (١٠) الماوردى (١١) ابن الفقيه (١٢) الطبرى (١٣) القرمانى .

الجوارى والغلمان

وفى مناقب المنصور (صفحة ١٠٤) : انه لما علم بوجود الطنبور فى داره كسره على حامله ، ولكن لم يمض على موته أربعون سنة حتى أصبحت دور الخلفاء مسرحا للغناء واللهو ، قالوا انه كان فى قصر الرشيد ثلثمائة جارية مابين جنكية إلى عودية ، إلى دفية ، إلى قانونية ، إلى زامرة ، إلى مغنية ، إلى راقصة ، إلى سنطيرية ، فضلا عمن كان فى قصره من الندماء والمضاحكين كالشيخ أبى الحسن الخليع الدمشقى (١) وابن أبى مريم المدنى (٢) وغيرهما ، ومامن جارية إلا وثمنها ألف دينار ، أوعشرة آلاف دينار (٣) إلى مائة ألف دينار غير مايقتضيه اقتناؤهنّ من النفقات الأخرى كالألبسة والحلىّ وهى شىء كثير ، فقداشترى الرشيد خاتما بمائة ألف دينار (٤) وقس على ذلك .

ناهيك بما كانوا يقتنونه من المماليك والغلمان مما يعدّون بالمئات والالوف ، فقد بلغ عدد خدم المقتدر (١١،٠٠٠) خصىّ من الروم والسودان (٥) غير مايقتضيه ذلك من الأبنية والقصور والرياش ، فقدبنى المعز دارا فى بغداد أنفق عليها ١٣،٠٠٠،٠٠٠ درهم (٦) و بنى الأمين قصورا فى الخيزرانية أنفق عليها ٢٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم (٧) واصطنع فى دجلة خمس حراقات (سفن) إحداها على صورة الأسد ، والثانية بصورة الفيل ، والثالثة بصورة العقاب ، والرابعة بصورة الحية ، والخامسة بصورة الفرس أنفق عليها مالا عظيما ، وفيها يقول أبونواس :

سخر الله للأمين مطايا ✽ لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ماركابه سرن برّا ✽ سارفى الماء راكبا ليث غاب
عجب الناس إذ رأوك على صو ✽ رة ليث تمرّ مرّ السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه ✽ كيف لوأبصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناحيـ ✽ ـن تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير فى السماء اذاما اسـ ✽ ـتعجلوها بجيئة وذهاب

ومما يحسن إيراده مثالا على بذخهم أن الأمين المذكور أمر يوما أن يفرش له على دكان فى الخلد ، ففرش عليها بساط ذرعىّ ونمارق وفرش مثله وهيئ من آنية الذهب والفضة والجواهر أمر عظيم ، وأمر قيمة جواريه أن تهيئ له مائة جارية صانعة ، فتصعد إليه عشرا عشرا بأيديهن العيدان يغنين بصوت واحد ففعلت (٨) انتهى من كتاب « تاريخ التمدن الاسلامى »

فلما سمع صاحبى ذلك ، ضرب كفا على كف ، وقال : أنا قرأت التاريخ فى المدارس وفى الكتب ، ولكنى والله لم أعلم ماعلمته اليوم ، إن التفصيل يفعل مالايفعله الاجمال ، وكيف يقتنى المقتدر ١١،٠٠٠ من خصىّ الروم والسودان ، وكيف تكون الحياة كلها حياة اسراف ، وماهذا الاسراف فى الطعام والشراب ، هذا والله هوالتفسير الحقيقى للقرآن ، حكمة الفلاسفة قبل ظهور القرآن وظهور الآثار فى أمم الاسلام بعد ذلك

لطيفة

إن ما كان ينفقه الخلفاء إنما كان من بيت المال ، ألاترى أن يحيى بن خالد البرمكى أمره الرشيد أن

---

(١) إعلام الناس ٩٧ — (٢) الطبرى ٧٤٣ ج ٣ — (٣) ترتيب الدول ١٢٦ — (٤) ابن الأثير ٤٤ ج ٦ — (٥) الفخرى ٢٣٤ — (٦) ابن الأثير ٢١١ ج ٨ — (٧) ابن الأثير ١١٢ ج ٦ — (٨) ابن الأثير ١٢٠ ج ٦

يدفع ثمن الجارية ١٠٠٠٠٠ دينار ، فاستكثره واعتذر عن دفعه فغضب الرشيد ، فأراد يحيى أن يبين له مقدار مايتحمله بيت المال من هذا الاسراف فيما لا مصلحة للدولة فيه ، فجعل ذلك المال دراهم ، فبلغت نحو ١٥٠٠٠٠٠ درهم ، فوضعها فى الرّواق الذى يمرّ به الرشيد اذا أراد الوضوء ، فلما رأى الرشيد ذلك المال استكثره ، ولما أخبروه انه ثمن الجارية أدرك إسرافه ، ولكنه شعر بما فى ذلك من الجرأة عليه ومحاولة غلّ يديه ، فحفظ ذلك فى نفسه ، ويقال انه كان من جملة ماحمله على نكبة البرامكة (١) .

واتفق نحو ذلك للواثق بالله مع وزيره ابن الزيات فى ثمن جارية ، فلما مطل الوزير بالدفع أمره أن يدفع ضعفين ، ففعل (٢) .

وفى كتاب أبى سفيان الثورى إلى الرشيد جوابا على كتاب استدعاه به إلى بغداد مايشبه كلام أبى ذرّ الغفارى لمعاوية ، ويدلّ على أن الرشيد كان يهب ويجيز من بيت مال المسلمين ، وذلك أن الرشيد دعاه بكتاب بعثه إليه فى الكوفة ، وأخبره أن الناس قدموا إليه ، وانه فتح بيوت الأموال ، وأعطاهم من المواهب السنية الخ . فأجابه أبو سفيان بكتاب شديد اللهجة ، وفى جملة ذلك قوله : « أما بعد فانى كتبت إليك أعلمك انى صرمت حبلك ، وقطعت ودّك ، وانك قد جعلتنى شاهدا عليك باقرارك على نفسك فى كتابك ، انك هجمت على بيت مال المسلمين ، فأنفقته فى غير حقه ، وأنفذته بغير حكمة ، ولم ترض بما فعلته وأنت ناء عنى حتى كتبت الىّ تشهدنى على نفسك ، فأما أنا فانى قد شهدت عليك أنا واخوانى الذين حضروا كتابك وسنؤدّى الشهادة غدا بين يدى الله الحكم العدل ، ياهرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم ، هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم ، والعاملون عليها فى أرض الله ، والمجاهدون فى سبيل الله ، وابن السبيل ؟ أم رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم (يعنى العاملين) ؟ أم رضى بفعلك الأيتام والأرامل ؟ أم رضى بذلك خلق من رعيتك ؟ (٣) . فهذا وأمثاله يدلّ على أن الخلفاء كانوا يهبون ويجيزون ويبذخون ويسرفون من بيت المال .

ومن هذا القبيل استئثار رجال الدولة بالأموال لأنفسهم ، فانّ الدولة اذا بلغت إلى قمة ثروتها ، وانغمس الملك فى الترف والقصف وتقاعد عن مباشرة الأحكام بنفسه تحوّل النفوذ إلى المحيطين به ، أو الذين ينوبون عنه ، أو يتوسطون بينه وبين الناس كالوزير والعامل والكاتب والحاجب والقائد ، وأصبح الأمر والنهى فى أيديهم ، فيستأثرون بالأموال لأنفسهم يجمعون منها ما استطاعوا ويسرفون ويبذخون على ماتقتضيه أحوالهم وأطوارهم ، ولا يكون ذلك إلا فى الدولة المطلقة التى ليس على أعمالها مراقب ولا محاسب ، فمن ينوب عن الملك من الوزراء أو الكتاب أو الحجاب فى عصر الترف والتقاعد يكون له نحو ذلك النفوذ ، وخصوصا فى مثل الدولة العباسية ، لأن وزراءها وكتابها من أمة لم تقم دولتهم إلا بها ، ولم يزه تمدنهم إلا بعلمائها ، ولذلك كان للوزراء فى هذه الدولة الكلمة النافذة ، والسيف القاطع ، حتى فى إبان تمدنها ، اعتبر بما كان من نفوذ البرامكة فى أيام الرشيد ، وما كان من احرازهم الأموال لأنفسهم ، حتى كان يحتاج الرشيد إلى اليسير من المال فلا يقدر عليه (٤) فلما غلوا يديه عما كانت تتطلبه نفسه من الترف والاستبداد (٥) نكبهم على ماهو مشهور كما نكب المهدى قبله وزيره يعقوب بن داود ، وكان قد استوزره ، وسلم إليه الامور ، وفوّض اليه الدواوين ، وانشغل المهدى عنه باللهو ، وسماع الأغانى ، فعظم ذلك على الناس ، وخصوصا العرب ، فهجوا يعقوب ، ومن ذلك قول بشار بن برد :

بنى أميــة هبوا طال نومكم ✡ إن الخليفة يعقوب بن داود

(١) الطبرى ١٣٣٢ ج ٣ — (٢) ابن الأثير ١٣ ج ٧ — (٣) الدميرى ١٨٨ ج ٢
(٤) المسعودى ٢٠١ ج ٢ — (٥) الطبرى ١٣٣٢ ج ٣

ضاعت

ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا ✲ خلافة الله بين الناى والعود (١)

ووشى بعض الناس إلى المهدى بذلك ، فاستدعاه ، وقبض عليه ، وسجنه ، وظلّ فى سجنه أعواما طوالا

وكما اتفق للمأمون مع يحيى بن أكثم القاضى إذ عهد إليه بتدبير مملكته وأكرمه نحوا كرام الرشيد للبرامكة (٢) ، ثم لم يكن راضيا عنه ، ولذلك لما دنت وفاة المأمون ، أوصى أخاه المعتصم قائلا : « لاتتخذن وزيرا تلقى إليه شيئا ، فقد علمت مانكبنى به يحيى بن أكثم فى معاملة الناس وخبث سيرته » (٣) . وكان العرب يكرهون الوزراء ، خصوصا لأنهم فى الغالب من الفرس ، وكانوا يصفونهم بالجبن والبخل وقبول الرشوة قال اعرابىّ يصف وزيرا :

ومظهر نسك ماعليه ضميره ✲ يحبّ الهدايا بالرجال مكور

اخال به جبنا وبخلا وشيمة ✲ تخبر عنه انه لوزير (٤)

على أن الوزراء كثيرا ما كانوا يمنعون المال عن الخلفاء ضنا ببيت مال المسلمين أن يذهب فى الاسراف لاطمعابه لأنفسهم ، كما اتفق للواثق مع وزيره ابن الزيات إذ أعجبه صوت غنته جارية اسمها « علم » فأمر لصاحبها بخمسة آلاف دينار ، فطل ابن الزيات فى دفعها ، فغضب الواثق ، وأمره أن يدفع ضعفى ذلك المال ، فدفع إليه ١٠،٠٠٠ دينار (٥) وكان الوزراء يزدادون نفوذا واستئثارا بالمال بزيادة ضعف الخلفاء ، حتى صارت معظم الأموال إليهم .

الوزراء

بلغ من ثروة الوزراء مايشبه ثروة الخلفاء ، أو بيت المال فى أيام الزهو كأن الأموال تحوّلت من بيت المال الى بيوت هؤلاء الناس ، وصارت الوزارة مطمح أنظار أهل المطامع يبذلون الرشا ، ويقدّمون الهدايا رغبة فيها ، على أنها كثيرا ما كانت تعرض عرضا على من يقوم بنفقات الجند (٦) ولكن الغالب أن تبذل الأموال فى سبيل الحصول عليها اما رأسا الى الخليفة كما فعل ابن مقلة إذ بذل ٥٠٠،٠٠٠ دينار حتى استوزره الراضى فى أوائل القرن الرابع للهجرة ، وكما فعل ابن جهير إذ ابتاع الوزارة من القائم بأمر الله بمبلغ ٣٠،٠٠٠ دينار (٧) أو بواسطة واحد من خاصة الخلفاء يستخدمونه بالمال ، وهم لم يكونوا يفعلون ذلك إلا لاعتقادهم أنهم يسترجعون فى أثناء وزارتهم أضعاف مابذلوه بما تصل اليه أيديهم من الرشوة من تولية العمال والنظار والكتاب وغيرهم .

ومن غريب مايحكى عن ارتشاء الوزراء أن الخاقانى وزير المقتدر بلغ من سوء سيرته فى قبول الرشوة انه ولى فى يوم واحد تسعة عشر ناظرا الكوفة ، وأخذ من كل واحد رشوة ، فانحدروا واحدا واحدا حتى اجتمعوا جميعا فى بعض الطريق ، فقالوا كيف نصنع ؟ فقال أحدهم : ينبغى ان أردتم النصفة أن ينحدر الى الكوفة آخرنا عهدا بالوزير ، فهو الذى ولايته صحيحة لأنه لم يأت بعده أحد ، فاتفقوا على ذلك ، فتوجه الرجل الذى جاء فى الأخير نحو الكوفة ، وعاد الباقون الى الوزير ، ففرّقهم فى عدّة أعمال ، وهجاه بعض الشعراء بقوله :

وزير لايملّ من الرقاعه ✲ يولى ثم يعزل بعد ساعه

ويدنى من تعجل منه مال ✲ ويبعد من توسل بالشفاعه

---

(١) الفخرى ١٦٦ — (٢) ابن خلكان ٢١٧ ج ٢ — (٣) الطبرى ١١٣٩ ج ٣
(٤) الطبرى ١٠٨٨ ج ٣ — (٥) ابن الأثير ١٣ ج ٧ — (٦) ابن الأثير ٨٣ و٨٦ ج ٨ وصلة تاريخ الطبرى ٧٩ — (٧) الفخرى ٢٥٣ و٢٦٦

اذا أهل الرشا صاروا اليه ☆ فأحظى القوم أوفرهم بضاعة (١)

وكانت الأموال ترد على الوزراء من العمال وغيرهم من موظفى الدولة ضريبة فى كل عام بصفة هدية استبقاء لرضاهم.. على أن بعضهم ، وهونادر، لم يكن يقبل الرشوة ، ولا يعمل إلا بالحق مثل عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل على الله فانه كان عفيفا ، ذكر الفخرى أن صاحب مصر حمل إليه ٢٠٠،٠٠٠ دينار وثلاثين سفطا من الثياب المصرية على عادته مع غيره من الوزراء ، فلما أحضرت بين يديه ، قال لوكيل صاحب مصر: «لا والله لا أقبلها ، ولا أثقل عليه بذلك» ، ثم فتح الأسفاط ، وأخذ منها منديلا وضعه تحت فخذه وأمر بالمال فحمل الى خزانة الديوان وصحح بها وأخذ به دورا لصاحب مصر (٢)

ومن الوزراء الذين اشتهروا بالعفة وصدق الخدمة علىّ بن عيسى وزير المقتدر ، ولا يخلو أن يكون غيرهم قد أخلص الخدمة ، ولكن يقال بالاجمال أن الوزراء فى عصر التقهقر العباسى قلما كانوا يتولون الوزارة إلا طمعا باختزان الأموال ، فان أبا الحسن بن الفرات وزّر للمقتدر ثلاث دفعات : الأولى سنة ٢٩٦ هجرية بقى فيها ثلاث سنين ، فكان مقدار ما اجتمع عنده من المال يساوى ٧،٠٠٠،٠٠٠ دينار أخذت كلها مصادرة ، ثم عاد إلى الوزارة سنة ٣٠٤ وخلع سنة ٣٠٦ ثم عاد ثالثة سنة ٣١١ وخلع سنة ٣١٢ ﻫ فمجموع المدة التى مكث بها فى الوزارة فى الدفعتين الأخيرتين نحو ثلاث سنوات ، فكان عنده لما خلع أخيرا مايزيد على ١٠،٠٠٠،٠٠٠ دينار ، وضياع يستغلّ منها كل سنة ٢،٠٠٠،٠٠٠ دينار (٣) ومع ذلك لم يذكره المؤرخون بسوء لفرط كرمه واحسانه ، وكان اذا ولى الوزارة يغلو الثلج والشمع والكاغد لكثرة استعماله له لأنه ما كان يشرب أحد كائنا من كان فى داره فى الفصول الثلاثة إلا الماء المثلوج ، ولا كان أحد يخرج من عنده بعد الغروب إلا و بين يديه شمعة كبيرة نقية ، وكان فى داره حجرة معروفة بحجرة الكاغد ، كل من دخلها واحتاج الى شىء منه أخذه (٤) وكان يطلق لأصحاب الحديث عشرين ألف درهم ، وللشعراء عشرين ألف درهم ، ولأصحاب الأدب عشرين ألف درهم ، وللفقهاء عشرين ألف درهم ، وللصوفية عشرين ألف (٥) وكان يجرى الرزق على خمسة آلاف من أهل العلم والدين والبيوت والفقراء وأكثرهم ١٠٠ دينار فى الشهر ، وأقلهم خمسة دراهم ومابين ذلك (٦) ، فغطى الكرم طمعه كما غطى طمع البرامكة قبله ، وقطع ألسنة الشعراء ، وكسر أقلام المؤرخين .

وهناك كثيرون من الوزراء جمعوا أموالا طائلة ، وانغمسوا فى أنواع الترف والبذخ ، وذلك طبيعىّ فى الدول المنتظمة على الطرق القديمة ، لأن الوزراء كانوا يجمعون الأموال الكثيرة حيثما كانوا فى العراق ، أو فى مصر ، أوفى الأندلس ، فقد خلف الماردانى وزير بنى طولون بمصر من الضياع الكبار ماقلما ملكه أحد قبله وارتفاعها ٤٠٠،٠٠٠ دينار كل سنة سوى الخراج ، وقد وهب وأعطى وأفضل ، وحج ٢٧ حجة أنفق فى كل منها ١٥٠،٠٠٠ دينار (٧) . ويعقوب بن كلس أوّل وزراء الفاطميين كان فى جملة أملاكه أقطاع فى الشام دخله ٣٠٠،٠٠٠ دينار فى السنة ، وخلف أملاكا وضياعا وقياسر ورباعا وخيلا و بغالا ونوقا ، وغير ذلك ماقيمته ٤،٠٠٠،٠٠٠ دينار غير ما أنفقه فى تجهيز ابنته وهو ٢٠٠،٠٠٠ دينار ، وخلف ٨٠٠ حظية سوى جوارى الخدمة ، وأربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيرية (٨) وخلف الأفضل أمير الجيوش وزير المستنصر الفاطمى مالم يسمع بمثله وذلك ٦٠،٠٠٠،٠٠٠ دينار عينا (٩) و٢٥٠ أردب دراهم

---

(١) الفخرى ٢٤١ — (٢) الفخرى ٢١٦ — (٣) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١

(٤) الفخرى ٢٤٠ — (٥) ابن الأثير ٥٧ ج ٨ — (٦) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١

(٧) المقريزى ١٥٥ ج ٢ — (٨) المقريزى ٦ ج ٢

(٩) وهو فى الأصل ستمائة ألف ألف دينار ، ولابد من خطأ تطرّق الى نصه ، إذ لا يعقل أن يجتمع هذا

نقد

نقد مصر ، و ٧٥٠٠٠ ثوب ديباج أطلس و ٣٠ راحلة احقاق ذهب عراقى ، ودواة ذهب فيها جوهر قيمته ١٢٠٠٠ دينار ، ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال فى عشرة مجالس فى كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الألوان أيما أحبّ لبسه ، و ٥٠٠ صندوق كسوة ماعدا الخيل والبغال والماشية والجوارى والعبيد مالا يحصيه عدّ (١)

وقس على ذلك أحوال الوزراء فى الأندلس فان هدية الوزير ابن شهيد لعبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٧ هجرية تدل على مقدار تلك الثروة ، فقد أوردها ابن خلدون والمقرى ، وفصلها هذا الأخير تفصيلا حسنا فى ثلاث صفحات كبيرة (٢) .

وحدث نحو ذلك فى الدولة العثمانية فى ابان ثروتها ، فكان الوزراء يقتنون الضياع الواسعة ، ويحتالون فى استغلالها بأن يقفوها على بعض المساجد ، بشرط أن يستولى ورثتهم على معظم ريعها ، ليخلصوا أنفسهم من خراجها ، أوعشورها !

أما الأبواب التى كان وزراء الدولة العباسية يكتسبون تلك الأموال بها فكثيرة ، من جملتها قبول الرشوة فى التوظيف كما تقدم ومايرد عليهم من هدايا العمال للسبب نفسه ، ومنها اغتصاب الضياع بما لهم من النفوذ فيستولون على ماشاءوا بغير حساب ، ناهيك بما كانوا يمدّون إليه أيديهم من أموال الخراج الواردة إلى الديوان ، وقد تقدم أن طرق دفاتر تلك الأيام لم تكن تمنع الاختلاس أوتظهره .

ومن أبواب الكسب أيضا أن بعض الموظفين كانوا يحتاجون الى رواتبهم وهم مشغولون بما هم فيه من الخدمة ولاسبيل لهم إلى المال فكان بعض الوزراء يقيم من قبله أناسا يشترون توقيعات أرزاق أولئك الموظفين بنصف قيمتها ثم يقبضها هو كاملة (٣) وكانوا يفعلون نحو ذلك أيضا فى رواتب الفقهاء وأرباب البيوت فكأنهم كانوا يقاسمون الناس على أنصاف رواتبهم ، وهو اتجار برواتب الموظفين فضلا عن اتجارهم بالأرزاق وعما كانوا يكتسبونه ممن يضمن بلدا أوخراجا على سبيل الرشوة أوالاقتسام ، وما كانوا يغتصبونه من التجار بنفوذهم وإغضاء الخلفاء عنهم (٤) . وكانوا يسمون ما يكتسبه الوزراء على هذه الصورة « مرافق الوزراء » وكانت مشهورة بين الناس ، ومن مرافقهم أيضا تنقيص عيار النقود ، فكانوا يضربون الدنانير ناقصة ، فيربحون من ذلك مالا طائلا (٥) .

تلك كانت حال الوزراء ، وفى أيديهم الحلّ والعقد ، ومع ذلك فالخلفاء هم المطالبون بأرزاق الجند ، وقد علمت ماكان من أمر الأتراك واستبدادهم فى الخلفاء ومطالبتهم بالأموال لأرزاقهم ونفقاتهم فلم يكن يرى الخلفاء سبيلا إلى ذلك إلا بمطالبة الوزراء ، فاذا لم يدفعوا أخذوا المال منهم بالقوّة ، وهو مايعبرون عنه بالمصادرة ، وكانت المصادرة رائجة فى عصر التقهقر إذ لم يكن من سبيل إلى سد نفقات الدولة إلا بها ، ولايكاد يتولى وزير إلا انتهت وزارته بالمصادرة أو بالقتل أو بهما جميعا اهـ

***

هنالك أعجب صديقى بهذه الأخبار إعجابا شديدا ، وانشرح صدره ، ولكنه قال : إن مصادر هذه الأخبار كتب مختلفة ، وبعضها كتب محاضرات وحكايات . فقلت نعم ، ولكنه على كل حال يدل على حال القوم إذ ذاك بجملته لابتفصيله . قال : فأرجو أن تبين لى حال ثروة أهل المملكة فى ذلك الزمان . فقلت : جاء

المال عند واحد ، وهو يفوق مجموع خراج مصر لمئة سنة ، فالأرجح أن يكون المراد ستين ألف ألف دينار كما قلنا ، ويستبعد أن يكون المراد دراهم بدل دنانير ، لأن أموال مصر قلما قدّرت بالدراهم .

(١) ابن خلكان ٢٢٢ ج ١ — (٢) نفح الطيب ١٦٨ ج ١ — (٣) ابن الأثير ٨٤ ج ٨

(٤) الطبرى ٧٠٣ ج ٣ — (٥) ابن الأثير ١٤٩ ج ٨

فى كتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » مانصه :

« كانت المدنية محصورة فى المدن دون القرى عملا بقاعدة التمدّن فى تلك الأيام وهى أن تكون الثروة والأبهة حيثما يكون ولاة الأمر أومن يلوذ بهم من الخليفة إلى أهله ، فأهل بلاطه فعماله ووزرائه ، وهؤلاء كانوا يقيمون فى المدن ، وخصوصا العواصم ، ولذلك عمرت بغداد والبصرة ودمشق والفسطاط والقاهرة والقيروان وقرطبة وغرناطة ونحوها ، وظلت القرى والضياع مغارس لاعمارة فيها . ولا تكاد تجد أثرا من آثار ذلك التمدن فى غير المدن .

فنى هذه المدن فاضت ينابيع الثروة الاسلامية وعاش الناس فى الرخاء والرغد بجوار الخليفة ، ورجال دولته ينالون جوائزهم وهداياهم وخلعهم ويبيعونهم السلع والجوهرات والأقمشة ، وفى هذه المدن كان يجتمع العلماء والشعراء والمغنون والندماء يتعيشون بما يجود به الخليفة ، أوأمراؤه ، أو رجال دولته .

فلما كان بلاط الرشيد غاصا بالوفود ، و بيت ماله حافلا بالنقود ، والبرامكة يبذلون المئات والالوف ، كان تجار بغداد فى نعمة وثروة ، وخصوصا باعة الجوهرات والرياش لأنهما مما تتطلبه المدنية فى عهد الترف والبذخ فقد رأيت فى بعض ماتقدم أن جوهريا بالكرخ فى بغداد ساومه يحيى البرمكى على سفط من الجوهر بمبلغ ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم فلم يبعه (١) وهو جزء مما فى حانوته فما قولك بسائر مافيه ، وهناك جوهرى آخر يقال له ابن الجصاص صادره الخليفة المقتدر سنة ٣٠٢ ﻫ فكان ما أخذوه من بيته من صنوف الأموال تزيد قيمته على ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار (٢) وكان فى بغداد شريف يسمى محمد بن عمر بلغ خراج أملاكه ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ درهم فى السنة (٣)

وقس على ذلك سائر التجارات فى بغداد وغيرها ، فقد كان فى اصطخر بيت ينتسب إلى آل حنظلة أحدهم عمرو بن عيينة ، بلغ من يساره أنه ابتاع بمليون درهم مصاحف فرّقها فى مدن الاسلام ، وكان مبلغ خراج هذا البيت من ضياعهم نحو ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، ومنهم مرداس بن عمر كان خراج ماله ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ وابن عمه محمد بن واصل ملكه مثل ملكه (٤) . وكان فى سيراف تجار واسعو الثروة يجوز مال أحدهم ٦٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم اكتسبها من تجارة البحر من العود والكافور والعنبر والجواهر والخيزران والعاج والآبنوس والفلفل وغيرها (٥) ، ومنهم من يبنى دارا فينفق على بنائها ٣٠٫٠٠٠ دينار (٦) وأوصى أحدهم بثلث ماله لعمل فبلغ ١٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار بين مركب قائم بنفسه وآلته (٧) ، وأمثال ذلك كثير فى معظم مدن المشرق .

وقس عليه ثروة كل من خالط الخلفاء ونال جوائزهم ، أوخدمهم فى بلاطهم فى ابان ثروتهم غير الوزراء والكتاب والعمال فانهم جمعوا أموالا طائلة حتى المغنين والشعراء ، فقد توفى ابراهيم الموصلى مغنى الرشيد عن ثروة مقدارها ٢٤٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم (٨) ، وتوفى جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد وخلف مايساوى ٩٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم من ضياع وجواهر ونقود .

واعتبر ذلك فى سائر البلاد والأحوال ، فتجد الثروة كانت فى الغالب عند الخلفاء ، أومن ينتمى إليهم ، حتى التجار فانهم إنما كانوا يأمنون على ثروتهم بالانتماء إلى أولى الأمر إلا نادرا .

(١) الطبرى ٧٠٢ ج ٣ — (٢) ابن الأثير ٣٣ ج ٨ — (٣) ابن الأثير ٢٠ ج ٩
(٤) الاصطخرى ١٤٢ — (٥) الاصطخرى ١٥٤ — (٦) ابن حوقل ١٩٨
(٧) ابن حوقل ٢٠٧ — (٨) سير الملوك ١١٣

القرى

أما القرى فقد كان سكانها الفلاحين من أهل البلاد الأصليين ، و يسمونهم « أهل الخراج » ، فهؤلاء يعملون بالأجرة ، أوشركاء لأصحاب الأملاك من الخلفاء ، أوالأمراء ، أومن ينتمى إليهم من الأعيان ، وخصوصا الدهاقين فى العراق وفارس وهم أصحاب الاقطاعات الكبرى قبل الاسلام . فلما كان الاسلام تقرّبوا من الحكومة بأموالهم (١) ونفوذهم فى أهل بلادهم ، و يندر أن يكون للفلاحين ملك خاص بهم لأسباب تقدّم بيانها ، فكان القرى هم الفلاحون ، ومن يجرى مجراهم ، وكانوا يقتنعون بالحصول على ما يقوم بأود حياتهم ، و يغلب فيهم الفقر المدقع ، وربما كان بينهم من لم ير الدينار طول عمره ، فكان أهل الدولة فى المدن يبذلون الدنانير جزافا ، و يهبونها مئات وآلافا ، وأهل القرى فى فقر مدقع ، لو رأى أحدهم الدينار لسجدله وقبله مثنى وثلاث ، ولودفعت إليه عشرة دنانير أوعشرين لأصابه خبل ، أومات من ساعته كما اتفق للصياد بين يدى ابن طولون أمير مصر فى أواسط القرن الثالث للهجرة ، وهومشهور بكرمه وبذخه بما أنشأه من القصور والغياض والاسطبلات ، وكان ينفق كل شهر ألف دينار على الفقراء ، وهوالذى جاء وكيله يوما ، فقال : « انى تأتينى المرأة وعليها الازار ، وفى يدها خاتم الذهب ، فتطلب منى فأعطيها » . فقال له : « من مدّ يده إليك فأعطه » (٢)

ومع ذلك فانّ هذا الأمير نفسه ركب فى غداة باردة إلى جهات المقس بجوار الفسطاط ، فأصاب بشاطئ النيل صيادا عليه خلق لايواريه منه شىء ومعه صبىّ فى مثل حاله ، وقد ألقى الشبكة فى البحر ، فلما رآه ابن طولون رقّ لحاله ، وقال : يانسيم ادفع إلى هذا عشرين دينارا ، فدفعها إليه ، ولحق ابن طولون ، فسار ولم يبعد ، ورجع فوجد الصياد ميتا ، والصبىّ يبكى ويصيح ، فظنّ ابن طولون أن بعض سودانه قتله وأخذ الدنانير منه ، فوقف بنفسه عليه وسأل الصبىّ عن أبيه . فقال له الغلام : « هذا (وأشار الى نسيم الخادم) دفع إلى أبى شيئا فلم يزل يقلبه حتى وقع ميتا » . فقال : فتشه يانسيم ، فنزل وفتشه فوجدالدنانيرمعه بحالها فحرّض الصبىّ أن يأخذها فأبى ، وقال : هذه قتلت أبى وان أخذتها قتلتنى ، فأحضر ابن طولون قاضى المقس وشيوخه ، وأمرهم أن يشتروا للصبى دارا بخمسمائة دينارتكون لها غلة ، وأن تحبس عليه ، وكتب اسمه من أصحاب الجرايات ، وقال : أما قتلت أباه لأن الغنى يحتاج إلى تدريج والا قتل صاحبه ، هذا كان يجب أن يدفع إليه دينار بعد دينار حتى تأتيه هذه الجلة على تفرقة فلاتكثر فى عينيه (٣)

فاذا كان هذا حال رجل من أهل ضواحى العاصمة ، فكيف بأهل القرى البعيدين عن ترف الدولة و بذخها وجراياتها ووظائفها ؟ . اهـ

***

فلما سمع صاحبى ماتقدم . قال : إن من أعظم نعم الله عزّوجل على أممنا الاسلامية اليوم امتزاج التاريخ والفلسفة بالقرآن ، والله ان المسلمين بعد أن اختلطوا بالأمم ، وذاقوا حلو الزمان ومرّه ، لن يخرجهم من مأزقهم إلا الاطلاع على السير والأخبار والفلسفة بشرط أن يكون منهم من يمتحنون تلك السير ، و يفهمون المتأخرين أخلاق المتقدمين ، ويذكرونهم بما كان منهم من الخطأ والخطل ، هنالك يرجع للأمم الاسلامية مجدهم ، و يعلوشأنهم ، ويذهب عنهم الخزى فى الحياة الدنيا .

هـذا وانى أرجو أن أشرح بقول جامع فى هذه المسألة ، وهى أن (سقراط) كان يحرّم على الأمراء والجنود أن يقتنوا بيوتا ، أويكون لهم مال ، فاذا أفضت فى ذلك وشرحت أوامر عمر رضى الله عنه كان ذلك

(١) ابن الأثير ١٠١ ج ٥ — (٢) ابن خلكان ٥٥ ج ١ — (٣) المقريزى ١٢٣ ج ٢

خير معوان على تذكير أممنا الاسلامية بعدنا . فقلت : جاء فى الكتاب المذكور تحت عنوان « انتشار العرب فى الأرض » مانصه :

« قد رأيت رغبة عمر بن الخطاب رجل الاسلام فى جمع كلمة العرب وتوثيق عرى الاتحاد بين قبائلهم ، وتأكيد العلائق بين منازلهم ، فحرّضهم على فتح العراق والشام ، لعلمه بما هنالك من قبائل العرب ، فاذا انضموا إلى عرب الحجاز واليمن زادوا الاسلام قوّة ، ولكنه منعهم عما وراء ذلك ، وأمرهم اذا بنوا بلدا فى دار الفتح أن لايبنوه فى مكان يحول بينه وبين المدينة ماء خوفا على الجامعة العربية أن يزداد تباعد أطرافها فتتمزّق ، ورغبة منه فى استبقاء مركز الخلافة عند قبر النبىّ ﷺ على أن يستبقى البلاد المفتوحة لاستدرار مافيها من غلة أومال لأهل الحجاز ، ولهذا السبب أيضا نهى المسلمين عن الزرع وشدّد فى منعهم اعتمادا على الحديث القائل : « السكة (المحراث) مادخلت دار قوم إلا دخله الذل » (١) ولأن الاشتغال بالزرع يشغلهم عن الحرب ، وهو يريد أن يقيمهم حامية لجمع الخراج والجزية واستبقاء السلطة ، ولم تكن المدن التى بنوها فى صدر الاسلام كالبصرة والكوفة والفسطاط إلا حصونا أومعسكرات ينزل فيها جند العرب نزول الحامية أو جيش الاحتلال (٢) ولهذا السبب أيضا أخرج غير المسلمين من جزيرة العرب عملا بوصية النبىّ ﷺ أن لايترك فى جزيرة العرب دينان (٣) وأن لايأتى الحج أحد من المشركين (٤) فأخرجهم وتخلص من خطرهم إذ لو بقوا هناك على غير دين الاسلام لأقلقوا الراحة ، وربما كانوا عونا لغير المسلمين ، كما كان نصارى الشام والعراق ينصرون الروم بعد ذلك كما سترى .

فكانت السياسة فى صدر الاسلام أن يبقى المسلمون فى بلاد العرب وضواحيها ، وكان القوّاد الذين فتحوا الشام والعراق قد ذاقوا لذة الفتح مع سهولته عليهم فلم يكفوا عن عمر حتى أذن لهم بفتح ماوراء ذلك كما تقدم ، فكان عمر وهو فى المدينة قابضا على أطراف الدولة يشدّها نحوه ورجاله يحاولون الذهاب بها شرقا وغربا حتى اضطر أخيرا إلى مجاراتهم ، وأذن بانسياحهم فى الأرض ، فتفرّق العرب ، وفتحوا مصر وفارس وافريقيا وغيرها ، ولما تولى عثمان أطلق العنان لقريش أن يخرجوا من المدينة ، فخرجوا وتفرّق العرب فى الأرض ، وانتشروا فى مصر والشام والعراق وفارس ، وماوراءها ، وعددهم يومئذ لايزيد على ٢٠٠٫٠٠٠ نفس (٥) وهم جند المسلمين وعليهم حماية مملكتهم الجديدة واستغلالها ، وسكانها يزيدون على مئة مليون ، ودولة الروم واقفة لهم بالمرصاد » انتهى

فها أنت ذا ترى من هذا المقال ومن غيره أن عمر رضى الله عنه منع من الزرع وشدّد فيه ، واذا قرأت ماتقدّم فى ﴿ سورة الشورى ﴾ عند الكلام على عدل عمر رضى الله عنه عرفت مما هناك أيضا كيف كان يمنع المسلمين من اقتناء الأرض ، وهو نفسه كان لايملك شيئا .

فقال صاحبى : ياسبحان الله ، نحن جئنا فى زمان مختلط مزدوج جاهلى ، نحن من أبناء العرب ، ونحن اليوم فلاحون ، إذن كان أمرنا قديما غير ذلك ، وكان آباؤنا مأمورين أن يكفوا عن الزرع ، وأن يكونوا قادة وسادة للامم ، فلما طمعوا فى المال ذلوا . فقلت نعم ذلوا ، وهل ترى أعجب من أن يتحد العلم والدين على هذه القضية ، فترى (سقراط) يحرّم على الأمراء والجند الذهب والفضة ، ويقول : خذوا مايكفيكم من مال الأمة ، ولاتشاركوها فى أموالها ، ثم ترى هذه الفكرة عينها هى التى جاءت فى الاسلام ، ولكن الوحى الاسلامى كانت له نتيجة فعلا ، ودولة قامت ، وإن لم تدم ، أما الفلسفة السقراطية فانها لم تقم بها دولة على قيامها ، بل هى آراء وقوانين لم يتحقق منها شىء فى الأرض ، اللهم إلا مايقتبسه الناس اليوم فى أوروبا

---

(١) ابن خلدون ١١٩ ج ١ — (٢) الجزء الأوّل من كتاب تاريخ التمدّن الاسلامى
(٣) ابن هشام ١٩٥ ج ٢ — (٤) ابن هشام ٥٠ ج ٣ — (٥) ابن خلدون ١٣٦ ج ١

من

من تربية الجند وحفظ الأجسام والعقول بالتمرينات العضلية ونحوها ، ولقد أخذ المسلمون بما يقرب من نظام عمر زمانا ، فكان الرجل اذا أسلم من الأمم التى فتحوا بلادها سموه مولى ، وجرّدوه من ملكه ، وألحقوه بالحامية الاسلامية ، وصار له مالهم ، وعليه ماعليهم ، وأخذ عطاء مثلهم ، ولكن لما فسدت الأخلاق ، وتطورت الأحوال ، وساءت العقبى ، خلعوا العذار ، ونسوا العهود ، و بغوا فى الأرض فسادا ، فانظر نبذا مما جاء فى كتاب « تاريخ التمدّن الاسلامى » وهو خلاصة الجزء الخامس ، وهاك بيانها :

﴿ أولا ﴾ — أتباع الخاصة

كان للخاصة أتباع أخرجوهم من طبقات العامة بما خصوهم به من أسباب القربى أو الخدمة ، وهم أربع طبقات : الأولى الجند ، الثانية الأعوان ، الثالثة الموالى ، الرابعة الخدم . انتهى

﴿ ثانيا ﴾ — كثرة الأسرى أو الأرقاء

وتكاثر الأسرى فى أثناء الفتوح حتى كانوا يعدّون بالألوف ، و يباعون بالعشرات ، اعتبر ما كان من ذلك فى الصدر الأوّل ، وماتبعه من الفتوح البعيدة فى أيام بنى أمية ، فقد بلغت غنائم موسى بن نصير سنة ٩١ هجرية فى افريقية ٣٠٠٫٠٠٠ رأس من السبى ، فبعث خمسها إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ٦٠٫٠٠٠ رأس ، ولم يسمع بسبى أعظم من هذا [١] ، وذكروا أن موسى هذا لما عاد من الأندلس كان معه ٣٠٫٠٠٠ بكر من بنات شرفاء القوط وأعيانهم [٢] ، وقس على ذلك غنائم قتيبة فى بلاد الترك وغيرها

و بلغت غنائم ابراهيم صاحب غزنة سنة ٤٧٢ هجرية من قلعة فى الهند ١٠٠٫٠٠٠ نفس [٣] ، وفى وقعة ببلاد الروم سنة ٤٤٠ هـ بقيادة ابراهيم بن ينال سبى المسلمون ١٠٠٫٠٠٠ رأس غير الدواب [٤] وفى جملة غنائم الحرب فضلا عن الأسرى من الرجال جماعات من النساء والغلمان مما يثقل نقله ، فكثيرا ما كانوا يبيعونهم بالعشرات رغبة فى السرعة كما فعلوا فى واقعة عمورية سنة ٢٢٣ هـ إذ نادوا على الرقيق خمسة خمسة ، أوعشرة عشرة ، ور بما بلغ ثمن الانسان بضعة دراهم ، ذكروا أن غنائم المسلمين فى واقعة الارك بالأندلس سنة ٥٩١ هـ بيع الأسير فيها بدرهم ، والسيف بنصف درهم [٥] والبعير بخمسة دراهم وقد يقضون عدّة أشهر وهم يبيعون الأسرى والغنائم .

تلك أمثلة من أسباب تكاثر الرقيق عند المسلمين غير ما كان يرسله بعض العمال إلى بلاط الخلفاء من الرقيق وظيفة كل سنة من تركستان [٦] و بلاد البربر وغيرهما .

معاملة الأسرى

كانوا فى صدر الاسلام اذا ظفروا بغنيمة تولى الأمير قسمتها على القوّاد بعد إرسال الخمس إلى بيت المال ثم اختلف ذلك مع الزمان باختلاف الدول ، ففى الدولة الفاطمية بمصر كانوا اذا عاد الجند من حرب ومعهم الأسرى يصل الاسطول بالنيل إلى شاطئ القاهرة ، فينزلون الأسرى و يطوفون بهم القاهرة ثم ينزلونهم فى مكان كانوا يسمونه المناخ (فى جهة الاسماعيلية اليوم) كان مستودعا للأسرى الذكور ، فينظرون فيهم ، فاذا استرابوا فى أحد قتلوه ، ومن كان شيخا لاينفع ضربوا عنقه ، وألقوا جثته فى بئر كانت فى خرائب مصر تعرف ببئر المنامة ، ومن بقى يضاف الرجال منهم إلى من فى المناخ ويمضى بالنساء والأطفال إلى قصر الخليفة

(١) نفح الطيب ١١٣ ج ١ وابن الأثير ٢٥٩ ج ٤ — (٢) ابن الأثير ٢٧٢ ج ٤
(٣) ابن الأثير ٤٦ ج ١٠ — (٤) ابن الأثير ٢٢٧ ج ٩ — (٥) نفح الطيب ٢٠٩ ج ١
(٦) المقريزى ٣١٣ ج ١

بعد ما يعطى الوزير منهم طائفة ويفرّق الباقى لخدمة المنازل ، ويدفع الصغار من الأسرى إلى الاستاذين فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرماية ، ويسمونهم إذ ذاك « الترابى » وقد يرتقى أولئك الصبيان إلى رتب الأمراء (١)

ولم يكن استخدام الأسرى على هذه الصورة خاصا بالمسلمين ، بل هى عادة كانت مرعية فى تلك الأعصر فمن يقع من المسلمين فى يد أعدائهم كان حظهم الاسترقاق حتى يفتديهم المسلمون ، وكان للخلفاء عناية فى فكاك الأسرى يبذلون فى سبيله المال ، أو يعطون أسرى عندهم على سبيل المبادلة ، وأشهر ما وقع من الفداء بين المسلمين والروم ، لأن الحرب كانت سجالا بينهما فى البرّ والبحر يأسر بعضهم بعضا فاحتاج الخلفاء إلى الفداء ، وكان الأمويون يفتدون أسراهم أحيانا وعلى قلة النفر بعد النفر فى سواحل الشام والاسكندرية وملطية وسائر الثغور على الحدود ، وأوّل فداء منظم وقع فى أيام بنى العباس على يد الرشيد سنة ١٨٩ ﻫ وتوالى الفداء بعده بضع عشرة مرة فى أثناء ١٥٠ سنة ، وتزايدت عناية المسلمين فى فكاك أسراهم حتى أصبح أهل الورع من الأغنياء يقفون المال على فكاكهم (٢) .

أما الروم فقلما كانوا يفتدون أسراهم بالمال ، ولعلّ السبب فى ذلك أن أولئك الأسرى يكونون فى الغالب لفيفا من رعاياهم ، أو أجنادا من الغرباء المأجورين وليس من الروم أنفسهم ، أما المسلمون فهم غالبا المهاجون ، فاذا ظفروا كانت غنائمهم من ذلك اللفيف ، واذا غلبوا فمن وقع فى الأسر منهم كان من الحار بين الذين يستحقون الفداء ، والرابطة القومية بين المسلمين يومئذ أشدّ وثوقا منها بين الروم ورعاياهم وأجنادهم . على أن المسلمين كثيرا ما كانوا يأبون المال بدل الأسرى ، ولاسيما فى الدولة الفاطمية ، ولا يعرف عن هذه الدولة أنها فادت أسيرا من الافرنج بمال ، ولا بأسير مثله ، فكان ذلك من جملة البواعث على زيادة الأرقاء عند المسلمين .

فهل يستغرب بعد ذلك اذا استكثر المسلمون من العبيد والمماليك ، فيبلغ عددهم عند بعضهم عشرة أومائة أو ألفا ، حتى الفقراء من عامة الجند كان أحدهم لا يخلو من عبد أو بضعة عبيد يخدمونه (٣) ، وكان للفارس فى عصر الأيوبين عشرة أتباع يخدمونه ، أو بضع عشرات إلى مائة (٤) فكيف بالأمراء والقوّاد حتى فى صدر الاسلام ، فان الخليفة عثمان كان له ألف مملوك مع علمك بزهد الراشدين قبله (٥) ، فاعتبر كم يكون عددهم فى أيام الثروة والترف ؟ فقد كان الأمير فى الدولة الأموية اذا سار مشى فى ركابه مائة عبد ، أو بضع مئات ، أو ألف عبد (٦) ، وبلغ عدد غلمان رافع بن هرثمة والى خراسان سنة ٢٧٩ هجرية ٤٠٠٠ عبد ولم يملك أحد من ولاة خراسان قبله مثله .

أصناف الأرقاء

وكانوا اذا تكاثر الأرقاء عند أحدهم وأراد استخدامهم فى منزله جعل عليهم نقيبا يتولى النظر فى شؤونهم يسمونه (الاستاذ) . على أن الغالب فى الغلمان اذا كثروا عند أمير أن يتخذهم جندا يحرسونه فيعلمهم الحرب والقتال ، فقد كان عند الاخشيد صاحب مصر ٨٠٠٠ مملوك يحرسه فى كل ليلة ألفان ، وأكثر فرق الجند عند الأمراء من غلمانهم ، وأصلهم من السبى والأسرى ، أو يبتاعونهم بالمال لهذه الغاية كما تقدم فى كلامنا عن فرق الجند ، وربما بلغ ثمن المملوك ألف دينار .

---

(١) المقريزى ١٩٣ ج ٢ و ٤٨٩ ج ١ — (٢) المقريزى ٧٩ و ١٩١ ج ٢ — (٣) المسعودى ٢٢ ج ٢
(٤) المقريزى ٩٥ ج ١ — (٥) الدميرى ٤٩ ج ١ — (٦) ابن الأثير ١٤٧ ج ٤ والأغانى ٣٧ ج ١

اما

أما الباقون من الأرقاء للخدمة فى البيوت ، فيعلمونهم الصنائع اللازمة لتدبير المنزل ، فنهم الفرّاش والطباخ والخازن والوكيل أوالنقيب والبوّاب والملاح والركابى وغيرهم (١) ، ومنهم الوصيف والمملوك ، وفيهم الرومى والتركى والفارسى والبربرى والزنجى والصقلبى بين مجلوب ومولد من الذكور والاناث مما لا يحصى .

واذا زادوا عما يحتاجون إليه فى الخدمة أوالحراسة أوالحماية اتخذوا الغلمان منهم زينة لمجالسهم ، وكان يفعل ذلك أهل السعة واليسار ، ولاسيما الخلفاء فانهم تأنقوا فى تزيينهم بأنواع الألبسة المزخرفة مما لم يسبق له مثيل ، وأوّل من أقدم على ذلك الأمين بن الرشيد ، فانه بالغ فى طلب الغلمان ولاسيما الخصيان وابتاعهم ، وغالى فيهم ، وصيرهم لخلوته ، وزينهم مثل زينة الجوارى ، ثم صار الاستكثار من الغلمان سنة عند الخلفاء ، فكان عند المقتدر بالله ١١٠٠٠ غلام أومملوك ، وفيهم البيض والسود ، فالبيض من الفرس والديلم والترك والطبرية وغيرهم : والسود من النوبة والزغاوة يجلبونهم من مصر ومكة وافريقية ، والزنج أصلهم من رجال صاحب الزنج الذى ثار بالبصرة ، وهم غتم قح يأكلون لحوم الناس والبهائم الميتة وقد عوقبوا على ذلك فلم يرجعوا وكانوا منفردين لايختلطون بالبيض ، ولكل طائفة نوبة فى خدمة الخليفة بين حراسة وغيرها (٢)

الخصيان

الخصاء عادة شرقية كانت شائعة قديما بين الاشوريين والبابليين والمصريين القدماء ، وأخذها عنهم اليونانيون ، ثم انتقلت إلى الرومان فالافرنج ، ويقال ان أوّل من استنبطها (سميراميس) ملكة أشور نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، وكان المظنون أن الخصاء يذهب بقوّة الرجولية ، وفى التاريخ جماعة من الخصيان اشتهروا بالشجاعة والسياسة ، وتولوا مناصب مهمة فى أزمنة مختلفة ، منهم نارسس القائد الرومانى الشهير فى عهد يوستنيان فى القرن السادس للميلاد ، وهرمياس حاكم اتارنية فى ميسيا الشهير الذى قدّم الفيلسوف أرسطو ذبيحة عن روحه غير ماذكره فيه من القصائد ، وممن اشتهر من الخصيان فى الاسلام كافور الاخشيدى صاحب مصر ، واشتهر منهم فى الهند وفارس والصين جماعات كبيرة ، واستبدّ الخصيان فى أواخر الدولة الرومانية استبدادا كبيرا .

وللخصاء أغراض أشهرها استخدام الخصيان فى دور النساء غيرة عليهنّ ، فلما ظهر الاسلام وغلب الحجاب على أهله استخدموا الخصيان فى دورهم ، وأوّل من فعل ذلك يزيد بن معاوية ، فاتخذ منهم حاجبا لديوانه اسمه « فتح » واقتدى به غيره ، فشاع استخدامهم عند المسلمين مع ان الشريعة الاسلامية أميل إلى تحريمه على مايؤخذ من حديث رواه ابن مظعون .

وكانت تجارة الرقيق شائعة فى أوروبا قبل الاسلام ، ومن أسباب رواجها أن قبائل السلاف (الروسيين) نزلوا فى أوائل أدوارهم شمالى البحر الاسود ونهر الطونة ، ثم أخذوا يزحفون غربا جنوبيا نحو أواسط أوروبا وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبائل السلاف أو (السكلاف) والسرب والبوهيم والدلمات وغيرهم ، فاضطروا وهم نازحون أن يحاربوا الشعوب الذين فى طريقهم كالسكسون والهون وغيرهم ، وكان من عادات أهل تلك العصور أن يبيعوا أسراهم بيع الرقيق كما تقدّم ، فتألف لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الأسرى عن طريق فرنسا فاسبانيا إلى افريقية ومنها إلى الشام ومصر ، فلما وقعت هذه البلاد فى أيدى المسلمين راجت تلك التجارة .

فكان التجار من الافرنج وغيرهم يبتاعون الأسرى من السلاف والجرمان من جهات ألمانيا عند ضفاف الرين والألب وغيرهما إلى ضفاف الدانوب وشواطئ البحر الاسود ، ولايزال أهل جورجيا والجركس

(١) طبقات الأطباء ١٤١ و١٤٥ ج ١ — (٢) تاريخ الوزراء ١٢

إلى اليوم يبيعون أولادهم بيع السلع ، فاذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الآرقاء أمامهم سوق الأغنام ، وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال ، وفيهم الذكور والاناث ، حتى يحطوا رحالهم فى فرنسا ، ومنها ينقلونهم إلى اسبانيا (الأندلس) ، فكان المسلمون يبتاعون الذكور للخدمة أو الحرب والاناث للتسرّى وغلب على أولئك الأرقاء انتسابهم إلى قبيلة السلاف ، وكانت تلفظ عندهم (سكلاف) فعرّبها العرب صقلبى وأصبح هذا اللفظ عندهم يدل على الرقيق الأبيض بالاجمال ، وكثيرا مايرد لفظ الصقالبة فى تاريخ الاسلام ، ويراد به الأرقاء من قبائل السلاف والجرمان ، وفعل الافرنج نحو ذلك أيضا فاستخدموا هذه اللفظة لنفس هذا المعنى ، ومنها (Esclave) فى الفرنساوية و (Sklave) فى الجرمانية و (Slave) فى الانكليزية .

﴿ ثالثا ﴾ — خصاء بعض الأرقاء

ولما شاع الحجاب بين المسلمين فى إبان سلطانهم ، واستخدموا الخصيان فى دورهم ، عمد تجار الرقيق ، وأكثرهم من اليهود إلى خصاء بعض الأرقاء ، وبيعهم بأثمان غالية ، فراجت تلك البضاعة ، وكثر المشتغلون بها ، وأنشأوا لاصطناع الخصيان معامل عديدة ، أشهرها معمل الخصيان فى فردون بمقاطعة اللورين فى فرنسا ، كانوا يخصون أولئك المساكين وهم أطفال ، فيموت كثيرون منهم على أثر العملية ، فمن بقى حيا أرسلوه إلى اسبانيا ، فيشتريه الكبراء بثمن كبير ، وأصبحوا بتوالى الأزمان يتهادون الخصيان كما يتهادون الخيل ، أو الآثاث ، أو الآنية ، فكان ملوك الافرنج اذا أرادوا التقرّب من خليفة المسلمين فى الأندلس أو غيرها أهدوه التحف ، ومن جملتها الخصيان ، كما فعل ملكا برشلونه وطركونة ، لما طلبا تجديد الصلح من المستنصر خليفة الأندلس ، فانهما أهدياه ٢٠ خصيا من الصبيان الصقالبة و ٢٠ قنطارا من صوف السمور الخ ، فتكاثر الخصيان فى بلاط الخلفاء حتى تألفت منهم فرق لحراسة الخاصة ، كما تألفت الفرق من سائر المماليك والعبيد ، فاذا احتفل الخليفة ببيعة أو نحوها كان المماليك والخصيان زينة ذلك الاحتفال . وراجت تجارة الصقالبة فى إبان التمدّن الاسلامى ، وكل ما كان يفد على المملكة الاسلامية منهم يستجلب من الأندلس لأنهم كانوا يخصون بالقرب منها ، غير ما يحملونه من الصقالبة من جهات خراسان مما يسبيه الخراسانيون ويحملونه للبيع ، لأن بلد الصقالبة طويل يسبيه الافرنج من الغرب والخراسانيون من الشرق (١)

﴿ رابعا ﴾ — الجوارى

للجوارى شأن كبير فى تاريخ التمدّن الاسلامى ، لايقلّ عن شأن العبيد والموالى ، وأصل الجوارى ما يسبيه الفاتحون فى الحرب من النساء والبنات ، فهنّ ملك الفاتحين ، ولوكنّ من بنات الملوك ، أو الدهاقين ، يستخدمونهنّ ، أو يستولدونهنّ ، أو يتصرّفون فى بيعهنّ تصرّف المالك بملكه (٢) ولما أفضت أحوال المسلمين إلى الترف والقصف ، وتدفقت الأموال من خزائن الخلفاء والأمراء جعلوا يتهادونهنّ كما يتهادون الحلى والجواهر ، فمن أحبّ التقرّب من كبير أهدى إليه جارية أتقنت صناعة يعلم أنه راغب فيها ، فاذا علم مثلا أنه يحبّ الجمال أهداه وصيفة جميلة ، أو علم منه ميلا إلى الغناء أهدى إليه قينة رخيمة الصوت ، وقد يهديه عدّة جوار أتقنّ عدّة صنائع ، وربما صارت إحداهنّ بعد حين أمّ ذلك المنزل وصاحبة الأمر فيه ، اذا استولدها سيدها ، واذا كانت فى دار خليفة لايبعد أن تصير من أمّهات الخلفاء ، كما اتفق لأكثر خلفاء بنى العباس .

(١) ابن حوقل ٧٥ — (٢) ابن خلكان ٣٢٠ ج ١

ذكروا

ذكروا أن جارية اسمها « دنانير » صفراء صادقة الملاحة ، كانت أروى الناس للغناء القديم ، وقد خرجها رجل من أهل المدينة ، فشتراها جعفر البرمكي ، وسمع الرشيد صوتها فألفها ، وصار يسير إلى جعفر لسماع غنائها ، ووهب لها هبات سنية . وعلمت امرأته زبيدة بخبرها ، فشكته إلى عمومته ، فلم ينجحوا فى إرجاعه ، فرأت أن تشغله عنها بالجوارى ، فأهدت إليه عشر جوار ، منهن مارية أمّ المعتصم ، ومراجل أمّ المأمون ، وفاردة أمّ صالح (١)

وكثيرا ما كان العمال والأمراء يتقرّبون إلى الخلفاء بأمثال هذه الهدايا ، فأهدى ابن طاهر الى الخليفة المتوكل هدية فيها ٢٠٠ وصيفة ووصيف (٢)

فلا غرو اذا تكاثرن فى قصور الخلفاء ، والأمراء ، وأهل الوجاهة ، وليس الاستكثار منهن حادثا فى الاسلام ، وانما هو من بقايا التمدن القديم ، فقد كان ملوك الفرس والروم يتهادونهن ، و بلغت عدتهن عند بعض الأكاسرة ١٢,٠٠٠ جارية (٣) ، وكان لجماعة من بنى العباس ألف جارية ، وسيأتى بسط ذلك فى مكان آخر اه

﴿خامسا﴾ — تزيينهن

فتعدّد الجوارى فى دور الكبراء ، وتسابق أهل الترف إلى التفنن فى تزيينهن ، وأشهر من فعل ذلك أمّ جعفر المذكورة ، فانها لما رأت ابنها يغالى فى تخنيث الغلمان و إلباسهم ملابس النساء اتخذت طائفة من الجوارى سمتهن المقدودات ، عممت رءوسهن ، وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية ، وألبستهن الأقبية ، والقراطق والمناطق ، كأنهن من الغلمان ، واقتدى بها وجيهات قومها ، فاتخذن الجوارى الغلاميات ، أو المطمومات ، وألبسوهن الاقبية والمناطق الذهب (٤) اه

﴿سادسا﴾ — مقاومة الخلفاء للغناء

على أن أهل التعقل من الخلفاء ، أو الأمراء كانوا لاينفكون عن منعه جهد طاقتهم ، وكان العقلاء غير الحكام يحرّضون الولاة على منعه حتى فى المدينة معدن الغناء فى ذلك العصر (٥) وكثيرا ما كان أمير مكة يخرج المغنين من الحرم خوفا من افتتان الناس بغنائهم (٦) وصرفهم عن أمور دينهم ، ولم يكن أهل الغيرة على العرض يصبرون على سماعه ، ومن أقوالهم : « المغنون رسل الغرام » .

ذكروا أن سليمان بن عبد الملك ، وكان يكره الغناء سمع مغنيا فى عسكره ، فطلبه ، فجاءوه به ، فقال : أعد ماغنيت ، فتغنى واحتفل ، فقال سليمان : والله لكأنها جرجرة الفحل فى الشول ، وما أحسب أنثى تسمع هذا إلا صبت إليه ، ثم أمر به فخصى (٧)

وسليمان هو الذى أمر بخصى المخنثين فى المدينة لمثل هذا السبب ، قيل انه كان فى بادية له يسمر ليلة على ظهر سطح وقد تفرّق عنه جلساؤه ، فدعا بوضوء ، فجاءت به جارية ، فبينما هى تصبّ عليه لحظ أن ذهنها مشتغل عنه بغناء تسمعه ، فتجاهل ، وفى الصباح ذكر الغناء ولين فيه حتى ظنّ القوم انه يشتهيه ، فأفاضوا فيه ، وذكروا من كان يسمعه ، ومن يغنيه ، حتى توصل إلى الرجل الذى شغلت الجارية بغنائه فى الأمس ، فلما تحقق ذلك أقبل على القوم ، وقال : هدر الجمل فضبعت الناقة ونبّ التيس فشكرت الشاة وهدر الحمام فزافت الحمامة وغنى الرجل فطربت المرأة ، ثم أمر به فخصى ، وسأل عن الغناء : أين أصله ؟ فقيل فى المدينة

---

(١) الأغانى ١٣٧ ج ١٦ — (٢) المسعودى ٢٨٠ ج ٢ — (٣) المسعودى ١١٥ ج ١ وترتيب الدول ١١١ — (٤) المسعودى ٣٦٦ ج ٢ — (٥) العقد الفريد ١٩٦ ج ٣ — (٦) الأغانى ١٣٠ ج ٢ — (٧) الكامل للمبرّد ٣٧٧

بجماعة المخنثين وهم أئمته والحذاق فيه ، فكتب إلى عامله هناك : اخصِ من قبلك من المخنثين المغنين ، فخصاهم (١)

على أن المتهتكين من الخلفاء والأمراء لم ينكروا ما يجرّ إليه الغناء من أسباب اللهو. قال الوليد بن يزيد الذى ذكرنا انه أوّل من استقدم المغنين إليه : « إياكم والغناء ، فانه ينقص الحياء ، ويزيد فى الشهوة ويهدم المروءة ، ويثور على الخمر ، ويفعل مايفعل المسكر ، فان كنتم فاعلين فجنبوه النساء ، فان الغناء رقية الزنا ، وانى لأقول ذلك فيه على أنه أحبّ إلىّ من كل لذة ، وأشهى إلىّ من الماء البارد إلى ذى الغلة ، ولكن الحقّ أحقّ أن يقال(٢) » اهـ

﴿سابعاً﴾ ـ الغيرة

كانت أيام بنى أمية من حيث العفة والغيرة عصرانتقال من البداوة إلى الحضارة ، فلما انقضى عصر الأمويين ذهب مابقى من سذاجة البداوة فى طبائع العرب ، واستسلم الناس للترف والرخاء ، وضعفت الغيرة وأبيح التشبيب ، وشاع على ألسنة الشعراء حتى صاروا يصدّرون به قصائد المدح والفخر ، وكان الخلفاء الأوّلون من بنى العباس لايزالون على مقربة من البداوة ، فأنكروا ذلك ونهوا عنه ، ومن أشدّهم غيرة المهدى بن المنصور فان بشارا أنشده مديحا فيه تشبيب ، فنهاه عن التشبيب ألبتة ، فصاراذا مدحه بدأ بالمدح (٣) فظلّ التشبيب مستقبحا حتى أباحه الرشيد وألحّ فى نظمه (٤) فآل ذلك طبعا إلى ضعف الغيرة اهـ

﴿ثامنا﴾ ـ اللباس

ولما أترف بنوأمية لبسوا الحرير على أنواعه وتفننوا بأنواع الأنسجة ، وأحبوا الوشى ، وأكثروا من لبسه فقلدهم الناس فى ذلك ، فراجت المنسوجات الموشاة فى أيامهم اهـ

﴿تاسعاً﴾ ـ لباس رجال الدولة

على أن رجال الدولة ومن جرى مجراهم من الخاصة كانت لهم ألبسة لمجالس الأنس والشراب يسمونها « ثياب المنادمة » وهى أثواب مصبغة بالألوان الزاهية ، الأحمرأوالأصفر أوالأخضر ، يصقلونها حتى تلمع وتشرق اهـ

﴿عاشراً﴾ : مبانى العباسيين

أوّل من شاد الأبنية منهم المنصور ، فبنى القبة الخضراء ، ليحوّل أذهان الناس عن الكعبة إليها ، وبنى الجامع ، والحصون والقصور فى بغداد ، كقصر الخلد ، وقصرباب الذهب وغيرهما ، وأخذ الخلفاء بعده فى تشييد المصانع ، واقتدى بهم وزراؤهم وأمراؤهم ، فأقاموا قصورا فخمة ، تعرف غالبا بأسماء بانيها كقصور البرامكة فى الشماسية ، وقصرابن الخصيب ، وقصرأمّ حبيب بالجانب الشرقى من بغداد ، وقصر بنى خلف بالبصرة ، وقصرعيسى بن على ، وهوأوّل قصر بناه الهاشميون فى أيام المنصور ، وقصر وضاح بناه رجل اسمه وضاح (بتشديد الضاد) للمهدى العباسى ، وقصر الرشيد ، وقصر الأمين ، وقصر ابن الفرات ، وقصر ابن مقلة ، غير ما أطلقوا عليه لفظ الداركدار الشجرة الآتى ذكرها ، ودارالقرار ، وهى قصرزبيدة زوج الرشيد وغير ذلك ، وأخذت رغبتهم فى بناء القصور تتزايد كلما تقدّموا فى المدنية وأغرقوا فى الترف والرخاء .

(١) الأغانى ٦١ ج ٤ — (٢) الأغانى ١٣٤ ج ٦ — (٣) الأغانى ٤١ و٥٨ ج ٣
(٤) الأغانى ١٦٠ ج ٣

على

على أن بعض خلفائهم كانوا يحبون العمارة وينشطونها ، وأولهم المعتصم بالله ، فقد كان كلفا بالبناء ، فبنى سامرا لأتراكه وأقطعهم فيها القطائع ، والمتوكل على الله كان مغرما بالعمارة ، يبذل فيها الأموال الطائلة ، فأحدث أساليب من الأبنية ، لم تكن معروفة قبله ، منها النمط الحيرى ، والكمين ذات الأروقة ، وبنى ثلاثة أبنية تعرف بالهارونى والجوسق والجعفرى بذل فى بنائها جميعا أكثر من ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم (١) أنفق منها على القصر الجعفرى أكثر من ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار (٢) أو نحو ٤٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم ، ثم صار تشييد المبانى عادة جرى عليها الخلفاء ، فضلا عن المتنزهات ، فبنى اسماعيل بن على متنزها أنفق فيه ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم (٣) اه

(١١) — دار الشجرة

وبنى المقتدر بالله فى أول القرن الرابع دارا فسيحة ذات بساتين مونقة عرفت بدار الشجرة ، لشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة فى وسط بركة كبيرة أمام إيوانها ، وبين شجر بساتينها ، لها ثمانية عشر غصنا من الذهب والفضة ، لكل غصن منها فروع كثيرة مكللة بأنواع الجوهر على شكل الثمار ، وعلى أغصانها أنواع الطيور من الذهب والفضة ، اذا مر الهواء عليها أبانت عن عجائب من ضروب الصفير والهدير ، وفى جانب الدار من يمين البركة تماثيل خمسة عشر فارسا على خمسة عشر فرسا ، ومثله عن يسار البركة ، قد ألبسوا أنواع الحرير المدبج ، مقلدين بالسيوف ، وفى أيديهم المطارد ، يتحركون على خط واحد ، فيظن الناظر اليهم أن كل واحد منهم يقصد صاحبه (٤) .

وفى دولة آل بويه بنى معز الدولة قصره المعروف « بالدار المعزية » ، أنفق فى بنائه ١,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، وموه سقفه بالذهب ، ذكروا انهم لما أرادوا هدمه بذلوا فى حك الذهب من سقفه ٨,٠٠٠ دينار (٥) ولم يبق لهذه القصور أو السور أثر الآن .

أما الأندلس فقد بنى بها آل مروان قصورا سارت بذكرها الركبان ، ولا يزال بعض آثارها باقيا إلى اليوم ، وأكثرها فى قرطبة وغرناطة ، فمنها فى قرطبة القصر الكبير ، وهو آية من آيات الزمان ، شرع ببنائه عبد الرحمن الداخل فى أواسط القرن الثانى للهجرة ، وأتمه من جاء بعده ، وبنوا القصور فى داخله ، وقد رأيت عند ذكر أبنية قرطبة أن القصر المذكور مؤلف من ٤٣٠ دارا ، بينها قصور فخمة ، لكل منها اسم خاص ، كالكامل والمجدد ، والحائر والروضة ، والمعشوق والمبارك ، والرستق وقصر السرور والبديع ، وقد غالوا فى زخرفها واتقانها ، وأنشأوا فيها البرك والبحيرات والصهاريج والأحواض ، وجلبوا إليها الماء فى قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال حتى أوصلوه إليها ، ووزعوه فيها ، وفى ساحاتها ونواحيها فى تلك القنوات تؤديها إلى المصانع صورا مختلفة الأشكال من الذهب الابريز ، والفضة الخالصة ، والنحاس المموه إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة ، ينصب فيها الماء من أنابيب من الذهب أو الفضة بصور الحيوانات الكاسرة ، أو الطيور الجميلة على أشكال بديعة (٦) اه

(١٢) : قصر الزهراء

ومن قصورهم فى قرطبة « الزهراء » بدأ بانشائها الخليفة الناصر سنة ٣٢٥ هجرية على أربعة أميال من المدينة ، وأتمها ابنه الحكم ، فاستغرق البناء أربعين سنة ، وهى عبارة عن بلد كبير ، طوله من الشرق

---

(١) المسعودى ٢٧٩ ج ٢ — (٢) ابن الأثير ٣٣ ج ٧ — (٣) ابن الأثير ٢٨ ج ٦
(٤) معجم ياقوت ٥٢٠ ج ٣ — (٥) ابن الأثير ١٥١ ج ٩ — (٦) نفح الطيب ٢١٩ ج ١

إلى الغرب ٢٫٧٠٠ ذراع ، وعرضه ١٫٥٠٠ وعدد أعمدته ، أوسواريه ٤٫٣٠٠ سارية بعضها حمل إلى قرطبة من رومية وافريقية وتونس ، وبعضها أهداه صاحب القسطنطينية ، وفيها الرخام الأبيض والأخضر والوردى والجزع ، وكان فى الزهراء مسجد فخم ، وعدة قصور ، وحدائق على نحو ماتقدم فى وصف القصر الكبير ، وفيها البحيرات تسبح فيها الأسماك بألوانها وأنواعها . وأحواض الرخام المنقوش على أشكال شتى بين مذهب وغير مذهب ، فى جملتها حوض منقوش بتماثيل الانسان جيء به من القسطنطينية ، ونصبه الناصر فى بيت المنام بالمجلس الشرقى المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه ١٢ تمثالا من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس الغالى ، مما صنع بدار الصناعة فى قرطبة بصورة أسد ، بجانبه غزال إلى جانبه تمساح يقابله ثعبان وعقاب وفيل ، وفى الجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، وكلها من ذهب مرصع بالجوهر ، يجرى الماء من أفواهها (١) ، ووكل الناصر النظر فى بناء هذه القصور إلى ابنه الحكم بعده ، وذكروا أن الناصر كان ينفق عليها ثلث جباية الدولة وكانت ٦٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار فينفق منها ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار كل سنة على ذلك البناء ، وقد تقدم أنهم واصلوا العمل فيه ٤٠ سنة ، فلو فرضنا أنهم كانوا ينفقون هذا القدر فى نصف هذه المدة فقط لبلغ مجموع ما أنفق على الزهراء أكثر من ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، ولكن يظهر أن الانفاق السنوى لم يكن يبلغ ثلث جباية المملكة إلا فى بضع سنين ، وأما فى سائر مدة البناء فكانت النفقة أقل من ذلك كثيرا .

وقد ورد فى مكان آخر أن الناصر كان ينفق على بنائها فى أيامه ٣٠٠٫٠٠٠ دينار فى السنة ، فاذا حسبنا ما أنفقه ابنه الحكم فيما بقى من الأربعين سنة على هذه النسبة مع ما أنفقه هو غير المقدار السنوى المذكور كان مجموع مادخل فى بناء هذا القصر الفخم نحو ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار على الأقل ، ولاغرابة فى ذلك ، لأننا اذا أعدنا النظر فى تفاصيله رأينا فيه مايفوق الحصر من المرصعات والمذهبات ، وقد أدخلوا فيه كثيرا من الذهب حتى جعلوا بعض قرميده منه ، وقد كان يتصرف فى بنائه من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل و ١٫٥٠٠ دابة ، وأغرب من كل ذلك أن الناصر إنما عمد إلى بناء الزهراء مرضاة لحظية له كان اسمها زهراء طلبت إليه أن يبنى مدينة باسمها وتكون خاصة بها (٢) اه

(١٣) : الزاهرة

واقتدى بالخليفة الناصر المنصور بن أبى عامر ، فابتنى سنة ٣٦٨ هجرية قصرا لإقامته سماه الزاهرة ليكون معقلا له يحميه من أعدائه ، فأقامه فى طرف البلد على نهر قرطبة الأعظم ، وحشد له الصناع والفعلة وبالغ فى رفع أسواره ، وجعل فيه أبنية كثيرة من جملتها أهراء ودواوين ، وأقطع ماحولها لوزرائه وكتابه وقواده ، فابتنوا الدور والقصور ، وغرسوا الحدائق ، فقامت الأسواق ، وتنافس الناس بالنزول فى أكنافها تقربا من صاحب الدولة حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة ، واتصلت بهما الزهراء من الجهة الأخرى ، فأصبح الناس يمشون بين هذه المدن عشرة أميال على ضوء السرج .

ويجدر بنا فى هذا المقام الاشارة إلى القنطرة الفخمة التى أقامها المسلمون على نهر قرطبة ، وكانت مبنية قبل الاسلام ، ثم سقطت ، فأعاد المسلمون بناءها على يد عبد الرحمن الغافقى وطولها ٨٠٠ ذراع وعرضها عشرون ذراعا وارتفاعها ٦٠ ذراعا ، وعدد حناياها ١٨ حنية ، وأبراجها ١٩ برجا (٣)

---

(١) نفح الطيب ٢٤٨ و٢٦٧ ج ١ وابن خلكان ٢٩ ج ٢ — (٢) نفح الطيب ٢٤٨ ج ١

(٣) نفح الطيب ٢٢٦ ج ١

قصر

قصر الحمراء وأمثاله

الحمراء قصر شهير فى غرناطة لايزال شكله محفوظا إلى الآن ، يقصده السياح من كل مكان ، بناه ابن الأحمر فى أواسط القرن الثامن للهجرة كما تقدم فى أرض مساحتها ٣٥ فدانا على مرتفع فسيح ، ويقال انها سميت « الحمراء » نسبة إلى لون قرميدها ، وفى هذا القصر كانت بركة السباع ، وفى وسطها تماثيل أسود تقذف المياه من أفواهها على شكل جميل .

وبنى المنصور بن الأعلى قصرا فخما فى بجاية أنشأ فيه بركة على حافاتها أسود يجرى الماء من أفواهها ، وعلى البركة أشجار من ذهب وفضة ، ترمى فروعها فى الماء ، وعلى أغصانها أطيار من أشكال شتى بألوان بديعة ، وصنع عجيب ، على مثال الشجرة التى ذكرنا انها نصبت فى قصر المقتدر العباسى عند كلامنا عن أبنية العباسيين ، وقد نظم ابن حديس الشاعر الأندلسى قصيدة يصف بها بركة هذا القصر وخروج الماء من أفواه الاسود . قال منها :

وضراغم سكنت عرين رياسة ✡ تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها ✡ وأذاب فى أفواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك ✡ فى النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما ✡ اقعت على ادبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها ✡ نارا وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول ✡ ذابت بلانار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه ✡ درعا فقدر سردها تقديرا (١)

وقس على ذلك قصر المأمون بن ذى النون الأندلسى ، فانه أنفق فى بنائه بيوت الأموال ، وكان من عجائبه انه صنع فيه بركة ماء كأنها بحيرة ، وبنى فى وسطها قبة ، وساق الماء تحت الأرض حتى علا فوق رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة وحواليها محيطا بها متصلا بعضه ببعض ، فكانت القبة فى غلالة من ماء سكبا لا يفتر والمأمون قاعد فيها (٢)

مبانى آل طولون بمصر

أنشأ بنو طولون فى مصر أبنية فخمة ، أشهرها الجامع الذى بناه أحمد بن طولون ، لاتزال آثاره إلى الآن بالقاهرة ، والقصر الذى بناه فى القطائع ، وجعل له ميدانا كبيرا ، ولما توفى أحمد زاد فيه ابنه « خمارويه » وجعل الميدان كله بستانا ، زرع فيه أنواع الرياحين ، وأصناف الشجر ، ونقل إليه الودى اللطيف الذى ينال ثمره القائم ، ومنه مايتناوله الجالس من أصناف خيار النخل ، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب ، وأنواع الورد ، وزرع فيه الزعفران ، وكسا أجسام النخل نحاسا مذهبا حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وأجساد النخل مزاريب الرصاص ، وأجرى فيها الماء المدبر ، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فتنحدر إلى فساق معمولة ، ويفيض منها الماء إلى مجار تسقى سائر البستان ، وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة ، وكتابات مكتوبة يتعهدها البستانى بالمقراض حتى لاتزيد ورقة على ورقة ، وزرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر والجنوى العجيب ، وأهدى إليه من خراسان وغيرها كل أصل

(١) نفح الطيب ٢٣٣ ج ١ - (٢) سراج الملوك ٥٠

عجيب ، وطعموا له شجر المشمش باللوز ، وأشباه ذلك من كل مايستظرف ويستحسن ، وبنى فيه برجا من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الأقفاص ، وزوّقه بأصناف الأصباغ ، وبلط أرضه ، وجعل فى تضاعيفه أنهارا لطافا ، جداولها يجرى فيها الماء ، مدبرا فى السواقى التى تدورعلى الآبار العذبة ، ويسقى منها الأشجار وغيرها ، وسرّح فى هذا البرج من أصناف القمارى والدباسى والنونيات ، وكل طائر جيل الشكل حسن الصوت ، فكانت الطير تشرب وتغسل من تلك الأنهار الجارية فى البرج ، وجعل فيه أوكارا فى قواديس لطيفة ممكنة فى جوف الحيطان لتفرخ الطيور فيها ، وعارض لها فيه عيدانا ممكنة فى جوانبه لتقف عليها اذا تطايرت حتى يجاوب بعضها بعضا بالصياح ، وسرّح فى البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحوها شيئا كثيرا . وعمل فى داره مجلسا برواقه سماه بيت الذهب ، طلى حيطانه كلها بالذهب المجاول باللازورد المعمول فى أحسن نقش وأظرف تفصيل ، وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صورا فى حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته ، وصور حظاياه ، والمغنيات اللاتى تغنينه بأحسن تصوير ، وأبهج تزويق ، وجعل على رؤسهن الأكاليل من الذهب الخالص الابريز الرزين ، والكوادن المرصعة بأصناف الجواهر وفى آذانها الأجراس الثقال الوزن ، المحكمة الصنعة ، وهى مسمرة فى الحيطان ، ولوّنت أجسامها أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة ، فكان هذا البيت من أعجب مبانى الدنيا ، وجعل بين يدى هذا البناء فسقية ملأها زئبقا ، وذلك انه شكا إلى طبيبه كثرة السهر فأشار عليه بالتغميز ، فأنف من ذلك ، وقال : لاأقدر على وضع يد أحد علىّ ، فقال له تأمر بعمل بركة من زئبق ، فعمل بركة يقال انها خمسون ذراعا طولا فى خمسين ذراعا عرضا وملأها من الزئبق ، فأنفق فى ذلك أموالا عظيمة ، وجعل فى أركان البركة سككا من الفضة الخالصة ، وجعل فى السكك زنانير من حديد محكمة الصنعة فى حلق من الفضة ، وعمل فرشا من أدم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده ، ويلقى على تلك البركة ، وتشد زنانير الحرير التى فى حلقة الفضة بسكك الفضة وينام على هذا الفرش ، فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق مادام عليه ، وكانت هذه البركة من أعظم ماسمع به من الهمم الملوكية ، يرى لها فى الليالى المقمرة منظر بهيج اذا تألف نور القمر بنور الزئبق (١)

مبانى الفاطميين

ولما أفضى الأمر إلى الفاطميين بنوا فى القاهرة الجامع الأزهر ، وهو عامر إلى اليوم ، وقصورا أشهرها القصران الشرقى والغربى ، وأنفقوا على الأخير منهما ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار (٢) ، فقس على ذلك ما أنفقوه فى سائر القصور والدور كدار الفطرة ، ودار الديباج وغيرهما ، ولما استبحر عمرانهم تفننوا فى بناء المقاصير والمناظر على ضفة الخليج وشاطئ النيل كمنظرة الجامع الأزهر ، ومنظرة اللؤلؤة على الخليج ، ومنظرة الغزالة بجانبها ، ومنظرة السكرة ، ومنظرة الدكة ، ومنظرة المقس ، ومنظرة التاج ، ومنظرة باب الفتوح ، ومنظرة البعل ، ومنظرة دار الملك ، غير المتنزهات العظيمة ، والقصور الفخمة ، فى الجزيرة والروضة كالقصر الذى بناه الآمر بأحكام الله لمحبوبته البدوية ، وسماه الهودج .

وكانوا يتأنقون فى زخرفة تلك المناظر والقصور تأنقا عظيما يدل على مبلغ حضارتهم وتفننهم ، فمنظرة بركة الحبش كانت مصنوعة من خشب مدهون صوّر فيها الشعراء كل شاعر وبلده ، وعند رأس الشاعر أبيات نظمها فى ذكر المنظرة ، وبجانب كل صورة رفّ لطيف مذهب ، فاذا دخل الخليفة وقرأ الأشعار أمر أن يضع على كل رفّ صرّة مختومة فيها خمسون دينارا ، فيدخل الشاعر ويأخذ صرّته (٣)

(١) المقريزى ٣١٦ ج ١ – (٢) المقريزى ٤٥٧ ج ١ – (٣) المقريزى ٤٨٦ ج ١

مبانى

مباني الأيوبيين والمماليك

ولما انتقلت الدولة إلى الأكراد كان أعظم آثارهم البنائية قلعة القاهرة ، بناها السلطان صلاح الدين ليعتصم بها من الشيعة ، ولاتزال قائمة إلى اليوم .

ومعظم مافى مصر الآن من الآثار البنائية إنما هو من أعمال السلاطين المماليك ، ولاسيما المساجد كجامع السلطان حسن ، وجامع المؤيد ، وقايتباى ، وقلاوون ، وغيرهم . ومن آثارهم قبور الخلفاء خارج القاهرة فانها لهم وان نسبت إلى الخلفاء بالاسم ، غير ما اندثر من قصورهم ، وكانوا يقلدون الفاطميين فى زخرفها كالرفرف الذى بناه الأشرف خليل بن قلاوون عاليا يشرف على الجيزة كلها وصوّر فيه أمراء الدولة وخواصها وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها ، وكان السلطان يجلس فيه . وقصر يلبغا بناه الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٨ هجرية لسكنى الأمير يلبغا حيث مدرسة السلطان حسن تجاه القلعة وغيرها .

الثروة والرخاء

واشتغال الخلفاء والأمراء بانشاء المدن و بناء القصور والمتنزهات إنما هو من ثمار الثروة وتكاثر النقود فى بيوت الأموال ، فتنتقل إلى رجال الدولة وغيرهم على مابيناه فى نظام الاجتماع ، ولذلك كان الخليفة أكثر الناس مالا لأنه قابض على بيت المال يليه الوزراء والكتاب والعمال فبنوهاشم فالأتباع والتجار وغيرهم ، واليك أمثلة من ذلك :

ثروة الخلفاء وأهلهم

لما كان الخلفاء يتولون شؤون الدولة بأيديهم كانوا أكثر الناس ثروة ، فلما عهدوا بها إلى الوزراء تحولت الثروة إليهم ، وأصبح الخلفاء أحيانا مثل سائر الفقراء (١) والأصل فى ثروة بيت المال أن تكون للدولة تنفق فى مصالحها ، وللخليفة بيت مال خاص به ، ولكن الخلفاء تصرّفوا بأموال الدولة أوّلا لاعتبارهم انفاقها مساعدا على تأييدها ثم أنفقوها فى الجوائز والهدايا لمثل هذه الغاية ، وتدرّجوا إلى بذلها فى ملذاتهم وسائر أسباب تنعمهم ، وكان يبقى مع ذلك فى بيوت الأموال شيء كثير ، وقد بينا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب « تاريخ التمدّن الاسلامى » مقدار مابقى منها فى خزائن الخلفاء الأوّلين من بنى العباس المنصور والمهدى والمعتصم والمستعين والمكتفى وغيرهم (صفحة ١٢١) وماصار إليهم من الضياع الكثيرة (صفحة ١٣٢) وذكرنا مابلغت إليه ثروة أمهات الخلفاء ، ولاسيما الخيزران أم الرشيد وقبيحة أم المعتز وغيرهما (صفحة ١٣٤) فلاحاجة إلى التكرار ، وانما نأتى ببعض التفصيل على سبيل المثال : ذكروا أن المكتفى خلف ١٠٠٬٠٠٠٬٠٠٠ دينار هذا تفصيلها : (٢)

دينار	
٢٠٬٠٠٠٬٠٠٠	من العين والورق والأوانى المعمولة .
٢٠٬٠٠٠٬٠٠٠	من الفرش .
٢٠٬٠٠٠٬٠٠٠	من الكراع والسلاح والغلمان .
٢٠٬٠٠٠٬٠٠٠	من الضياع والعقار والأملاك .
٢٠٬٠٠٠٬٠٠٠	من الجوهر والطيب ومايجرى معهما . انتهى

(١) الجزء الثانى من كتاب « تاريخ التمدّن الاسلامى » ١٦٣ – (٢) لطائف المعارف ٧٢

(١٤) : البذخ فى الألبسة

كان المسلمون فى صدر الاسلام يتوخون الخشونة فى العيش والتعفف بالمطعم والملبس ، فكان الخليفة من الراشدين يمشى فى الأسواق وعليه القميص الخلق المرقوع إلى نصف ساقه ، أوثوب من كرباس غليظ ، وفى رجله نعلان من ليف ، وحمائل سيفه من ليف ، وفى يده درّة يستوفى الحدّ بها (١) وكان عمالهم فى فى مثل حالهم ، اذا وفدأحدهم على الخليفة لبس جبة صوف ، وتعمم بعمامة دكناء ، واحتذى خفين مطارقين ودخل عليه (٢) ، وأوّل من اتخذ زىّ الملوك من أمراء المسلمين معاوية منذ كان أميرا فى الشام ، وقدم عليه عمر بن الخطاب فى أثناء ذلك ، فلما رآه فى أبهة الملك أنكرها عليه ، وقال له : أكسروية يامعاوية ؟ (٣) ثم تحضروا ، وكثرت الأموال بين أيديهم ، وخالطوا أهل الترف من الأعاجم ، فاضطروا بطبيعة المدنية إلى التبسط فى العيش ، والتنعم بالملباس ، وأحبّ الأمويون الوشى كما تقدم ، وأكثرهم رغبة فى لبسه هشام بن عبد الملك ، فاجتمع عنده ١٢٫٠٠٠ قيص وشى و ١٠٫٠٠٠ تكة حرير ، وكانت كسوته اذا حجّ تحمل على ٧٠٠ جمل (٤) ، وفى أيامهم تسابق الصناع إلى إجادة الوشى ، وزاد المسلمون بذخا فى أيام بنى العباس ورغب أهل التجارة فى حمل أصناف المنسوجات الحريرية والصوفية بين موشى ومطرّز ومحوك بالذهب أو الفضة ، والمرصع بالحجارة الكريمة على اختلاف البلاد التى يصنع فيها .

ومن أهمّ المنسوجات الثمينة الخز وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ، ومن وبر الخزز وهو ذكر الأرانب (٥) والابريسم حرير خالص ، والديباج نسيج حريرى موشى بالقصب بأشكال الحيوانات ونحوها ، والبز نسيج قطنى ثمين وغير ذلك من أصناف الحرير والكتان والاودارى والملحم والمعلم والمنير ، ومنسوجات الشعر أو الوبر أو الصوف ، ومايلحق ذلك من أنواع السمور والقماقم وغيره ، يصنعون منها الأقبية والدراريع والطيالسة والجبب والعمائم والأبراد والغلائل والملاحف والآزر والسراويلات والشاشيات والتكك وغيرها .

وكان الصناع يتبارون فى اتقان هذه الصنائع ، ويغالون فى ترفيعها ، لما يلاقونه من البذل فى ابتياعها لتوفر الثروة بين أيدى الناس ، ولاسيما الخليفة وأهل دولته ، فكان هؤلاء يتهافتون على اقتناء الألبسة ، لايبالون كم يكون ثمنها حتى بلغت قيمة العمامة من الدبيقى خمسمائة دينار ، وهم مع ذلك يكثرون من اقتنائها وربما لبس الواحد ٩ أقبية كل قباء بلون خاص للفاخرة فى البذخ ، وقد تزيد على أضعاف حاجتهم إليها ، فيجتمع عند أحدهم عشرات أومئات أوألوف من القطعة الواحدة ولاسيما الخلفاء ، مثاله ماخلفه المكتفى بالله من الألبسة وهو :

عدد	
٤٫٠٠٠٫٠٠٠	من الثياب المقصورة سوى الخامات .
٦٣٫٠٠٠	من الأثواب الخراسانية المروية .
٨٫٠٠٠	من الملاءات .
١٣٫٠٠٠	من العمائم المروية .
١٫٨٠٠	من الحلل الموشاة اليمانية وغيرها منسوجة بالذهب .
١٨٫٠٠٠	من البطائن التى تحمل من كرمان فى أنابيب القصب .
١٨٫٠٠٠	من الأبسطة الأرمنية .

(١) الفخرى ٢٥ و٦٦ – (٢) العقد الفريد ٦ ج ١ – (٣) ابن خلدون ١٦٩ ج ١
(٤) المستطرف ٤٠ ج ٢ والعقد الفريد ٢٦٦ ج ٢ – (٥) ألف باء ١٨٧ ج ٢

وتوفى ذوالبمينين وفى خزانتـه ١٣٠٠ر١ سروال لم يستعملها ، ووجـدوا فى كسوة بختيشوع الطبيب ٤٠٠ سروال ديبقى ، ولما قتل برجوان خادم الوزير بمصر وجدوا فى تركته ألف سروال ديبقى بألف تكة حرير . انتهى

(١٥) الأثاث والرياش عند العباسيين

لما انتقلت الخلافة إلى العباسيين اشتغل السفاح والمنصور بتأسيس الدولة وتأييدها ، فلما تأيد سلطانهم مالوا إلى الترفه ، فأخذوا بتقليد الدول السابقة لهم عملا بناموس العمران ، فاقتنوا الأسرّة الذهب المرصعة بالجواهر أوالآبنوس المنزل بالعاج ، واتخذوا المقاعد ، والنمارق ، والكراسى ، ونصبوا منائر الذهب ، أوقدوا فيها الشموع من العنبر ، وعلقوا الستورالمطرّزة ، والموشاة ، وافترشوا البسط ، والطنافس المزركشة ، والحصر المنسوجة بالذهب ، المكللة بالدرّ والياقوت (١) وغالوا فى اقتناء آنية الذهب والفضة ، يأتون من كل بلد بأحسن مصنوعاته وأثمنها ، فحملوا الستورالمعلمة من فسا ، والبسط ، والمصليات من تستر وبخارا ، والحصر من عبادان ، والمقاعد من دشت .

على أن أحسن أصناف الفرش المذهبة بطراز الذهب ، كانت تأتيهم من أرمينية ، والطاقم الأرمنى وهو عشرة مصليات بمخادها ومساندها ومطارحها و بساطها يساوى خمسة آلاف دينار (٢) ، وكانت أطباق الخشب لآنية الطعام تأتيهم من طبرستان ، والزجاج والخزف من البصرة ، وأكثره وارد فى الأصل من بلاد الصين على ما فصلناه فى كلامنا عن التجارة فيما تقدّم ، ولكن الزجاج الرقيق كان يحمل إليهم من الشام ، وكان يضرب به المثل بالرقة والصفاء ، فيقال : « أرقّ من زجاج الشام ، وأصفى من زجاج الشام » (٣)

اتخذوا ماتقدّم من الآنية والمفروشات تقليدا للفرس والروم على ما كانت عليه عندهم ، ثم عرّبوها فجعلوا ماينقش عليها من الكتابة باللغة العربية بين أمثال وأشعار وحكم ينقشونها على الستور ، ويعلقونها بمسامير الذهب والفضة (٤) ويزركشون البسط والطنافس ، فيرسمون فى أواسطها أشكالا وصورا مما فى البرّ والبحر ، و يطرّزون حواشيها بالذهب أوالقصب أبياتا من الشعر ، وربما طرّزوا دورالبساط بقصيدة (٥) وغالوا فى الزخرفة حتى نقشوا الأشعار على آنية البلور ، وأطباق الطعام ، وعلى جدران القاعات ، وفوق أبوابها . يتفاوت ذلك شكلا ومقـدارا بتفاوت طبقات الناس من المطرّز بالحرير إلى المزركش بالقصب ، فالمحلى بالذهب ، فالمرصع بالجواهر كالبساط الذى كان لأمّ المستعين وعليـه صورة كل حيوان من جميع الأجناس ، وصورة كل طائر من ذهب وأعينها يواقيت وجواهر ، أنفقت فى صنعه ١٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم (٦) اه

— ١٦ —

ومما خلفته رشيدة بنت المعزّ وحفظ هناك ماقيمته ١٫٧٠٠٫٠٠٠ دينار من جلتها ١٢٫٠٠٠ من الثياب المصمت ألوانا و١٠٠ قاطرميز مملوءة كافورا قيصوريا ، ومعممات بجواهر من أيام المعزّ ، و بيت هرون الرشيد الخز الأسود الذى مات فيـه بطوس ، ومثل ذلك مما تركته عبدة بنت المعزّ أيضا ، و يطول شرحه ، وخزائن مملوءة بأنواع الصينى تساوى القطعة منها ألف دينار ، وحصير من الذهب وزنه عشرة أرطال يظنّ انه الحصير الذى جلت عليه بوران بنت الحسن بن سهل لما زفت إلى المأمون كما تقدم ، وصوان من الذهب كان ملك الروم أهداها إلى العزيز بالله .

ووجدوا أنواعا من الشطرنج والنرد مصنوعة من الجوهر والذهب والفضة ، أوالعاج ، أوالآبنوس ، وعدد

(١) ابن خلدون ١٤٥ ج ١ (٢) الفرج بعد الشدّة ١٠٣ ج ١ (٣) لطائف المعارف ٩٥
(٤) الانيدى ٩٨ (٥) الأغانى ٤١ ج ١٥ (٦) المستطرف ١٣٤ ج ١

كبير من الزهريات ونحوها ، ومن تماثيل العنبر ٢٢٠٠٠ قطعة أقل تمثال منها وزنه ١٢ منا ، ومن تماثيل الخليفة مالايحد ، والكاوتة المرصعة بالجوهر قيمتها ١٣٠٠٠٠ دينار فيها من الجواهر ١٧ رطلا وطاووس من ذهب مرصع بنفيس الجوهر ، عيناه من ياقوت أحمر ، وريشه من الزجاج المينا المجرى بالذهب على ألوان ريش الطاووس ، وغزال مرصع بنفيس الدر والجوهر ، بطنه أبيض ، قد نظم من در رائق ، ومائدة من الجزع يقعد عليها جماعة ، قوائمها مخروطة ، ونخلة ذهب مكللة بالجوهر وبديع الدر في إجانة من ذهب تجمع الطلع والبلح والرطب بشكله ولونه وعلى صفته وهيأته من الجواهر لاقيمة لها ، وكوز زير بلور مرصع يحمل عشرة أرطال ، ومزيرة مكللة بحب لؤلؤ نفيس ، وقس على ذلك عشرات من أمثاله .

(١٧) الفرش والأثاث عند الفاطميين

ووجدوا في خزائن الفرش من أصناف الأثاث والرياش مايعد بالالوف ، من ذلك ١٠٠٠٠ قطعة خسرواني أكثرها مذهب ومراتب خسرواني وقلموني ثمن الواحدة ٣٥٠٠ دينار ، واجلة معمولة للفيلة من الخسرواني الأحمر المذهب ، و٣٠٠٠ قطعة خسرواني أحمر مطرز بأبيض من هديها لم يفصل من كساء البيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها ، وكل بيت يشتمل على مسانده ومخاده ومساوره ومراتبه و بسطه ومقاطعه وستوره وكل مايحتاج إليه .

ومن أدلة الترف والاسراف في هذه الدولة أن السيدة الشريفة ست الملك أخت الحاكم بأمر الله أهدت أخاها هذا هدايا من جانبها ثلاثون فرسا بمراكبها ذهبا منها مركب واحد مرصع ومركب من حجر البلور وتاج مرصع بنفيس الجوهر ، و بستان من الفضة مزروع من أنواع الشجر اه

(١٨) أثمان الجواري

والاستكثار من الجواري في أوائل الاسلام لم يكن يحتاج إلى نفقة كبيرة لكثرة السبايا ، فلما نضج التمدن صاروا يبتاعونهن ، ويغالون في رفع أثمانهن ، وكانت أسعارهن تتضاعف اذا جمعن بين الجمال ورخامة الصوت وصناعة الغناء ، ويختلف ثمن الجارية من بضع مئات إلى بضعة آلاف ، أومائة ألف دينار ، وأول من بذل في هذا السبيل إلى هذا المقدار سعيد أخو سليمان بن عبد الملك ، فابتاع الزلفاء الجارية الشهيرة بمليون درهم [1] (نحو ٧٠٠٠٠ دينار) ، وابتاع الرشيد جارية بمائة ألف دينار [2] ، وجارية أخرى اشتراها من ابراهيم الموصلي بمبلغ ٣٦٠٠٠ دينار فباتت عنده ليلة ثم أرسلها إلى الفضل ، وطلب محمد الأمين إلى جعفر بن الهادي أن يبيعه جارية له اسمها «بذل» ، فأبى ، فأمر فأوقروا قاربه ذهبا ، فبلغت قيمة ذلك ٢٠٠٠٠٠٠٠ درهم [3] أي أكثر من مليون دينار ، وهذا اذا صح كان أعظم مابلغ إليه بذلهم في أثمان الجواري . وأما ماخلا ذلك فقد اشترى يزيد بن عبد الملك الأموي سلامة المغنية بعشرين ألف دينار ، وبيعت الجارية « ضياء » بخمسين ألف دينار ، واشترى جعفر البرمكي جارية بأربعين ألف دينار ، وابتاع الواثق بالله جارية مولدة للغناء اسمها « الصالحية » بعشرة آلاف دينار ، وقس عليه مادون ذلك وما فوقه واعتبر مقدار ما كانوا ينفقونه من الأموال في اقتنائهن اه

(١٩) مبلغ السخاء على العموم

تدرج المسلمون فيه بتدرجهم في الحضارة والمدنية ، وزادت جوائزهم بزيادة الثروة واتساع الأرزاق ،

(١) العقد الفريد ٢٠٣ ج ٣ والمستطرف ١٣٢ ج ٢ (٢) الطبري ١٣٣٢ ج ٢
(٣) العقد الفريد ٤٣ ج ٣ والأغاني ١٤٥ ج ١٥

فكان

فكان الأمويون يعطون بالألف درهم ، أو بضعة آلاف يلحقونها ببعض الماشية ، أو الكسوة ، أو الخيل ، وإذا توسموا في العطاء مصلحة جعلوا الصلة عشرة آلاف ، أو عشرات الالوف ، أو مائة ألف ، أو مئات الالوف كما فعل معاوية في استرضاء الناس واكتساب بني هاشم إلى حزبه ، فانه جعل صلات أبناء الصحابة ملايين يبذلها رواتب كل عام ، وهو أول من فعل ذلك من المسلمين ، غير ما كان يصلهم به من الهدايا ، لسبب أو لغير سبب كما فعل لما ولد لعبد الله بن جعفر غلام فبذل له ١٠٠,٠٠٠ درهم على أن يسميه معاوية ، فرضي ولكنه أعطى تلك الصلة للذي بشره بالغلام (١)

واقتدى بمعاوية من خلفه من الأمويين وأمرائهم ، واشتهر من هؤلاء آل المهلب بالسخاء في الدولة الأموية كما اشتهر البرامكة في الدولة العباسية (٢) . ومن أسخياء عمالهم خالد القسري ، والحجاج بن يوسف ، اذا مست الحاجة إلى السخاء ، فالحجاج أعطى للذي توسط في زواجه بهند بنت أسماء ثلاثين غلاما مع كل غلام عشرة آلاف درهم وثلاثين جارية مع كل جارية تخت من ثياب وغير ذلك (٣) وكان سعيد بن العاص لا يرسل إلى أحد هدية مع عبد إلا كان العبد في جلتها (٤) .

أما العباسيون فكانت الثروة في أيامهم أوفر ، فبلغت أعطياتهم عشرات الملايين من الدراهم ، وأول من أعطى هذا القدر منهم المنصور (٥) ، ثم صاروا يهبون الضياع وخراج البلاد ، أو يوقرون الزوارق ذهبا أو فضة ، أو يهدون الغلمان يحملون بدر المال ، أو يرسلون الجائزة على مئات من الدواب ، أو يولون الولايات والأعمال وتزداد جوائزهم اذا استخفهم الطرب ، أو استفزهم الإطراء ، فقد ولى السفاح رجلا الاهواز بقصيدة (٦)

والغالب أن يكون سخاؤهم لغرض سياسي يعود نفعه على الدولة كما فعل المنصور إذ أعطى في يوم واحد عشرة ملايين درهم ، فرقها في أعمامه ، ووجوه قواده ، ليقطع ألسنتهم عن مقاومته . ولما تولى ابنه المهدي استكتب أسماء أولاد المهاجرين والأنصار ، وجلس مجلسا عاما فرق فيه ٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم ، وقرر لكل واحد من أهل بيته ٦,٠٠٠ درهم كل سنة (٧) ، وأعطى المغيرة بن حبيب ألف فريضة يضعها حيث شاء (٨) وفرق الرشيد في يوم واحد ١,٣٥٠,٠٠٠ دينار (٩) ، وطرب يوما فنثر على الناس ٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم (١٠) ، وأعطى الهادي لعبد الملك بن مالك صاحب شرطة أبيه مالا أرسله إليه على ٤٠٠ بغل موقرة دراهم (١١) ، وأعطى الأمين إلى سليمان بن أبي جعفر مليون درهم (١٢) ، واختص الأمين من أساليب السخاء بأنه كان يأمر بايقار زورق الطالب ذهبا أو فضة ، وكان قصره على شاطئ دجلة ، فاذا جاءه شاعر ، أو طالب في زورق وأخذته الأريحية ، أو استخفه الطرب ، قال : أوقروا زورق هذا ذهبا أو فضة ، وقلما كانوا يفعلون ذلك ، والغالب أن يعوضوا عنه بمبلغ من المال كما فعلوا بأبي محمد التيمي ، فانه مدح الأمين بقصيدة أطربته ، فأمر الفضل بن الربيع أن يوقر زورقه مالا ، فقال نعم ياسيدي ، فلما طالبه التيمي بذلك . قال له الفضل : أنت مجنون من أين لنا ما يملأ زورقك ؟ ، ثم صالحه على ١٠٠,٠٠٠ درهم (١٣) ، وأجاز المأمون طبيبه بمليون درهم وألف كرحنطة (١٤) (كذا) ، وفرق المأمون في ساعة ٢٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم ، ومدحه اعرابي فأجازه بثلاثين ألف دينار (١٥) ، وكان المتوكل يهب القطائع جوائز على المدح (١٦) ، وقس على ذلك هدايا سائر الخلفاء اهـ

---

(١) الأغاني ٧١ ج ١١ (٢) ابن خلكان ٢٦٦ ج ٢ (٣) الأغاني ١٣٠ ج ١ (٤) الفرج بعد الشدة ٣٣ ج ٢ (٥) لطائف المعارف ١٦ (٦) فوات الوفيات ٢٠ ج ١ (٧) سير الملوك ٦٥ و ٦٦ (٨) الأغاني ٩٨ ج ١٨ (٩) المستطرف ١٣٥ ج ١ (١٠) الأغاني ٨٨ ج ٩ و ١٢٤ ج ١٧ (١١) ابن الأثير ٤٢ ج ٦ (١٢) المستطرف ١٣٣ ج ١ (١٣) الأغاني ١١٨ ج ١٨ (١٤) طبقات الأطباء ١٢٨ ج ١ (١٥) فوات الوفيات ٢٤٠ ج ١ (١٦) الأغاني ٣ ج ١١

(٢٠) سخاء البرامكة

سمع المأمون بشيخ يأتى خرابات البرامكة ، ويبكى وينتحب طويلا ، ثم ينشد شعرا يرثيهم به وينصرف فبعث فى طلبه ، فلما حضر انتهره الخليفة وسأله من هو ، وبم استحق البرامكة منه ما يصنع ؟ فقال الرجل وهو غير هائب : للبرامكة عندى أياد خضرة ، فإن أمر أمير المؤمنين حدثته ببعضها ، فقال : هات ، فقال أنا المنذر بن المغيرة الدمشقى ، نشأت فى نعمة فزالت حتى وصلت إلى بيع دارى ، وأملقت إلى غاية ، فأشير علىّ بقصد البرامكة ، فخرجت إلى بغداد ، ومعى نيف وعشرون امرأة وصبيا ، فدخلت بهم إلى مسجد ببغداد ، ثم خرجت وتركتهم جياعا لا نفقة لهم ، فمررت بمسجد فيه جماعة عليهم أحسن زىّ ، فجلست معهم أردّد فى صدرى ما أخاطبهم به ، فتحيد نفسى عن ذلّ المسألة ، وإذا خادم قد أزعج القوم ، فقاموا ، فقمت معهم ، ودخلوا دارا كبيرة فدخلت ، فإذا يحيى بن خالد على دكة وسط بستان ، فجلسوا وجلست ، وكنا مائة رجل ورجل ، فخرج مائة خادم فى يد كل خادم منهم مجمرة ذهب ، فيها قطعة عنبر ، فتبخروا ، وأقبل يحيى على القاضى ، وقال : زوّج ابن عمى هذا بابنتى عائشة ، فخطب وعقد النكاح ، وأخذنا النثار من فتات المسك ، وبنادق العنبر ، وتماثيل الندّ ، فالتقط الناس ، والتقطت ، ثم جاءنا الخدم فى يد كل واحد منهم صينية فضة ، فيها ألف دينار مخلوطة بالمسك ، فوضع بين يدى كل واحد واحدة ، فأقبل كل واحد يأخذ الدنانير فى كمه ، والصينية تحت إبطه ، ويخرج ، فبقيت وحدى ، لا أجسر أفعل ذلك ، فغمزنى بعض الخدم ، وقال خذها وقم ، فأخذتها وقمت ، وجعلت أمشى وألتفت خوفا من أن تؤخذ منى ، ويحيى يلاحظنى من حيث لا أفطن ، فلما قاربت الستر رددت فيئست من الصينية ، فجئته فأمرنى بالجلوس ، فجلست ، فسألنى عن حالى ، فحدثته عن قصتى ، فبكى ، ثم قال علىّ بموسى ، فجاءه ، فقال : يابنىّ هذا رجل من أولاد النعم ، قد رمته الأيام بصرفها ، فخذه إليك فأخلطه بنفسك ، فأخذنى وخلع علىّ ، وأمرنى بحفظ الصينية لى ، فكنت فى ألذ عيش يومى وليلتى ، ثم استدعى أخاه العباس ، وقال : إن الوزير قد سلم إلىّ هذا ، وأريد الركوب إلى دار أمير المؤمنين ، فليكن عندك اليوم ، فكان يومى مثل أمس ، فأقبلوا يتداولوننى وأنا قلق بأمر عيالى ولا أتجاسر أن أذكرهم ، فلما كان فى اليوم العاشر أدخلت على الفضل بن يحيى ، فأقمت عنده يومى وليلتى ، فلما أصبحت جاءنى خادم ، فقال : قم إلى عيالك وصبيانك ، فقلت : إنا لله ذهبت الصينية ومافيها ، فليت هذا كان من أوّل يوم ، وقمت والخادم يمشى بين يدىّ ، فأخرجنى من الدار ، فازداد مابى ، ثم أدخلنى إلى دار كأن الشمس تطلع فى جوانبها وفيها من صنوف الآلات والفرش ، فلما توسطتها رأيت عيالى يرتعون فى الديباج والستور ، وقد حمل إليهم مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار ، وسلم إلىّ الخادم صكا باسم « ضيعتين جليلتين » ، وقال : هذه الدار وما فيها والضياع لك ، فأقمت مع البرامكة فى أخفض عيش إلى الآن ، ثم قصدنى عمرو بن مسعدة فى الضيعتين وألزمنى من خراجهما مالا يفى به دخلهما ، فكلما لحقتنى نائبة قصدت دورهم فبكيت ، فاستدعى المأمون عمرو بن مسعدة وأمره أن يردّ على الرجل ما استخرج منه ويقرّر خراجه على ما كان فى أيام البرامكة ، فبكى الشيخ بكاء شديدا ، فقال له المأمون : ألم أستأنف بك جميلا . فقال : بلى ولكن هذا من بركة البرامكة ، فقال امض مصاحبا فان الوفاء مبارك ، وحسن العهد من الايمان [١] اه

(٢١) السخاء على الشعراء

أما الرشيد فأعطى مروان كما كان يعطيه المهدى أى مائة ألف درهم [٢] ، وأعطاه مرة ٥٠٠٠

(١) الفرج بعد الشدة ٢٢ ج ٢ وسير الملوك ١١١ والاتليدى ١٣٢ — (٢) الأغانى ١٩ ج ١٢

درهم

درهم وعشرة من الرقيق ، وكان يعطى أبا العتاهيـة راتبا سنويا مقداره ٥٠,٠٠٠ درهم غير الجوائز والمعاون [١] ، وفاقهم المتوكل فى ذلك ، لأنه أعطى حسين بن الضحاك ألف دينار عن كل بيت من قصيدة قالها وهو أوّل من أعطى ذلك [٢] ، وكان المعتصم اذا أعجبه قول الشاعر ملأ فمه جوهرا ، وقد سبقه إلى ذلك يزيد ابن عبد الملك [٣] .

وتشبه الوزراء والأمراء بالخلفاء ، فكان خالد القسرى يجلس للشعراء فى يوم معين ويجيزهم ، وكذلك آل المهلب فانهم فرضوا لهم الأعطية والجوائز [٤] ، أما فى الدولة العباسية فالبرامكة لم يدخروا وسعا فى إجازة الشعراء ، وخصوصا الفضل بن يحيى ، وقد قال فيه بعضهم :

مالقينا من جود فضل بن يحيى ✲ ترك الناس كلهم شعراء [٥]

وكان أبوه يحيى اذا لقيه شاعر ولم يكن معه مال أعطاه دابته [٦] ، وقد فاق البرامكة الخلفاء فى إجازة الشعراء ، فنال شاعرهم ابان اللاحقى على قصيدة واحدة مثل ماناله مروان بن أبى حفصة من الرشيد كل عمره [٧] ، وقس على ذلك سخاء سائر الوزراء والأمراء فان يزيد بن مزيد أعطى نصف ماله لشاعر [٨]

ويقال نحو ذلك فى سخائهم على المغنين ، فقد أعطى المهدى دحمان المغنى فى ليلة واحدة ٥٠,٠٠٠ دينار ، لأنه أطربه ، وأعطى الأمين اسحق الموصلى ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم ، لأنه غناه شعرا فى مدحه ، فحملها إلى داره مائة فرّاش [٩] ، وكان الهادى يجرى على ابراهيم الموصلى عشرة آلاف درهم فى الشهر سوى صلاته ، أما الرشيد فكان اذا طرب وهب وجاد حتى ولى اسماعيل بن صالح مصر لأنه أطربه بغنائه [١٠] وأخبار الشعراء والمغنين كثيرة فلا نطيل بها اهـ

(٢٢) التهتك

وطبيعى فيما قدّمناه من الحضارة والترف أن يعتورها شىء من التهتك والفحشاء ، وان كان ذلك لايخلو منه قوم مهما بلغ من بعدهم عن الحضارة ولكنه يكثر غالبا فى المتحضرين ، لسكون خواطرهم وتوفر أسباب الرغد والتنعم عندهم ، كان فى جاهلية العرب جماعة من البغايا لهن رايات ينتحيها الفتيان ، وكان بعض الناس يكرهون إماءهم على البغاء يبتغون عرض الدنيا [١١] ، ولكن ذلك شأن الحضر منهم ، لأن البدو أقرب إلى صحة الآداب ، فاعتبر كم تكون أسباب التهتك أوفر فى المدن الكبرى حيث تتزاحم الأقدام ، وتتوفر الثروة ، وتكثر الجوارى ، ويتفشى الغناء والمسكر كما كان شأن بغداد وقرطبة والقاهرة والفسطاط فى إبان ذلك التمدن ، فلاغرو اذا تفشت الفحشاء فيها ، ولاسيما فى العصور الوسطى ، حتى صار البغاء صناعة عليها رئيس يحتكم إليه البغاؤون عند الحاجة [١٢] ، وتفننوا فى ترويج تلك البضاعة بتصوير النساء على جدران الحمامات [١٣] ، وأصبح أهل القصف من الأغنياء يصوّرون حظاياهم على جدران منازلهم كما فعل ابن طولون ، وكان الحكام العقلاء يبذلون جهدهم فى منع الفحشاء ، ويقاومون تيارها بما فى امكانهم [١٤] ، ولما عجزوا عن كف أذاها بالقوّة ضربوا عليها ضرائب يدفعها أصحابها مثل سائر التجارات [١٥] .

(١) الأغانى ١٥٧ ج ٣ (٢) الأغانى ١٨٤ ج ٦ (٣) الأغانى ١٧٤ ج ٦ و١٤٧ ج ١
(٤) الأغانى ١٦٤ ج ١١ (٥) ابن خلكان ٤١١ ج ١ (٦) الأغانى ٨ ج ٥ (٧) الأغانى ٧٣ ج ٢٠
(٨) ابن خلكان ٢٨٥ ج ٢ (٩) الأغانى ٩٩ و١٤٢ ج ٥ (١٠) حلبة الكميت ٦٣ و ٦٤
(١١) العقد الفريد ٢ ج ٣ (١٢) الفرج بعد الشدّة ١٤٣ ج ٢ (١٣) ابن خلكان ١٢٧ ج ٢ ونفح الطيب ٨٦٠ ج ٢ (١٤) ابن الأثير ٩٥ ج ١٠ و٢١٥ ج ١١ والمقريزى ٣١٦ ج ١
(١٥) المقريزى ٨٩ ج ١

وأقبح ماظهر من التهتك فى أثناء هذا التمدّن مغازلة الغلمان وتسريهم ، وظهر ذلك على الخصوص فى أيام الأمين ، وتكاثر بتكاثر غلمان الترك والروم من أيام المعتصم ، وفيهم الأرقاء بالأسر أو بالشراء ، وتسابق الناس إلى اقتنائهم كما تسابقوا إلى اقتناء الجوارى وغالوا فى تزيينهم وتطييبهم ، وكانوا يخصونهم ليأمنوا تعدّيهم على نسائهم وجواريهم ، وفشا حبّ الغلمان فى أهل الدولة بمصر وتغزّل بهم الشعراء (١) حتى غارت النساء من ذلك ، فعمدن إلى التشبه بالغلمان فى اللباس والقيافة ليستملن قلوب الرجال (٢)

وكثرة الجوارى فى بعض القصور جرهنّ إلى التفنن بأساليب الفحشاء ، وربما اتخذت كل جارية خصيا لنفسها كالزوج ، كما فعلت جوارى خمارويه صاحب مصر (٣) ، حتى النساء الشريفات فإن قعودهنّ عن الزواج لعدم وجود الأكفاء ، أو لأسباب أخر كان يجرهنّ إلى مثل ذلك ، فتكاثر الفساد فيهن لقلة التزويج (٤)

ذكروا أن ابنة الاخشيد صاحب مصر اشترت جارية لتتمتع بها ، وبلغ المعزّ لدين الله الفاطمى ذلك ، وكان لايزال فى الغرب يتحفز للوثوب على مصر ويخاف الفشل ، فلما بلغه مافعلته ابنة الاخشيد استبشر ، وقال : هذا دليل السقوط ، وجند على مصر وفتحها ، والعفاف سياج العمران .

(٢٣) — شكل المجلس وفرشه

وقس على ذلك سائر ما أدخلوه من مظاهر الأبهة من الطراز ، ونقش الأشعار فى صدور المجالس ، وفرش الديباج والخز اهـ

(٢٤) احتفالات الأعراس ونحوها

فالاحتفال بالأعراس تقلب على أحوال شتى ترجع إلى نحو المشهور من الاحتفال بأعراس المسلمين فى مصر الآن مع اعتبار عوائد البلاد وتفاوت الثروة ، ونأتى بمثال من أبلغ مايعرف من التناهى بالبذخ فى مثل هذه الحال ، فنذكر احتفالين اشتهرا فى تاريخ الاسلام : الأوّل زفاف خديجة بنت الحسن بن سهل المسماة بوران إلى الخليفة المأمون ، احتفلوا به فى فم الصلح احتفالا لم يسبق له مثيل ، نثر الحسن فيه على الهاشميين والقوّاد والكتاب والوجوه بنادق المسك ، فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك ، فكانت البندقة اذا وقعت فى يد الرجل فتحها ، فيقرأ مافى الرقعة ، فاذا علم مافيها مضى إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه ويتسلم ما فيها سواء كان ضيعة ، أوملكا آخر ، أوفرسا ، أوجارية ، أومملوكا ، ثم نثر على سائر طبقات الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر غير ما أنفقه على المأمون وقوّاده وأصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه ، وكانوا خلقا لايحصى ، حتى على الجمالين والمكارية والملاحين ، وكل من ضمه عسكره ، ذكروا انه خدم فى ذلك الاحتفال ٣٦٠٠٠ ملاح ، ونفد الحطب يوما فأوقدوا تحت القدور الخيش مغموسا فى الزيت ، ولما كانت ليلة البناء وجليت بوران على المأمون فرش لها حصير من الذهب ، وجىء بمكتل مرصع بالجواهر فيه درر كبار نثرت على النساء وفيهنّ زبيدة وحمدونة بنت الرشيد ، فما مست إحداهنّ من الدّر شيئا ، فقال المأمون شرّفن أبا محمد وأكرمنه ، فمدّت كل واحدة منهنّ يدها فأخذت درّة ، فبقى سائر الدّر يلوح على ذلك الحصير الذهب ويتلألأ ، فقال المأمون : قاتل الله الحسن بن هانئ كأنه قد رأى هذا حيث يقول :

كأن صغرى وكبرى من فواقعها ☆ حصباء درّ على أرض من الذهب

(١) تزيين الأسواق ١٦٣ (٢) المقريزى ١٠٤ ج ٢ (٣) ابن الأثير ١٨٨ ج ٧
(٤) الفرج بعد الشدة ٦١ ج ٢

وكانت

وكانت فى المجلس شمعة عنبر فيها مائة رطل ، فضجّ المأمون من دخانها ، فعملت له مثل من الشمع ، فكان الليل مدة مقامه فيه كالنهار ، وبلغت نفقة هذا الاحتفال ٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، وأمر المأمون للحسن بن سهل عند منصرفه بمبلغ ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم وأقطعه فم الصلح ، فجلس الحسن وفرّق المال على قوّاده وأصحابه وحشمه ، وأطلق له خراج فارس وكورالاهواز مدة سنة ، وجاء المأمون إلى عروسه فى الليلة التالية ، فنثرت عليه جدّتها ألف درّة كانت فى صنية ذهب (١) وغير ذلك مما يفوق طور التصديق .

والاحتفال الثانى احتفاله المتوكل على الله حين ظهر ابنه المعتز بالموضع المعروف ببركوازا ، ومما جرى فيه انه جلس بعد فراغ القوّاد والأكابر من الأكل ومدّت بين يديه مرافع ذهب مرصعة بالجوهر ، وعليها أمثلة من العنبر والندّ والمسك المعجون على جميع الصور ، وجعلت بساطا ممدودا ، وأحضر القوّاد والجلساء وأصحاب المراتب ، فوضعت بين أيديهم صوانى الذهب مرصعة بأصناف الجواهر من الجانبين ، و بين السماطين فرجة ، وجاء الفراشون بزنابيل قد غشيت بالادم مملوءة دراهم ودنانير نصفين ، فصبت فى الفرجة حتى ارتفعت على الصوانى ، وأمر الحاضرون أن يشربوا ، وأن يتنقل كل من شرب من تلك الدنانير بثلاث حفنات ماحملت يده وكلما خفّ موضع صبّ عليه من الزنابيل حتى يردّ إلى حالته ، ووقف غلمان فى آخر المجلس ، فصاحوا : ان أمير المؤمنين يقول لكم ليأخذ من شاء ماشاء ، فمدّ الناس أيديهم إلى المال فأخذوه ، وكان الرجل يثقله مامعه فيخرج به ، فيسلمه إلى غلمانه ويرجع إلى مكانه ، ولما تقوّض المجلس خلع على الناس ألف خلعة ، وحملوا على ألف مركب بالذهب والفضة ، وأعتق ألف نسمة (٢) .

وقس على ذلك احتفال الخليفة المقتدى بالله سنة ٤٨٠ هجرية لما زفت إليه بنت السلطان ملكشاه وحمل جهازها إلى دار الخلافة (٣) ، وأما الاحتفال بتتويج السلاطين والبيعة فقد ذكرنا أمثلة منه فى الجزء الأوّل من هذا الكتاب (تاريخ التمدّن الاسلامى) صفحة ٩١ و١١٧ ؟ اه

(٢٥) استقبال الوفود

أما استقبال الوفود فقد كان مما يظهرون به عزّ الاسلام ، ولاسيما اذا كان القادمون من وفود الدول غير الاسلامية من الروم ، أو الهند ، أو الافرنج ، والاحتفال بذلك يختلف باختلاف الأحوال ، نذكر من أمثلته احتفال المقتدر العباسى برسل جاءوه من ملك الروم سنة ٣٠٥ هجرية ، فانه استقبلهم فى دار الشجرة التى تقدّم ذكرها ، وعبى لهم الجيوش ، وصفت الدار بالأسلحة ، وأنواع الزينة ، وكانت جملة العساكر المصفوفة حينئذ ١٦٠٠٠٠ رجل بين راكب وواقف ، ووقف الغلمان الحجرية بالزينة والمناطق المحلاة ، وكانوا اثنين وعشرين ألفا ، ووقف الخدم والخصيان كذلك وعددهم سبعة آلاف منهم ٤٠٠٠ خادم أبيض و٣٠٠٠ خادم أسود ، ووقف الحجاب وكانوا سبعمائة حاجب ، وزينت المراكب والزوارق فى دجلة أعظم زينة ، وزينت دار الخلافة ، وكانت جملة الستور المعلقة عليها ٣٨٠٠٠ ستر منها ديباج مذهب ١٢٥٠٠ ستر ، وكانت جملة البسط ٢٢٠٠٠ بساط ، واستعرضوا مائة سبع مع مائة سباع ، وكان فى جملة الزينة الشجرة الذهب والفضة التى تشتمل على ثمانية عشر غصنا من الذهب والفضة ، فكانت أغصانها تتمايل بحركات موضوعة ، وعلى الأغصان طيور وعصافير مختلفة من الذهب والفضة تصفر بحركات مرتبة كما وصفناها فى محلها ، فشاهد الرّسل من العظمة مايطول شرحه (٤) انتهى ما أردته من كتاب « تاريخ التمدّن الاسلامى » والحمد لله رب العالمين .

(١) لطائف المعارف ٧٣ وابن خلكان ٩٣ ج ١ (٢) لطائف المعارف ٧٤ (٣) ابن الأثير ٦٥ ج ١٠
(٤) أبوالفداء ٧٣ ج ٢ وابن الساعى ٧٥

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : أما الآن فقد أوفيت القول حقه ، وأصبح ما كان مجرّد خيال واضح الحقيقة ظاهرا للعيان ، إذن على المسلمين بعدنا أن يذروا الخطأ الذى وقع فيه آباؤنا الأوّلون ، ويقيموا دولهم على حفظ صحة الأبدان والعقول ، وترك الفضول ، والاهلكوا كما هلك الأوّلون ، وذلوا كما ذلّ الأقدمون ، واذا اتبعت هذا المقام بما يلقى عليه شعاعا من نورالعلم ، فتبين ماحصل لبعض الملوك الذين تربوا تربية الترف والنعيم ، وهل جنودهم وأعوانهم حفظوا عهدهم ؟ أم كانوا أوّل الفاتكين بهم ؟ ومات أكثرهم فى ريعان شبابهم ، فقلت سأفعل ان شاء الله ، انظر :

عقاب الأمراء المسلمين بجهلهم فى نفس الحياة الدنيا قبل عقاب الآخرة

ذلك أن صديقى العالم الذى يذاكرنى هذا التفسير سمع ماسمعته أنت أيها الأخ فهاله الأمر جدا ، وقال : ألهذا الحدّ وصل ملوك الاسلام ، أين القرآن ؟ أين الحكمة والفلسفة ؟ أين العقول ؟ فكيف تكون أسرّتهم ذهبا مرصعة بالجواهر ، وكيف يميلون للترف والنعم ، اللهم لاحول ولاقوّة إلا بالله العلىّ العظيم .

ثم قال لى كما قلت أنت : أيها الصديق : ليكن فى هذا المقام مقال فيه ماحلّ بهؤلاء المسرفين من الذل فى الحياة الدنيا ولست أكتفى بأن تذكرلنا أن دولهم ذهبت ، وعزّهم اختفى ، بل أنا أرجو أن تبين ماحاق بنفس هؤلاء المترفين ، فان هذا يبين للناس أن الغفلة المستحكمة فى الأمم لها عقاب فى نفس الحياة ، ولعمرى إن ذلك منى اتضح تماما كان أقوى رادع ، وأعظم زاجر ، ومؤثر فى الأمم بعدنا .

كيف يجهلون علم الصحة ، وكيف يسكرون ، وكيف يكثرون من ألوان الطعام ، وكيف يتفننون فى الملاهى ؟ أجهلوا أن هذا نفسه يمنع السعادة فى نفس الحياة ؟ ألم يدرسوا ، ألم يتعلموا ؟ هذا هو الجهل ، ثم إن الانغماس فى اللذات هو نفسه مزيل للملك ، مسلط للجند على الأمراء ، فهل كان هؤلاء لايعقلون ؟ فقلت : حياك الله أرح فؤادك قليلا ، إن المطلع على ماتقدّم فى ﴿ سورة ص ﴾ من الكلام على تربية الأمراء والجند عند آية : « ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض الخ » وعلى حفظ الصحة فى الكلام على قصة آدم هناك يعرف علم الصحة عند أطباء زماننا فى أوروبا ، ويراها موافقة أشدّ الموافقة لسيرة النبىّ ﷺ والخلفاء الراشدين فى بساطة طعامهم ، وأن الذين يتجاوزون هذه السيرة أذلاء فى نفس حياتنا الدنيا ، وهاك ماطلبت من الأمثلة على ذلك :

﴿ أوّلا ﴾ جاء فى كتاب « مروج الذهب » للمسعودى مانصه : « حدّث البحترىّ ، قال : اجتمعنا ذات يوم مع الندماء فى مجلس المتوكل فتذاكرنا أمر السيوف فقال بعض من حضر : بلغنى ياأمير المؤمنين أنه وقع عند رجل من أهل البصرة سيف من الهند ليس له نظير ولم ير مثله ، فأمر المتوكل بكتاب إلى عامل البصرة يطلبه بشرائه بما بلغ فنفذت الكتب على البريد ، وورد جواب عامل البصرة بأن السيف اشتراه رجل من أهل اليمن ، فأمر المتوكل بالبعث إلى اليمن بطلب السيف وابتياعه فنفذت الكتب بذلك ، قال البحترىّ : فبينما نحن عند المتوكل إذ دخل عليه عبيد الله والسيف معه ، وعرفه أنه ابتيع من صاحبه باليمن بعشرة آلاف درهم ، فسرّ بوجوده ، وحمد الله على ماسهل من أمره ، وانتضاه فاستحسنه ، وتكلم كل واحد منا بما يحب ، وجعله تحت ثنى فراشه ، فلما كان من الغداة قال للفتح اطلب لى غلاما تثق بنجدته وشجاعته أدفع له هذا السيف ليكون واقفا به على رأسى لايفارقنى فى كل يوم مادمت جالسا قال فلم يستتم الكلام حتى أقبل باغر التركىّ فقال الفتح يا أمير المؤمنين هذا باغر التركى قد وصف لى بالشجاعة والبسالة وهو يصلح لما أراده أمير المؤمنين ، فدعا به المتوكل ، فدفع إليه السيف وأمره بما أراد وتقدّم أن يزاد فى مرتبته وأن يضعف له الرزق ، قال البحترىّ : فوالله ما انتضى ذلك السيف ولاخرج من غمده من الوقت الذى دفع

اليه

إليه إلا فى الليلة التى ضرب به فيها باغر بذلك السيف . قال البحترىّ : لقد رأيت من المتوكل فى الليلة التى قتل فيها عجبا ؛ وذلك اننا تذاكرنا أمر الكبر وما كانت تستعمله الملوك من الجبرية ، فجعلنا نخوض فى ذلك وهو يتبرأ منه ، ثم حوّل وجهه إلى القبلة فسجد ، وعفر وجهه بالتراب خضوعا لله عز وجل ، ثم أخذ من ذلك التراب ، فنثره فى لحيته ورأسه ، وقال : إنما أنا عبد الله ، وأن من صار إلى التراب لحقيق أن يتواضع ولا يتكبر ، قال البحترىّ : فتطيرت له من ذلك ، وأنكرت مافعله من نثره التراب على رأسه ولحيته ، ثم قعد للشراب ، فلما عمل فيه غنى من حضر من المغنين صوتا استحسنه ، ثم التفت إلى الفتح فقال يافتح مابقى أحد سمع هذا الصوت من مخارق غيرى وغيرك ، ثم أقبل على البكاء ، قال البحترىّ : فتطيرت من بكائه ، وقلت هذه ثانية ، فأنا فى ذلك إذ أقبل خادم من خدم فتيحة ومعه منديل وفيه خلعة وجهت بها إليه فتيحة فقال له الرسول ياأمير المؤمنين تقول لك فتيحة انى استعملت هذه الخلعة لأمير المؤمنين واستحسنتها ووجهت بها لتلبسها ، قال فاذا فيه دراعة حمراء لم أر مثلها قط ومطرف خز أحمر كأنه دبيق من رقته ، قال فلبس الخلعة والتحف المطرف ، قال فانى على ذلك إذ تحرك المتوكل فيه وقد كان التفّ عليه المطرف فجذبه جذبة فخرقه من طرفه إلى طرفه ، قال فأخذه ولفه ، ودفعه إلى خادم فتيحة الذى جاءه بالخلعة ، وقال : قل لها احتفظى بهذا المطرف عندك ليكون كفنا لى عند وفاتى ، فقلت فى نفسى . إنا لله وانا إليه راجعون ، انقضت والله المدة وسكر المتوكل سكرا شديدا ، قال : وكان من عادته أنه اذا تمايل عند سكره أن يقيمه الخدم الذين عند رأسه قال فبينما نحن كذلك ومضى نحو ثلاث ساعات من الليل إذ أقبل باغر ومعه عشرة نفر من الأتراك وهم متلثمون والسيوف فى أيديهم تبرق فى ضوء ذلك الشمع ، فهجموا علينا وأقبلوا نحو المتوكل حتى صعد باغر وآخر معه من الأتراك على السرير فصاح بهم الفتح ويلكم مولاكم ، فلما رآهم الغلمان ومن كان حاضرا من الجلساء والندماء تطايروا على وجوههم فلم يبق أحد فى المجلس غير الفتح وهو يحاربهم ويمانعهم . قال البحترىّ فسمعت صيحة المتوكل وقد ضربه باغر بالسيف الذى كان المتوكل دفعه إليه على جانبه الأيمن فقدّه إلى خاصرته ، ثم ثناه على جانبه الأيسر ففعل مثل ذلك ، وأقبل الفتح يمانعهم عنه ، فبعجه واحد منهم بالسيف الذى كان معه فى بطنه فأخرجه من متنه وهو صابر لا يتنحى ولا يزول ، قال البحترىّ فما رأيت أحدا كان أقوى نفسا ولا أكرم منه ، ثم طرح بنفسه على المتوكل فماتا جميعا ، فلفا فى البساط الذى قتلا فيه وطرحا ناحية ، فلم يزالا على حالتهما فى ليلتهما وعامة نهارهما حتى استقرت الخلافة للمنتصر ، فأمر بهما فدفنا جميعا وقيل ان فتيحة كفنته بذلك المطرف المخرق بعينه ، وكانت سنه ٤١ سنة اهـ

ثانيا — الكلام على المنتصر بالله بعد المتوكل

الذى تولى الملك سنة ٢٤٧ وسنه ٢٥ سنة ، تولى الخلافة نصف سنة لاغير

قال المسعودى فى « مروج الذهب » : إن الخليفة المنتصر كان يلعب الصولجان فى الميدان ، فانصرف وهو عرق فدخل الحمام ونام فى الباذهنج ، فضربه الهواء ، وركبته حمى هائلة ، فدخل عليه أحمد بن الخصيب فقال ياسيدى أنت متفلسف وحكيم الزمان ، تنزل من الركوب تعبا فتدخل الحمام ، ثم تخرج عرقا فتنام فى الباذهنج ، فقال له المنتصر : أتخاف أن أموت ؟ رأيت فى المنام البارحة آتيا أتانى فقال لى : تعيش خمسا وعشرين سنة ، فعلمت أن ذلك بشارة فى المستقبل من عمرى ، وانى أبقى فى الخلافة هذه المدة ، قال فمات فى اليوم الثالث ، فنظروا فاذا هو قد استوفى خمسا وعشرين سنة .

وقد قيل ان الصنفورى الطبيب سمه فى مشراط حجمه به ، وقد كان عزم على تفريق جمع الأتراك ،

فأخرج وصيفا فى جمع كثير إلى غزاة الصائفة بطرسوس ، ونظر يوما إلى بغا الصغير وقد أقبل فى القصر ، وحوله جماعة من الأتراك ، فأقبل على الفضل بن المأمون ، فقال : قتلنى الله ان لم أقتلهم ، وأفرّق جمعهم بقتلهم المتوكل على الله ، فلما نظر الأتراك إلى مايفعل بهم وماقد عزم عليه وجدوا منه الفرصة ، وقد شكا ذات يوم حرارة ، فأراد الحجامة ، فخرج له من الدم ثلثمائة درهم لما كان فى المبضع ، وشرب شربة بعد ذلك فخانت قواه ، ويقال ان السم كان فى مبضع الطبيب حين فصده ، وقد ذكر ابن أبى الدنيا عن عبد الملك ابن سليمان بن أبى جعفر ، قال : رأيت فى نومى المتوكل والفتح بن خاقان ، وقد أحاطت بهما نار ، وقد جاء محمد المنتصر ، فاستأذن عليهما ، فمنع الوصول ، ثم أقبل المتوكل علىّ ، فقال : ياعبد الملك قل لمحمد بالكأس الذى سقيتنا تشرب ، قال : فلما أصبحت غدوت على المنتصر ، فوجدته محموما ، فواظبت على عيادته فسمعته فى آخر علته يقول : « عجلنا فعوجلنا » فمات من ذلك المرض اهـ

***

فلما سمع صاحبى ذلك ، قال : إنّ هذا وأمثاله هو الذى يفهمنا قوله تعالى : « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم » . فقلت :

ثالثا ــ الكلام على المستعين بالله

لما كان فى شهر رمضان من هذه السنة ، وهى سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، بعث المعتزّ بالله سعيد بن صالح الحاجب ليلقى المستعين ، وقد كان فى جلة من حمله من واسط ، فلقيه سعيد ، وقد قرب من سامرّا فقتله واحتزّ رأسه ، وحمله إلى المعتز بالله ، وترك جثته ملقاة على الطريق ، حتى تولى دفنها جماعة من العامة ، وكانت وفاة المستعين بالله يوم الأربعاء لست خلون من شوّال سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، وهو ابن خمس وثلاثين سنة ، وذكر شاهك الخادم ، قال : كنت عديلا للمستعين عند أشخاص المعتزلة الى سامرا ونحن فى عمارية ، فلما وصل إلى القاطول تلقاه جيش كثير ، فقال ياشاهك انظر من رئيس القوم فان كان سعيدا الحاجب فقد هلكت ، فلما عاينته قلت هو والله سعيد ، فقال إنا لله وانا إليه راجعون ، ذهبت والله نفسى وجعل يبكى ، فلما قرب سعيد منه جعل يقنعه بالسوط ، ثم أضجعه وقعد على صدره ، واحتز رأسه وحمله على ماذكرنا ، واستقامت الامور للمعتز ، واجتمعت الكلمة عليه اهـ

رابعا : الكلام على المعتزّ وقتله

قال المسعودى : انه لما رأى الأتراك من إقدام المعتز على قتل رؤسائهم ، وإعماله الحيلة فى فنائهم ، وانه قد اصطنع المغاربة والفراعنة دونهم صاروا إليه بأجمعهم ، وذلك لأربع بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين ، وجعلوا يقرّعونه بذنوبه ويوبخونه على أفعاله وطالبوه بالأموال ، وكان المدبر لذلك صالح بن وصيف مع قوّاد الأتراك فلجّ وأنكر أن يكون قبله شىء من المال ، فلما حصل المعتز فى أيديهم بعث إلى مدينة السلام فى محمد بن الواثق الملقب بالمهتدى ، وقد كان المعتز نفاه إليها واعتقله فيها ، فأتى به فى يوم وليلة إلى سامرّا ، فتلقاه الأولياء فى الطريق ، ودخل إلى الجوسق ، وأجاب المعتز إلى الخلع على أن يعطوه الأمان أن لايقتل وأن يؤمّنوه على نفسه وماله وولده ، وأبى محمد بن الواثق أن يقعد على سرير الملك أو يقبل البيعة حتى يرى المعتز ويسمع كلامه ، فأتى بالمعتز وعليه قميص مدنس وعلى رأسه منديل ، فلما رآه محمد بن الواثق وثب إليه فعانقه ، وجلسا جميعا على السرير ، فقال له محمد بن الواثق : يا أخى ماهذا الأمر ؟ قال المعتز أمر

لا أطيقه ، ولا أقوم به ، ولاأصلح له ، فأراد المهتدى أن يتوسط أمره ، و يصلح الحال بينه و بين الأتراك ، فقال المعتز : لاحاجة لى فيها ، ولايرضونى لها ، قال المهتدى : فأنا فى حلّ من بيعتك ، قال : أنت فى حلّ وسعة ، فلما جعله فى حلّ من بيعته حوّل وجهه عنه ، فأقيم عن حضرته ، وردّ إلى محبسه ، فقتل فى محبسه بعد أن خلع بستة أيام اه

خامساً : المعتمد على الله العباسى

قال المسعودى : قدكان المعتمد على الله قعد للغداء واصطبح يوم الاثنين لاحدى عشرة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين ، فلما كان عندالعصرقدم الطعام فقال ياموشكيره للموكل به مافعلت الرءوس بأرقابها ، وقد كان قدم من الليل أن يقدّم له رأسا جايين ، وقد فصل فيهما أرقابهما فقدمتا ، وكان معه على المائدة رجل من ندمائه يعرف بقف الملقم ، ورجل آخر يعرف بخاف المضحك ، فأوّل من ضرب بيده إلى الرءوس الملقم ، فانتزع أذن واحد منهما ، وأما المضحك فانه يقتلع اللهازم والأعين ، فأكلوا وأكل المعتمد ، وأتموا يومهم ، فأما الملقم صاحب اللقمة الأولى فانه تهرّى فى الليل ، وأما المضحك فانه مات قبل الصباح ، وأما المعتمد فأصبح ميتا ، قد لحق بالقوم ، ودخل اسماعيل بن حماد القاضى إلى المعتضد وعليه السواد فسلم عليه بالخلافة ، وكان أوّل من سلم عليه بها ، وحضرالشهود منهم أبوعوف والحسين بن سالم وغيرهم من العدول حتى أشرفوا على المعتمد ، ومعهم بدر غلام المعتضد يقول : هل ترون به من بأس أوأثرمات فجأة وقتلته مداومته لشرب النبيذ ، فنظروا إليه ، فاذا ليس به من أثر فغسل وكفن ، وحمل فى تابوت قد أعدّ له إلى سامرا فدفن بها . وذكروا والله أعلم أن سبب وفاته أنه سقى نوعا من السم فى شرابهم الذى كانوا يشربونه ، وهونوع يقال له البيش يحمل من بلاد الهند وجبال الترك والتبت ، وربما وجدوه فى سنبل الطيب وهوألوان ثلاثة وفيه خواص عجيبة اه

سادسا : المعتضد بالله بعد المعتمد

قال المسعودى : كانت وفاة المعتضد لأربع ساعات خلت من ليلة الاثنين لثمان بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين فى قصره المعروف بالحسنى بمدينة السلام ، وقيل إن وفاته كانت بسم اسماعيل بن بلبل قبل قتله إياه ، فكان يسرى فى جسده ، ومنهم من ذكر أن جسمه تحلل فى مسيره فى طلب وصيف الخادم على ماذكرنا ، ومنهم من رأى أن بعض جواريه سمته فى منديل أعطته إياه يتنشف به ، وقيل غير ذلك مما عنه أعرضنا اه

سابعاً — المقتدر بالله

قتل وسنه ٣٨ سنة فى سنة ٣٢٠ هجرية

وكان قتله وقت صلاة العصر فى الواقعة التى كانت بينه و بين مؤنس الخادم بباب الشماسية من الجانب الشرقى ، وتولى دفن المقتدر العامّة اه

ثامنا : القاهر بالله ابن المعتضد

بويع يوم الخميس لليلتين بقيتا من شوّال سنة ٣٢٠ هجرية ، ثم خلع يوم الأربعاء لخمس خلون من جمادى الأولى سنة ٣٢٢ هجرية ، وسملت عيناه ، وكانت خلافته سنة وستة أشهر وستة أيام اه

تاسعا : المتقى لله

إذ بويع له بالخلافة سنة ٣٢٩ هـ وسملت عيناه سنة ٣٣٣ هـ ، وكانت خلافته نيفا وثلاث سنين ، ولقد كان بينه و بين (تورون) التركى وقائع ، فأشهد تورون من حضره من الفقهاء والشهود ، وأعطى العهود والمواثيق بالسمع والطاعة للمتقى ، والتصرّف له بين أمره ونهيه وترك الخلاف عليه ، وأنفذ إليه كتب القضاة والشهود بما بذل من الايمان وأعطى من العهود ، وأشار بنوحمدان على المتقى أن لاينحدر ، وخوّفوه من تورون وحذروه أمره فانه لا يأمنه على نفسه ، فأبى إلا مخالفتهم والثقة بما ورد عليه من تورون ، وقد كان بنوحمدان أنفقوا على المتقى نفقة واسعة عظيمة طول مقامه عندهم واجتيازه بهم يكثر وصفها و يعسر علينا فى التحصيل إيرادها باكثار المخبرين لنا بتحديدها ، وانصرف الاخشيد عن الفرات متوجها نحو مصر وانحدر المتقى فى الفرات ، فتلقاه أبو جعفر بن سيرار كاتب تورون بأحسن لقاء وأقام الأتراك ، ومضى فى انحداره حتى دخل النهر المعروف بنهر عيسى ، وسار إلى الضيعة المعروفة بالسندرية على شاطئ هـذا النهر ، فتلقاه تورون هنالك ، وترجل له ، ومشى بين يديه ، فأقسم عليـه أن يركب ، ففعل حتى وافى به إلى المضرب الذى كان ضربه له على الشط من نهر عيسى ، وذلك على شوط من مدينـة السلام ، فأقام هنالك وأنفذ رسلا إلى دار طاهر ليحضر المستكفى ، فلما حصل المستكفى فى المضرب قبض على المتقى ، ونهب جميع ما كان معه وقبض على وزيره أبى الحسن علىّ بن محمد بن مقلة وعلى قاضيه أحمد بن عبد الله بن اسحق ، ونهب جميع العسكر ، وانصرف القائد الذى كان الاخشيد ضـمه إلى المتقى ومن معه إلى صاحبهم ، وأحضر المستكفى فبويع له ، وبكى المتقى ، وصاح النساء والخدم لصياحه ، فأمر تورون بضرب الدبادب حول المضرب لخفى صراخ الخدم وأدخل إلى الحضرة مسمول العينين ، وأخذ منه البردة والقضيب والخاتم وسلم إلى المستكفى بالله اهـ

عاشراً . المستكفى بالله

وقد بويع بالخلافة سنة ٣٣٣ هـ وخلع سنة ٣٣٤ هـ والذى خلعه أحمد بن بويه الديلمى ، وسمل عينيه لأنه اتهمه بمخاطبة الأعداء اهـ

نظام الأمم ونظام الأفراد على سنن واحد

ثم قلت لصاحبى : هؤلاء هم الذين أردت أن أضرب لك المثل بهم ، وهم عشرة كاملة ليعلم المسلمون فى أقطار الأرض أن نظام الدول ونظام الأفراد يسيران على وتيرة واحدة « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » .

ما الأمم إلا أفراد كثرت ، إنّ الفرد الواحـد يأكل ويشرب و يسكر و يبالغ فى الشهوات ، وهو يجهل أنه يقتل نفسه بيده ، ويجهل أن مطالبة نفسه له بالشهوات و بالظلم و بالبغى فتح لباب هلاكه ، وقصر عمره وانحراف صحته .

اللهم انى لا أرى فرقا مّا بين من يتعاطون السم ومن يسرفون فى الشهوات . ياسبحان الله : انظر أيها الذكىّ فى الذى كتبته فى ﴿ سورة البقرة ﴾ فى آية الخمر هناك ، وانظر مايقوله أطباء أمريكا وفرنسا وانكلترا ، انظر كيف يقولون ، يقولون : « إن الخمر عقار من عقاقير جة كلهنّ سامات ، والانسان متى تعاطى أىّ سمّ أحسّ فى نفسه بلذة ، إذن لذة الخمر ليست خاصة به بل هى حاصلة فى جميع السموم » اهـ

هذا كلام أطباء الأمم فى عصرنا ، إذن جميع اللذات الهاجات على الناس قاتلات لهم مهلكات ، فقس

على

على ذلك كل ما استلذ به الناس من حطام الدنيا ، إن فى النفوس لسعادة يجهلها الغافلون ، ولايحظى بها المترفون .

فقال صاحبى : ألم يكن فى هؤلاء الملوك من يقتدى بالخلفاء الراشدين وبالنبى ﷺ ؟ فقلت : وهل تنفع تلك القدوة اذا فسد الزمان ؟ « أرأس جمل على جسم عنز وخنزير » . فقال : أوضح فانى لم أعرف ماذا تريد ؟ فقلت : اذا أردت إسعاد نفسك وجب عليك أن تعمم العلم والحكمة فى الأمة ، ولتقرأ ما قصه الله عن موسى : « إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أوأجد على النار هدى » ، فانه لما رأى النار أحب أن يساعد أهله كما يساعد نفسه ، وهذه فى القرآن وأمثالها مضرب أمثال لنا ، فليست هدايتى وحدى سواء أكنت ملكا أم فردا عاديا بمغنية عن هداية الأمة ، إن كل امرىء فى الأرض عضو فى جسم أمته ، وهذا العضو تصل آثار أمته إليه شرفا وضعة ، وعزا وذلا ، وسعادة وشقاء ، شاء أم أبى ، فأما أنى أقف وأقول سأكون على منوال أبى بكر وعمر ، وفى الوقت نفسه لم تكن التعاليم فى المدارس والمعاهد على هذا النمط فان الناس لا يعبئون بما أقول . فقال : هذا كلام عام فأرجو أن تأتى فيه ببيت القصيد . فقلت : هذا المهتدى بالله العباسى قد بويع له بالخلافة سنة ٢٥٥ هجرية وقتل ولم يستكمل الأربعين . هذا الخليفة قرب منه العلماء : ورفع من منازل الفقهاء ، وعمهم ببره ، وكان يقول : يابنى هاشم دعونى حتى أسلك مسلك عمر بن عبد العزيز ، فأكون فيكم مثل عمر بن عبد العزيز فى بنى أمية ، وقلل من اللباس والفرش والمطعم والمشرب ، وأمر باخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت ، وضربت دنانير ودراهم ، وعمد إلى الصور التى كانت فى المجالس فحيت ، وذبح الكباش التى كان يناطح بها بين يدى الخلفاء والديوك ، وقتل السباع المحبوسة ، ورفع بسط الديباج ، وكل فرش لم ترد الشريعة باباحته ، وكانت الخلفاء قبله تنفق على موائدها فى كل يوم عشرة آلاف درهم ، فأزال ذلك وجعل لمائدته وسائر مؤنه فى كل يوم نحو مائة درهم ، وكان يواصل الصيام ، وقيل انه لما قتل أخرج رحل من الموضع الذى كان يأوى إليه فأصيب له سفط مقفل فتوهموا أن فيه مالا أوجوهرا ، فلما فتح وجد فيه جبة صوف وغل ، وقيل جبة شعر ، فسألوا من كان يخدمه ، فقال كان اذا جن الليل لبسها وغل نفسه ، وكان يركع ويسجد إلى أن يدركه الصباح ، وانه كان ينام من الليل ساعة من بعد العشاء الآخرة ، ثم يقوم وانه سمعه بعض من كان يأنس إليه قبل أن يقتل وقد صلى المغرب ، وقد دنا من افطاره وهو يقول : « اللهم انه قد صح عن نبيك محمد ﷺ أنه قال : ثلاثة لاتحجب لهم دعوة عن الله ، دعوة الامام العادل ، وقد أجهدت نفسى فى العدل على رعيتى ، ودعوة المظلوم ، وأنا مظلوم ، ودعوة الصائم حتى يفطر ، وأنا صائم » وجعل يدعو عليهم وأن يكفى شرهم

وكانت بين المهتدى وبين بايكيال حرب عظيم قتل فيها خلق كثير من الناس وانكشف بايكيال واستظهر المهتدى عليه ، فخرج كمين بايكيال على المهتدى وفيه مارجوج التركى ، فولى المهتدى وأصحابه ، ودخل سامرا مستغيثا بالعامة ، مستنصرا بالناس ، يصيح فى الأسواق فلامغيث ، وأمامه أناس من الأنصار ، فمضى مؤيسا من النصر إلى دار ابن خيعرنة بسامرا مختفيا ، فهجموا عليه وعزلوه ، وحملوه منها إلى دار مارجوج ، وقيل له : أتريد أن تحمل الناس على سيرة عظيمة لم يعرفوها ، فقال : أريد أن أحملهم على سيرة الرسول ﷺ وأهل بيته والخلفاء الراشدين ، فقيل له الرسول ﷺ كان مع قوم قد زهدوا فى الدنيا ورغبوا فى الآخرة كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم ، وأنت إنما رجالك تركى وخزرى ومغربى ، وغير ذلك من أنواع الأعاجم لايعلمون مايجب عليهم من أمر آخرتهم ، وانما غرضهم ما استعجلوه من هذه الدنيا ، فكيف تحملهم على ماذكرت من الواضحة فكثر منهم ومنه الكلام والمراجعة فى هذا المعنى وأشباهه ثم انقادوا إليه على حسب ماظهر للناس من ذلك ، فلما كاد الأمر أن يتم قام فيهم سليمان بن وهب الكاتب ، وقيل غيره ، وقال

هذا سوء رأى منكم ، وخطأ فى تدبيركم ، ان أعطاكم بلسانه فنيته فيكم غير هذا . قال وسيأتى عليكم جميعا ويفرّق جمعكم ، فلما سمعوا هذا القول استرجعوا وجاءوه بالخناجر ، فكان أوّل من جرحه ابن عم لبايكيال جرحه بخنجر فى أوداجه ، وانكبّ عليه فالتقم الجرح والدم يفور منه ، وأقبل يمصّ الدم حتى روى منه والتركى سكران ، فلما روى من دم المهتدى قام قائما وقد مات المهتدى ، فقال يا أصحابنا قد رويت من دم المهتدى كما رويت فى هذا اليوم من الخمر ، وقد تنوزع فيما ذكرنا من قتل المهتدى ، والأشهر ما ذكرناه من قتله بالخناجر ، ومنهم من رأى أنه عصرت مذاكيره حتى مات ، ومنهم من رأى انه جعل بين لوحين عظيمين وشدّ بالحبال إلى أن مات ، وقيل خنقا ، وقيل كبس عليه بالبسط والوسائد حتى مات ، فلما مات داروا به ينوحون ويبكون عليه وندموا على ما كان منهم من قتله لما تبينوا من نسكه وزهده . وبهذا تم الكلام على الفصل الأوّل فى آية : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا الخ » والحمد لله رب العالمين

***

فقال صاحبى : أريد قبل أن ننتقل إلى الفصل الثانى أن أرجو منك أن تشرح لى هذه الدنيا وأحوالها بقول موجز ، وكيف نراها إلى الهوان والبؤس أقرب منها إلى العزّ والسعادة ، وكيف وجدنا الفلاسفة قبل النبوّة الاسلامية بعشر قرون يقولون لنا : « إن سعادة الدنيا نفسها بترك الشهوات ، وأن الأمراء عليهم أن يكونوا زاهدين لمصلحتهم هم أنفسهم واسعادهم ، وأن أرباب الدولة يجب عليهم أن لا يكون لهم متاع ولا ملك ولا يسكرون ولا يقتنون ، فماذا الذى دها هذا الانسان ؟

فقلت : أيها الصديق ، يخيل لى أن هذه الأرواح الأرضية كأنها كانت فى عوالم أخرى من عوالم الأرواح قبل حلولها فى هذه الأجسام ، وأن أهل هذه الأرض كأنهم لم يصلحوا للحياة هناك فأخرجوا من السعادة وقيل لهم : « أنتم لا تصلحون إلا للحياة فى أجسام غليظة » ، فجىء بهم إلى هذه الأرض ، ومن رحمة الله انه أنزل لهم فلاسفة وحكماء يعلمونهم ، وأرسل لهم رسلا ، فهؤلاء بالعقل ، وهؤلاء بالوحى ، فيقولون لهم : يا أهل الأرض : إياكم والبطنة ، وإياكم والظلم ، وإياكم والفحشاء . وهم لم يقولوا ذلك لاسعادهم فى الآخرة فقط ، بل أرادوا إسعادهم فى الدنيا أيضا ، فأخذ الناس يسمعون كلام هؤلاء الأنبياء كالخلفاء الراشدين رضى الله تعالى عنهم ، ثم غلب على الناس طبعهم ، فرجعوا إلى عادتهم ، ولقد مرّ بك ما قاله سقراط فى الجمهورية فان أهمّ علمها موافق للاسلام فى الفضيلة وقليل منه يخالف الاسلام ، لأنهم لا وحى ولا نبوّة عندهم ، فهذا العلم منبعث من العقل ، وقد وافق الوحى والنبوّة ، ولكن الناس يرجعون إلى ديدنهم ، ومتى رجع جيل واحد أتبعته الأجيال كلها .

هذا رأيى فى هذا الانسان ، فمثل بنى آدم كمثل الذى استوقد نارا فى صحراء فلما أضاءت ما حوله ذهب النور وبقى الناس فى الظلمات وهم لا يبصرون ، فالحكمة والنبوّة هما كالنار أضاءت ما حولها ، ولكن ما يكاد الأنبياء يفارقون الناس حتى يرجعوا إلى أخلاقهم وأحوالهم .

هذه الأمم الاسلامية ورثت دول الروم والفرس ، واتبعت خطواتهم فى غدواتهم وروحاتهم ، فما تركوا خمرا ولا موائد ولا لذات ولا أوزارا وقع فيها القوم إلا اتبعوهم فيها ، سواء فى ذلك الأمويون والعباسيون والأندلسيون ، وكلما خلت أمة أتبعتها أخرى حذو القذة بالقذة ، تشابهت قلوبهم ، فهم جميعا فى غمرات الجهالات غارقون ، حتى انك ترى أمتنا المصرية فى زماننا تسير على منوال العصر العباسى . ذلك أن الفرنجة ملئوا بلادنا بالخمر والحشيش والمخدرات . وأعظم ما يحزننى أن أكثر المتعلمين الذين يعيشون من خزانة حكومتنا لا يهنأ لهم طعام ولا شراب ولا سكر ولا لهو إلا فى تلك الأماكن المعدّة للفسوق ، وفيها الصور الداعية للشهوات وفيها الملاهى والمخازى ودور الصور المتحركة (السينما) التى لا تذر شابا إلا حركت فيه الشهوات ، وأعدّته للفسوق

فان

فان كان حاكما أصبح فى الغالب لصا ، وان كان غنيا أضاع ثروته وهكذا . إن كثيرا من الناس فى ديارنا أصبحوا فى حال اختلال واختباط ، فانا لله وانا إليه راجعون . فقال : وما رأيك الآن ؟ فقلت :

﴿ أوّلا ﴾ أن تمتحن أشعار القرون الأولى ، وينبذ منها كل ما كان فيه رقاعة وحثّ على الشهوات ، ويطرح جميع الغزل المهيج الذى كان أيام الدولة العباسية ، وذلك بلجنة من علماء التربية الدارسين لعلم النفس حتى يميزوا بين الغثّ والسمين ، ويحرم على الشعب أن يقرأ شيئا من ذلك ، وهكذا تبحث الكتب العربية التى ورثناها عن آبائنا ويلغى منها كل بيت فيه مايدعو إلى الشهوة ، ولوكان شاهدا على قاعدة ، فكفى جهلا وغرورا ، وكما رأينا سقراط يعرض أشعار (هوميروس) وينقدها فلنعرض نحن أشعار المتنبى وأبى تمام والبحترىّ والمعرّى وننقدها نقدا صحيحا ، ونحذف منها كل مايخالف تهذيب شباننا . فاذا سمعنا المعرّى يقول :

قالوا إله بلازمان ولامكان ألافقولوا ✲ هـذا كلام له خبيء

معناه ليست لنا عقول ، واذا سمعناه يقول :

هذا جناه أبى علىّ ✲ وماجنيت على أحد

يريد بذلك احجام الناس عن التناسل بالثانى وجحود الإله فى الأوّل ، فاننا ننبذه ونحذفه ، ونحرّم على الشبان قراءته . واذا سمعنا عبد الله بن المعتز يقول :

يقول العاذلون تعزّ عنها ✲ واطف لهيب قلبك بالسلوّ

وكيف وقبلة منها اختلاسا ✲ ألذ من الشماتة بالعدوّ

أوسمعناه يقول :

اذا اجتنى وردة من خدّه فمه ✲ تكوّنت تحتهاأخرى من الخجل

قلنا له يا ابن المعتزاحفظ هذا لنفسك أنت وأشباهك ، فان حفظ هذه الأبيات يدعو الى الذكرى والذكرى تهيج النفس لأمثال ماسمعت ، وعلى الأمم الاسلامية أن تستبدل بذلك الجمال الطبيعىّ فى الكواكب والنبات والحيوان ، مما ملأنا به هذا التفسير وكتبنا الأخرى لنفتح للشبان باب الجمال الذى لاتشوبه الشهوات ، فأما الأمم العربية آباؤنا فى الشرق والأندلس فقدقتلهم الغزل ، وظنوا جهلا أن هذا يرقى النفوس ويعلم البلاغة ، وهذا حقّ أريد به باطل . الجمال المطلوب هوجمال السموات والأرض والنبات والحيوان وعجائب هذه الدنيا . أما الوقوف عند هذا الجمال الشهوانى فهوالذى أضاع أمة العرب وأهلكها وأطمع أهل أوروبا فى الأندلسيين الذين انحصرت عقولهم فى تلك الشهوات ، وجيرانهم يستعدّون لهم سرّا ، ففتكوا بهم فتكا ذريعا ، فعلى الأمم الاسلامية أن يرجعوا لأشعار آبائهم فانّ أشعارهم هى التى قتلت دولتهم ، فهى إما مدح لملك ، وهـذا نقص ، واما غزل فى امرأة ، وهذا نقص آخر ، وليمحصوها ، وليعطوا الأبناء منها مايوافق الرقىّ كقول بشار بن برد :

اذا ماغضبنا غضبة مضرية ✲ هتكنا حجاب الشمس أوقطرت دما

اذا ما أعرنا سيدا من قبيلة ✲ ذرى منبر صلى علينا وسلما

أيها المسلمون : أنا أنذركم ان لم تفعلوا ذلك ، هاأناذا والحمد لله قد فتحت الباب فلجوه ، وادرسوا الأشعار ، ولاتقفوا ماليس لكم به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا .

﴿ ثانيا ﴾ أن لا ندع صورة من الصور (شريط السينما) تدخل بلادنا إلا اذا كانت لعلم ، أولصناعة ،

أولزراعة ، فأما العشق ، وأما الغرام فلا .

﴿ ثالثا ﴾ أن لانجلس فى المطاعم الفرنجية ، ولانجلس إلا فى مطاعم أبناء بلادنا ، فان كان ولابد فلنعلم نحن طبقة منا ، ولنقم مقام الفرنجة فى ذلك .

﴿ رابعا ﴾ أن نحرّم على الملوك والأمراء والمديرين أن يشتغلوا بغير المملكة ، ونعطيهم من مال الدولة ما يكفيهم ، فأما الاشتغال بالمال الخاص ، فهذا خطر عظيم . فقال : هذا أمر لايقبله أحد . فقلت : ليس المقام فى القبول ولاعدمه ، وانما أنا الآن فى مقام النظام الكامل والناس ينظرون فى أحوالهم بحسب زمانهم فيقتربون من الكمال بقدر الامكان . إن الأمة الكاملة هى التى يكون حكامها متفرّغين لأعمالها فرحين برقيها فتكون لذتهم فى اسعادها أعظم من السعادة بالمال آلاف الآلاف .

﴿خامسا﴾ أن نعمم التعليم للرجال والنساء .

﴿سادسا﴾ أن نضع كل متعلم فيما يستحقه بحسب استعداده .

﴿ سابعا ﴾ لارشوة ، لامحاباة .

﴿ ثامنا ﴾ أن نحرّم السؤال فى الدولة ، فنجمع الشحاذين ، ونعرضهم على الأطباء ، فمن صلح للعمل أتينا له بعمل تحت اشرافنا ، ومن لم يصلح له أعطيناه طعاما من بيت المال اهـ

هذا مجمل ما أريده فى أمم الاسلام اليوم ، والحمد لله رب العالمين .

***

فلما سمع ذلك صاحبى . قال : لقد أوضح التاريخ العبر والمبتدأ والخبر فى آية : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا » وعرفنا كيف هلك الملوك وذلوا بأيدى جنودهم فأرجو أن تبين لى ثلاثة أمور : ما الذى جرى لأمم الاسلام فى الشرق ؟ وهل ملوك الأندلس جرى لهم ماجرى لملوك الاسلام فى الشرق ؟ وهل هلكت دولة الآخرين ودولة المتقدمين ؟ فقلت : أوّلا إن الذى جرى لأمم الاسلام فى الشرق إنما هو زوال الملك وضياع الأمة ، وذهاب ملك العرب بتاتا ، وهذا تقدّم فى ﴿ سورة الكهف ﴾ فى آية : « إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض » ، فقد جاء التتار من الشرق وعلى رأسهم جنكيزخان وخلفه ملوك منهم (هولاكو) وأذلّ الأمة ودمّرها تدميرا لارجعة له ، وقتل الخليفة ، وقد أحضر أمامه جميع الجواهر والماس والياقوت والذهب مما لايحصره العدّ وأراه أن هذا جاء من مخازنه وهو غافل عنه وقتله فى زكيبة مكظوم النفس فان أردت ياصاح معرفة هذا الموضوع فاقرأه هناك تحت عنوان « يأجوج ومأجوج » — ﴿ ثانيا ﴾ ان الذى جرى لأمراء الأندلس هو الذى جرى لملوك العباسيين فى الشرق ، فانظر ماجاء فى كتاب ﴿ غادة الأندلس ﴾ المؤلف حديثا فى عصرنا ، وهذا ملخص مما فيه :

ذلك أن القائد (برّاقا) قابل الاذفونش فى رومه فى الفاتيكان ، وجاء أيضا معهما دوق فينيزيا فقال له ابن اذفونش : « اعلم أيها البطل أن البابا قد استدعى بارونات أوروبا وشاورهم فى استرجاع مملكة اسبانيا من العرب ، فلتكن مساعدا لنا » . فقال براق : « إن الأسد لايصاد إلا بالمكر والخديعة ، وقد يستعين الصيادون بالحر ، ولايفلّ الحديد إلا الحديد » . فقال دوق فينيزيا : إن جيوش البارونات تسحقهم سحقا فى أقلّ من لمح البصر . فقال البرّاق : إن العرب يحافظون على دينهم وعلى حريمهم ، ولقد تفنى القبيلة كلها محافظة على الشرف ، ولكن هم قوم كرام صادقون يأبون الكذب ، فهم يخدعون بسهولة بالظواهر المموّهة ، فاجعلوا بينكم وبينهم معاهدة على حرّية الدين والتعليم والتجارة ، فهذه تفتح لرهبانكم طريقا بها يبثون التعاليم بين أطفالهم ، فان لم يتبعوا دينكم فهم على الأقل يهملون دينهم ، فيفقدون تلك الحمية الدينية

التى تحببهم فى الحرب ، فأما حرّية التعليم فانها تولد لهـم غلمان شؤم عليهم لأنهم يكونون مشغوفين بحبّ معلميهم ، و يبتعدون عن محبة وطنهم ، فأما حرّية التجارة فهى التى تضعضع شيئافشيئا تمسكهم بأز يائهـم فضلا عن تجارة الخمر ، فهى الآن محرّمة ، فنى شاعت بينهـم أقدموا على المنكرات بلا مبالاة ، وفقدوا النخوة والشرف ، وضعفت منهم العقول والجسوم ، وفشا بينهم الشرّ ، وساءت حالهم ، وارتبكت شؤونهم ، فيساقون كالأغنام ، ولاتنس ياحضرة الدوق أن التأنق فى النعمة ، والبـذخ ، والاسراف فى الشهوات ، واهمـال سير الآباء والجدود من أقوى أسباب انحطاط الممالك القوية .

فلمعت أسرة وجه ابن أذفونش بعد أن كان يلوح عليه اليأس : وشكر برّاقا على اخلاصه . وفى الصباح اجتمع البابا ودوق فينيزيا و بارونات أوروبا ببرّاق وتحادثوا مليا وكتبوا صورة هـذه الشروط وأرسلوها مع معتمدين الى أمراء الاسلام بالأندلس ، فوصلت شروط طلب الهدنة الى مالك بن عباد بقرطبة وقد فرغ من تحصين مدائنه وقلاعه فدعا قواده وعمـال مدائنه وأمراء أشبيلية وطليطلة و بلنسية ومالقة والجزيرة الخضراء وغرناطة ، فحضروا بعدأيام إلى قرطبة وهم يختالون على خيولهم ، وكان من بينهم عدى بن أبى عامر صاحب بلنسية يتبعه مائتا فارس نعال أفراسهم ذهب ابر يز ، فنزلوا جميعا برصانة قرطبة ، وكان مالك قد بنى بها قصرا فخما تحيط به الحدائق والجنات ، قدجعل فيه تماثيل من فضة بأشكال الطيور والحيوانات ، تخرج من أفواهها المياه ، وفيها قال ابن زيدون من قصيدة :

قصر يقرّ العين منه ناظر ✲ بهج الجوانب لومشى لاختالا

فقبلوا شروط الصلح فعارضهم قيس بن مصعب ، و بقى الأمراء فى ضيافة مالك بن عباد شهرا :

ومن رعى غنما فى أرض مسبعة ✲ ونام عنها تولى رعيها الأسد

فلما انقضت أيام الولائم رجع الأمراء إلى بلادهم إلا عدى بن أبى عامر صاحب بلنسية فانه بقى مع الأمير يقضيان الزمن فى اللهو والصيد والخمر وهكذا بقية الأمراء وشعوبهم يتبعونهم ، فانحطت الدولة بذلك ، وزاد فى افسادها تلك المعاهـدة ، فانتشرالرهبان فى أنحاء الأندلس وأخذوا يبثون تعاليمهم ، وكانوا يجتمعون فى أوقات خاصة للتشاور ، وقد شيدوا ضيعة على ضفة نهرقرطبة وسط البساتين ، وكانت متنزها جميلا يؤمّه العظماء والأمراء لاسيما أيام الآحاد .

وقال صاحب التاريخ المسمى بالمعجب : « لقد جدّدوا فى عام هـذه المعاهدة أر بع مدارس كبرى على نفقة (درق فنيزيا) أحد كبارهم وجعلوا التعليم فيها عاما لمن شاء (بينما كانت مدارس المسلمين بقرطبة وغيرها تـكاد تمحى إذ أنقصت تعاليمها تماما إلا مايختص بالشريعة) ، فأقبل العرب على تلك المدارس ، واختلطوا بالقسيسين والرهبان ، وتعلموا لغاتهم ، وجاروهم فى عوائدهم وأخلاقهم ، وزادالأمر فى بلنسية فان المبشر ين والمعلمين تدخلوا فى كل شيء لأن نائب عدى عليها المسمى (ابن ذى النون الغافرى) أطلق لهم الحرّية التامّة حتى اتهمه بعض الوزراء بأن البابا استماله بالرشوة ».

ولقد لعب برّاق بن عمـار دورا مهـما هنا ، ذلك أن أمير أشبيلية المسمى (جندل بن حمود) لم يمكث بقرطبة إلا ريثما وقع على شروط الهدنة ، وأبى البقاء وعاد إلى عاصمته ، وذلك لسرّ خفىّ فى نفسه ، ذلك أن أحـد معتمدى البابا الذين حضروا إلى قرطبـة أعطاه خطابا من البابا وعده فيه بأنه يؤمل أن يجعله ملـكا مستقلا بولايات الأندلس قاطبـة ، وأن البارونات متفقون على نصرته فى أىّ وقت شاء . ثم ان برّاقا وفى بعهده لأنه عاهد البابا أن يدخل بعض البطارقة فى قيادة الجيش ، وقد أخذ البطريق المسمى (شيل) يرافقه فى أيام الصيد ، وأخذ برّاق يمدحه عندابن عباد بالشجاعة ثم أحضره إلى الديوان فقال مالك بن عباد ومابلغ من شجاعته يابرّاق ؟ فقال اختبره إن شئت . فقال مالك لتتبارزا فان غلبته فكفاه خزيا وان غلبك جعلته

من قوّاد جيشنا ، فتبارزا وتظاهر برّاق بأنه مغلوب ، فتـكدّر مالك بن عباد لما يعلم من مهارة برّاق وشجاعته وجعـل البطريق قائدا وقرّبه منه ، فانتخب من أبناء بلاده من أراد لتدريب عسكر المسلمين على استعمال السلاح ، وصارت عواصم الأندلس محط الغرباء ، وراجت التجارة فى البلاد ، ولاسيما الخمر .

قسيس يخصّ شباب المسلمين المتعلمين بخمر عنب قرطبة

وهل أتاك نبأ ذلك القسيس الذى لم يكتف بالخمر الوارد من أنحاء أوروبا حتى اشترى عنب قرطبة كله وعصره خمرا ، وحلف أن لايبيعها إلا لأكرم الناس عليه ، وهم المتعلمون من أبناء المسلمين فى مدارس هؤلاء القسيسين ، وفرح الشبان بهذه الهدية :

(١) فشربوا الخمر نهارا جهارا .
(٢) وخلعوا رداء الحياء والحشمة .
(٣) وحقروا عوائد آبائهم .
(٤) ولبسوا الحرير ، ونبذوا الصوف والشعر .
(٥) وأهملت تعاليم البلاد .
(٦) وأخذوا يختلفون إلى نسوة فى حانات النزلاء ، فيصرفون الليل هناك متهتكين متصابين فى عشق هؤلاء العاهرات .

وزاد الأمر حتى بلغ الأمراء فان المعتصم بن صمادح صاحب المرية عشق فتاة رومية واغتصبها من أبيها فاستجار أبوها بجندل بن حمود ، فأرسل إليه يعنفه على ارتكاب مالايليق بأدنى الناس ، فكان ذلك سببا فى الحرب بينهما ، فطلب ابن حمود من دوق فينيزيا والبابا وباروناته نجدة على خصمه ، ففرحوا للخبر وأرسلوا إليه سفنا تحمل جنـدا تحت قيادة دوق فينيزيا ، فقهروا ابن صمادح ، وخرّبوا قصوره واحتلها جند الروم ، وأقام لهم ابن حمود الولائم ، وملوك الاسلام هناك ساكتون لايبدون حراكا حتى الأمير مالك بن عباد وهو صاحب البلاد لم يرعه ذلك ، وقد قتل عامله ، وسقطت المريّة ، وهذه أوّل نتيجة للمعاهدة .

ولما رجع دوق فينيزيا إلى رومه قصّ القصص على البابا والبارونات فأيقنوا بتفرّق كلمة العرب ، وأن الوقت آن لتخريب ممالكهم ، وتفريق شملهم .

ولقد كان عدد المبشرين بالأندلس ألفا ، وعدد المعلمين بالمدارس التى أنفق عليها البابا ٤٨٥ وأنفق البابا من خزينته لترويج الخمر خمسمائة ألف (فلورين) .

وفى اليوم الرابع من جمادى الثانية سنة ٤٨٦ هـ بلغ الحسين بن جعفر (وهو أحد القوّاد المعروفين بالأمانة على جيوش بلنسية) أن ابن ذى النون وزير عدى بن عبد العزيز يراسل الفرنجة ، وانه تواطأ معهم على تسليم حصونها لهم ، فقابل الحسين الوزير وكلمه فى ذلك ، وظهرت له دلائل تدل على صدق ماسمعه عنه ومنها انه دخل عليه وهو يحادثه بطريق من البطارقة ، فأخذ يساره واسمه (بردويل) فلما علم ابن ذى النون أن الانكار لايفيده أخبره بالحقيقة محتجا بأن ملوك الاسلام قوم ظالمون ، لايبالون بالشكوى من الظلم ، وأن ملك الأندلس لابقاء له ، والملوك يقتلون الناس ظلما ، وعند الفرنجة ٧٥ ألف فارس فبم نقاتلهم نحن ؟ فغضب الحسين وقال له : أنت تريد هدم مجد الآباء ، وأن تكون المثل السوء فى الخيانة والجبن ، واذا ظننت أن ابن (اذفونش) يعطيك نوالا فأنت مخدوع ، فجزاؤك كجزاء سابورذى الأكتاف للنضرة بنت الضيزن ابن معاوية ، أنت كفرت النعمة ، وأنت سينالك الذلّ من العدوّ . وتمادى ابن ذى النون فى ذلك وحضرت الجيوش النصرانية فاحتلت بلنسية ، وأخذ الفرنجة فى نهب المدينة ، وفضحوا البكر بحضرة أبيها ، والسيدة

الجيلة بحضرة زوجها ، فيترك الرجل المدينة تاركا زوجته وأولاده وأملاكه .

وقد قال ابن زيادة : ان الذين قتلوا فى (بلنسية) ظلما بسبب الدفاع عن العرض (١٣) ألفا ، والذين قتلوا لاباثهم الدخول فى دين الغير (٣٠) ألفا ، وأحرقت المدرسة الكبرى والجامع الكبير .

وقداحتل هذه المدينة العدوّ قبل أن يبلغ عديا خبر تلك الخيانة ، فلما وصلته الأنباء جهزجيشا لاسترجاعها ففاجأته الأخبار بأن الفرنجة احتلوا (ميورقه) و (مينورقه) فاضطر أن يبقى الجند فى قرطبة للدفاع عنها . ثم استولى الفرنجة على طليطلة ، ثم ان ابن اذفونش بعد أن احتل بلنسية أمر باحراق ابن ذى النون ، ويقول المؤرخون انه انما أحرقه لأنه لما خان دينه وملكه جدير أن يخون عدوه .

مصير برّاق بن عمر

ذلك الماكر الخبيث الذى مكث زمانا معظما فى قرطبة عند مالك بن عباد حتى سقطت بلنسية ، وحضر قوّاد الروم بجيوشهم ، وأرسلوا لمالك ، فطلب برّاق أن يكون قائد الطلائع ، فرضى بذلك ، فأرسله إلى الأمراء ليجتمعوا لمقاومة العدوّ ، فتوجه لغير ذلك ، وذلك أنه أخذ رسالة من ابن الاذفونش إلى جندل بن جود ووعده بالنصرعلى بقية ملوك الطوائف ، وانه يصير ملك الأندلس كلها كما وعدوه من قبل ، وفى شهر شعبان سنة ٤٩٨ هجرية نرسل لك أسطولا تزحف بجنودك على قرطبة من جهة الغرب ، ففرح جندل بهذا الخطاب ، ثم توجه برّاق إلى جهة المرية وبها جيش الروم من أيام أن قتل ابن صمادح ، فسلم كتابا معه من ابن الاذفونش إلى القنبطورأى القائد ، وفيه : « اننا سنرسل لك ٢٠ مركبا فيها جند ، ويحضر ابن مرديفش معاهدنا أميراقليمه قاضى كادية معاهدنا ، فيكون تحت رأيك ٢٥٫٠٠٠ مقاتل ، فتفتح أشبيلية فى شعبان وأميرها جندل إذ ذاك يكون مغيرا على قرطبة ، وقد تم ذلك كله ، فجندل يغير على قرطبة فى الوقت الذى تغيرفيه جيوش الروم على مملكة أشبيلية ، وبينما جندل يغزو قرطبة كانت جيوش الروم تحت إمرة القائد (كولى) تبيح أشبيلية حلا لجنوده ، وقد ذلّ مالك بن عباد وهومحافظ على شرفه ، ولكن جندل ابن جود الذى ظنّ انه سيكون سيد الأندلس كلها خاب فأله ، فقد قتله الفرنجة ، فأما عسكره فلما لم يرجع إليهم رجعوا إلى أشبيلية ، فلاقاهم جند الروم ، فقتلوهم تقتيلا ، فنادوا الأمان .

أما مالك بن عباد فبقى فى سرقسطه ذليلا لا ناصر له مدة حياته . وأما ابن الاذفونش فانه جلس فى قصر الامارة ، واستحضر خمسين بكرا من الأشراف وقسمها وقسم الدرر على رجاله ، وأمر باحراق المكتبة وفيها نيف و ٨٠٠ ألف مجلد وقتل أربعة آلاف نفس ، وهدم الجامع الأموى بالمجانيق وجعل مكانه فسقية . وأما برّاق الخائن فقد قتل أيضا بأمر الدوق ، والى هنا أقف الكلام على أمراء الأندلس اه

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : هذا والله نعمة عظمى على المسلمين بعدنا ، فان التاريخ أصبح شرحا لآيات القرآن ، ولكنى أعترض على ذلك اعتراضا يوافقنى عليه جميع أذكياء المسلمين :

اعتراض على المؤلف

انك وان جمعت المتفرقات فى الكتب ، وظهرما كان خافيا على أكثرالناس من أفعال الملوك العباسيين والأمويين وأمراء الأندلس وغيرهم ، فقد فاتك أن التاريخ أكثره كاذب ، ألم تتذكر ما كنا نقرؤه فى زمن الصباء

واعلم رعاك الله أن السيرا ٭ تجمع ماصحّ وماقد أنكرا

التاريخ مشحون بالمتناقضات ، وقد أثبت ابن خلدون أن أكثر الممدوحين فيه مدحوا دهاء ونفاقا ، وظواهر هذه الدنيا كلها خلابة خادعة ، وبعكس ذلك من ذمهم التاريخ ، واذا كانت هذه درجة التاريخ فكيف أطلت به

فى آية : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا ، وكيف تذكر ما لا صدق فيه وتجعله تفسيرا لما هو محقق الصدق ، ومن ذا الذى يقول ان الوهم مفسر للحقائق ! أو تفسر كتاب الله الحق بالتاريخ الموهوم ؟ ولقد ذكرت أمثال هارون الرشيد ، وذكرت معه ما لا يليق به من مال كثير لشراء جارية ، ومن أنواع الطرب ، فهل هذا يتفق مع تقواه ؟ ومع ما روى عنه انه حج ماشيا ؟ لأنه نذر ذلك ، وانه أيضا كان يصلى بالليل ركعات كثيرة ، إن التاريخ مملوء بالمتناقضات ، فهذا لا يليق بكتاب الله تعالى ! فلما أتم مقالته قلت يا صاح : أهذا رأيك فيما كتبناه وأسمعنا كه ؟ فقال بلى قلت: أنا أجيبك على هذا الاعتراض بحمد الله ، فأقول :

حدثنى حفظك الله : اذا جاء رجل فلاح وقال أنا لا أزرع أرضى ، فيقال له لماذا ؟ فيقول : لأنى لست على يقين من أن محصولها يوازى ما أصرفه عليها ، ويحتج ذلك الفلاح بقوله : « إن العاقل لا يعمل إلا بدليل يقينى ، وأنا لست على يقين من أن الجوائح والآفات السماوية تترك حقلى ، وأيضا اذا قامت دولة تطالب أمة من الأمم بقطعة من أرضها ، فيقول أميرها : لنترك هذه القطعة لها محتجا بأنه ليس على يقين من أنه يقهر الأمة الهاجمة عليه ، وهكذا لو قال مثل ذلك التاجر فى تجارته التى يريد بيعها فى الأقطار البعيدة فيقول إنى لا أتاجر لأنى سمعت أن سفنا كثيرة غرقت فى البحر فربما غرقت تجارتى ، وهكذا اذا قال رجل أنا لا أعلم ابنى ، فيقال له لماذا ؟ فيقول : لأنى رأيت كثيرا من المتعلمين قد فسدت أخلاقهم .

فهذه أيها الأخ أربعة أسئلة ، فما جوابك على هذا ؟ أتقول ان الفلاح ، والأمير ، والتاجر ، وأبا الغلام مصيبون فيما فعلوا ؟ فقال . كلا . هم غير مصيبين . فقلت لماذا ؟ فقال لأن المدار فى هذه الامور العملية من الفلاحة والامارة والتجارة والتعليم على غلبة الظن ، فتى كانت المنافع مظنونة بسبب مقدماتها فان الشروع فى العمل واجب ، فأما اليقين هنا فانه لا وجود له ، ومن ترك أعمال الفلاحة والتجارة ومحاربة الأعداء الهاجمين وترك تعليم ابنه محتجا بأنه لا يقين فى ذلك كله ، فهو جاهل غبى مخدوع . فقلت : وهذا جوابى لك أيها الأخ . فقال : وأى مناسبة بين الأمثلة الأربعة و بين التاريخ الذى اعترضت عليك فى جعله تفسيرا للقرآن . فقلت : إن القرآن يقينى . قال نعم . قلت : والتاريخ ليس يقينيا . فقال نعم . قلت : واذا لم نفسر اليقين وهو القرآن إلا بيقين أصبحنا مغرورين كذلك الفلاح والأمير والتاجر وأبى الغلام .

إن أكثر الفقراء فى الدنيا حجتهم فى فقرهم (وان لم يعلموا) أنهم يطلبون اليقين ولا يقين له بل الظن هو المعول عليه فى الأعمال ، والدين الاسلامى قسمان : قسم هو الاصول ، وقسم هو الفروع ، فالاصول لابد فيها من اليقين ، والاصول هنا هى العقائد كمعرفة الله وملائكته وكتبه ورسله الخ .

أما الفروع الراجعة للأعمال فيكفى فيها الظن ، فاذا سمعت الله يقول : « إن الظن لا يغنى من الحق شيئا » فذلك فى الاعتقاد ، ولو أن علماء الاسلام أخذوا بما قلته أنت الآن ولم يعولوا إلا على اليقين لانهارت الأمم الاسلامية ولطاحت ومزقت كل ممزق ، فان علم الفقه كله مظنون ، ولولا هذه الأحكام المظنونة ، ولولا أن للظن فى الأحكام الشرعيـة أمام القضاة منزلة لبطل القضاء فى الاسلام ، ولزالت جميع ممالكه ، فالأدلة الشرعية فى الفقه ظنية وشهادة الشهود ظنية ، والله كلفنا بالعمل بهذين الظنين ، فهكذا هنا فى تفسير القرآن اذا جرينا على هـذه النظرية وقلنا هذا كلام الله وكلام الله يقين والتاريخ فيه الصدق والكذب ولا يفسر الصادق بما هو محتمل الصدق والكذب . أقول : اذا جرينا على هذه النظرية أصبحنا أمة عاطلة جاهلة غبية لا تفرق بين الخير والشر .

إن الله عز وجل قد ملأ القرآن بالقصص والتاريخ ، وأمرنا بالاعتبار والاحتراس مما وقع فيه غيرنا ولم يمنع ذلك ما فى التواريخ من التناقض ، بل تجاوز القرآن ذلك ونظر إلى ملخص التاريخ لا إلى حوادث خاصة ألم تر إلى ما قصه الله فى ﴿ سورة الكهف ﴾ . ألم يقل فى عدد أهل الكهف انهم ثلاثة ورابعهم كلبهم وخمسة

وسادسهم

وسادسهم كلبهم وسبعة وثامنهم كلبهم ، وأمر نبيه ﷺ أن يتجاوز عن ذلك ، وأن لايمارى فى مثل هذه المسائل إذ لا أهمية لها ، وانما جعل الاعتبار بمضمون القصة لا بكل حادثة على حدتها .

إنّ الله تعالى أبان لنا فى نفس القرآن أن هذه المتناقضات لاتضرّ فى نفس القرآن لأن العبرة بملخص القصة ، واذا صحّ هذا فى نفس القرآن ، أفلايصحّ فى تفسيره !

ذكرنا هنا أمم الاسلام والقول منقول عن كتب التاريخ ، وكتب التاريخ ملأى بالأكاذيب ، محشوة بالأباطيل ، ولكننا لوأبطلنا علم التاريخ لما فيه من الأباطيل لأصبحنا أمة جاهلة ، غبية غافلة ، لاتعقل ولاتفهم

ومامثل علم التاريخ فيما نحن بصدده من العبرة به من حيث إجماله لاتفصيله إلا كمثل مناظر هذا الكون كله ، والموت والحياة فيه ، والفقر والغنى ، والعزّ والذلّ ، والسلم والحرب ، والمرض والصحة . فهذه العوالم من نظرها من حيث الجزئيات اعتقد أن هذا العالم كله ظلم وخسار ودمار ، فما هذه الزلازل والبراكين والحروب والأمراض والعداوات ! فأما اذا نظر إليه نظرا فلسفيا علميا فانه يوقن بأنه عالم منظم ، ويصير حكيما

فهذه نظرات الجهلاء والحكماء فى هذه الكائنات ، وعلى منهاجها نظرات الناس فى التواريخ التى تذكر فى تفسير القرآن .

إنّ الأمم التى تذر التاريخ لمثل هذه الشبهة تصبح خاوية على عروشها . فياسبحان الله ، ألم أذكر فى هذا التفسير أن أمة الانجليز لما دخلت بلادنا المصرية أعطت العرب الذين فى جهة الشرقية جنيهات ذهبية وضعتها فى أكياس ، وجعلت ظواهر الجنيهات من الذهب الخالص وما تحت الظاهر كله بهرج زائف ، وقد نجحوا ، لماذا ؟ لأنهم أخذوا هذه من قصة جعفر بن فلاح وزير المعزّ لدين الله الفاطمى ، فان القرامطة لما هجموا على مصر اتفق المعزّ مع العرب الذين فى جهة الشرقية وأعطاهم أكياسا مملوءة ذهبا ، أعلاه ذهب خالص ، وأدناه زائف ، فما كاد عمود الصباح يظهر حتى التقى الجمعان : العرب المصريون مع القرامطة ظاهرا ، ولكن بعد ساعة أخذوا يتقهقرون على غير انتظام ، فهلك القرامطة إذ كان جيش المصريين أقوى منهم ، فهذه بعينها هى التى فعلها الانجليز مع العرب فى بلادنا أيام دخولهم ، فممّ أخذوها ؟ أخذوها من حادثة المعزّ لدين الله فنجحوا . وأيضا إن الشركة الانجليزية فى الهند فعلت مع بعض أمراء الهند مافعله حسن بن الصباح فى القرن الخامس الهجرى فى قلعة الموت إذ وصف لصاحب قلعة الموت وصفة طبية ، وجعل صاحب القلعة له جعلا فى مقابلة المداواة ، وهو مقدار مايسع جلد الثور من أرض ذلك الأمير . فلما شفى الأمير وطالب حسن بن الصباح بالجعل أعطاه الأمير مقدار مايسع جلد الثور ، فجاء ابن الصباح وجعل ذلك الجلد سيورا ومدّها فاحتوت أرضا واسعة جدا ، فلم يرض الأمير ، فحصل القتال ، فغلب ابن الصباح واستولى على قلعة الموت ، وهذا بعينه هو الذى فعلته الشركة الانجليزية ، فوصفوا الدواء للأمير الهندى وشفى وحصل النزاع على مقدار جلد الثور وانتهى ذلك باحتلال الانجليز .

فياأيها الأخ أنا لم أذكر مسألة الانجليز للاقتداء بهم . كلا . بل أقول ان العلم علمنا والتاريخ تاريخنا ، وكان علينا أن نعتبر نحن به ، فهاهم أولاء أخذوا علومنا وأذلونا بها ، كل ذلك لجهل القائمين بالتعليم فى ديار الاسلام ، فتراهم يتقاعدون عن العلم لشبهة كهذه الشبهة . فقال : وكيف ينتفع المسلمون بهذا التاريخ . فقلت : هذه الدولة الأموية والعباسية ودولة أمراء الأندلس وبقية المسلمين كانوا كلهم على وتيرة واحدة ، يظهر نابغون مصلحون ، ويتبعهم فاسقون مسرفون ، فتنحط الدولة ، فيذل الأمراء ، ويتحكم الجند .

من ذا ينكر سطوة الجند وقتلهم للأمراء العباسيين وهكذا الانكشارية للملوك العثمانيين ، من ذا ينكر ذلك ، من ذا ينكر الاسراف والتبذير فى مال الدولة بعد العصر الأوّل ، فاذا نحن تحاشينا أن نصدّق المغالاة فى أمثال سيرة الرشيد ومن نحا نحوه فنحن مضطرون أن نصدّق بالاسراف العام فى الدول الاسلامية ونصدّق